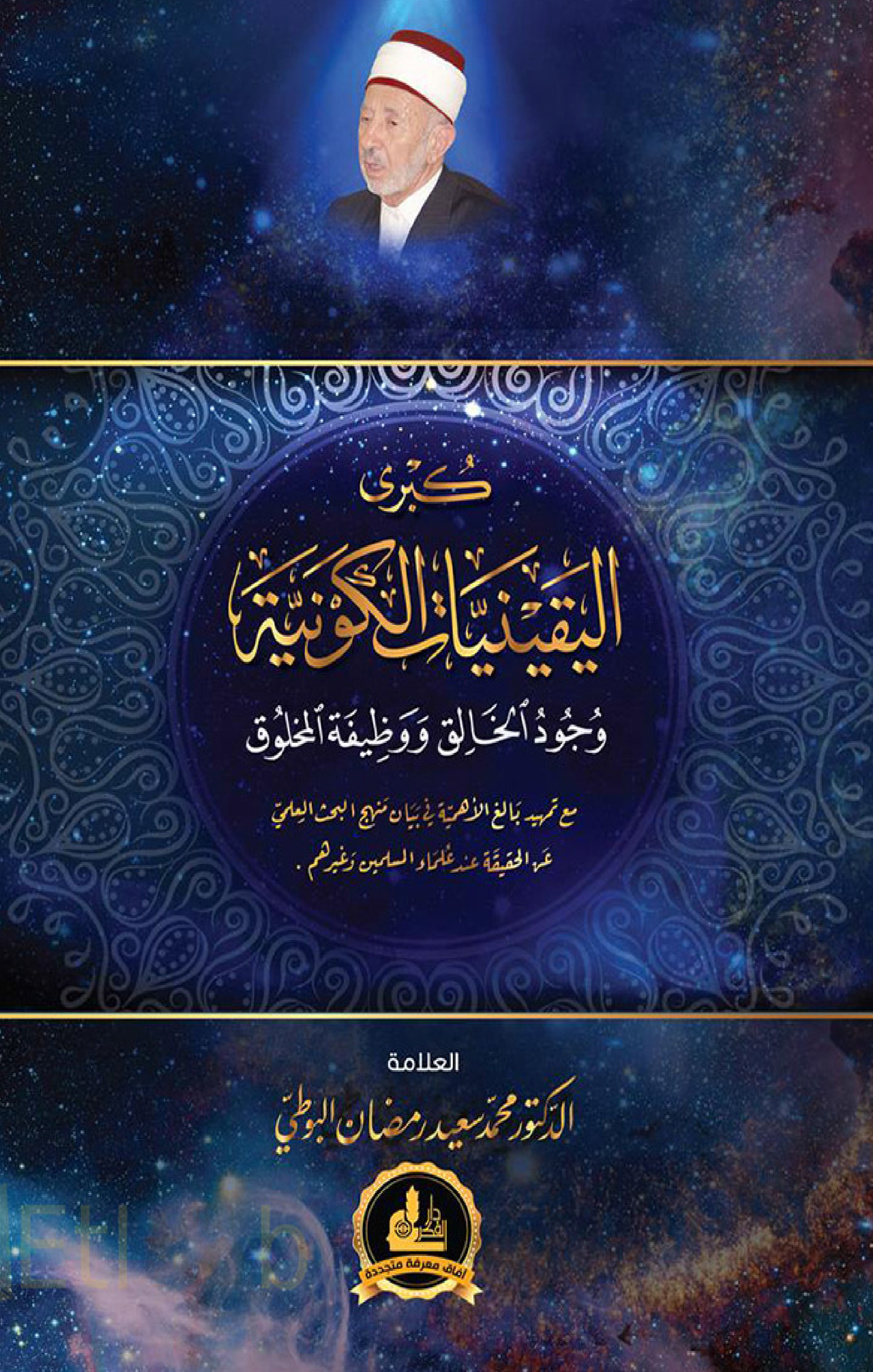


كبرى
اليقينيات الكونية
وجود الخالق ووظيفة المخلوق
مع تمهيد بالغ الأهمية في بيان منهج البحث العلمي
عن الحقيقة عند علماء المسلمين وغيرهم .
العلامة
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

1997
صناعة النشر
مسؤولية وإبداع

دار الفكر
دمشق
للطباعة والتوزيع والنشر
سورية

الرقم الاصطلاحي: ١,٠٤٩٩
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-022-5
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: كبرى اليقينيات الكونية،
وجود الخالق ووظيفة المخلوق،
التأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٣٩٢ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة
1417هـ = 1997 م
تصوير عن الطبعة الثامنة: 1982م
ط١: 1969م

إلى كل حر، يضع عقيدته من وراء عقله..

ويطلق عقله من أسر إرادته..

يفكر، ليختار الذي يريد..

ولا يريد، ليفرض على عقله كيف يفكر..

أهدي هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثامنة

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده . ياربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك . والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين .

وبعد فهذه خطوة أخرى من خطوات التنقيح والتحقيق والزيادة ، التي وفقني الله للقيام بها بصدد خدمة هذا الكتاب إخراجاً وتنقيحاً وسعياً به - جهد المستطاع - إلى الكمال .

لقد أضفت عليه في إحدى الطبعات السابقة ، في بحث الدليل على وجود الله عز وجل ، عرضاً موجزاً للأدلة على تهافت الفلسفة المادية ، وجنوحها عن قوانين العلم وأصول المنطق ، في كل من أصولها المادية ، وفروعها التاريخية ، وكان ذلك قبل أن يتفضل عليّ المولى عز وجل بالتوفيق لإخراج كتابي : « نقض أوهام المادية الجدلية » الذي أفردته في هذا الموضوع .

ثم أضفت عليه ، في طبعة لاحقة ، بحثاً مفصلاً يتضمن عرض أهم النظريات الحديثة التي تفرض تطور الإنسان من أنواع حيوانية أقل شأناً ، ثم مناقشتها بالأدلة العلمية التي تكشف عن اضطرابها وبطلانها ، وعن كونها ليست أكثر من فرضيات مبتورة عن أي دليل علمي يكسبها أي رسوخ في تربة العلم أو حتى البحث العلمي .

ولقد طبع هذا الكتاب ، بعد ذلك ، مرات على الأوفست ، دون أي زيادة أو تعديل ، لا لشيء سوى ضيق وقتي عن إمكان الرجوع إلى بحوثه بتحقيق جديد ، والتنقيب عما قد يكون فيه من ثغرات تحتاج إلى إضافات وبحوث لاحقة .

أما الآن فقد هيأ الله تعالى لي ، بفضله وكرمه ، بحبوحة من الوقت ، يسرت لي

استعراض بحوث هذا الكتاب من جديد ، ابتغاء القيام بمزيد من العناية المجددة ببحوثه التي لاجرم أنها أخطر مايمكن أن يصرف إليه الإنسان عقله من مسائل الكون وعلومه .

فبذلت كل مأملك من جهد في سبيل ألا أمرّ على عبارة تحتاج إلى مزيد من الإيضاح الذي يناله طوقي ، إلا بعد أن أستبدل بها عبارة أتم دلالة ووضوحاً ، وأن أفتش عن أي كلمة قد توهم (في نطاق التعبير الدقيق عن شيء من صفات الله تعالى أو أفعاله) معنى لا يتفق مع كماله المطلق عز وجل ، وسموه عن كل مثال ونظير ، فأستبدل بها مايكون أدق دلالة على المعنى المطلوب ، وأبعد عن المعاني المألوفة للمخلوقين .

ولا ريب أن ساحة التعبير ، تدقّ أمام الإنسان ، عندما يريد أن يتحدث عن الله وصفاته وأفعاله ، ويخوض في دقائق المسائل الإلهية .. إذ إن كثيراً من الألفاظ لاتصلح للتعبير بها في هذا المقام ، بسبب أنها مصوغة للدلالة على حدود وأبعاد وتحيزات هي في جملتها من عوارض المخلوقين .

ثم إني بذلت جهداً آخر ، في سبيل إضافات وتفصيلات دعت إليها ضرورة التوضيح وإزالة اللبس ، وقد جاء بعضها في صلب الكتاب ، وأثبت بعضها الآخر تعليقاً في أماكنها المناسبة .

ومن أهم هذه الإضافات الضرورية ، مبحث الردّة وأسبابها . فقد شعرت بأن ضرورة قصوى تدعو إلى تدارك هذا البحث وإثباته ، مفصلاً ، في صلب هذا الكتاب .

ولئن كنت قد قصرت في الاهتمام به في الطبعات السابقة ، فذلك لأن صفة التقصير شأني ، ولأن هذه الضرورة لم تكن ماثلة في المجتمع من قبل .. فمن جديد أخذت تطوف بأفكار بعض الناشئة تصورات باطلة لاأصل لها عن الردّة وأسبابها ، لعل مبعثها ردود فعل هيجتها العاطفة ، وأعوزتها ضوابط العلم والمعرفة .

ومن أهم الأسباب التي تدعو الباحث إلى التوسع فيما كتب ، الأوضاع الفكرية والاجتماعية الطارئة التي تفرض نفسها على المجتمع لأسباب مختلفة .

☆ ☆ ☆

وعلى كل حال ، فقد بذلت جهداً جديداً في خدمة هذا الكتاب ، رجوت أن يقفز به قفزة أخرى نحو الكمال المنشود . راجياً الله عز وجل أن يقيني من كل ماقد يحبط عملي

ويبطل أجري ، متضرعاً إليه عز وجل أن يقيني سوء نفسي ، وأن يتفضل عليّ بنعمة الإخلاص لوجهه الكريم .

كما أني أتوجه إلى كل أخ مسلم يمحض النصح لوجه الله عز وجل ، راجياً منه ألا يضنّ عليّ بملاحظاته ، وألاّ يتردد في تذكيري بأي زلة يرى أنها بدرت مني . والله عز وجل المستعان أن يجمعنا على الحق ، وأن يحررنا من أسر نفوسنا وأهوائها ، وأن يجعلنا جميعاً جنداً للحق خداماً لأهله .

دمشق ١٩ ربيع الآخر ١٣٩٩ هـ
١٨ آذار ١٩٧٩ م

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ...

الحمَد لله وليّ كل توفيق ، وملهم كل خير ، والهادي إلى كل حق .

الحمد لله .. أقولها بملء فمي وكل مشاعري وقلبي ... لقد ألهمني الحق وبصّرني بسبيل في الدلالة عليه ، وحمَّلني قلماً في الدفاع عنه . وما كنت أهلاً لشيء من هذا لولا سابغ لطفه وعظيم امتنانه . فمنه وإليه الفضل كله . وله وبه الحمد أجمع .

كتبت منذ عامين تقريباً ما ألهمنيه الله من دلائل وجوده الواجب الأزلي ، ودلائل عبودية الإنسان له وارتباطه بمسؤولية خطيرة عظمى تجاهه .

وأوضحت أن ليس بين العقل وشيء من هذه الدلائل ، حاجز يحتاج إلى تكلف في اختراقه ، أو مسافة طويلة تحتاج إلى جهد في قطعها . ولكن الغشاوات المصطنعة بدوافع الأغراض والأهواء والأحقاد ، هي التي أوهمت وجود حاجز .. وهي التي خيلت لبعضهم بعد الشقة .. فاحتاج الأمر لقيام من ينبه إلى أن الحاجز وهمي . والشقة بُعد خيالي ، وأن الحق ماثل للعيان قريب من الأفهام .

فكان عملي فيا كتبت ، التنبيهَ إلى أدلة ماثلة واضحة قريبة ، لا ابتداع براهين مجهولة بعيدة . وكان سعيي كله منصرفاً إلى التعامل مع تلك البراهين العلمية الرائجة لدى جميع العقول وفي سائر الأمكنة والعصور لا مع نوع معين منها قد لا يفقهها إلا صنف معين من الناس أو لم يتعامل بها إلا أصحاب حضارة متميزة في حقبة تاريخية ضيقة .

ولقد أراد الله جل جلاله ـ وله الحمد الذي يعجز لساني عن أداء حقه ـ أن يؤتي هذا العملُ ثماره . فأقبلت إليه الناشئة من كل وجهة وصنف ، وتأمله كثير من المثقفين والباحثين على اختلاف وجهاتهم ومشاربهم ..

فأما المؤمنون فزادهم ذلك إيماناً وواصلوا به سعيهم الدائب في الدعوة إلى الحق .

وأما أصحاب القلوب الحرة ممن لم يعمر الإيمان بعدُ قلوبهم ، ولكن شيئاً من الأهواء أو الأغراض لم تستعبد أيضاً عقولهم أو تملك عليهم رشدهم ، فقد وجد فيه الكثير منهم ضالة ، قالوا إنهم طالما كانوا يبحثون عنها ، وانتهوا من رحلتهم الفكرية المضطربة بين تيارات متخبطة من النظريات والأوهام ، إلى طمأنينة الإيمان بالله تعالى والاهتداء إلى حقيقة أنفسهم ، متفيئين في ذلك ظلال براهين علمية قاطعة لا معتمدين على بخور من العواطف والخيالات المريحة . ولقد كان في هؤلاء دعاة إلى العقائد المادية الجدلية ، ومشبعون بمختلف النظريات الإلحادية .

وأما أناس آخرون يضعون رغباتهم النفسية في المكان الأول من حياتهم الفكرية والعقلية ، فلا ريب أن هذا الكتاب كان بالنسبة إليهم محاولة عقيمة ، ذلك لأن الذي يضع القيم العقلية والعلمية المجردة من حياته في الدرجة الثانية أو الثالثة ، لا يجدي معه التعامل بشيء من هذه القيم . بل من العبث أن تشدَّه إليها وهو قد أخضعها إخضاعاً كاملاً لرغباته وسابق تطلعاته وآماله .! ومن الطبيعي أن أحداً من هؤلاء ، لا يصارحك بصنيعه هذا ، إذ لو فعل ذلك لم يبق لإخضاعه العقلَ ذلك الإخضاعَ أيُّ قيمة أو معنى ..

كثير من هؤلاء الناس كانوا يواجهون هذا الكتاب ، بعد مرحلة من المناورة ، بالوجوم .. الوجوم فقط ..!! وإني لأعتقد أن هذا الوجوم ليس إلا أعظم دليل على الحق الذي ألَّفت كتابي هذا لبيان المزيد من دلائل وضوحه . وحسبنا من هؤلاء الناس أن ينتهوا إلى هذا الوجوم ثم يقفوا عنده .. إنه أبلغ تعبير عن حقيقة حالهم وواقع عذرهم .. فحسبنا أن تكون حالهم الصامتة هذه دليلاً ناطقاً لغيرهم .

والبعض من هؤلاء كانوا يواجهونه أخيراً ، بإعلان شكوكهم في أحكام العقل جملة !. فهم مفتقرون ـ فيما يزعمون ـ إلى ما يثبت لهم أن أحكام العقل لا خداع فيها .

وجواب هؤلاء واضح بيِّن ، تستطيع أن تنتزعه بسهولة من واقع سلوكهم وحياتهم .

إن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل لا يقيم حياته المعيشية وعلاقاته الدنيوية المختلفة مع الآخرين على أدق إيحاءات العقل وأحكامه ؛ وإن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل لا يقيم حياته الفكرية على مبادئ فلسفية مختلفة زاعماً أنه قد اتبع فيها بصيرة العقل ودلائل العلم . إن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل ، لا يتعامل معه في كل مصالحه وشؤونه

السلوكية المختلفة ، حتى إذا رأى نفسه وجهاً لوجه مع دلائل الإيمان بالله وتوابعه أعلن فجأة عن عدم اطمئنانه إلى العقل ، وقاطع العقل قائلاً : لا أعرفك ولا أتعامل معك !!

إن الذي لا يطمئن إلى أحكام العقل ولا يرى خيراً في اتباعه ، إنما هو رجل قاطع العقل خلال رحلته الدنيوية جملة .. فهو لا يسترشد به في إقامة معيشة أو اقتناص مصلحة أو تخطيط سلوك .. ومثل هذا الإنسان يقال عنه في اصطلاح الناس كلهم « مجنون » ! ومثل هذا الإنسان يقبل الدينُ معذرته ويضعها على العين والرأس ؛ وليبتعد عن حقائق الكون ما طاب له الابتعاد وليكفر بها ما وسعه الكفر . فإنما هو مجنون ، وليس على المجنون حرج .

☆ ☆ ☆

هل غيرتَ شيئاً من بحوث الكتاب أو زدت عليها ؟

لم أتناول شيئاً من مضمون الكتاب بأي تغيير جذري ، ولكنني قمت بتحقيق أمرين اثنين ابتغاء المزيد من الوضوح ، والمزيد من الكشف عن الحقيقة .

أولهما : تبسيط بعض النقاط التي تضمنها منهج البحث عن الحقيقة ؛ فقد كنت لمست فيها بعض التعقيد وتأكد لي ذلك من ملاحظات وردتني من بعض الإخوة القراء ، فقد بسطت الحديث عن كيفية « دلالة الالتزام » و « دلالة القياس القائم على العلة » وأبعدت البحث فيهما قدر الإمكان عن دائرة الاصطلاحات والأساليب العلمية الجافة ، وفتحت آفاق علاقتهما بالفكر الإنساني بمزيد من الأمثلة المتنوعة المتعلقة بمختلف شؤون الحياة .

ثانيهما : عرض مزيد من التفصيل عن المادية الجدلية وعن قيمتها العلمية ، وذلك في غضون البحث عن دلائل وجود الله عز وجل . وهو التفصيل الذي كان قد فاتني عرضه في الطبعة الأولى .

ولكني بالإضافة إلى ذلك غيرت بعض الجمل والكلمات التي لم تكن ذات دلالة واضحة على معانيها المقصودة . أو التي كانت توهم أموراً لا تليق ـ من الناحية الشكلية والأدبية أو من الناحية الموضوعية ـ بكمال الله تعالى وألوهيته ، أو التي تتضمن جنوحاً عن التحقيق العلمي المطلوب .

وأكثر هذه الجمل التي غيرتها ، إنما هو بفضل إخوة مؤمنين لم يضنوا عليَّ بملاحظاتهم التي

فاتتني وتنبهوا لها ، وإنني إذ أشكرهم في الدنيا أسأل الله عز وجل أن يثيبهم على ذلك في العقبى .

وقد كان من جملة الملاحظات التي وصلتني ، اقتراح أن أضمّن الطبعة الثانية من هذا الكتاب رداً علمياً مفصلاً على ذاك الذي كتب يخرّف من لبنان ضمن شعارات من ألفاظ العلم واصطلاحاته[1] ، ثم أبى بعض البسطاء من الناس إلا أن يرفعوه بطريقتهم العجيبة التي انتقدوه بها ، إلى مستوى الباحثين والثائرين والأبطال ..

ولقد استعرضت الكتاب ، فوجدته في مجموع بحوثه التي يعرض لها ذا ثلاث شعب ، أما الشعبة الأولى فحديثه فيها محصور في الكلام المكرر القديم حول الدين والعلم ، وأن النهضة العلمية الجارفة لم تُبق في العقل أي مكان للإيمان بالله !..

وأما الشعبة الثانية فقد تناول فيها موضوع الجبر والاختيار والمشيئة والقضاء ، وصور من ذلك مشكلة جسّدها في قصة إبليس ..

وأما الشعبة الثالثة والأخيرة فقد تناول فيها عرض ما رآه شرحاً علمياً حقيقياً لقصة هذا الوجود وما فيه ، وهو الشرح المادي الديالكتيكي للتاريخ .

ولا أظن أن ثمة سبيلاً للرد على الكتاب بشعبه الثلاث هذه ، خيراً من إعادة طبع كتاب « كبرى اليقينيات الكونية » كما هو .

فموضوع الجبر والاختيار ـ وهو شباك قديم أخرق لا يزال محترفو الإلحاد وهواته يلجؤون إليه ـ مشروح في كتابنا هذا شرحاً بيناً علمياً مفصلاً ، لم يترك ـ فيما رأيت من تجربتي مع طلابي في الجامعة ـ حاجة إلى أي زيادة أو شرح . ولا أحتاج أن أضيف إليه شيئاً للرد على من كتب يخرّف في شعبه الثلاث تلك ، سوى أن أقول له :

إن حقائق الجبر والاختيار لا تؤخذ من شطحات الحلاج أو بعض الصوفية أو الأخبار والآثار الموضوعة والضعيفة ، وإنما لنا في السبيل إلى ذلك منهج من البحث العلمي في الرواية والسند كان عليك أن تدرسه قبل ذلك .

أما موضوع المادية الجدلية ، وشرحه للتاريخ على أساسها ، فما ينبغي أن أشغل بهما

---

(١) هو صاحب كتاب : نقد الفكر الديني .

بال القارئ في هذه المقدمة ، ولكني أحيله إلى المكان الطبيعي لهذا الموضوع في الكتاب[1] . ولسوف لا يجد القارئ الحر أي حاجة إلى مزيد من الشرح للرد بـه على التخريفـات العلميـة التي أوردها صاحب النقد العلمي .

أما حديثه حول الشعبة الأولى ، (وهي الشعبة التي فرش بها لسـائر فصول الكتـاب) وكلامُه المكرر المعاد عن الدين .. والعلم .. والنهضة العلميـة .. فـالـذي نقولـه عنـه في هـذه المقدمة ـ بعد إحالة القارئ الكريم إلى المكان الطبيعي لهذا البحث في كتابنا هذا ـ هو :

كان على هـذا النـاقـد « العلمي » ـ وهو الرجل الـذي لا يريـد أن يبخس العلم حقـه ولا يخون ضميره العلمي ـ أن يضعنا قبل كل شيء أمام ميزان أو منهج للبحث يكشف لنا بـه الفرق بين سبيل البحث العلمي والبحث العشوائي ، والفارق بين النتيجة التي يقطع بها العلم قانوناً لا يقبل الرد ، والنتيجة التي يراها العلم مجرد نظرية أو فرضية أو وهم .

وإلا فكيف يستطيع « الناقد العلمي » أن يجعلنا نُنغِضُ الرأس بالقبول ، عندمـا يحزم مجموعة من الأفكار المختلفة المتناقضة لأشتات من البـاحثين ثم يصفهـا جميعـاً بـالعلم والـدقـة ، ويصف أصحابها جميعاً بأنهم الذين رسخوا دعائم العلم الحديث ؟.

كيف يكـون برترانـدرسـل ، وديكارت ، وداروين ، وبـافلـوف ، ومـاركس ، وفرويـد ، أسـاطين رسخوا دعـائم العلم الحـديث ، وقـد تفرقوا عن بعضهم في طرائق مختلفـة ومتباينة ؟ وكيف نفهم أن تكون آراؤهم ونظرياتهم جميعـاً هي العلم الصحيح الـذي يجب أن يخضع له العقل ، وهي نظريات وآراء متناقضة أو متباينة عن بعضها .

وهل كان داروين صاحب نظرية التطور يؤمن بالمادية الجدلية التي يصر عليها أنصار المادية التاريخية ، وما هي قيمة نظريته تلك من الناحية العلمية ، مع العلم بأنه مـات ، وهو لا يزال يبحث فيها ، دون أن يقطع فيها بأي شيء . وأين مكان مئات العلمـاء الـذين ألفوا المؤلفات الطوال في نقد نظريته وتسخيفها والسخرية منها .

ثم هل كان مـاركس يؤمن بنظريـة داروين هـذه ؟ وهل كان كلاهمـا معاً يـؤمنـان بنظرية فرويد ؟

وهل يؤمن أصحاب التحليل الديالكتيكي لأحداث التـاريخ ، بمـا يؤمن بـه الآخرون من التحليل الميكانيكي ؟

---

(١) أفردت أخيراً بحث المادية الجدلية في كتاب مستقل عنوانه : نقض أوهام المادية الجدلية .

إن جميع هذه الآراء والنظريات المتدجيّة المختلفة ، إنما تعيش في الفلك العلمي الذي يريده الباحث ، وتسير في حماه وتسترشد بهديه ، وأصحابها هم ـ على حد تعبير المخرّف العلمي ـ من الأساطين الذين رسخوا دعائم العلم الحديث .

فأي هذه النظريات تعتبر علماً موافقاً للحقيقة وأيها يعتبر جهلاً متنكباً عنها ؟.. أم هل تعتبر كلها ، على تناقضها وتخالفها ، علماً ويعتبر أربابها على ذلك من الأساطين الراسخين في العلم ؟

وما المطلوب من الرجل الذي يؤمن بالله ؟.. هل المطلوب منه أن يختار نظرية معينة في خضم هذه الآراء وعلى أي أساس يختارها ؟ أم حسبه أن يكفر بالله ثم يغمض العين ويسير وراء أيها شاء ؟!

وما للمخرّف العلمي لا يعرّف لنا قبل كل شيء ماهية العلم وحقيقته حتى نكون على بينة من « العلم » الذي يريده ؟

ثم إن المؤمنين بالله قد فرغوا من تحليل ظاهرة الوجود هذه عندما قالوا إن سلسلة الموجودات بأسرها لا بدّ من أن تعتمد في وجودها على ذات واجبة الوجود ينبثق الوجود من ذاتها ولا يفيض عليها من غيرها ، وهو الله عز وجل . وعلى هذا لا يرد شيء من المستحيلات كالدور والتسلسل والرجحان بدون مرجح . ونحن نراه تحليلاً علمياً لا يعتريه أي تهافت أو خلف . فما هو التحليل العلمي لظاهرة الوجود عند المنكرين لوجود الله ؟

لقد أجاب المخرّف العلمي ، عندما قال : إن أصل الموجودات كلها هو السديم ، ولما قيل له فما هو أصل السديم وما سر وجوده أجاب بأنه لا يدري !!..

ثم راح يقرر أن هذا الجهل هو خير مستند علمي يقام عليه سر الوجود !! . وهددنا إن لم نقبل بهذا المستند ، بأنه سيطرح نفس السؤال علينا فيفاجئنا بقوله : فمن الذي أوجد الله ؟!.

هكذا يتصور الرجل المفتون بكلمة العلم والمفتقر إلى مضمونها !. إنه يحسب أن السديم والله شيء واحد في وجودهما ؛ وإنما اختار المؤمنون « اعتباطاً » أن يؤلهوا الثاني ويتركوا الأول . وإذا كان معنى الوجود فيهما واحداً فقد صح له أن يسأل عن موجد الله عز وجل كما يصح له أن يسأل عن موجد السديم تماماً !!..

ونحن نقول لهذا المخرّف العلمي : إن السديم من نوع الممكن . ووجود الممكنات كلها

إنما يكون بتأثير من غيرها . وإلا فكيف يترجح فيها أحد طرفي الإمكان ؟ أما الله عز وجل فهو واجب الوجود أي إنَّ وجوده من ذاته هو ، وليس فيضاً أو بتأثير من غيره ، وهذا هو معنى كونه إلهاً . ولذلك لايرد هذا السؤال بالنسبة لذات الله تعالى إطلاقاً إذا كان السائل مؤمناً بألوهيته ، أما إذا لم يكن يؤمن بها فإن السؤال عبث ، لأن موْرد السؤال مختلف بين السائل والمجيب .

ثم إننا نقول لهذا الرجل : إن أحداً من المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله إيماناً حقيقياً لايتنازل عن شيء من مقتضيات الإيمان بالله عز وجل ، لأي موجب أو سبب : وليسوا هم الذين يضفون الصفة الشرعية على كل مايزعم الزاعمون أنه علم وحقيقة مما تعتسفه علينا رياح المدنيّة وتياراتها الحديثة .

وهو يعلم جيداً أن الذين يفعلون هذا ، هم أناس غير المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله إيماناً صادقاً ؛ كما يعلم جيداً أن الإسلام ليس هو الدين الذي وقف في وجه النهضة العلمية أو اشمأز منها .

كل ماهنالك أننا نريد من الخرف العلمي الذي يتهم الباحثين المسلمين بالقصور والجهل العلمي أن يضع لنا تعريفاً علمياً محدداً لكلمة « العلم » ثم يضع لنا منهجاً علمياً دقيقاً لنتبصّر من خلاله وقع خطواته المثالية وهي تسير بدقة نحو « العلم » وتتجنب بدقة الوقوع في « الجهل » ..!!

شيء آخر لابد أن أوضحه في هذه المقدمة ، وأتوجه به إلى بعض الإخوة الأفاضل من القراء :

هل اعتمدنا في شيء مما عرضناه من بحوث العقيدة الإسلامية في هذا الكتاب ، على الفلسفة اليونانية أو المنطق الصوري ؟.. نحن لم نفعل ذلك إطلاقاً ولم نتعامل مع القارئ فيما عرضناه من بحوث إلا مع تلك الأدلة والبراهين القطعية التي تحمل قيمتها العلمية الثابتة مهما تنقلْت بها في مراحل التاريخ أو تحوَّلْتَ بها من لغة إلى أخرى .

إن قانون بطلان الدور ، والتسلسل ، والرجحان بدون مرجح ، واجتماع النقيضين ، كل ذلك بمثابة العملة العالمية الرائجة في كل مكان . ما من ذي عقل ومنطق إلا وهو يعلمها ويتعامل بها سواء شعر بأنها قوانين علمية ثابتة أم لم يشعر .

أجل .. إن الفلسفة اليونانية استخدمت لبعض هذه القوانين براهين وأدلة على

طريقتها ، كالذي يسمونه : « برهان التطبيق » بالنسبة لبطلان التسلسل ، ولكننا لم نعرج على شيء منها واستعضنا عن ذلك كله بما هو أيسر وأبسط وألصق بالحياة الفكرية العامة .

ومنهج البحث الذي وضعناه ميزاناً بيننا وبين القراء ، لم نستق شيئاً من أسسه ومواضعاته إلا من القيم العلمية والمنطقية العامة التي يتعامل بها كل العقلاء ، وإن كنا نعلم أن الذي أرساها قانوناً علمياً للدراسة والبحث إنما هو الفكر الإسلامي في صدر تاريخه .

قد يتخيل البعض ، أن بحث دلالة الالتزام بأنواعها ، أو القياس القائم على العلة الجامعة ، شيء غريب عن المألوف ، فهو لاجرم إذاً من المنطق الأرسططاليسي !!.

ولكن الحقيقة الثابتة أن المنطق اليوناني لم يعرف شيئاً مما يسمى بالدلالات عامة ودلالة الالتزام خاصة[1] . وكذلك القياس القائم على العلة .

أما القياس الاقتراني والشرطي القائمان على الأشكال فذلك هو المأخوذ من المنطق اليوناني ، ونحن لم نعتمد على شيء من ذلك في كتابنا .

على أننا نذكّر القارئ بأن الفلسفة اليونانية أو المنطق الأرسططاليسي ليس كله شيئاً مخيفاً أو فاسداً . ولامعنى إطلاقاً لإغماض العين والفكر عنه جملة واحدة . بل إن فيه الكثير مما هو مفيد ونافع . وفيه كثير مما انتقده فلاسفة المسلمين وعلماؤهم . وعلى الذين يريدون أن يقيموا أفكارهم دوماً على أسس من العلم أن يتعودوا على اختيار ماهو حق مما يأتيهم من لدن غيرهم ، بدلاً من السلبية أو الإعراض المطلق .

شيء أخير أقوله للإخوة القراء :

لقد ضاق البعض ذرعاً بدفاعنا ـ في تعليق المقدمة التالية ـ عن علم الكلام والأئمة الذين اضطرتهم ظروفهم للتأليف فيها .. وكان دفاعنا هذا متضمناً ـ بلا شك ـ نقد أولئك الذين يتهمونهم بما لانراه حقاً .

ونحن نقول : لاموجب أبداً لهذا الضيق ، فإن هذا الكتاب ليس إلا نموذجاً مما أُلِّف في علم الكلام على مافيه من اختلاف في كثير من المباحث وفي الأسلوب . ذلك أن علم الكلام إنما أطلق على المناقشات العلمية التي دارت أو تدور حول مبادئ العقيدة الإسلامية . بقطع النظر عن نوع الشبه وطريقة البحث والنقاش . فإن كل ذلك من شأنه أن يختلف ويتطور من عصر إلى آخر .

---

(١) انظر ص ٣ من مناهج البحث عند مفكري الإسلام للدكتور علي سامي النشار .

فهل أسأت فيا أقدمت عليه من تأليف هـذا الكتـاب ..؟ وهل كان يسعني - في مجـال الكشف عن حقائق الإيمـان بـالله عز وجل أمـام أصحـاب الشكوك والشبهـات المختلفـة - أن لاأناقشهم على أسس منطقية عامة يفهمونها ويؤمنون بها ؟.

ويتحـدث البعض عن منهـج القرآن .. وضرورة الاستعـاضـة عن هـذا كلـه بمنهـج القرآن ..

ونحن نقول لهـؤلاء الإخـوة : لاتنـافي بين المنهجين ولاتعطيـل لأحـدهمـا على حسـاب الآخر .

فنحن بحاجة إلى عرض منهج القرآن بالنسبة لمن تركزت في قلبه مبـادئ الإيمـان بـالله ورسولـه . ولكنـه لايزال بحـاجـة إلى تقويتهـا والحفـاظ عليهـا وإقـامـة الصورة الإسلاميـة الصحيحـة في فكره دون أي زيف أو انحراف عنهـا . ونحن ننصـح لمثـل هـذا الإنسـان بعـدم إضاعة الوقت في تأمل هذه المنـاقشـات الفكريـة ، التي تحوم حول البحث في شبهـات مـاهو منها في شيء ، إلا أن يحتاج إليها في مجال توجيه الآخرين وتعليمهم .

ولكنا بحاجة إلى المنهج المنطقي والفكري العام الذي سلكه علماء الكلام ، بالنسبة لمن لم يدخل بفكره بعد في دائرة الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله .

إن من العبث أن تعرض أمام هؤلاء آيات القرآن وعظاته وهو لم يؤمن بعد بهذا الـذي تسميـه قرآناً .. وإن من العبث أن تعمـد إلى من استحكمت في فكره شبهـة من هـذه الشبـه العامية التي كنا نبحث فيها آنفاً ، فتعالجها بهذا الذي يفهمه البعض من معنى منهج القرآن .

وأقول : بهذا الـذي يفهمـه البعض .. ولاأقول : منهج القرآن ، لأن المنهج الـذي سـار عليه أكثر علماء الكلام في عصورهم ونسير نحن عليه في مثل هـذا الكتـاب ليس خـارجـاً على منهج القرآن . فالقرآن أمرنا أن لانقفو في أفكارنا واعتقادنا مالا علم لنا به . وأمرنـا أن نحكِّم العقل وموازينه في كل مايعرض لنـا من أمور الحيـاة . والقرآن نـاقش المشركين طبقـاً لميزان « العلة الغائية » الماثلة في الكون . والقرآن نبه أفكار المشركين إلى بطلان الشريك لله تعـالى طبقاً لما يقتضيـه برهـان « التمانع » كما نبـه إلى ضرورة وجود الله عز وجل استـدلالاً بقـانون بطلان الدور وقانون بطلان الرجحـان بـدون مرجح[1] فـأي دستور تريده من القرآن أكثر من هذا ، كي تطمئن إلى أن منـاقشـة أصحـاب الشبهـات طبقـاً لمقتضى الأدلـة والبراهين التي يتعاملون بها هو من صميم المنهج القرآني ؟!

---

(١) برهان التمانع تجده في قوله عز وجل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وبرهان ظاهرة العلة الغـائيـة واضح =

ولا يعنيني ، إذا كان كلامي صحيحاً ، أن يأتي مخالفاً لما يراه بعض المفكرين أو المخلصين في دعوتهم إلى الإسلام . فليس شرطاً لعظمة الدعاة إلى الله تعالى وعلوّ شأنهم وإشراق أفكارهم أن لايخطئوا في مسألة ما ، أو أن لا يخونهم البحث في تقديرها حق قدرها من سائر الجوانب .

إن هذا الشرط لو كان صحيحاً ، فإنما هو يعني العصمة إذاً .. وليس من أحد بعد رسول الله ﷺ يوصف بالعصمة .

تلك هي خلاصة الأفكار والملاحظات التي أحببت أن أثبتها في هذه المقدمة . وأسأل الله تعالى أن لا يكلني إلى نفسي في شيء مما أفعله أو أكتبه أو أقوله ، وأن لا يجعل حظي من هذا الكتاب ما يحبط المثوبة عليه يوم القيامة ، وأن يتغمدني برحمته وينفعني بدعاء الصالحين لي في ظهر الغيب .

حرر في شعبان ١٣٩٠
الموافق لتشرين الثاني ١٩٧٠

محمد سعيد رمضان البوطي

= في تلك الآيات الكونية التي يلفت البيان الإلهي فيها النطر إلى طاهرة التناسق في خلق المكونات من مثل قوله : ﴿ وَالشَّمسُ تَجري لمُستَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْديرُ العَزيز العَليم وَالقَمَر قَدَّرْناهُ مَنَازلَ حَتّى عادَ كالعُرجُونِ القَديم لا الشَّمْسُ يَنبغي لَها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ وَكلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحونَ ﴾ وبرهان بطلان الرجحان بدون مرجح وبطلان الدور تقرؤه في قوله تعالى : ﴿ أم خُلقُوا منْ غَير شَيءٍ أمْ هُمُ الخَالقُونَ . أم خَلَقُوا السَّموات والأرض بَل لا يُوقِنونَ ﴾ .

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله فاطر السموات والأرض . أنطق الكون بآيات وجوده ، وكشف به عن عظيم سلطانه . خلق الإنسان وشرفه بحمل أمانة العقل ، ليكون الأذن الصاغية لما ينطق به الكون من الآيات ، ثم الوعاء الحاوي لما يتجلى فيه من الدلائل والعظات . أرسل الرسل والأنبياء ، يتوالون مع الزمن ، في كل أمة وبقعة ومحيط : أن ذكّروا الإنسان بما أوليتُه من أمانة العقل وما رفعته إليه من شرف السيادة والرياسة في الكون . فليس لائقاً بأشرف مخلوق فيه أن يكون أول كافر أو جاهل بالحق .

سبحانه ، جعل العلم بمكنونات خلقه هو السبيل إلى الإيمان بوجوده وجعل مقاليد العلم بذلك كله إلى سلطان العقل وحده ، ليعلم الإنسان بذلك أن لا دين بغير علم ولا علم من دون عقل .

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، بُعث بالدين الذي بُعث به من قبله سائر الأنبياء : أن لا إله إلا الله وحده فاعبدوه . وبعث بالشريعة العامة الناسخة لما قبله من الشرائع ، صالحة لكل زمان ومكان ، وافية بمصلحة كل فرد وجماعة من الناس .

وبعد : فإن أساس الإسلام عقيدتُه ، ومكمن العقيدة فيه إنما هو الإيمان بوجود الله عز وجل ووحدانيته . فلا مطمع في تحقيق شيء من أحكام الشريعة الإسلامية إن لم تكن المبادئ الاعتقادية مركزة من قبل ذلك في القلب ، ولا مطمع في ارتكاز شيء من هذه المبادئ فيه إلا بعد الإيمان بوجود الخالق جل جلاله .

ولو خُلي الإنسان وعقله ، دون أن يقوم بينهما أي حاجز من الميول النفسية أو الأغراض الدنيوية أو وسوسة الشياطين من الإنس والجن ـ لما عاقه أي شيء عن الإيمان بالله ، ولوجد الكون كله مشحوناً بالبراهين الناطقة بوجوده ، ثم لوجد في القرآن وحده المِرْقاةَ إلى أعلى درجات الإيمان واليقين ؛ فما كان يحتاج عندئذ إلى حجة ونقاش وبرهان وجدال ، ولعاش في غنى عن أن يفكر في أدلة البدهيات ومقدمات الضروريات .

ولكن الله عز وجل ـ (وقد شاءت حكمته أن يبلو الناس بعضهم ببعض ثم يمتحنهم أيهم أحسن عملاً ، ليجزيهم بعد ذلك على ما قد عملوه بالفعل لا على ما قد علمه في سابق غيبه مما سيفعلون) ـ جعل إلى جانب العقل المرشد في الإنسان شهوات وأهواء مضللة ، وجعل الإيمان بالحق واتِّباعَه ثقيلاً على النفس على حين جعل الإيمان بالباطل واتِّباعَه سهلاً خفيفاً عليها .

فتولدت بذلك الشبه المصطنعة وتكاثفت الغشاوات المختلقة ، وقام للعصبية في النفوس سلطان أقوى من سلطان العقل الذي في الرؤوس . ثم تجمع من ذلك كله ما عكّر صفاء الرؤية إلى الحق البدهي ، حتى انقلب هذا الحق في ظن بعض الناس إلى فلسفة غيبية وتخيلات وهمية !.

من أجل ذلك ، كان لا بدَّ من أن يُحسب لهذه الحقيقة الضرورية حساب المسائل النظرية . بأن يتخيل الباحث (مهما كان مؤمناً مستيقناً ببديهة عقله) كل ما يمكن أن يثار حولها من أسباب الشبه والشكوك ، فيضعها ، بكل جد ، في ميزان البحث العلمي ، ثم يسلط عليها أشعة العقل المتدبِّر الحر ، حتى إذا انكشف زيفها ، تولدت من ذلك إحدى نتيجتين : إما أن يكفَّ دعاتها عن احتضانها والمقارعة بها فيتجلى صدق بحثهم وحرية عقولهم ، وإما أن يستمروا في العكوف عليها والدعوة إليها فيتجلى بذلك زيف مقاصدهم وتنكشف عبودية أفكارهم .

ولا ينبغي أن يضيق الباحث المؤمن ذرعاً ، من أجل أنه إنما يبرهن على البدهيات التي لا تحتاج ـ بإجماع العقلاء ـ إلى براهين ؛ لأن هذه البدهية بالذات قد انقلبت في خيال كثير من الناس إلى نظريات خاضعة للبحث والفكر والنقاش ، لما قلنا من أنه أساس سائر التكليفات الإلهية للبشر . ولو كان أساس هذه التكليفات ضرورةَ الإيمان بوجود الشمس الساطعة في كبد السماء ، لقام في الناس من ينكرها ويتمارى فيها ، ولقام من ذلك حجاب كثيف بينها وبين أوهام كثير من الناس .

فمن أجل ذلك ألَّف أسلافنا رحمهم الله المطولات والمختصرات المختلفة في ذكر الأدلة والبراهين العلمية على وجود الله ، ورضوا أن ينزلوا بعقولهم إلى مستوى من قد يتخيل وجود الله نظرية عويصة تحتاج إلى كثير من المقدمات والشروح ، فنثروا هذه المقدمات والشروح كلها واستحضروا لذلك موازين الفكر العقلي المطلق وموازين الفلسفة اليونانية ، حتى

لا يتورّك باحث مغرض يصطنع الشبه اصطناعاً على أحد الميزانين فيقارع به ويحتكم إليه . ولولا هؤلاء المغرضون والمتحذلقون ، لوسع المسلمين ما وسع الصحابة من قبلهم من بداهة الفكر وحرية العقل ودلائل القرآن والكون[1] .

ثم راح الزمن يمضي ، فإذا بنا اليوم أمام شبه من نوع جديد ، وإن كان واضحاً أنها تمتٌّ إلى الشبه التي خلت من قبلُ بنسب الأخوة المتينة ، إذ هما جميعاً إنما ينحدران من أم واحدةٍ هي : العصبية التي تتحكم بالشخصية والنفس ، والشهوات التي تعصف بالفكر والعقل .

وكانت هذه الشبه الجديدة ، هي ما يسمى بالنظرية المادية لأصل الأشياء ، وقصة التطور والنشوء ، والمذاهب الجديدة في تفسير الفكر والوجود ، والانبهار الذي تركته الاكتشافات العلمية في بعض الرؤوس .

وهي شبه لا يوجد لها أي سلطان في موازين العلم وبراهينه ، وإنما سلطانها منبعث من معين « التوسم » و « الحدس » و « الاسترداد »[2] بيد أن عوامل العصبية والأهواء والأغراض ، قالت لهذه الأشياء الثلاثة : كوني موازين علمية يقينية ، فكانت كذلك ؟..

(١) من أجل هذا لا نرى عدلاً ما يقول بعض الباحثين اليوم من أن علماء الكلام أفسدوا صفاء التوحيد بما حشدوا في بحوثهم عنه من قواعد الفلسفة ومبادئ المنطق وأصول الجدال ، وأنه كان يغنيهم عن ذلك اتباع منهج القرآن وعرض براهينه .

نقول : ليس عدلاً أن يقال عنهم شيء من هذا الكلام ، وذلك لأن مباحث علم الكلام لم يؤلف شيء منها لمن آمن بالقرآن واستضاء قلبه بسراجه ، وإنما ألف لزنادقة اتكؤوا في زندقتهم على شبه فلسفية ، وفرق شاذة اتكأت في شذوذها على تكلفات عقلية ، وكانوا (رحمهم الله) بين أن يسكتوا عن لغو أولئك الزنادقة وفيقهة هؤلاء المتنطعين فيشيع في الناس أمرهم ويتسع إلى العقول الغافلة طريقهم ، وبين أن يتصدوا لهم فيكشفوا عن زيف شبههم وسفسطة أدلتهم وفساد طريقتهم ، فلم يترددوا في أن يؤثروا الثاني على الأول استجابة لما تقضي به ضرورة الدعوة الإسلامية ولما هو معروف من حكم الله في ذلك .

ولا يضير وضوح هذا الحق أن كثيراً من تلك الشبه والأبحاث ، لا مكان لها اليوم حيال ما استجد من شبه وسفسطات أخرى ، فنحن إنما نتحدث عن مسوغات ما فعله أولئك الأسلاف في عهدهم . ومع ذلك فالسبيل واحدة والمنهج لا يختلف وإن اختلفت أنواع الشبه والخداع ، فهل لنا أن نقول اليوم ، حيال ما استجد من شبه الفلسفة المادية الديالكتيكية أو الفلسفة الوجودية أو لوثة التطور والارتقاء وانتخاب الأصلح : لسنا بحاجة أن ندحض سفسطة أرباب هذه الشبه بأدلة العلم وبراهينه التي يزعم أرباب هذه الشبه أنفسهم أنهم يتمسكون بها ؟ وهل يصح لنا أن نقول : يكفينا أن نعرض لهم منهج القرآن وهم لا يعلمون ما هو القرآن وما هي قيمته الذاتية ؟!

(٢) هي أسماء لمناهج معينة في البحث عند الغربيين ، سنقف على تفصيلها وأهميتها في التمهيد الذي يلي هذه المقدمة .

ولكن مهما يكن ، فإن على من يريد أن يشير للناس إلى الحق ، أن يناقش السبل والمشكلات التي تعرقل السبيل إليه ، مهما كان شأن هذه الشبه والمشكلات من الضعف ، ومهما كان يتجلى فيها معنى الاختلاق والزيف . إن عليك أن تستقبلها بالمظهر ذاته الذي تزعم أنها تقبل إليك فيه ، ولو كان مظهر العلم واليقين . بل إن عليك أن لا تضحك مطلقاً لمظهر هذا التخفي المتنكر مهما كان مظهراً متناقضاً أو طريفاً .

إذاً فإنَّ علينا أن نفعل ما فعله أسلافنا ، فنضع هذه الشبه الجديدة تحت مجهر العلم والعقل المجرَّدين طبقاً للموازين الفكرية التي يعتد بها أصحاب هذه الشبه ، وسيكشف ذلك أخيراً إما عن زيف هذه الشبه أو عن زيف من يصطنعونها ، أو عن رجوعهم إلى الحق والتحرر من الباطل

ولكن مهلاً .. فإن هذا أيضاً لا يكفي .

إن النتيجة لا تعدو أن تدور (مع طائفة كبيرة من المستشكلين) في حلقة مفرغة !.. تضع أمام أحدهم الدين ، فيطالبك بالدليل ، وتقدم له الدليل فيقول إنه مأخوذ من الدين !.. وتبتعد عن الدين لتناجي فيه العقل والعلم وحده ، فيقول لك إن العلم لا يؤمن إلا ببرهان التجربة والمشاهدة .

فمن أجل ذلك نجد أن كل ما يكتبه معظم المدافعين عن الحق في جانب ، ومعظم العقول المتحيزة أو الملحدة في جانب آخر ولا نجد أن شيئاً من تلك الأدلة والبراهين يتماسك عليها .

فما السبب ؟ السبب هو عدم وضع منهج كامل للبحث عن الحقيقة ، قبل الدخول في أي مناقشة عن الحقيقة ذاتها . وهذا ما لا تجد منه شيئاً عند أصحاب الشبه ودعاتها . فكيف تطمع أن تسير مع أحدهم على صراط من العلم إلى الحق الذي يكمن في نهايته ، إذا لم يكن لديه أي خارطة عن هذا الصراط ولا أي علم عن مراحله ومنعطفاته ؟

والعجيب حقاً أن نجد ثلّة ممن درسوا من كل فن جانباً ثم زعموا أنهم تخصصوا في الفلسفة والمنطق وطرائق البحث ـ يَفْصلون القول في كثير من حقائق العقيدة عن الأنبياء واليوم الآخر كما يتخيلون ويحبون ، دون أن يركبوا إلى شيء من ذلك متن أي طريقة في البحث ، بل تجدهم يقفزون إلى ذلك قفزاً وقد أغمضوا أعينهم وأفكارهم ، فما يدري أحدهم أهو ينحط في متاهات من الجهل أم وسط ساحات من التخيل والحدس !..

والأعجب ، أن تجدهم فوق ذلك ، يعبرون عن قفزهم هذا (بالعلم) .. ويعبرون عن منطلق المسلمين ومنهجيتهم (بالاعتقاد) !.. فالدين في حقيقته العلمية عند هؤلاء (الوثابين) سلسلة فكرية بدأت في عصورها الأولى بالكهانة والتنجيم ، ثم ترقت إلى السحر ، ثم إلى النبوة التي امتصت كثيراً من التقاليد والإحيائيات فجعلت لها قداسة روحية معينة . أما الدين كما يعلمه أنبياؤه والمؤمنون به والباحثون في أدلته وبراهينه فهو قائم على مجرد (الاعتقاد) !..

من أجل ذلك لا بد قبل البحث في مقومات العقيدة الإسلامية وبراهينها ، من الكشف عن منهج البحث إلى ذلك كي لا تلتبس اليقينيات بالظنيات أو الوهميات . ولكي نعلم : هل حقاً أن منبع الدين في نفوسنا هو مجرد الاعتقاد على حين أن منبعه في أفكار أولئك « الوثابين » هو العلم والبرهان .

فإن رأينا أن الأمر كذلك ، أي كما يقولون ، فإن علينا أن نبادر فنتخلص من عقيدة لا شأن لها في حياتنا إلا أن تسترقّ عقولنا وتبعدنا عن ساحة العلم واليقين . وإن رأينا الأمر بالعكس أوضحنا لمن يتقنون حركة القفز والوثب أن هذه الحركة وإن لم تكسر رجل صاحبها أو تدق عنقه فإنها على كل حال لا يمكن أن تنقلب إلى برهان وعلم .

☆ ☆ ☆

طاف بذهني هذا كله وأنا أدرّس العقيدة الإسلامية في جامعة دمشق ولما دعتني الظروف إلى كتابة هذه المباحث : جعلت من هذه الأفكار مخططاً للبحث . فرأيت أن أبدأ أولاً بكتابة تمهيد مفصل عن منهج البحث عن الحقيقة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي ، بل رأيت أن كل عملي وبحثي لا يأتي بطائل إن لم يقم من وراء هذا التمهيد الهام .

ثم أتبعه بتمهيد آخر أوضح فيه حاجة الإنسان إلى عقيدة صادقة صحيحة عن الكون والحياة ، ثم إلى التزام معنى العبودية لواجب الوجود جل جلاله ، وأبين الرابطة بين وجود الله عز وجل وضرورة تقيد الإنسان بمنهج معين من الفكر والسلوك ؟

ورأيت أن أبدأ بعد ذلك ، كما فعل كثير من الباحثين من قبلُ ، فأقسم مباحث العقيدة إلى أربعة أقسام :

الإلهيات ، والنبوات ، والكونيات ، والغيبيات .

وأن أبدأ بالإلهيات ، فأعرض الدليل العلمي على وجود الخالق جلَّ جلاله طبق المنهج الواضح في التمهيد بدءاً من نقطة الصفر في الاعتقاد ، بأسلوب يجمع بين إقناع قدامى المفكرين ومحدثيهم ، ثم أتحدث عن الصفات الإلهية بالتفصيل شارحاً ما يتعلق بكل منها مجيباً عن كل ما قد يرد عليها .

ثم أتحدث عن النبوات : فأشرح معنى النبي والرسول ، وخصائص الأنبياء ، ولا بد من الإفاضة في البحث عند شرح ظاهرة الوحي وتحليلها ومعنى المعجزات وحقيقتها ، وموقف العقل والعلم من كل منهما .

فإذا انتقلت إلى البحث عن الكونيات ، تحدثت عن الإنسان والملائكة والجان وقانون السببية في الكون ، ولا بد من المقارنة عند ذلك بين حقيقة الإنسان وقصته كما يفصل القرآن فيهما القول وكما ترى نظرية النشوء والتطور ، كما لا بد من التفصيل عند الحديث عن السببية والعلية في الكون تفصيلاً يجمع بين مقتضيات العلم وحاجة الإيضاح .

فإذا تحدثتُ عن الغيبيات ، بدأت بشرح معناها ، وذكَّرت القارئ بالمنهج العلمي للوصول إلى أمر يقيني بشأنها ، ثم أخذت أعددها الواحدة تلو الأخرى طبقاً للتسلسل الزمني ، أي بدءاً من أشراط الساعة ، فالموت ، فعذاب القبر ، فالحشر ، فالحساب ، فالميزان ، فالصراط ، فالجنة والنار ، راجياً أن يوفقني الله لحل كل مشكلة وردِّ كل شبهة قد تعترض سبيل البحث العلمي في شيء من ذلك .

وقد التزمت الأمور التالية في كتابة هذه البحوث :

أولاً ـ الابتعاد عن الخوض في حقيقة الصفات الإلهية وتحليلها وهل هي عين الذات أم غيرها ، وما يترتب على كل منهما ، مكتفياً باتباع مذهب جمهور المسلمين في ذلك . إذ يسع المسلم العاقل أن لا يفكر في ذلك أصلاً وأن لا يلتزم إلا ما نسبه الله تعالى إلى نفسه من صفات الكمال ، على أنه لا توجد ثمة أي شبهة في الإيمان بالله يتوقف ردها على الخوض في هذا البحث الذي لا طائل فيه .

ثانياً ـ عدم التوغل في كثير من الخلافات التي قامت بين المعتزلة وجمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة ، إذ هي أمور لا ينتهي الجزم فيها بأحد القولين إلى الكفر ، لقيام الشبهة والاحتمال في أدلتها ؛ ثم هي لا تتعلق بأي شبه في الإيمان لأي فئة من الناس اليوم . فحسبنا في ذلك أن نتبنى ما اتفق عليه جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة بعد معرفة الدليل والبرهان .

ثالثاً ـ عدم الإطناب في ذكر الأمور التي لم يثبت فيها دليل قطعي وبرهان يقيني ، بل لعلي لن أتعرض لكثير منها . إذ المجال هنا مختص بتلك الأمور التي قامت على القطع واليقين ، فكانت بذلك من مقومات العقيدة التي لا يسع المسلم إنكارها أو تجاهلها . ومن المعلوم أن لليقينات منهجاً مختصاً بها لا ينبغي أن يستبدل به غيره في سبيل الوصول إليها .

هذا وأسأل الله تعالى أن يوفقني ويوفق القارئ لدى البدء في قراءة هذا الكتاب إلى أن لا نلتزم إلا جادة العقل المنصف الحر وحدها ، وأن نتخلص من كل عصبية وغرض وشهوة ، وأن نبدأ كما قلت آنفاً من نقطة اللاشيء ثم نسير خطوة فخطوة على ضوء الميزان العلمي النزيه ، فأي نهاية أوصلنا إليها هذا السبيل ، وقفنا عندها والتزمنا التمسك بها .

وإنه لجدير بمن كانت حياته قطاراً يمر به دون هدوء إلى الموت ، أن يبحث في تلك النهاية الغامضة وما وراءها وما يتعلق بها بحثاً متجرداً لا يقوم إلا على هدى العقل وحده . فما رأيت أغرب من مظهر رجل يمتطي رَكوباً يغذُّ به السير إلى حيث لا يعلم ، وهو مع ذلك مرح جذلان لا يحاول أن يسأل نفسه ولو في لحظة واحدة عن النهاية التي سينتهي إليها وعما عساه يستطيع أن يفعله من أجل ذلك .

وعلى كل فأنا أكتب هذه البحوث لا أبتغي بها إلا الكشف عن الحقيقة ، ولا أبتغي على ذلك إلا مثوبة من خالق هذه الحقيقة ومكوّنها . وللقارئ أن يبتغي بعد ذلك ما يشاء .

غرة شوال : ١٣٨٨ هـ

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي



١ - المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة عند علماء المسلمين وغيرهم

٢ - ما الذي أحوج الإنسان إلى العقيدة الصحيحة عن الكون والحياة والتزام مقتضياتها؟

٣ - موقع العقيدة من مجموع البنية الإسلامية

أَوّلاً

المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة

عند علماء المسلمين وغيرهم

تمهيد

إذا كان إدراك الحقيقة على ماهي عليه في الواقع ، علماً ، كما يقولون ، فإن المنهج المتخذ إلى ذلك الإدراك ينبغي ـ بلا ريب ـ أن يكون هو الآخر علماً ، أي ينبغي أن لاتكون خطوات هذا المنهج في حقيقته إلاّ مجموعة إدراكات صادقة من شأنها أن تكشف اللثام عن الحقيقة المبحوث عنها .

ذلك لأن العلم لا يتولد إلا عن علم مثله ، وماكان للظن أن يصلح سبيلاً إلى العلم بحال ، وإلا لأمكن لمقدمتين ظنيتين أن تأتيا بنتيجة يقينية وهو من أجلى صور المحالات .

من هنا ، كان على كل باحث عن حقيقة أن يخط إليها منهجاً علمياً لا يشوبه الحدس أو الوهم . وأن يلتزم هذا المنهج لا ينحرف عنه يمنة ولا يسرة .

تلك حقيقة واضحة ، لا ينبغي أن يتمارى فيها أحد من الناس .

ولكن من الممكن جداً أن نتساءل : مامدى استشعار كل من الفكر الإسلامي والفكر الغربي بهذه الحقيقة واهتمامه بها ؟

ربما أسرعت كلمة « البحث الموضوعي » تلك الكلمة الذائعة الشائعة ، التي اشتهر بين بعض الناس ارتباطها ببحوث المستشرقين فحاولَتْ الإجابة على هذا السؤال .

بيد أن الاعتماد على هذه الشهرة وحدها في إعطاء الحكم ، سير إلى الحقيقة في منهج غوغائي غير علمي ، لاجرم أنه يحرفنا عنها وإن أوهم أنه يوصلنا إليها .

من الخير إذاً أن نتلمس الجواب على هذا السؤال من واقع الطريقة التي يسلكها كل من علماء المسلمين وعلماء الغرب للوصول إلى حقيقة ما ، سواء كانت معيارية (كما يقولون) أم تاريخية .

ولنبدأ بالطريقة التي ينتهجها الفكر الإسلامي .

وعلينا ـ قبل كل شيء ـ أن نقرر حقيقة ذات أهمية في هذا الصدد ، وهي أن العامل الأول في إخضاع الفكر الإسلامي لمنهج علمي دقيق في البحث ، كما سنجد ، إنما هو الدين ، وماكان للمسلمين ـ لولا العقيدة الدينية ـ أن يحمّلوا أنفسهم مؤونة منهج شاق يستنفد الكثير من الوقت والجهد دون أن يكون له حصيلة من كسب مادي معين ، ثم يشتدون في التمسك به حتى يغدو مصطلحاً لهم جميعاً يتعارفون به ويلتقون عليه .

ويتمثل هذا الدافع الديني في نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى ، من مثل قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَقْفُ ماليْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] وقوله عز وجلّ وهو ينعى على أقوام غامروا بعقولهم في متاهات من الأوهام والظنون التي من شأنها أن تغشّي على الحقائق ولاتكشف عنها :

﴿ وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرهُم إلاَّ ظَنّاً إنَّ الظَّنَّ لايُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً إنَّ اللهَ عَليمٌ بِما يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٣٦] .

وأنت ترى كيف يتمثل في هذا الدافع النهي عن تبني أي فكرة ، حتى الدين نفسه ، إلا عن طريق مايثبته العقل الصافي من الدلائل اليقينية التي من شأنها أن تكشف عن حقيقة المطلوب .

ومن أجل هذا ، قرر علماء التوحيد أن من شرط صحة إيمان المؤمن ، أن يكون قائماً على دعائم من اليقين العلمي المجرد ، لا على شوائب من التقليد والاتباع .

وذلك لأن الحقيقة العلمية تعتبر ـ في حكم الدين[1] ـ قمة المقدسات الفكرية وينبوعها . فهي التي ينبغي أن يحج إليها الفكر في خضوع وتطواف دائب . وهل من دليل على هذا الاعتبار أقوى من أن تجد الدين نفسه لا يرضى أن يقيم وجوده وقدسيته إلا على دعائم العلم وبراهينه ، ولا يرضى أن يتخذ لنفسه حَكَماً من دونه ؟

كل ماهنالك أن الإسلام أضفى الصفة الدينية على البحث عن الحقيقة بنبراس العلم والفكر المجردين ، فإذا كان غير المسلم من شأنه أن يندفع إلى البحث برغبة حب التطلع فإن المسلم مدفوع إلى البحث ذاته شعوراً منه بأنه واجب يثاب على فعله ويعاقب على تركه .

وهكذا وجد الفكر الإسلامي نفسه أمام مهمة دينية ، هي ضرورة البحث عن الحقيقة ، سواء أكانت من قبيل النقول أم الدعاوى . وبدهي أن القيام بهذه المهمة يتوقف على وضع منهج للبحث . ومعلوم أنه بقدر ماتكون الغاية صافية سليمة لا حكم فيها إلا للعقل وحده ، يكون المنهج إليها صافياً سليماً أيضاً لا يخطه إلا العقل وحده .

ومع ذلك فنحن لانكتب هذا البحث لنسرع فيه إلى الحكم بأن المنهج العلمي لدى المسلمين منهج سليم صاف لاتخطه إلا يد العقل وحده ، وإنما الذي نقصد إليه هو البحث في هذا المنهج وسنصل إلى الحكم عليه في أعقاب ذلك .

☆ ☆ ☆

---

(١) نحن إنما نقصد بالدين ـ هنا ـ خصوص الإسلام ، ومعلوم أن بين الإسلام والأديان الأخرى فروقاً كبيرة في هذا الصدد .

منهج البحث عند علماء المسلمين :

يتلخص المنهج العلمي للبحث ، عند علماء المسلمين ، في قاعدة جليلة كبرى ، لم يعرف مثلها عند غيرهم . وهي قولهم :

إن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدعياً فالدليل

وتفصيل الأمر في ذلك أن موضوع البحث لايخلو دائماً من أن يكون خبراً منقولاً ، أو دعوى مزعومة . فأما ماقد يكون منه خبراً فإن البحث فيه ينبغي أن يكون محصوراً في تحقيق النسبة بينه وبين مصدره ، إذ هي التي تكون مثاراً للاحتمال والدخيلة والريب ، فإن زال الاحتمال وانجابت الغاشية انبثقت من ذلك الخبر حقيقة علمية معينة ، بشرط أن يكون ذا دلالة قطعية .

وأما مايكون منه ادعاء ، فإن البحث فيه ينبغي أن يتجه إلى الأدلة العلمية المنسجمة معه والتي من شأنها أن تكشف عن مدى صدق هذا الادعاء .

ولكل نوع من الدعاوى نوع من الأدلة العلمية يناسبها ، لايستبدل به غيره ، فالدعاوى المتعلقة بطبائع الأشياء المادية وجوهرها لاتنهض بغير البراهين العلمية التجريبية المحسوسة ، والدعاوى المتعلقة بالمجردات كالأرقام والنفس والمنطق ، لايقبل معها إلا براهينها القانونية المسلمة . والدعاوى المتعلقة بالحقوق والأحوال المدنية لا ينفع معها إلا البينات والحجاج المتفق على ضرورة ارتباطها بها . وهكذا لاتصبح الدعوى حقيقة علمية ثابتة إلا بعد أن يقترن بها دليلها الذي يناسبها ، فالدليل الذي قد يساق إلى الدعوى ، ليست له أي قيمة علمية ، مالم يكن بينهما انسجام في الطبيعة والنوع .

وبناء على ذلك فما هو السبيل العلمي الذي وضعه علماء الإسلام لتحقيق النسبة بين الخبر ومصدره ، ولتحقيق القيمة العلمية في الدعوى ، على النحو الذي ذكرناه ؟

السبيل المتخذة لتحقيق الخبر :

تنهض بهذه السبيل فنون عديدة خاصة لم يعثر عليها التاريخ إلا في المكتبة الإسلامية . وهي : فن مصطلح الحديث ، وفن الجرح والتعديل وتراجم الرجال ، حيث تلتقي هذه الفنون الثلاثة على وضع ميزان دقيق يتضح فيه الخبر الصحيح من غيره والفرق بين الخبر الصحيح الذي يورث الظن والذي يورث اليقين .

فالخبر يرقى إلى أولى درجات (الصحة) عندما يثبت ـ لدى التحري والبحث ـ أن سلسلة السند متصلة من صاحب هذا الخبر ومصدره بنقل العدل الضابط عن مثله إلى نهايته التي انبثق منها دون أن يحتوي الخبر على شذوذ في جوهره أو علة في روايته . فإن تدانى الخبر عن هذه الرتبة ، بأن سقطت حلقة من سلسلة الرواية بسبب الجهل به ، أو عدم الوثوق بعدالته ، أو عدم اليقين بحفظه وضبطه ، أو بأن كان متن الخبر شاذاً بالنسبة للمقبول من غيره ، فهو غير صحيح .

ولكن الصحيح نفسه يرقى في درجات متفاوتة ، تبدأ من الظن القوي إلى الإدراك اليقيني .. فإذا كانت السلسلة التي توفرت فيها مقومات الصحة مكونة من آحاد الرواة الذين ينتقل الخبر بينهم ، فهو لا يعدو أن يكون خبراً ظنياً في حكم العقل ، وإذا كانت حلقات السلسلة مكونة من راويين أو ثلاثة رواة ، فهو لا يزال خبراً ظنياً ، ولكنه ظن قوي يداني اليقين .

أما إذا غدت كل حلقة من الحلقات ، من الكثرة ، جموعاً يطمئن العقل إلى أنها لاتتواطأ على الكذب ، فإن الخبر المروي يكتسب عندئذ صفة اليقين ، وهو ما يسمى بالخبر المتواتر .

فأما الظني من الخبر الصحيح ، فلا يعتد به الحكم الإسلامي في بناء العقيدة ،

لأنه إنما يفيد الظن ، ولقد نهى القرآن (في مجال البحث في العقيدة) عن اتباع الظن . كما قد رأيت . ولكن يعتد به في نطاق الأحكام العملية ، لثبوت الخبر المتواتر والدليل القطعي على أن المسلم مكلف ـ بالنسبة للسلوك العلمي ـ بالاعتماد على الظني من الخبر الصحيح ولذلك صح أن تستند الأحكام الشرعية إلى الأحاديث الصحيحة وإن كانت آحاداً ، وذلك حيطة في الأمر وأخذاً بالحزم .

غير أن اليقيني من الخبر الصحيح ؛ وهو ما يسمى بالخبر المتواتر ، هو وحده الذي يعتد به في بناء العقيدة والمدركات اليقينية بمعنى أن الإنسان لايجبر على الاعتقاد بشيء خبريّ إلا إذا كان قائماً على برهان التواتر . فإن كان دليله خبر آحاد ، كان اليقين به عائداً إلى القناعة الشخصية التي يراها من نفسه .

وتسألني : فمن أين للباحث أن يعلم شروط الخبر الصحيح ؟ ولنفرض أنه سمع سلسلة الرواية ، فكيف يستطيع أن يعلم اتصال هؤلاء الرواة ببعضهم ، وأنهم جميعاً ثقات عدول ضابطون .

والجواب : أن كلاً من علمي : الجرح والتعديل ، وتراجم الرجال ، إنما وجد تذليلاً لسبيل هذا البحث وتيسيراً للاطلاع على الواقع الذي ينبغي الوقوف عليه .

ففي مكتبتنا الإسلامية مؤلفات كثيرة تستعرض معجم الرجال الذين وردت أسماؤهم في أي سند من الأسانيد ، تستطيع أن تقف فيها على ترجمة من تشاء منهم جرحاً وتعديلاً ، وأن تضبط الزمن الذي عاش فيه ، لتعلم بذلك معاصريه الذين أمكنه أن يلتقي بهم . والغريب أن هؤلاء الأئمة الذين عكفوا على جمع تراجم الرجال ـ وهم أئمة ثقات يعتبر كل منهم مرجعاً في هذا الشأن ـ لم يبالوا ، في سبيل البحث عن الحقيقة واحترام الميزان العلمي أن لايشوبه أي فساد ، أن يضعوا النقاط على حروفها في وصف الرجال وصفاً دقيقاً سواء انتهى إليهم بالجرح والتحذير منهم ، أم التعديل والتوثيق لهم .

وهكذا ، فقد تكونت في مكتبتنا الإسلامية ، قواميس من نوع مختلف ... قواميس لضبط الأشخاص والرجال ، تقف منها على الزيف والدخيل الضعيف ، بالسهولة ذاتها التي تقف بها على ضبط الكلمة وتقويمها في قواميس اللغة ومعاجمها المعروفة .

كما قد تكوَّن في مكتبتنا فن خاص بهذا الشأن ، وهو مايسمى بفن مصطلح الحديث ، وقد ضم هذا الفن كل المقومات المختلفة للتحقيق في النقل والأخبار طبق منهج علمي فريد .

تلك خلاصة سريعة عن السبيل العلمي لدى علماء الإسلام لتحقيق النقل والخبر ، ولامطمع في هذه الكلمة السريعة بمزيد من الشرح والتفصيل ، ولكن على من يرغب في الاستزادة أن يعكف على الفنون التي ألمعنا إليها ليجد الجهد الغريب المعجز في سبيل استخراج القيمة العلمية من « الكلمة » المنقولة .

السبيل المتخذة للتحقيق في الادعاء :

يختلف هذا السبيل كما قلنا ، حسب اختلاف نوع الادعاء . فما كان منه متعلقاً بموجود مادي يتناوله تحليلاً أو تكييفاً ، فلا بد من الاعتماد فيه على شواهد وبراهين من الحواس الخمس ، أي على مايسمى بالتعبير الحديث (التجربة والمشاهدة) . إذ هي الوسيلة الطبيعية إلى الإدراك اليقيني في مثل هذه الأمور .

والإسلام لايتردد في تبني كل مايثبت تحقيقاً بهذه الوسيلة .

أما من الناحية العكسية ، فإن العلم لم يستطع أن يقدم لنا إلى اليوم أي حقيقة علمية تخالف أي جزئية من جزئيات العقيدة الإسلامية .

ولم يكلفنا شيء من الكتاب والسنة بأي معلومات خاصة صريحة تتعلق بالموجودات المادية القائمة من حولنا ، اللهم إلا ما أشار إليه منها في عبارات تحمل على الفكر والتأمل فيها أكثر من أن تبلغنا أي معلومات عنها ، وذلك

اعتماداً على الوسائل والأسباب التي جهز الله بها الإنسان والتي هي الآلـة الطبيعيـة لكشف لثام الجهل عن كل حقيقة مادية موجودة .

وهـذا هـو السر في أن القرآن لم يفْصـل القـول في القـوانين العلميــة المتعلقــة بـالمحسوسـات والمشـاهـدات ، إذ إنـه لو فعل ذلـك لألـزم النـاس إذن ، بـالإيمـان بمقتضاهاِ . فيكون ذلك حملاً للعقول على تبني حقائق علمية دون السلوك إليهـا في سبيل براهينها المنسجمة معها ، وهي التجربة والمشاهدة . وهذا مالا يحمل القرآن أحداً من الناس عليه ، تكريمـاً للعقل وإطلاقـاً لـه ليسير في منهجـه الطبيعي إلى كشف الحقائق المحسوسة .

ولذلك تجده في هذه القضايا لايزيد على أن يدفع أرباب العقول إلى البحث بوسائلهم العلمية الكاشفة . أما مافيه من الإخبارات الغيبية فـإنـه قـد فصل القول فيها بحكم مبرم ، لأنه لا مطمع عن طريق شيء من التجربة والمشاهدة في الوصول إليها . وليس السبيل إلى اليقين بها إلا خبر الله جل جلاله أو السنة المتواترة .

هذا فيما يتعلق بأمور محسوسة .

وأما ماكان من الدعاوى متعلقاً بأمر تجريـدي أو غيبي غير خـاضع لشيء من الحواس الظاهرة ، فمنه ماتجد في الكتاب أو متواتر السنة نصاً واضحاً فيـه ، ومنـه ما لا تجد في شيء منهما حديثاً واضحاً عنه .

فـأمـا المنصوص عليـه في أحـدهمـا : فهـو داخـل بـذلـك في المـدركات اليقينية .

وسبيل اليقين به أنـه مِن حيث نقل الكتـاب أو السنـة لـه ، يرجع إلى الخبر اليقيني المتواتر الذي فرغنا من البحث فيه . إذ القرآن إنما هو اللفظ الموحى به إلى محمد ﷺ والواصل إلينا عن طريق التواتر ، فلا جرم أن قرآنيـة ألفـاظـه مقطوع بها . ومثل القرآن في ذلك السنة إذا وصلت إلينا متواترة .

وأما من حيث صدق ماتضمنه القرآن نفسه بقطع النظر عن كونه قرآناً واصلاً إلينا من النبي ﷺ بيقين ، فتلك مسألة علمية أخرى تدخل في الشق الثاني من الدعوى المتعلقة بقضايا مجردة أو أمور غيبية . واعلم أن مرد ذلك إلى التحقيق في ظاهرة الوحي في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وتحقيق الأمر فيه قائم على أدلة يقينية تعتمد الاستقراء التام واللزوم البين كما سيجيء البحث فيه فيما بعد .

أي فالنصوص القطعية الثابتة في الكتاب ، تعطينا يقيناً بمضونها ، بعد اجتياز مرحلتين من النظر : المرحلة الأولى التحقيق في سند القرآن من لدن سيدنا محمد ﷺ إلينا . المرحلة الثانية التحقيق في إخباره ﷺ بأن القرآن هو من عند الله .

فإذا حققت في المرحلة الثانية على ضوء القواعد التي سنذكرها عما قليل ، أصبحت نصوص الكتاب حينئذ مصدر يقين دائم . وهذا معنى قولنا قبل قليل : (فأما المنصوص عليه في أحدهما فهو داخل بذلك في المدركات اليقينية) .

وسيان بعد ذلك ، أن يكون للعقل سبيل إلى هضم هذه المغيبات وفهمها عن طريقه الخاص ، أو أن لا يكون له إليها من سبيل ، كتلك المغيبات السمعية التي لم ينفذ إلينا شيء من أمرها إلا عن طريق الخبر الصادق عنها كقيام الساعة وحشر الأجساد ووجود الجنة والنار والملائكة ، فكل ذلك يكفي لدخوله في المدركات اليقينية أن نصاً صريحاً من كتاب الله أو متواتر السنة قد تناوله وأخبر عنه .

غير أن من شأن القرآن مع ذلك أن يحملنا على التأمل والنظر في كل مايخبرنا عنه ويحملنا على اليقين به ، من تلك الغيبيات التي يمكن للعقل البشري أن يجول ويلمس الحقيقة عنها ، كوجود الله عز وجل وحدوث المكنات ، وجعلية الأسباب الكونية وماشابه ذلك .

ولقد خاض علماء الكلام في بحث هذه المسائل ، عن طريق العقل والفكر

المجرد دون أن يضعوا الخبر الصادق واسطة بينها وبينهم . ولكن لم يكن ذلك من أجل أنه السبيل الوحيد ، وإنما من أجل أن يشقوا إلى اليقين بها طريقاً أخرى من البحث ، إلى جانب طريق الخبر الصادق .

وهكذا يسلك الفكر الإسلامي إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته ومتعلقات ذلك مسلكين اثنين ، كلاهما منهج علمي دقيق لاخدش فيه :

أما المسلك الأول فيبدأ بمرحلة البحث في ظاهرة الوحي ، فإذا تجاوزها ، ثنّى بمرحلة البحث في صحة النقل وتوفر مقومات اليقين فيه ، فإذا تجاوزها ، استيقن الأمر وصدقه لصدق كل مقدماته .

وأما المسلك الثاني فيستعجل الطريق ، ويبحث في الأمر على هدى من الفكر المجرد والبراهين العقلية المحضة ، دون أن ينطلق بذهنه بعيداً إلى النبوة وحقيقتها والقرآن وصدقه .

وكلا المسلكين ينتهيان بالباحث إلى اليقين ، بل إنهما ليلتقيان أخيراً ليشد كل منهما من أزر الثاني .

وأما مالم يتعرض له الخبر المتواتر اليقيني بأي نص واضح صريح ، فينحصر السبيل إلى معرفة الحق فيه بالنظر العقلي وحده ، وهو يتحقق بمسلكين اثنين :

المسلك الأول : اتباع مايسمونه بدلالة الالتزام :

وهي أن يطّرد ترابط بين شيئين بحيث إذا تأملت أحدهما تصورت الآخر .

وإنما يتم ذلك بعد أن يشهد له الاستقراء التام ، وهو أن تتّبع الحالات والظروف المختلفة كلها لوجود هذين الشيئين ، فتجدهما متلازمين دائماً .

وذلك كدلالة النحول الشديد على المرض ، وكدلالة المآذن في البلدة على

إسلام أهلها ، وكدلالة صوت الصفارة الخاصة بعربة الإطفاء على حدوث حريق ، وكدلالة عربدة الرجل في الطريق على أنه قد شرب مسكراً .

فالدالُّ في مثل هذه الأمثلة كلها ليس علة للمدلول ، حتى نقول إن دلالته عليه من قبيل دلالة العلة على المعلول ؛ إذ النحول ليس علّة للمرض ، والمآذن الصاعدة ليست علة لإسلام أهل البلدة ، وصوت الصفارة ليس علة لحدوث الحريق ، وعربدة الرجل ليست هي العلة لشربه المسكر .

وأنت عندما تشاهد الدالّ في هذه الأمثلة لا تبصر معها المدلول ولاتشاهده ، حتى تقول إن الدليل هو الرؤية والمشاهدة ، بل هو شيء خفي عن مشاهدتك وإحساسك .

إذاً فكيف دلت هذه الأشياء على مدلولاتها ، وكيف نؤمن بها دون أن نراها ؟!

إن سبيل الدلالة أنها عُرفتْ بملازمتها الدائمة للزوماتها . وتكرر ذلك دون تخلف ، وتم على ذلك الاستقراء ، فتكونت من هذه المقارنة الدائمة رابطة دلالة سارية بينهما .

وسبيل الاستفادة من هذا البرهان يكون ، بأن تتأمل في ظاهرة ما ، تشاهدها أمامك ، فإن رأيت ـ عن طريق دلالة الاستقراء ـ أن تلك الظاهرة تستلزم حقيقة معينة ، كان من الطبيعي في ميزان العقل أن تؤمن بها ، ولو لم تجدها ماثلة أمام عينيك ؛ فإن الذي يرى سيارة الإسعاف وهي تنهب الأرض بصفيرها المتواصل ، لا يشك أن ثمة مريضاً يعاني من حالة خطيرة على حياته وإن لم يكن يراه بعينيه ، بل لعله لا ينتبه لحقيقة السيارة التي تمر أمام عينيه بمقدار ماينتبه لحالة المريض التي تقفز إذ ذاك إلى ذهنه .

وإذا طرح أحدهم أمامك دعوى يزعمها ، فإنك كثيراً ماتستطيع بواسطة

دلالـة الالتزام هـذه أن تعلم صـدقهـا أو بطلانهـا . وذلـك عن طريـق البحث عن مستلزمات تلك الدعوى ، فإن رأيت هذه المستلزمات مـاثلـة أمـامـك كان ذلـك دليلاً على صدق الدعوى ، وإن كانت مفقودة أو كان الموجود نقيضها ، كان ذلـك دليلاً على كذب الدعوى .

فالرجل الذي يشرف بك على قرية ويقول لـك : إن جميع أهلهـا مسلمون ، لا يمكن أن تصـدق كـلامـه هـذا ، إذا تـأملت فلم تجـد فـوق بيـوتها إلا صلبـان الكنـائس ، على الرغم من أنـك لم تجـد أحـداً من أهلهـا ولم تقف على اعتقـاداتهم ومايدينون به عن طريق التجربة والمشاهدة . والذي يـدعي لـك أن منبع نشـأة الفكر والعقل في الإنسان إنما هو شعوره بالحاجة إلى الغذاء ، لايمكنـك أن تصـدق دعواه ، إذا تأملت في سائر الحيوانات التي تشترك مع الإنسان في الشعور بالحاجـة إلى الغذاء دون أن يتكون لديها هي الأخرى شيء من التفكير والعقل .

أنواع دلالة الالتزام :

إلا أن هـذا التلازم لايورث اليقين دائمـاً ، إذ الأمر فيـه منوط بمـدى وضوح التلازم واستغنائه عن برهان آخر يدل عليه ، ولذلك قسم العلماء دلالة اللزوم إلى ثلاثة أقسام ، ترتقي في القوة من الأدنى إلى الأعلى :

أولاها مايسمى **بـاللزوم غير البيّن** : وهو أن يتوقف الجزم بوجود اللزوم فيـه على إقـامـة برهـان آخر ، كالتزام زوايـا المثلث لقـائمتين ، فـإن العقل لايجزم بذلك لكل مثلث مـالم يطّلع على برهـان آخر مثبت لـه كتصور الـدائرة ومعرفـة درجاتها . ومن ثم فإن هذا التلازم وحـده لايعتبر دليلاً لأنـه هو نفسـه يحتـاج إلى برهان ودليل عليه ، ولكنه يعتبر جزءاً من دليل ، يتكامل بضم تتمته إليه .

ثـانيهـا مـايسمى **بـاللزوم البيّن بـالمعنى الأعم** : وهو أن يتـوقف إدراك اللزوم بين الشيئين على تصور كل منهما والنظر فيه ملياً ، كـدلالـة الشيء الممكن

على أنه حادث ، وكدلالة واجب الوجود على أنه قديم ، فإنك لاتفهم لزوم الممكنات لصفة الحدوث إلاّ إذا أمعنت النظر في معنى الإمكان ، وأدركت أنه الشيء الذي لايحيل العقل فقدانه وإنما ترجح فيه جانب الوجود لمرجح طارئ ، ثم أمعنت النظر في معنى الحدوث وتصورت الصلة بينه وبين كل الممكنات التي من شأنها أن توجد بتأثير غيرها .

ولكنك على كل حال لاتحتاج إلى تصور برهان آخر (كما هو شأن اللزوم غير البيِّن) لثبوت هذا اللزوم .

ثالثها **اللزوم البيِّن بالمعنى الأخص** : وهو أن يكون تصور الملزوم وحده كافياً في تصور اللزوم والجزم به ، كدلالة سيارة الإسعاف على المريض في المثال السابق . وكدلالة الأنين على المرض ، في القضايا الطبيعية ، ودلالة اللفظ المنبعث من شخص في الظلام على وجود كائن حي ، في القضايا العقلية . فإن قوة اللزوم التي بين كل منهما ، تجعل العقل يتصور المرض بمجرد تصور الأنين . ويتصور الكائن الحي بمجرد سماع اللفظ المنبعث في الظلام ، دون حاجة إلى التفكر في الرابطة بينهما .

وهذا القسم الثالث أقواها من حيث الدلالة وقوة البرهان ، يليه القسم الثاني . أما القسم الأول وهو التلازم غير البيِّن . فهو باستقلاله لايعتبر برهاناً ، حتى يضاف إليه برهان آخر يكشف عن صدق التلازم كما ذكرنا .

المسلك الثاني القياس :

وليس المقصود به القياس المنطقي المقتبس من الفلسفة اليونانية ، والقائم على القضايا والأشكال ، إنما المقصود به ذلك القياس الذي اصطلح عليه علماء أصول الفقه الإسلامي وعلماء أصول الدين (المتكلمون) بعد أن استلهموه من كتاب الله عز وجل .

وهو منهج يتلخص في استخراج علة الشيء أو سببه ، ثم تلمّسه فيما قد يشبهه من الأشياء المجهولة ، حتى إذا استيقن الباحث اشتراك كل من المعلوم والمجهول في علة واحدة ، قاس الثاني على الأول في حكمه المنبثق من تأثير تلك العلة .

وتقوم فكرة القياس على مبدأين اثنين ، كل منهما من المسلمات العقلية التي لا تحتاج إلى برهان عليها .

المبدأ الأول : قانون العلية ، أي إن لكل معلول علة ولكل أثر مؤثراً ..

المبدأ الثاني : قانون التناسق والنظام في العالم ، أي إن المظاهر الجزئية للكون وإن اختلفت أشكالها ، ترتبط بعلل كلية من شأنها أن تثبت التناسق والانسجام فيما بينها ، ومهما أوغلت في التدقيق بطبائع هذه العلل رأيتها تتجمع أخيراً في أقل عدد من العلل والأسباب .

وإنما ينقدح القياس من هذين المبدأين أيضاً ، بواسطة الاستقراء ، إذ هو الذي يبصِّر الباحث بحقيقة العلة ، ثم هو الذي يمكن بواسطته إدراك العلاقات الثابتة الكلية بين الأشياء المتناثرة أو المختلفة في الظاهر وهكذا نلاحظ أن الاستقراء التام شرط أساسي لابد منه لكل من برهاني التلازم والقياس .

وكيفية الاستقراء هنا هي أن تتتبّع جزئيات مادعيت أنه علة لأمر معين ، فتجده لا ينفك عن إنتاج معلوله .

وذلك بأن تتأمل العلاقة بين العلة والمعلول فترى فيها ظاهرة الاطراد والانعكاس . أي كلما وجدت العلة وجد المعلول ، وكلما فقدت العلة فقد المعلول . ثم تمعن النظر بعد ذلك في العلة فتراها مؤثرة في المعلول بالبرهان اليقيني ، إذ قد يكون هذا الاطراد أو الانعكاس بينهما لمحض المصادفة أو لعامل آخر .

وبذلك تعلم أن شرط القياس هنا (أي في بناء العقيدة والقضايا اليقينية)

هو أن تكون العلة مؤثرة في المعلول[1] ، وأن تكون مطردة ومنعكسة وأن تكون منضبطة واضحة غير مضطربة .

فإذا تدانت العلة عن مستوى هذا الشرط ، كأن لم يتضح فيها التأثير ، وإنما تجلت فيها ملاءمة ما مع المعلول ، فهو قياس ظني ، لا يقبل في الأحكام الاعتقادية والعقلية ، وإنما يمكن أن يقبل في المسائل الفقهية العملية ، لقيام الدليل القاطع على أن الأدلة الظنية فيها كافية للتعبد والأحكام الشرعية كما أسلفنا ، فيكفي في القياس للأحكام الشرعية العملية أن تكون العلة منضبطة ومطردة منعكسة ، ولكن لا يشترط فيها أن تكون مؤثرة بل يكفي أن تكون ملائمة في اجتهاد الباحث لبناء حكم عليها . فالقياس في الشرعيات العملية يختلف في الحقيقة اختلافاً كبيراً عن طبيعة القياس وشروطه في المسائل الاعتقادية .

مثال ذلك أن تبصر على البعد دوراً أو خياماً يسكنها الناس ، فتستيقن من ذلك وجود الماء في ذلك المكان .

فإن سبيل اليقين بذلك ، أنك تستحضر في ذهنك بسرعة خاطفة سائر ماتعلمه من الأماكن التي يعيش فيها الناس ، فترى أن من أهم أسباب صلاحيتها لمقامهم ، توافر الماء فيها ؛ لا يختلف هذا المعنى بحال من الأحوال ، كما تلاحظ تأثير السبب الذي هو الماء في المسبب الذي هو العيش وإمكان الحياة .

وعندئذ تقيس هذا المكان الذي يلوح لك من بعيد على تلك الأماكن الأخرى وتجزم بوجود الماء فيه وإن لم تره عيناك .

أما لو عكست النظر في هذا المثال ذاته . كأن أبصرت على البعد بريق ماء ،

---

(١) نقصد بالتأثير أن يثبت بالبرهان سببية العلة للمعلول ، كسببية المطر للإنبات والنار للإحراق ، بقطع النظر عن البحث في حقيقة هذه السببية وتحليلها على ضوء الإيمان بالمسبب الحقيقي جل جلاله ومكان البحث في تحليل ذلك ، الحديث عن قانون السببية في الكون فارجع إليه في مكانه من هذا الكتاب .

ففهمت من ذلك وجود أناس يعيشون هناك ؛ فإنه مجرد ظن لا يمكن أن يرقى إلى درجة اليقين .

وذلك لأن علية الماء لحياة الإنسان حقيقة ثابتة بدلالة التأثير فلابد من وجود الماء حيث يوجد الناس . أما علية الماء لوجود الناس من حوله فمحض مناسبة وملاءمة .

ومثاله أيضاً ، دلالة كل مافيه مظهر الصنعة والتدبير ، على وجود صانع ومدبّر له . ضرورة أن المعلول لا ينفك عن علّته .

ومن هنا تعلم أن علماء المسلمين إنما يتبعون المنهج الاستقرائي في كل مالم يمكن إخضاعه للتجربة والمشاهدة ، وفي ظل هذا المنهج يلتقي كل من الالتزام والقياس . وهو كما ترى أبعد مايكون عن الاستنتاجات الغيبية والتأملات المجردة التي أوغلت فيها الفلسفة اليونانية أيما إيغال .

بل قد علم كل من تأمل في المنهج الإسلامي للبحث ، أن علماء الإسلام لا يمكن أن يقيموا أي حكم عقلي أو عقيدي إلا على أساس الحقيقة التي تجمعت فيها كل مقومات اليقين .

فأما تلك الحقائق الأخرى التي ظلت مستورة وراء حجاب الشكوك ولم تطلها إلا يد الاستنتاج النظري ، كتلك التي تلوح خلال دراسات تاريخية أو آثار مكتشفة أو مستحاثات قديمة ـ فما عرف التاريخ الإسلامي أن حقيقة يقينية ما ، قد أقيمت فوقها أو أنها اتُخذت برهان نقد أو استدلال أو بناء فكر . ولكنها ظلت عندهم بحثاً غير موصول وشكاً يطوف حوله كل احتمال ، وسبيلاً يدعو لمواصلة السير إلى نهايته بخطاً من البحث الاستقرائي السديد .

☆ ☆ ☆

تلك هي خلاصة سريعة جداً ، عن المنهج العلمي للبحث عند المسلمين

أخذناها من واقع بحوثهم لا من نظريات مجردة مطوية في مكتباتهم ، وإنا لنريدُ أن نتساءل بعد ذلك عن منهج البحث عند الآخرين .. عند علماء الغرب من مفكرين ومستشرقين ، أولئك الذين ذاعت وشاعت كلمة (الموضوعية) حول بحوثهم . بل إن هذا هو أصل ما دفعنا إلى كتابة هذا التمهيد .

ولا ريب أنه قد وضح للقارئ لدى اطلاعه على القسم الأول من هذا البحث ، أنني لست أهدف فيه إلى دراسة كل من المنهجين : الإسلامي والغربي للبحث ، دراسة تحليلية تخضع لعرض ما قد يكون فيهما من مذاهب مختلفة ، أو تدرج تاريخي ، أو نقد للنظريات بحد ذاتها ، وإنما الذي أقصد إليه إيضاح حقيقتين اثنتين :

الأولى : بيان مدى ما يعتمد عليه الفكر الإسلامي في بحوثه من المنهجية والموضوعية المجردة ، ثم بيان مدى ما يتمتع به الفكر الغربي من نصيب ـ قل أو كثر ـ في ذلك .

ثانياً : مدى ما قد يوجد من ترابط وتلازم بين مناهج البحث ، (من حيث هي دراسات ومواضعات فكرية خاصة) وبين البحوث العلمية المختلفة ، لدى كل من المسلمين وغيرهم ، أي مدى نصيب هذه المناهج من الواقعية والتطبيق العلمي الصحيح .

ونحن ـ من أجل تجلية هذه الحقيقة ـ لم نشأ أن نستخرج المنهج العلمي للبحث عند علماء المسلمين ، إلا من واقع بحوثهم نفسها ، لكي لا نقف أخيراً على أن ثمة فناً مستقلاً في المكتبة الإسلامية يتعلق بمنهج البحث فقط ، بل لكي نقف مع ذلك ـ وهو الأهم في هذا البحث ـ على مدى تطبيق هذا المنهج على العلوم الإسلامية ذاتها .

منهج البحث عند الغربيين :

ونحن نسير في تتمة بحثنا هذا على الطريقة التي بدأنا بها فنتساءل :

ما هو المنهج العلمي الذي يسير عليه الفكر الغربي في شتى ما يواجهه من العلوم المختلفة ؟

لا مفر من أن نعود فنقسم موضوع العلم ، أياً كان نوعه ، إلى جانبين اثنين :

خبر يراد تحقيقه ، ودعوى يراد التأكد من صحتها .

ونبدأ بالأول منهما فنقول :

منهج تمحيص النقول والأخبار :

لسنا بحاجة إلى أن نجهد الفكر كثيراً بالتأمل في الجواب . فالواقع أن المنهج الغربي للبحث خال ، إلى الآن ، من أي ميزان موضوعي لتحقيق كل ما يتعلق بالرواية والنقل .

هنالك ما يسمونه بالمنهج الاستردادي أو منهج التوسم ، عمدته الأولى ما قد يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة ودقة الوجدان واتساع دائرة الخيال . والأداة التي يستخدم بها الباحث ، ملاحظته ووجدانه وخياله ، وكل ما قد يقع عليه من آثار وأحداث ووثائق . وكيفية البحث ، هي أن يعكف الباحث على ما تجمَّع لديه من هذه الآثار أو الأحداث ، فيقدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادئ وأحكام ووقائع[1] .

وهو ـ كما ترى ـ منهج لا يملك أخيراً ، مهما جمَّع من العدة والوثائق إلا سبيلاً واحداً ، وهو سبيل الاستنتاج الفكري بل الغيبي المجرد ، وما كان الاستنتاج المجرد عن التجربة والمشاهدة والاستقراء التام والرواية الصادقة إلا رديف الوهم والشك

(١) انظر : مناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي ص ٢٠٠ فما بعد .

أو الظن المتقلقل الضعيف . وذلك باستثناء الاعتماد على وثائق تاريخية تحمل في طيّها دلالة اليقين ، نظراً لما بينها وبين مصدرها من علاقة العلّة بالمعلول أو اللازم بالملزوم .

وإن الباحث ليسأل : ففيم عجز الفكر الغربي إلى اليوم عن اتخاذ منهج علمي بصدد تحقيق النقول ، على الرغم من أهمية الأمر في ذلك ، وعلى الرغم من أنه يشكّل نصف المسافة إلى تحقيق كثير من القضايا العلمية المختلفة .

والجواب أن القيام بأعباء تحقيق النقول والروايات ، يكلف جهداً شاقاً وعنيفاً دون أن يوجد ، في الظاهر ، مردود من الكسب المادي له . وتحمُّل جهد من هذا القبيل ، لا يكون ، إلا إذا وجد من ورائه دافع يتغلب في قوته على شدة ذلك الجهد .

ولقد توفر هذا الدافع عند العلماء المسلمين ، على حين لم يتوفر شيء منه عند غيرهم . لقد آمن العلماء المسلمون بوجود الله عز وجل وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبأنهم مكلفون بإقامة حياتهم على المنهج الذي بيَّنه لهم كتاب الله وسنة رسوله ، فلا جرم أنهم مكلفون إذاً بالوقوف على كل ما قد تركه الرسول ﷺ وراءه من تعاليم وإرشادات ، وبالحرص كل الحرص على أن لا يمتزج الواقع اليقيني المتعلق بحياته وسيرته وأقواله بما قد يندس إليه من وهم أو كذب وافتراء .

وهكذا ، فقد أوصلهم يقينهم هذا إلى المنهج الشاق الدقيق الذي وضعوه ميزاناً لصدق كل رواية وتاريخ ، وكان عليهم أن يستهينوا بكل ما قد يكلفهم تطبيقُ هذا المنهج من أعباء جسام . ولولا هذا اليقين والدافع ، لما رأيت واحداً من علماء الحديث يقطع مئات الأميال متغرباً عن وطنه في ظروف عسيرة شاقة ، لا لشيء ، إلا ليلتقي بشيخ يروي حديثاً ، عن رسول الله ﷺ قد يعْلَمه ويحفظه هذا القادم إليه ، ولكنه يريد أن يتلقاه منه أيضاً ويستأذنه بروايته عنه ، لكي تزداد طرق هذا الحديث عنده ويقف على كل ما قد يتوفر له من أسانيد .

إن من السهل عليك جداً أن تقرأ إسناد حديث ما من أحاديث رسول الله ﷺ في كتاب كصحيح البخاري وأنت متكئ على فراشك أو جالس وراء مكتبك ، ولكن المهم أن تتبيّن صورة ذلك الجهد العجيب الذي بُذل سخياً في سبيل هذين السطرين فقط من الإسناد الذي قد لا تأبه له اليوم .

هذا عن الدافع الذي دفع بعلماء المسلمين إلى إقامة منهج كامل لتحقيق الرواية . فماذا عسى أن يكون الدافع إلى ذلك عند الآخرين ؟ لا شيء بالطبع ، ما دام الجهد الذي ينبغي بذله في سبيل ذلك أعظم بكثير من الكسب المادي أو حتى العلمي المطلوب .

من هنا ، تلاحظ أن كثيراً من المواضيع العلمية ، تناوله كل من الفكر الإسلامي والغربي بالبحث عن طريقين مختلفين لا ينفع فيهما أي نقد ولا نقاش . إذ كان منهج تحقيق الرواية مصدراً من مصادر تفسيرها عند المسلمين ، على حين كان المنهج المقابل لذلك عند الآخرين هو محض الاستنتاج .

ولنضرب مثلاً لذلك (ظاهرة الوحي) في حياة النبي ﷺ .

لقد كان المنهج الذي سلكه علماء المسلمين في هذه المسألة ، هو :

أولاً : تحقيق الرواية وضبط اللفظ والسند . ولقد انتهى علماء المسلمين كلهم إلى أن حديث الوحي صحيح ورد بطرق مختلفة كثيرة تجاوزت حد التواتر المعنوي .

ثانياً : الاستقراء التام الذي وضعهم أمام كل من دليلي الالتزام وقياس الأولى (ولا ينتظرنّ القارئ مني أن أشرح هنا البحث الذي سلكه العلماء إلى هذا السبيل ، فذلك من شأنه أن يقحمنا في باب آخر من الحديث لسنا بصدده الآن[1]) .

---

(١) مكان ذلك من هذا الكتاب مبحث النبوات بدءاً من ص ١٧٩ .

وكانت النتيجة التي وصل إليها الفكر الإسلامي هي : اعتقاد أن الوحي إنما هو استقبال منه عليه الصلاة والسلام لحقيقة ذاتية مستقلة خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي ، وبعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العلمي .

أما المنهج الذي سلكه الغربيون في ذلك ، فهو :

أولاً : أخذ كلمة (الوحي) على اعتبارها أثراً أو حادثة مبهمة خلَّفها التاريخ .

ثانياً : إعمال الحدس والتخمين في استنتاج ما قد يدركه التوسم والوجدان والخيال من هذه الكلمة .

وكانت النتيجة التي توصلوا إليها في أمر الوحي على أعقاب ذلك ، أن اختلفوا فيه على مذاهب متفرقة . فمنهم من انتهى إلى أن الوحي إنما هو حركة فكرية داخلية أو نوع من الإلهام النفسي ، ومنهم من زعم أنه إشراق روحي جاء عن طريق الكشف التدريجي ، ومنهم من لم يجد أي غضاضة في أن يقرر أن الوحي لم يكن أكثر من نوبات صرع كانت تنتاب الرسول ﷺ بين الحين والآخر .

وليس ثمة مطمع في أن يلتقي هؤلاء ومفكرو الإسلام على صراط واحد من الفهم في الأمر ، إذ إن هؤلاء قد أسقطوا من اعتبارهم أمر الرواية والخبر وقيمتها العلمية سلباً وإيجاباً ، أي إنهم استجازوا لأنفسهم تجاهل الرواية الصحيحة المتواترة كما استجازوا في نفس الوقت اختراع تفسير لا يدعمه أي خبر أو رواية صحيحة .

كما أنهم لم يلتزموا إطلاقاً بمنهج الاستقراء وما يثبته قانون الالتزام وقياس الأولى ، ولذلك جاز لهم أن يصوروا من محمد عليه الصلاة والسلام منذ اللحظة التي أوحي فيها إليه ، شخصية تتناقض كلياً مع شخصيته السابقة بل مع وقائع حياته المستمرة أيضاً ، وجاز لهم أن يجعلوا منه عليه الصلاة والسلام أعظم كذاب

على الله بعد أن كان أعظم أمين وصادق مع النـاس ، وأن يجعلوا منـه أعظم ممثل ومخاتل ومدجل يصطنع الخوف وصفرة الوجه أمام خديجة من أمر ما قد رأى من الوحي مع أنه لم يكن يمارس في الواقع إلا بعض أفكار و إلهامات داخلية مجردة .

☆ ☆ ☆

منهج تمحيص الدعاوي العلمية :

ولننتقل بعد هذا إلى الجانب الآخر من الموضوع العلمي ، فنتساءل : ما هو المنهج العلمي الـذي يلبي التحقيق في (دعـوى) من الـدعـاوى أو (فرضيـة) من الفرضيات فيما تواضع عليه علماء الغرب ؟

فنقول : أما تلك الفرضيـات المتعلقـة بـالعلوم الطبيعيـة ، فقـد استطـاعت أوربا ، بدءاً من عصر النهضة ، أن تبدع له منهجاً من التجربـة والمشـاهـدة تتوفر فيه كل مقومات الروعة والدقة ، وليس هذا فقط ، بل إن الفكر الأوربي استطاع أن يستخدم سير الاكتشافات والاختراع وسيلة لدعم التجربة العلميـة وشـد أزرهـا والاستفادة العظيمة منها[1] .

---

(١) المنهج التجريبي إنما يصلح معتمداً للعلوم الطبيعيـة ، إذ من شـأن هـذه العلوم أن لا تـدرك إدراكاً يقينياً إلا عن طريق البدء بموضوعات توجـد في التجربـة الخـارجيـة البعيـدة عن وحي العقل أو التفكير ، ثم تفرض نفسها عليه طبق ما دلت عليه المشاهدة والتجربة ، وعلى العقل بعد ذلـك أن يفسرها ويحللها فقط .

هـذا ويظل بعض الحمقى الـذين لا يـدركون الفرق بين طبـائع العلوم المختلفـة يصرون ـ اعتـداداً منهم بـالمنهج التجريبي ـ على عـدم الإيمـان بـالخـالق جل جـلالـه مـا لم يثبت لـه ذلـك بـالمنهج التحريبي . والمسكين إنما يتوهم ، أن أوربا لما سيرت بعلومها الطبيعية القطار واستغلت الكهربـاء وأطارت الصواريخ مستخدمة الدراسة التجريبية ، دل ذلك على أن الحقائق الكونية كلهـا ينبغي أن تنقلب علوماً طبيعية وأن تخضع للتجربة والمشاهدة ، وإلا فإنه لا يقبل حكم قاضٍ في المحكمة ، ولا قانوناً في علم النفس ، وليس لديه استعداد لأن يتصور أي حقيقة عن وقائع الماضي أو مخـاوف المستقبل . لأن كل دلك لا يعدو أن يكون ثمرة استقراء أو استدلال أو قياس . ومـا دام كل ذلـك بعيداً عن التحربة والمشاهدة فهو لغو لا وجود له ..

ولا ريب أن مثل هذا الفكر أحوج إلى العلاج منه إلى المباحثة والنقاش .

ولا جدوى في أن تقول ، كما يطيب للبعض : إن أوربا إنما ورثت هذا المنهج منا نحن المسلمين خلال العصور الوسطى وأحداثها التاريخية المعروفة . إذ الحقيقة أن أوربا بمقدار ما هي غنية اليوم بهذا الميراث ، فإننا فقراء كل الفقر بما كان لنا الفخر بامتلاكه في يوم من الأيام ... وإنه لينبغي علينا نحن العرب أو المسلمين ، أن نفتح العين جيداً على حقيقة واضحة هي :

أن التاريخ دائماً ليس ملكاً إلا للزمن الذي ولد فيه ، لا يورث أمجاداً ولا انحطاطاً وإنما يورث شيئاً واحداً فقط : هو العبرة ..

غير أن أوربا بمقدار ما ترقّت صُعُداً في ميدان العلوم الطبيعية ومناهجها التجريبية ، فقد تخلفت في ميدان المدركات اليقينية الأخرى مما يدخل تحت اسم المجردات والغيبيات .

ولقد كان على علمائها ومفكريها أن يسلكوا حيال هذه المدركات أحد سبيلين :

إما إغلاق باب البحث والتأمل بينهم وبينها إغلاقاً محكماً ، واعتبار أن في الكسب الذي نالوه من العلوم المادية الأخرى ما يغنيهم عن إنفاق أي جهد فكري فيما سواها .

وإما أن يشقوا إليها منهجاً من الموضوعية والنظر العلمي المجرد ، إذا كانوا لا يملكون انصرافاً عنها

غير أن الواقع أنهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك ، وإنما راحوا يسلكون إلى دراستها وبحثها مسلكاً أقل ما يوصف به أنه غريب وطريف :

أخذوا يبدؤون البحث بفرض ما طاب لهم من النظريات والفروض في أذهانهم ، كلٌّ حسب ما يروق له أو حسب وحي البيئة والمجتمع والدراسة التي نُشِّئ في ظلالها . ثم راحوا يستخرجون الأدلة الاستنتاجية الملائمة لما سبق أن فرضوه

واعتمدوه ، كما راحوا بالمقابل يزيفون الأدلة التي تناهض معتمدهم بدافع من محض الرغبة في ذلك .

ولكي لا نظلم قلة من الباحثين ، تجردوا عن أمانيهم واستقبلوا بأفكارهم شطر بحوث حرة مجردة ، ينبغي أن نقول : إن هذا الوصف إنما ينطبق على العقلية التي تمثل أغلبية المفكرين الغربيين ، وفي أغلب القضايا العلمية ذات الطابع المذكور .

ولا ريب أن من أجلى انعكاسات هذه الحقيقة وأوضح دلائلها المعبرة ، تلك المدرسة الفكرية التي قامت تزعم أن العقيدة يمكنها أن تتلو الإرادة النفسية وأن تخضع لها .

فحسبك لكي تعتقد بأمر ما ، اعتقاداً جازماً ، أن تتجه منك الإرادة إلى ذلك وأن تشعر بمجرد الحاجة إليه ، فسوف لا تعجز إرادتك أو حاجتك إذ ذاك عن أن تستخرج لك الدليل تلو الآخر على ما تفضل الاعتقاد به ..

وفي مقدمة من اتخذ هذا المنهج وسيلة للبحث ، المفكرُ الأمريكي المشهور (وليم جيمس) وكتابه الذائع : (البراجماتزم) من أهم المصادر التي تشرح هذا المنهج وتدعو إليه .

ويتجسد أغرب مظهر لهذا المنهج الذي استقطب طائفة كبيرة من الباحثين الغربيين ، حينما يقسم جيمس الاتجاهات الفكرية الضرورية إلى اتجاهين : حيّ وميت ، ويفسر الاتجاه الميت بذلك الذي لا يجد الباحث في نفسه أي ميل إليه ، ويضرب مثلاً للاتجاه الميت بما إذا قيل له : كن صوفياً أو مسلماً ، في مقابل ما قد يقال له : كن مسيحياً أو لا أدرياً .. فإن الشق الأول من البحث محكوم عليه بالبطلان سلفاً ، نظراً لأن الاتجاه إليه مفقود والرغبة منصرفة عنه[1] .

---

(١) انظر العقل والدين لوليم جيمس ص : ٤ و ٥ .

ولا أشك أن هذا المنهج الذي ينادي به آخرون أيضاً غير وليم جيمس ، قد خالفه (من الناحية النظرية) كثيرون غيرهم . غير أن واقع الأبحاث المختلفة ، تنطق ، حتى بالنسبة لهؤلاء المخالفين ، بالمنهج نفسه وتنادي بصوت مرتفع : إن العقيدة سلباً وإيجاباً ينبغي أن تتأسس على نصيب كبير من مجرد الرغبة إن لم نقل على الرغبة وحدها . وهذا يعني أن من العبث أن تبحث عن أي ظل للموضوعية في بحوثهم اللهم إلاّ قلة نادرة منهم ، لا سيا وإن سبيل الاستنتاج - وهو السبيل الوحيد لتحقيقاتهم في هذا الباب - ذو مرونة كبرى من شأنها الاستجابة لكل رغبة واتجاه .

والقدر المشترك بين جيمس وسائر المفكرين الغربيين ، أنهم يكوِّنون نسيج العقيدة الدينية في أفكارهم من خيوط المصالح الدنيوية المختلفة التي ينزعون إليها في معيشتهم وحياتهم . فلا جرم أن عقائدهم الدينية لا تفيض على حياتهم من داخل أفكارهم وعقولهم ، بل هي على العكس : تفيض على عقولهم وأفكارهم من واقع شؤونهم وحياتهم .

وانظر ، كيف يعبّر المفكر البريطاني (بنتام) عن هذا المنهج الفكري أوضح تعبير عندما يقول :

« يجب أن يكون سير الديانة موافقاً لمقتضى المنفعة . فالديانة باعتبارها مؤثراً تتركب من عقاب وجزاء ، فعقابها يجب أن يكون موجهاً ضد الأعمال المضرة بالهيئة الاجتماعية فقط . وجزاؤها يكون موقوفاً على الأعمال التي تنفعها فقط . والطريقة الوحيدة في الحكم على سير الديانة هو النظر إليها من جهة الخير السياسي في الأمة فقط وما عدا ذلك لا يلتفت إليه »[(١)] .

وحينما وجدوا أن طبيعة العقل تختلف كل الاختلاف عن هذا المنهج في

---

(١) أصول الشرائع : ص ٣٧ .

البحث والنظر ، ورأوا أن ترك زمام العقل ، يفكر في القضايا الغيبية والمجردة كما يحب ، سيسبب لهم فساد كثير من قواعدهم وأحكامهم الفكرية التي أقاموها على هذا المنهج ـ لم يبالوا أن يقيموا مدرسة فكرية أخرى قوامها الاستهانة بالعقل وإنكار حججه وبراهينه ، وأن يحذر بعضهم بعضاً من غوائل العقل على الدين (أي على الدين الذي فهموه طبق منهجهم الذي أوضحناه) ، وأصبح شعارها : (إنقاذ الدين من العقل) !!

وأنت تعلم أن السير في هذا المنهج الطريف ، كما يقتضي منهم عدم الالتفات إلى العقل المجرد ، في سبيل سوق القيم الفكرية العامة وراء ما تواضعوا عليه من المصالح والمنافع المختلفة ـ فإنه يقتضي أيضاً تفنيد كل فهم آخر لهذه القيم والعقائد لا يتفق ومصالحهم ، مهما كانت صلتها بالعقل ومهما كانت من البداهة والوضوح .

فمن أجل ذلك تجد أنهم ـ في الوقت الذي يكبّلون فيه عقولهم خائفين من غوائلها على عقائدهم التي أقاموها استجابة لأوضاع معينة في حياتهم ـ ينحطون بالهجوم على عقائدنا نحن التي أقيمت ، كما رأيت ، استجابة لحكم العقل المجرد طبق منهجه العلمي السليم : وذلك بدعوى ما يعلمون أنهم كاذبون فيه من حرية الفكر والعقل وعدم الاهتداء إلا بهدي العلم !.. أي إن هذا الهجوم المقنّع بقناع البحث العقلي الحر ، ليس إلا استجابة للمنهج ذاته الذي التزموه ، إذ إن عقيدة لا تتفق مع مصالحهم وميولهم وآمالهم المختلفة جدير بها أن تحارب منهم مهما كان مستندها وبرهانها .

وليس عليّ الآن ، فيما أحسب ، إلا أن أضع أمام القارئ فيضاً من الأمثلة التي يشترك معظمها في إثبات أمرين اثنين معاً : طريقة الاستنتاج المجرد العاري عن أي تثبت أو استقراء ، وأثر الرغبة في الدفاع عن وجهة معينة وبناء العقيدة على أساسها .

١ ـ ينقل فون كريمر وغولد زيهر أن الناس بحثوا في موضوع غريب وهو :

هل ينكح العجم نساء العرب في الجنة ؟ وذلك رغبة منها في إثبات أن الفتوحات الإسلامية إنما يكمن وراءها القصد إلى السيادة العربية[1] .

ولا ريب أن الذي يقرأ هذا النص إنما يتصور أن جمهرة من الناس بحثوا هذا الموضوع ، وأن الذين بحثوه إنما هم الفقهاء ، إذ هو مما يخص الفقهاء قبل غيرهم .

ولكنك إذا رجعت إلى مصدر القصة وسندها وحقيقتها ، علمت أن (الناس) الذين بحثوا موضوع زواج غير العرب من العربيات في الجنة إنما هم (أعرابي واحد) جاء من البادية ، سمعه الأصمعي يقول لآخر : أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة ؟ فقال أرى ذلك والله بالعمل الصالح . وهي قصة رواها المبرد في الكامل مضعفاً ثبوتها[2] .

فتأمل في كيفية سَوْق الخبر مقطوعاً عن مصدره ، معروضاً بصيغة التعميم ، مستكرهاً على أن ينطق رغماً عن أنفه بالشهادة التي يريدها الباحث العلمي الموضوعي النزيه !!

٢ ـ جاء في كتاب فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية للويس غردية و ج . قنواتي أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن في خلافته ، فقسمه إلى سور وآيات ، ورتب السور وراء بعضها حسب طولها ، فأطولها ثم ما دونها طولاً وهكذا (ج : ١ / ٤٢) .

فتأمل أولاً ، في المنهج المتبع لإثبات هذه الدعوى أو الفرضية فستعلم أن المنهج مفقود من أساسه ، وإنما يضع المؤلفان أمامنا دعوى عارية لنغمض العين ونقبلها كما هي متناسين قول الشاعر :

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

---

(١) راجع السيادة العربية لفان فلوتن ، وما كتبه في نفس البحث فون كريمر وغولد زيهر .
(٢) راجع الكامل للمبرد : جـ ٢ فصل : الموالي عند العرب .

فمن أي مصدر استقرائي أو استدلالي أو استنتاجي ثبت أن عثمان هو الذي قسم القرآن إلى سور وآيات ، وأنه عمد فرتبها كما شاء له هواه ، وأن هواه قد شاء له أن ترتب بدءاً بأطولها ، علماً بأنه هو الذي فصل هذه طويلة وتلك قصيرة ؟ ..

أما نحن ، فالذي نعلمه طبقاً للرواية الصحيحة الثابتة من رسول الله ﷺ ، ومن عثمان نفسه ، أن أمر الآيات وترتيبها والسور وتقسيمها وترتيبها مرد كل ذلك إلى التوقيف الذي لم يكن حتى لرسول الله ﷺ يد فيه ودليلنا على ذلك ما رواه البخاري بسنده عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان : هذه الآية في [البقرة : ٢٤٠] ﴿ والذَّينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ويَذَرونَ أزواجاً ﴾ إلى قوله : ﴿ غَيرَ إخراجٍ ﴾ قد نسختها الآية الأخرى ، فلمَ تكتبها ؟ قال : يا ابن أخي : أنا لا أغير شيئاً من مكانه . وما رواه القرطبي وغيره بسند صحيح عن سليمان بن بلال قال سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا في المدينة ؟ فقال ربيعة : قد قدمتا ، وإنما أُلِّف القرآن على علم ممن ألفه[1] .

٣ ـ أما الآن فإليك هذا المثال :

يقول المستشرق جب في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام) أن الإسلام جاء ليضفي الصفة الدينية على تلك (الإحيائية) العربية القديمة التي نسجتها الأعراف والبيئة بعد أن لم يستطع محمد عليه الصلاة والسلام التخلص منها ، ويمضي يقرر ذلك في منهج ـ جد غريب وعجيب ـ من حيث إيغاله في الاستنتاج بل الحدس المجرد في أغلب الأحيان .

---

(١) في هذا الكتاب : فلسفة الفكر الديني ، غثاء كبير ، جاد به على كل من المؤلفين تلك الطريقة الاستنتاجية أولاً ، ثم الرغبة في الوصول إلى نتيجة معينة ثانياً . وربما أمكنتنا الفرصة أن نعرض من هذا الغثاء الشيء الذي يزيد في إظهار قيمة (المنهجية والموضوعية) عند هؤلاء الباحثين .

ولكن ذلك كله في منتهى البساطة بالنسبة لما يلي :

يقول جب في مقدمة كتابه هذا : إن الأفكار التي أسست عليها هذه الفصول ليست من بنات دماغي ، بل سبقني إليها ودلني عليها جماعة من المفكرين ومن أقطاب المسلمين وقد يطول إحصاؤهم ، فسأكتفي بذكر أحدهم على سبيل المثال هو الشيخ الكبير شاه ولي الله الدهلوي . ثم ينقل عن كتابه (حجة الله البالغة) هذا النص الحرفي مثبتاً بين قوسين كما أنقله للقارئ الكريم :

« إن النبي ﷺ بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى . فالأولى إنما كانت إلى بني إسماعيل .. وهذه البعثة تستوجب أن يكون مادة شريعته ما عندهم من الشعائر وسنن العبادات ووجوه الارتفاقات إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم ، لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً » .

ونحن نقول : لا ريب أن جب لم يقع على هذه العبارة وحدها من الكتاب دون أن يبصر شيئاً مما قبلها ولا مما بعدها ، فذلك أمر مستحيل إذ العبارة مغمورة في كلام طويل من حولها . وهنا نقف ـ ويا للأسف ـ على أخطر خيانة في البحث والنقل ، ألا وهي تعمد تحريف الكلم عن مواضعه وتحميل صاحبها من الوزر ما لم يحمل ، ومحاولة إنطاقه بما هو منه بريء .

والعجيب أننا لو رحنا نفتش في كتب السابقين عن رد واف على أخيلة جب التي ساقها في كتابه هذا ، لما وجدنا رداً أبلغ ولا أوفى مما جاء في كتاب الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة في نفس الصحيفة التي انتزع منها جب هذا النص ليستشهد فيه على ما يقول . ولكأن الله عز وجل ألهمه أن يقطع بذلك السبيل على من سيأتي ليحمّل كلامه ما لا يحمل وأن ينطقه بما لا يمكن أن ينطق به . وإليك مايقوله في ذلك :

(اعلم أنه ﷺ بعث بالحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها

وإشاعة نورها . وذلك قوله تعالى ﴿ مِلَّةَ أَبيكُمْ إبْراهيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] ولما كان الأمر على ذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة وسننها مقررة . إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغييرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها لأنها أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم . وكان بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحيّ فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد ، فضلّ وأضل . وشرع عبادة الأوثان وسيب السوائب وبحر البحائر . فهنالك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد ، وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر . فبعث الله سيدنا محمداً ﷺ مقيماً لعوجهم ومصلحاً لفسادهم ، فنظر ﷺ في شريعتهم فما كان منها موافقاً لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أمر ببقائه ، وما كان منها تحريفاً أو فساداً أو من شعائر الشرك أو الكفر أبطله وسجل على إبطاله)[1] .

ومما لا ريب فيه أن جب قد وقف على هذا النص الذي يأتي عقب تلك الجمل التي نقلها عنه ، وهو كما ترى ليس إلا تفصيلاً لها وبياناً لمضونها كما يعلم كل متأمل . فكيف أمكنه أن يتجاهله ويتغافل عنه ، بل لا يكتفي بذلك وحده حتى يزعم أنه إنما يستند في تقرير أفكاره إلى الدهلوي ، أي إلى هذا الرجل الذي يسحق هذه الأخيلة سحقاً كما ترى ؟

وبعد ، فهذه حقيقة المنهج العلمي المتبع لدى جمهرة الغربيين عندما يدخلون في مناقشة علمية مع الآخرين ، أو حينما يريدون أن يقيموا فرضية أو حقيقة ما ، أو عندما يحاولون استخراج علم أو إدراك يقين من نص أو وثيقة في التاريخ : طريقة استنتاجية أولاً ، ثم إخضاع البحث لمجرد الإرادة والرغبة ثانياً ، ثم القصد إلى تحريف النقول والنصوص ثالثاً .

---

(١) انظر حجة الله البالغة للدهلوي : ١ / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ وكتاب بنية الفكر الديني في الإسلام للمستشرق الإنكليزي جب : ٥٨ .

وحينما نقف على هذه الحقائق ، وشيء من أمثلتها الكثيرة ، لا يسعنا إلا أن نشكر باحثاً مثل عبد الرحمن بدوي ، عندما يحذرنا ـ في صوفية سامية مستغرقة ـ في أعقاب حديثه عن المنهج الاستردادي لدى الغربيين من أن نفسر نصاً من النصوص التاريخية بغير لغة العصر التي كتبت بها ، وأن نتجاهل السياق والسباق ، أو نجازف في فهم إشارة أو عبارة على غير ما يرشد إليه سياق العبارة كلها[1].

بيد أن العجيب في كلامه أنه إنما يتجه بهذه النصائح إلى علماء المسلمين الذين إليهم يعود فضل التنبيه إلى هذه الدقة والأمانة ، وإليهم يعود فضل تطبيقها على أتم وجه ، دون أن يتجه بشيء منها إلى هؤلاء الغربيين الذين أطنب في الإعجاب بهم والحديث عن مناهجهم ممن عرضنا أمثلة مؤسفة لمنهجيتهم الآن ، لقد استعاض عن ذلك بالاتجاه إلى علماء المسلمين متخيلاً أن أحدهم يسرق الآية القرآنية أو الحديث النبوي ـ على حد قوله ـ لتأييد أقوال حديثة لا تمت في الواقع بأي صلة إليها إلا في ظاهر اللفظ .

كنت آمل من عبد الرحمن بدوي وقد تجاهل ما يفعله هؤلاء بالمنهج عند البحث ، أن يذكر لنا مثلاً واحداً لباحث من علماء المسلمين (ممن لا يقلدون أولياء أمره في اتباع منهجهم الاستردادي والتوسمي)نقل نصاً فحرَّف فيه ، أو راح يستنبط الحقائق العلمية الخطيرة بحبال من الاستنتاج يشدها بمجرد الحدس والتخمين .

وبعد ، فإن لك ، بعد استيعاب كل ما ذكرناه ، أن تعجب كل العجب لمن يسمي الحقائق الدينية التي وصل إليها الباحثون المسلمون بمنهجهم العلمي الذي أوضحناه : الاعتقادات ، ويسمي أصحابه بالاعتقاديين . ثم يلتفت إلى ما يتصوره فلاسفة الغرب وملاحدتهم عن الدين فيسميه بالعلم ويسمي أرباب هذا

---

(١) انظر : مناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي : ص ٣٠٧ و ٣٠٨ .

التصور : العلميين ! .. أي أن الدين ، كما فهمه جب مثلاً بلا منهجيته التي رأيناها هو العلم ، وتفكيره في ذلك علمي . وأما الدين كما فهمه علماء المسلمين طبقاً للمنهج العلمي الذي أوضحناه فهو مجرد اعتقاد ، وتفكيرهم محض عمل اعتقادي !.

فكن أنت أيها القارئ العاقل باحثاً موضوعياً نزيهاً ، وأطلق على هذه الطائفة من الناس (عرباً كانوا أم أعاجم ، ومسلمين كانوا أم غير مسلمين) الصفة التي يوحي بها النظر العلمي المجرد .

العامل الرئيسي في إخفاق مناهج البحث عند الغربيين :

ومع ذلك ، فتعال أحدثك عن السبب العميق لهذه الظاهرة العجيبة في هؤلاء الناس :

الغربيون ، ينقسمون في موقفهم من الدين المسيحي إلى قسمين : متدينين قد استسلموا له وآمنوا بكل مضموناته وأحكامه ، وجاحدين لا يستسلمون له ولا ينساقون إلى اتباعه والتدين به .

فأما المتدينون منهم ، فلم يستطيعوا أن يهضموا عقائد دينهم ومقوماته كلها عن طريق العلم والعقل (إذ هو يجابه العقل والعلم في كثير من مقتضياتها مجابهة صريحة لا تحتمل التوفيق والتأويل) ولكنهم وجدوا أيضاً أن فطرتهم الإنسانية تلح عليهم في البحث عن دين يتمسكون به ومعبود يدينون له ، وأيقنوا أن كثيراً من القيم الأخلاقية لا ضمانة لتحقيقها إلا ضمانة الدين وسلطانه في النفس . فأصبحوا بين أمرين لا ثالث لهما أمامهم وفي بيئتهم : إما أن يرفضوا الدين الباطل أو أن يرفضوا العقل الصحيح . ولكنهم آثروا الثاني على الأول ، فرفضوا العقل الصحيح ولم يرفضوا الدين الباطل . فكانوا بذلك حقاً (اعتقاديين) .

وأما غير المتدينين منهم ، فقد آثروا رفض الدين الباطل على رفض العقل

الصحيح . ولكنهم اكتفوا من مقتضيات العقل الصحيح بتفنيد الدين الذي عندهم وتأويله حسب ما يتخيلون ويرون ، دون أن يلتفتوا إلى الدين الحق الذي يسجد العقل والعلم لكل مبادئه وأحكامه فقد صدهم عن ذلك شعور آخر ، هو شعور العصبية والذاتية الأوربية والحذر المستمر من أن يعود المسلمون مرة أخرى إلى سيادة العالم ، كما كانوا كذلك ذات يوم ، فأطلق على هؤلاء اسم (العلميين) .

ثم إنك تعلم أن في العرب والمسلمين أناساً ، تحسبهم أناسيَّ ينطقون ويعقلون ويتكلمون ، وهم في الحقيقة ليسوا إلا ظلالاً شاحبة ممتدة تتحرك بحركات أوربا وأفكار أوربا وفلسفة أوربا .

فهؤلاء الناس رأوا أن الدين في أوربا له تفسيران : تفسير إيجابي هو في حقيقته تفسير اعتقادي محض ، وتفسير سلبي هو ، كما يسمونه هناك ، تفسير علمي محض . فجاؤوا بهذين التفسيرين من هناك وأطلقوهما على الدين الإسلامي هنا ، لا لشيء ، ولكن لمجرد أن يتكامل الظل ويأتي التقليد محكماً من سائر أطرافه .

فهذا هو السبب العميق لهذه الظاهرة العجيبة عند هؤلاء الناس .

وليس يهمنا إطلاقاً أمر هذا الصنف من الناس ، بعد أن يعلم العاقل المتأمل الحر ، من كل ما أوضحته في هذا التمهيد ، أن الإسلام لا يعني تلك المعتقدات التي خاصمت أوربا العقل في سبيلها ، وأن الإسلام يقوم في مبادئه الاعتقادية كلها على منهج علمي دقيق نزيه لا تخطه إلا يد العقل وحده دون أن يكون ثمة سلطان لعصبية أو رغبة في اعتقاد أو تقليد واتباع .



ثانيا

ما الذي أحوج الإنسان إلى العقيدة الصحيحة

عن الكون والحياة والتزام مقتضياتها

يظل بعض الناس ، ممن لم تتهيأ لديهم ثقافة إسلامية كافية يتساءل : ما وجه الحاجة أو الضرورة الى أن يتعبدنا الله (على فرض وجوده) بهذا الدين ويلزمنا بكل هذا الذي يتضمنه من اعتقاد وعبادة وأحكام ؟ وهلاّ يترك هذا الإله عباده أحراراً يقيمون حياتهم على الوجه الذي يريدون ، وينظمونها حسب الشكل أو الطريقة التي يحبون ؟.. وقد تمتد ببعضهم سلسلة هذا التساؤل فيسأل في ضيق وتعجب : وما حاجة الله في أن أحبس نفسي على عبادته العمر كله ، وما الذي ينقصه أو يضره لولم أفعل ذلك[1] .

ولابد من إجابة كافية شافية على هذا السؤال أولاً ، وقبل الخوض في أي بحث من بحوث العقيدة الإسلامية . فلن تتهيأ الأذهان والعقول لاستقبال حقائق التوحيد ومقومات هذا الدين العقيدية مالم تصْفُ الرؤية أمامها ، وتخلص الطريق إليها من كل الشوائب والعقبات والمعوقات .

فنقول في الجواب على ذلك :

إن الله عز وجل حينما تعلقت إرادته بإيجاد هذا الكون بما فيه من الموجودات

---

(١) نحن نؤثر من الناحية المنهجية عدم الإجابة على مثل هذه الأسئلة المتفرعة عن إنكار وجود الذات الإلهية ، إذ إن من المستحيل إقناع السائل بأي جواب مادام أصل السؤال قائماً في ذهنه ، وإنما يجب إهمال هذا السؤال والرجوع به إلى أصل الموضوع وهو البحث في وجود الله عز وجل .
ومع ذلك فقد أحببت أن أعرض للجواب على هذا السؤال في مقدمة بحوثنا المقبلة ، تنويراً لذهن الباحث المؤمن لا إقناعاً لفكر المجادل الملحد .

أنواعاً وأجناساً ، اقتضت حكمته الباهرة أن يختار نوعاً من هـذه الموجودات (وهو الإنسان) فيجعله سيد هذا الكون ويجعل سـائر مظـاهره وموجوداتـه مسخَّرة لـه قائمة بخدمته ، وأن يكل إليه عمارته وأمر تنظيمـه ، فـذلـك هو المعنيٌّ بـالخلافـة في قوله ﴿ وَإذ قالَ رَبّكَ لِلملائِكَةِ إنِّي جـاعِلٌ في الأَرضِ خَليفَـةً ﴾ [البقرة : ٣٠] وهو المقصود بالاستعمار في قولـه : ﴿ هُوَ أَنشَـأَكُم مِنَ الأرضِ واستَعْمَرَكُم فِيهـا ﴾ [هود : ٦١]

الإنسان مجهز بأخطر الصفات والملكات :

فكان أن جهز هـذا المخلوق بمجمـوعـة من الملكات والصفـات ، لابـد منهـا ، لتتكامل لديه القدرة على إدارة شـأن هـذا الكون وتعميره واستخـدامـه فبث فيـه صفة العقل وما يتفرع عنهـا من العلم والإدراك والقـدرة على تحليل الأشيـاء وسبر أغوارها والوصول إلى ما وراءها ، وبث فيه معنى الأنانية ، ومـا يتفرع عنهـا من النزوع إلى الأثرة والتملك ، وبث فيه أسباب القوة ومقومات التدبير ، ومـا يتفرع عنهما من النزوع إلى السيطرة والعظمـة والجـاه ، ثم بث فيـه مجموعـة من العواطف والأشواق والانفعالات تعدّ متممة لقيمة تلك الصفات وفوائدها ، كالحب والكراهية والغضب وما إلى ذلك .

وأنت خبير أن الإنسان لم يستطع تسخير شيء مما في هـذا الكون أو السيطرة على شيء من شؤون الحيـاة ومظـاهرهـا إلا يوم أن جهزه الله تعـالى بهـذه الملكات والصفات .

إلا أن لهذه الصفات شِرةً كبيرة ولها آفات عظام ، وهي أسلحـة ذات حـدين إن استعمل أحدهمـا جـاء بـالتنظيم العظيم للكون وبـالخير الوفير للإنسـان ، وإن استعمل الآخر أو استعملا معاً جـاء ذلـك بـالشر الوبيل والفوضى الهـائلـة وأورث الإنسانية شقاء لا آخر له .

فمن أجل ذلك سمى الله هذه الأسلحة التي ائتمن عليها هذا المخلوق بالأمانة ، وبيّن مدى أهميتها وعظم شأنها في قوله ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأَمانَةَ عَلى السَّمواتِ والأرضِ والجِبالِ ، فَأَبَينَ أنْ يَحمِلْنَها وأَشفَقنَ مِنها وَحَمَلها الإنسانُ إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً ﴾[1] . [الأحزاب : ٧٢]

ومصدر خطورة هذه الصفات ، أنها في حقيقتها ليست إلا صفات الربوبية ، فالعلم والقوة والسلطان والتملك والجبروت ـ كلها مقومات للألوهية وصفات للرب جل جلاله . فمن شأن هذه الصفات إذا وجدت في الإنسان أن تسكره وتأخذ بلبّه وتنسيه حقيقته وتجعله يتمطى إلى مستوى الربوبية والألوهية ، وإن كان الإنسان لا يملك منها في الحقيقة إلا ظلالاً وآثاراً ليس لها من حقيقة الصفات الإلهية إلا الاسم وحده .

ومن نتائج الخطورة التي في هذه الصفات ، أنَّ من شأنها أن تحمل صاحبها على أن يستعمل صفة القوة في ظلم الآخرين ، وأن يشبع نزوعه إلى السيطرة والسلطان في بسط نفوذه وسلطانه على المستضعفين من الجماعات وأن يتجه بما لديه من نزوع للتملك إلى أموال غيره يستلبها ويعثو بها ، ثم من نتائجها أن تتسابق جماعات من الناس بدافع هذه الصفات في ميدان من الصراع الدموي على السلطان والجاه والممتلكات والحكم والقيادة ، ووقائع التاريخ المطردة تدلك على هذا دلالة واضحة .

وهكذا تنقلب هذه الصفات إلى عامل اضطراب وشقاء في حياة الإنسان ؛ وهي إنما ركبت فيه لتكون عامل سعادة ورقي ونظام .

فمن أجل ذلك كان لابد من قوة أخرى توجه هذه الصفات إلى الوجهة الصالحة ، وتمنع الإنسان من أن يستعمل أسلحتها إلا من حدّها المفيد ، فما عسى

---

(١) ممن فسر الأمانة في هذه الآية هذا التفسير العلامة الخنجواني في تفسيره الفواتح الإلهية .

أن تكون هذه القوة التي تسيطر على شرَّة تلك الملكات والصفات جميعها وتدفعها في طريق الصلاح وحده ؟

الدين الحق هو اللجام الذي يقي الإنسان خطورة هذه الصفات :

تلك هي حاجة الإنسانية كلها إلى الدين ، أي إلى العقيدة الصحيحة عن الإنسان والكون والحياة وما وراء ذلك كله .

والعقيدة الصحيحة التي يهدي إليها العقل والعلم ، الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وأن لا سلطان حقيقياً في الكون غير سلطانه ، ولا قوة قاهرة غير قوته ، ولا ملك غير ملكه ، وكل ما وراء ذلك فهو مخلوق لله عز وجل يمنحه حيث يشاء ويسلبه عندما يشاء ، وأنه الرقيب على عباده كلهم ، وسيبعثهم من بعد الموت فيحاسب كلاً على ما كسب أو اكتسب ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

فإذا تأمل الإنسان في هذا كله وآمن به إيماناً جازماً قائماً على أساس من البحث العقلي المتأمل الحر ، شعر في أعماق كيانه كله بأنه عبد لهذا الإله الواحد العظيم . وأصبحت هذه الصفات الخطيرة الهامة التي يتمتع بها أقل من أن تتجاوز به حد عبوديته ، وما هي إلا أن تنقلب فتصبح وسيلة عظمى لسعادته من حيث إنه فرد ولسعادة بني جنسه من حيث الجماعة ، وتقوم بين الناس وشيجة الأخوة والمساواة أمام عبوديتهم لله ، بعد أن كانت تقوم بينهم مسابقات ومنافسات غير شريفة في ميدان تتصادم فيه القوى وتتقارع فيه الأسنة ويقع المستضعف فيه ضحية لنزوات القويّ وسكرة جنونه .

حينئذ تغدو نزعة التملك في الإنسان وسيلة طبيعية لإقامة حياة عادلة رخية يقوم فيها العمران وتخضر في أنحائها الحدائق والجنان ، وتتكاثر في جنباتها الخيرات . وتصبح نزعة القوة والبطش سبيلاً إلى حراسة الحقوق وحفظ العدالة

والدفاع عن المُثل الفاضلة . وتصبح نزعة العلم والإدراك نوراً وهاجاً ينكشف به المزيد من خدمات الكون لهذا الإنسان وقبساً هادياً يؤكد للإنسان دائماً وجود الذات الإلهية ، ويحذره دائماً من أن ينسى حدود عبوديته فيتجاوزها إلى أي كفر أو طغيان .

وبكلمة جامعة نقول إن من شأن العقيدة الإسلامية أن تنزل بالمتألّهين والمتكبرين من عليائهم وجبروتهم ، وتحجزهم عن التطاول على الآخرين ؛ وأن ترتفع بالدهماء والمستضعفين عن مناخ الذل والصغار الذي فرض عليهم ، وتطلقهم فوق صعيد الحرية والكرامة ، وتعيد إلى كيانهم مشاعر العز والإباء . وبذلك يلتقي هؤلاء وأولئك عند حدود عادلة متساوية لا تدع لهذا الجانب أو ذاك فرصة لاستغلال أو وسيلة لاستعباد .

ووقائع التاريخ ونماذج الحياة الإسلامية التي قامت على هذه الأرض خير دليل على هذه الحقيقة البدهية الواضحة .

ويتمثل هذا المعنى بوضوح تام ، في قوله سبحانه وتعالى ، وهو يوضح الحكمة من إرسال موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون منذراً وهادياً : ﴿ إنَّ فِرعونَ عَلا في الأرضِ وَجَعَلَ أَهلَها شِيَعاً يَستضعفُ طائِفَةً مِنهُمْ ، يُذَبِّح أَبناءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إنَّه كانَ مِنَ الْمُفْسِدينَ . وَنُريدُ أن نَّمُنَّ على الَّذينَ استُضعِفوا في الأرضِ وَنجعَلَهُمْ أئِمَّةً ونَجعلَهُمُ الوارِثينَ . ونُمكِّنَ لَهُمْ في الأرضِ ونُري فِرعَوْنَ وَهامانَ وجُنودَهُما مِنهُمْ ماكانوا يَحذَرونَ ﴾ [القصص : ٤ ، ٥ ، ٦] .

فمن هنا كانت حاجة الإنسانية كلها إلى أن تدين لبارئها عز وجل بالاعتقاد الجازم بوجوده ووحدانيته ، وأن تدين له بالعبودية المطلقة في كل شؤونه وأطوار حياته ، أي إن الله عز وجل ليس هو المحتاج إلى شيء من هذه الدينونة له أو

التمسك بأمره ، ولكن سعادتنا الدنيوية ـ فضلاً عن الأخروية ـ هي التي تحوجنا وتضطرنا إلى هذه الدينونة .

وصدق الله رب العالمين إذ يقول ﴿ وَما خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعبُدُونِ ، ما أُريدُ مِنهُمْ مِنْ رِزقٍ وما أُريدُ أن يُطعِمونِ ، إنَّ اللهَ هو الرزَّاقُ ذو القُوَّةِ المتينُ ﴾[الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨] .



ثالثاً

موقع العقيدة من مجموع البنية الإسلامية

تتكون البنية الإسلامية من مجموع عناصر ثلاثة هي :

العقيدة ، التشريع[1] ، الأخلاق .

فالمعنى الإسلامي يتكامل لدى المسلم بالعقيدة الصحيحة إذ تستقر في قلبه وباتباع شرعته في سائر معاملاته مع الله ومع الناس ، ثم بالأخلاق الفاضلة إذ يقيم عليها علاقته مع الآخرين .

غير أن عماد ذلك كله إنما هو العقيدة ، فهو الأساس الأول الذي لابدّ منه . حتى إن هذه العقيدة إذا غمرت القلب كان صاحبه بذلك مسلماً وإن قصر في تطبيق العنصرين الآخرين . ولكنه يكتسب بذلك إثماً يعرضه لعقاب الله تعالى . أما إذا لم تتوفر العقيدة كاملة في يقينه وإدراكه ، فإنه لا يعتبر مسلماً حتى ولو أفنى عمره كله بالعبادة والطاعات وصبغ سلوكه كله بأحكام الشريعة وآدابها .

وفي مثل هؤلاء الناس نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَل نُنَبِّئُكُم بالأَخسَرينَ أَعمالاً ، الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحياةِ الدُّنيا وهم يَحْسَبونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنعاً ، أولئِكَ الَّذينَ كَفَروا بآياتِ رَبِّهم ولِقائِهِ فَحَبِطَت أعمالُهُم فلا نُقيمُ لَهُمْ يومَ القِيامَةِ وزناً ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

من أجل ذلك ، صح أن يطلق الدين على العقيدة وحدها ، إذ هي أساس الأمر كله ، فيقال : فلان يدين بالإسلام أو اعتنق الإسلام ، إذا رأيته قد صدق

(١) نقصد بالتشريع ما يعم العبادات والمعاملات وسائر الأحكام الفقهية .

واعترف بعقيدته كاملة من غير تبديل أو نقص ، واستسلم يقينه لجميع أركانه ، ولا يشترط لصحة هذه التسمية أن يكون ذلك مصحوباً بسلوك عملي في شؤون العبادة أو سائر الأحكام الشرعية الأخرى وإن كان التقصير في شيء منها موجباً للفسق ومعرضاً بناء العقيدة نفسها للزلازل .

العقيدة الصحيحة لا يمكن أن تتعدد وتتخالف :

ثم إن هذه العقيدة لم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه الصلاة والسلام إلى بعثة خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام ، ومضمونها الذي تعاقب الرسل والأنبياء كلهم على الدعوة إليه هو : الإيمان بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص ، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار وما إلى ذلك . فكان كل رسول يدعو قومه إلى الاعتقاد بهذه الأمور ، وكان كل منهم يؤكد بذلك دعوة من بُعث قبله ، ويبشر ببعثة من سيأتي بعده .

وهذا ما وضحه الله عز وجل في كتابه المبين في آيات كثيرة من مثل قوله تعالى : ﴿ وَما أرسَلنا مِن قَبلِكَ مِنْ رسولٍ إلاّ نوحي إليهِ أَنَّه لا إلهَ إلاّ أنا فاعبُدونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدّينِ ما وَصَّى به نوحاً والَّذي أوحَينا إليكَ ، وما وَصَّينا بهِ إبراهيمَ وموسى وعيسى أَنْ أقيموا الدِّينَ ولا تَتفَرَّقوا فيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

بل إنك إذا تتبعت آيات القرآن الكريم ، لاحظت أن اسم الإسلام كان هو الاسم القديم والدائم لهذه العقيدة . تأمل مثلاً في قوله تعالى : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يَهوديّاً ولا نَصرانِيّاً ولكِن كانَ حنيفاً مُسلِماً ومَا كانَ مِنَ الُمشرِكين ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

وفي قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قالوا إنَّا إلى رَبِّنا مُنْقَلِبونَ وَما تَنقِمُ

مِنّا إلاّ أن آمَنَّا بآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتنا رَبَّنـا أَفرِغْ عَلَيْنـا صَبْراً وتَوَفَّنـا مُسلِمين ﴾ [الأعراف : ١٢٥ ـ ١٢٦] .

وفي قولـه تعـالى عن حواريِّي عيسى عليـه الصلاة والسـلام : ﴿ فَلَمَّـا أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكُفرَ قالَ مَن أَنصاري إلى اللهِ ؟ قالَ الحَواريُّونَ نحنُ أَنْصـارُ اللهِ آمَنَّـا باللهِ واشهَد بِأَنّا مُسلِمونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

ومن هنا يتبين لك أن الـدين الحق واحـد لم يتعـدد ، وأن كلمـة (الأديـان السماوية) التي تتكرر على ألسنة عوام الناس اليوم ، كلمـة خـاطئـة فليس ثمـة إلا دين حق سماوي واحد تعاقبت الأنبياء والرسل على الدعوة إليه والبعثة به .

وكيف يمكن للـدين الحـق أن يتعـدد أو يتخـالف على ألسنـة الأنبيـاء والمرسلين ، وإنما الدين يُطلق على العقيدة كما قد علمت ، ومقولات العقيدة تكون دائماً من قبيل الإخبار كما هو معلوم ، والخبر الواحـد لا يمكن أن يُنقل على أشكال ووجوه عـديـدة متخـالفـة ثم تكون كلهـا ـ مع ذلـك ـ أخبـاراً صحيحـة سماويـة صادقة ؟

أجل ، إن الذي تطور وتغير مع الزمن وعن طريق بعثـة الرسل والأنبيـاء ، إنما هو التشريع على اختلافه من عبادات وغيرهـا . والحكمـة في ذلـك أن التشريع إنما هو إقامـة الأحكام التي يتوخى منهـا تنظيم حيـاة المجتمع والفرد ، وبـديهي أن يكـون للتطـور الـزمني ولاختـلاف الأمم والأقـوام أثر في تطـور شرائعهم ، إذ إن فكرة التشريع من أساسها قائمة على ما تقتضيه مصالح العباد في دنيـاهم وآخرتهم ، وهذه المصالح كثيراً ما تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة .

فقـد بُعث موسى عليـه السلام مثـلاً إلى بني إسرائيـل . وكان الشـأن يقضي ـ بالنسبة لحال بني إسرائيل إذ ذاك ـ أن تكون شريعتهم شديدة قائمة في مجموعها على أساس العزائم لا الرخص . ولما مرت أزمنة وبُعث فيهم سيدنـا عيسى عليـه الصلاة

والسلام . جاءهم بشريعة أسهل وأيسر ، وانظر في هذا إلى قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو يخاطب بني إسرائيل :

﴿ ... وَمُصَدِّقاً لِما بينَ يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ ، ولأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيكُم ... ﴾ الآية [آل عمران : ٥٠] . فقد بيَّن لهم أنه فيما يتعلق بأمور العقيدة ، مصدق لما جاء في التوراة ومؤكد له ومجدد للدعوة إليه ، أما بالنسبة للتشريع وأحكام الحلال والحرام ، فقد كلف ببعض التغييرات وإيجاد بعض التسهيلات .

ثم إن التشريعات من نوع الإنشاء ، فلا ضير في تغايرها مع الزمن ولا مانع عقلياً من تناسخها على مرّ الأحقاب .

والخلاصة أن بعثة كل رسول تتضمن عقيدة وتشريعاً .

فأما العقيدة ، فعمله بالنسبة لها ليس سوى تأكيد نفس العقيدة التي بُعث بها من قبله دون أي تخالف أو تغيير . وأما التشريع فإن شريعة كل رسول ناسخة للشريعة السابقة إلا ما أيده التشريع المتأخر أو سكت عنه ، وذلك على مذهب من يقول : شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم يَرِدْ ما يخالفها .

☆ ☆ ☆

وإذن ، فنحن حينما ندرس شؤون العقيدة وبراهينها ، إنما ندرس تلك الحقائق التي ألزم الله عباده بالإيمان والاعتقاد بها منذ بعثة آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وتلك هي العلاقة بين العقيدة الإسلامية وكل ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم صلاة الله وسلامه . وأهل الكتاب يعلمون هذه العلاقة ، ويعلمون وحدة الدين ، ويعلمون أن الأنبياء إنما جاؤوا ليصدق كل منهم الآخر

فيما بعث بـه ، ومـا كانوا ليتفرقوا إلى عقـائـد متبـاينـة مختلفـة ، ولكنهم اختلفوا وتفرقوا فيما بينهم ، واختلقوا على الأنبياء ، مـا لم يقولوه على الرغم ممـا جـاءهم من العلم في ذلك ، بغياً بينهم . وصدق الله العظيم إذ يقول في محكم تبيانه :

﴿ إنَّ الدّينَ عِندَ اللهِ الإسلامُ ، وما اختَلَفَ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ إلاّ مِنْ بَعـدِ ما جَاءَهُمَ العِلمَ بَغْياً بَينَهُمْ ومَن يكفُرْ بآياتِ اللهِ فـإنَّ اللهَ سَريعُ الحِسـابِ ﴾ [آل عمران : ١٩] .



القسم الأول



أولاً
وجود الله عز وجل

مقدمة :

والإيمان بوجود الله عز وجل أساس مسائل العقيدة كلها ، وعنه تتفرع بقية الأمور الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل فيها ثم الإيمان بها .

وبتعبير آخر نقول : إن ما تراه من حقائق الكون كلها إنما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى ، ألا وهي ذات الله عز وجل . ومن المحال أن تدرك ماهية الحقائق المتفرعة الصغرى قبل أن تدرك منبعها وأصلها الأول . فكان لابد إذاً ، لكي تستطيع التعرف على الكون من أن تعرف خالقه أولاً .

قد تقول : ولكني لا أؤمن بالخالق ، فجوابي لك : إن عليك أن تبحث جيداً في موضوع وجوده وأن تحقق في فكرة عدم إيمانك به ، وذلك كي لا تخطئ أخيراً في فهمك للكون ومعنى وجودك فيه .

ولنبدأ السير متبعين المنهج الذي أوضحناه .

(وجود الله عز وجل) : دعوى علمية تتعلق من العلم بجانب لا يخضع للتجربة والمشاهدة .

ولذلك فإن السبيل إلى التحقيق فيها إنما يكون بأحد طريقين :

الطريق الأول : التحقيق في وجود الله مباشرة طبق المنهج الذي ذكرناه بالنسبة للقضايا العلمية غير المشاهدة ، حتى إذا ثبت عندنا ذلك بالبراهين اليقينية ، دلنا وجوده على أنه لم يخلق شيئاً من هذا الكون عبثاً ، ودلنا هذا

بدوره على صدق الرسل والأنبياء فيما بعثوا به من التكاليف ، ودلنا الإيمان بالرسل على الإيمان بالكتب وبالقرآن أنه كلام الله عز وجل ، ثم دلنا الإيمان بكلام الله على الإيمان بكل ما تضمنه من أخبار وأحكام وأوامر ونواهٍ مختلفة ... ولنسمِّ هذا الطريق بطريق التدرج من الأعلى .

الطريق الثاني : ترك البحث في ذات الله ، والبدء بالنظر في خبر نُقل إلينا عن حقيقة هذا الكتاب الذي بين يدينا والذي اسمه القرآن . حتى إذا علمنا بالبرهان اليقيني المتعلق بتحقيق النقول والأخبار أنه قد وصل إلينا بواسطة محمد ﷺ ؛ وأنه قال عنه إنه وحي من الله عز وجل ، أخذنا نحقق في معنى الوحي كما فسره الرسول ﷺ نفسه بالبراهين العلمية المنسجمة مع هذه الدعوى ، وهي برهان التلازم البيِّن وقياس الأولى طبق ما ذكرناه وبشروطه السالفة من الاستقراء التام وغيره .

حتى إذا ثبت لدينا صدق دعوى الرسول ﷺ وأن الوحي حقيقة لا اختيار للرسول فيها وليس معنى شعورياً نابعاً من كيانه ، بحثنا فيما عسى أن يكون مصدراً لهذا الوحي ، ببرهان التلازم القائم على الاستقراء التام . حتى إذا ثبت لدينا بواسطة الاستقصاء أنه لا يمكن أن يكون لهذا الوحي مُنْزِل إلا الله جل جلاله ، دلنا ذلك على وجود الله عز وجل ، وازداد بذلك إيماننا بكل المراحل التي كنا قد اجتزناها بالبحث . ولنسم هذه الطريقة بطريق التدرج من الأدنى . ولنبدأ الآن بالسير في الطريق الأول :

طريق التدرج من الأعلى

كل حقيقة علمية مهما دقت ، لابد أن تعتمد في نهاية الأمر ، على حقيقة ضرورية (أي بدهية) لا تحتاج إلى برهان ، وإلا لظل الباحث يطلب البرهان

تلو البرهان في سلسلة لا تنقضي ، فلا يزول الجهل ، ولا يحل محله العلم .

فما هي الحقائق البدهية التي لا تحتاج إلى برهان ، والتي يستند إليها الدليل على وجود الله جل جلاله ؟

نضع أمامك ، في الجواب على ذلك ، جملة من الحقائق والمبادئ الفطرية التي أجمع العلماء على ضرورتها وعلى أنها هي ذاتها براهين نفسها ، ونقيم عليها البرهان المباشر على وجوده سبحانه وتعالى عن طريق دلالة التلازم البيِّن الذي مر بك في منهج البحث ، هذه الحقائق هي :

١ ـ بطلان الرجحان بدون مرجح
٢ ـ بطلان التسلسل
٣ ـ بطلان الدور
٤ ـ قانون العليّة[١] ..

أولاً ـ برهان بطلان الرجحان بدون مرجح :

ومعنى الرجحان بدون مرجح ، أن يكون الشيء جارياً على نسق معيَّن ، ثم يتغير عن نسقه ويتحول عنه بدون وجود أي مغير أو محول إطلاقاً ، فهذا من الأمور الواضحة البطلان ، وجميع العقلاء يعلمون أن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه ، ولابد لتحويله عن حاله السابقة من محول ومؤثر يفرض عليه هذا الوضع الجديد وينسخ حاله القديمة .

فإذا عرفت هذا ، فلنطبق هذا البرهان على مسألة وجود الله عز وجل :

---

(١) قد تستشكل بأن كثيراً من الناس ـ حتى مثقفيهم ـ لم يسمعوا بهذه الاصطلاحات والأسماء ، فكيف نصدق أنها تتضمن حقائق فطرية يعرفها العقلاء جميعاً ؟ والجواب أن الجديد والغريب عليهم إنما هو التعابير والاصطلاحات . أما مضموناتها فثابتة ومطبوعة في أذهان الناس جميعاً ، كما ستجد .

إن جميع الأمور والأشكال المفروضة في الذهن لا تعدو أن تتصف بأحد أوصاف ثلاثة : الوجوب ، الاستحالة ، الإمكان .

فما اتصف بالوجوب هو ما يحيل العقل عدمه ، وما اتصف بالاستحالة هو ما يحيل العقل وجوده ، وما اتصف بالإمكان هو مالا يحيل العقل وجوده ولا عدمه .

وهذا الكون الذي نراه في جملته ، إنما هو من نوع الممكن ، أي إن العقل يجزم بأنه لا يترتب أي محال على فرض انعدامه ويرى أن من الممكن أن توجد أسباب تعدمه من أصله دون أن يستلزم ذلك محالاً لا يقبله العقل . وإذاً فوجود الكون بحد ذاته ليس ضرورياً وليس ضربة لازب . وكل ما كان هذا شأنه فلابد له من مؤثر خارجي يرجح فيه أحد جانبي الإمكان ويبعد الجانب الآخر عنه . وهذا يعني أنه لابد لهذا الكون الذي كان في أصله قابلاً لكل من الوجود والعدم بحد سواء ، من قوة خارجة عنه مؤثرة فيه خصصته لجانب الوجود ، وتلك القوة هي قوة الله عز وجل .

فإن قلت : إنني أفرض أنه وجد بذاته دون أي قوة مؤثرة فيه من الخارج ، استلزم فرضُك هذا ، القول برجحان الشيء بدون مرجح له ، وهو باطل كما علمت ، فبطلت الفرضية التي استلزمتها أيضاً .

ونزيد المسألة إيضاحاً ، فنقول : لا ريب أنه قد أتى حين من الدهر لم يكن هذا الكون شيئاً مذكوراً إذ كان العدم المطلق هو المنبسط في مكان الوجود اليوم ، ومعنى ذلك أن كفة العدم كانت إذ ذاك هي الراجحة ، وكان الأمر مستمراً على ذلك . ثم إن الأمر انعكس بعدئذ فترجحت كفة الوجود على كفة العدم المطلق . فإن قلت إن العالم وجد بقوة ذاتية فيه دون حاجة إلى موجد ، فمعنى ذلك أنك تقول برجحان كفة الوجود على كفة العدم وانعكاس الأمر الذي كان مستمراً دون

وجود أي عامل لهذا الرجحان أو الانعكاس الطارئ . وهذا أمر يعرف الانسان بطلانه بمحض الفطرة .

إنك لو ذهبت تزعم بأنك قد أمسكت الميزان من حلقه الدقيق وتركت الكفتين فيه بوزن واحد دون وجود أي ثقل إضافي في إحداهما ؛ وبينما الكفتان متساويتان إذا واحدة منهما ترجح والأخرى تطيش دون أي مؤثر خارجي يتصوره الذهن ـ تركت الناس كلهم يشفقون على فكرك وعقلك . فكيف لو قلت لهم بأنك قد وضعت ثقلاً في إحدى الكفتين ، وبينما أنت تمسك الميزان من حلقه والكفة الثقيلة راجحة تنوء بحملها ، إذا الأمر يختلف : تطيش الثقيلة بثقلها وتهبط الخفيفة رغم خفتها ؟!.

إن القول بأن العدم المطلق المستمر ، تحول فجأة إلى وجود يتفاعل ويتوالد دون أي مسبب خارجي لهذا التحول ـ ليس بأقل استحالة وغرابة من دعوى صاحب الميزان .

غير أنك قد علمت أن هذا كله جار على فرض أن المتشكك في وجود الله يقول كما يعتقد عامة العقلاء بأن العالم حادث ، أي سبقه عدم مهما كان عمر هذا الوجود متطاولاً .

ولكن ماذا ، لو قال لنا بعد هذه الحجة البدهية الواضحة : فأنا أفرض أن العالم قديم في وجوده هذا ، لا أول له ولا سبق للعدم عليه وبذلك لا توجد إلا كفة واحدة ولا حجة لك تلزمني فيما تقول ؟..

هنا ننتقل إلى الحقيقة الفطرية الثانية .

ثانياً ـ برهان بطلان التسلسل :

نقول له عندئذ : إنك تعني إذاً أن هذا العالم مستمر بحكم التوالد الذاتي الذي

لا أول له . وهذا الفرض يستلزم إمكان التسلسل ، وقد علم العقلاء كلهم بحكم البداهة أن التسلسل محال ، فيتبيَّن بذلك استحالة الفرضية التي أدت إليه .

ومعنى التسلسل ، فرض أن المخلوقات كلها متوالدة عن بعضها إلى ما لا نهاية ، بحيث يكون كل واحد منها معلولاً لما قبله وعلة لما بعده دون أن تنبع هذه السلسلة أخيراً من علة واجبة الوجود هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات .

فهذا الفرض ، باطل يحكم العقل باستحالته بالضرورة . إذ إن سلسلة المخلوقات الممكنة مهما طالت وطالت ، فإن استمرار طولها لا يخرجها على كل حال عن كونها ممكنة . والممكنات لا بد لرجحان أحد طرفي الإمكان فيها من مرجح كما قلنا . فهذه السلسلة الطويلة التي تقول إنها ماضية في غور سحيق لا ينتهي ، مكونة من حلقات كل منها لم يكن يوجد لولا أن الحلقة السابقة عليها أعطتها الحياة والوجود ، وتلك التي أعطتها الحياة كذلك . إذاً فحلقات السلسلة كلها لا تأثير ذاتي في واحدة منها مهما طالت ، وإذاً فلكي نصدق أنها موجودة لا بد أن ننتظر ظهور المؤثر الخارجي الذي أمد السلسلة بالحياة التي راحت بدورها تنتقل من حلقة إلى حلقة . وإلا كان لا بد من الجزم بأحد أمرين : إما أن هذه السلسلة كلها مفقودة ، إذ لم يثبت وجود ذلك الذي قذف فيها الحياة ، وإما أنها موجودة ولكنها تنبع أخيراً من ذات واجبة الوجود تؤثر فيها ولا تتأثر هي بشيء . فأما الأمر الأول فظاهر البطلان ، لأن الحس والمشاهدة يكذبانه ، والعالم موجود وتوالد العلل شيء مرئيّ ومحسوس . بقي الأمر الثاني وهو تيقن أن لا بد له من مصدر ذاتي وهبه الحياة والقدرة على الحركة والتطور والتوالد ، فبطل التسلسل المذكور .

ولنضرب للمسألة أمثلة أقل صغراً من حجم العالم ، كي يزداد الأمر بداهة ووضوحاً .

١ ـ لو وقفتُ أدعي أمامك حقيقة علمية أستيقنها ، ولما سألتني عن الدليل ذكرت لك برهاناً هو نفسه دعوى مجهولة تتوقف على برهان ، ولما سألتني عن برهان هذا البرهان ، جئتك ببرهان مثله في التوقف على برهان آخر .. وهكذا إلى ما لا نهاية ، أي دون أن تنتهي هذه البراهين كلها أخيراً إلى حقيقة ضرورية معروفةِ بالبداهة ، فإنك تكذبني في دعوى اليقين بهذه الحقيقة ، بل تكذبني في وجودها أصلاً ، إذ لم يقم عليها أي برهان بعد ، وكل البراهين المتسلسلة التي فرضنا أن لا نهاية لها ليست إلا ظلالاً تنتظر أصلها الأول ، فإن لم يوجد ذلك الأصل فهذه الظلال نفسها غير موجودة ، ومن ثم فإن الحقيقة المدعاة أيضاً تكون غير موجودة .

٢ ـ إذا رأيت رقماً حسابياً طويلاً ، يتراصف فيه عدد كبير من الأصفار ، فإنك تسرع لتنظر قبل كل شيء إلى الرقم الذاتي الأول الذي رصفت الأصفار عن يمينه ، وما لم تقع عينك على ذلك الرقم فإنك لا تعطي تلك الأصفار أي قيمة حسابية . فلماذا؟

ذلك لأنك تعلم أن الصفر وحده لا يحوي أي قيمة عددية بحد ذاته ، وإنما يستمد القيمة من الصفر الذي إلى يساره ، وهو أيضاً إنما يستمد القيمة العددية من الصفر الثالث فالرابع فالخامس ... إلى أن تنتهي الأصفار برقم عددي كالواحد فما فوق . فهذا الرقم هو الذي يملك قيمة ذاتية في داخله ، وهو الذي يضفي الحياة والقيمة على الأصفار المتسلسلة التي عن يمينه . فلو فرضنا أن سلسلة الأصفار لم تنته إلى رقم عددي يملك قيمة ذاتية ، فهي أصفار خالية عن أي قيمة بل عن أي معنى من معاني الوجود . وافتراض التسلسل اللانهائي فيها لا يغير من طبيعة الحال ولا يجعل لها أي قيمة .

٣ ـ أبصرت في دار صديقك نباتاً ذا زهر جميل ورائحة زكية ، ولما سألته من أين وقع على هذه الزهرة الجميلة ، قال إنها فرع أخذه من أصل عند دار جاره ،

ولما سألت الجار أجابك هو الآخر بأن الذي عنده ليس إلا فسخاً أيضاً حصل عليه من بيت أحد أصدقائه ، ثم أجابك الثالث أيضاً بمثل جواب الثاني ، وهكذا أجاب الرابع فالخامس فالسادس .. ونفرض أن السلسلة استمرت على هذه الشاكلة . كل منهم يجيبك بأن الذي عنده ليس إلا فسخاً من غيره ، وعبثاً رحت تسير مع هذه السلسلة لتبحث عن أصل هذا النبت ومولده الذي أعطاه الظهور والتكوين وقابلية التفرع بادئ ذي بدء ، إذ قيل لك إن سلسلة هذا التفرع والتفاسخ ماضية إلى غير نهاية .. فما الذي يحكم به عقلك على هذا الكلام عند أدنى تفكير ؟

لا ريب أنه يحكم بكذب هذا الكلام . ذلك لأن التفرع مهما توالد وتكاثر فإنه لا يكون إلا نتيجة وجود أصل ثابت بنفسه يمدُّ تلك الفروع بالوجود أو الحياة ؛ وإذ قيل : إنه لا يوجد له أصل وفرضنا أن القائل صادق ، فمعنى ذلك أنه لم يولد بعد ، وإذاً فلا وجود لشيء من هذه التفرعات المزعومة أيضاً ؛ أما إذا كنت تجد فروع النبات بعينك فمعنى ذلك أن له أصلاً ذاتياً أمدَّ هذه الفروع كلها بالوجود مهما كان هذا الأصل بعيداً ومهما كنت لا تتذكره أو تقف عليه .

إن أي عاقل يدرك أن تسلسل العلل التي تكتسب القدرة على العلية من العلة التي قبلها ، مثل تسلسل الأصفار وتسلسل فروع النبات وتسلسل البراهين المذكورة . ولذا فإن أي عاقل لا يستطيع أن يزعم أن وجود العالم كله ليس قائماً إلا على سلسلة متوالدة من غيرها دون أن يكون قبلها مؤثر ذاتي خارج عن حقيقتها واجبُ الوجود ، إلا إذا صح له أن يزعم بأن قيمة المليون لم تتكون إلا من أصفار تتعاور القيمة فيما بينها دون أن تستند إلى رقم ذاتي قبلها ، أو أن يزعم بأن الورد المتوافر في الحدائق والبيوت ، ليس في أصله إلا فروعاً مأخوذة من بعضها دون أن ترجع إلى نواة كانت قد أمدتها بأصل الوجود .

ونقول ، في هذا ، ما يقوله العلامة الجليل الشيخ مصطفى صبري في كتابه الشامخ (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين) :

« إذا قلت للملحد : ما هي علّة وجود هذا الموجود الذي يحتاج إلى علّة موجدة ، فأجاب بأنها وجود موجود آخر يتقدمه ... ثم قلت له : وماذا علّة وجود ذلك الموجود المتقدم فأجاب بأنها وجود موجود ثالث أقدم في الوجود ، ومثل الثاني في الحاجة إلى العلة الموجدة ، ولم يقطع سلسلة الجواب على هذا المنوال مهما أطلت وتوغلت في السؤال ـ فاعلم أن هذا الخصم يخدعك ويغالطك ويعللك في أجوبته بما ليس من الجواب في شيء ، كما يخدع نفسه قبلك ويغالطها ويعللها . أعني أنه يعجز عن أن يريك علة لوجود ذلك الموجود الذي سألته أولاً عن علة وجوده ، فيفر من الجواب على سؤالك غير شاعر أنه يفر . ثم يحاول أن يستر فراره من الجواب بإحالة الأمر على ظلمات ماضٍ لا بداية له . والذي يخيله إليك أنه علة قبل علّة ثم يستمر في هذا التخيل حتى تحصل من ذلك سلسلة من العلل لا بداية لها ، فليس شيء من ذلك العلة إذ لا أصل لها ولا وجود[1] » .

وبعد هذا كله فإن فرض التسلسل منقوض بالحس والمشاهدة نفسها ذلك أننا جميعاً نعلم بأن هناك مخلوقات نوعية انقرضت وانتهت فلو صحّ أن الموجودات تتسلسل إلى ما لا نهاية بأن يكون كل حلقة فيها معلولاً لما قبلها وعلة لما بعدها ، لما انقرضت هذه الموجودات . إذ كيف تنقرض وهي علة لما بعدها ؟ فلما دلّ الحس ودلّت المشاهدة على انقراضها وعدم استمرارها في التوالد علمنا أن الحلقة الأخيرة فيها معلولة فقط وليست بعلة كسابقتها ، وهذا إخلال بنظام التسلسل المزعوم وطبيعته ، ودليل على أن ثمة مؤثراً خارجياً زيادة على نظام التسلسل الرتيب .

☆ ☆ ☆

(١) موقف العقل : ٢ / ١٨٢ وإذا أردت مزيداً من التفاصيل والبسط في أبحاث العقيدة وبراهينها المختلفة فعليك بهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في هذا العصر .

ثالثاً ـ برهان بطلان الدور :

ثم إننا نفرض أن المتشكك فكّر ملياً ثم قال : فأنا أرجع إلى أن العالم حادث كما قلت أولاً ، وله علة أثرت في إيجاده ، ولكن لا تتمثل هذه العلة في أكثر من التفاعل الذاتي المتدرج . فلم يكن الوجود أول نشأته أكثر من هواء يملأ الفراغ ، ثم وجد السديم وتعقدت منه أبخرة وغازات معينة ثم تكاملت من ذلك العناصر الأولية للحياة كالكربون والأيدروجين والأكسجين ، فتلاقت من ذلك مركبات عضوية لا حصر لها . ومرّت على ذلك ملايين السنوات وهي تتفاعل خلال ذلك متنقلة من طور إلى طور بعامل الزمن والاستمرار ، إلى أن تكاملت أخيراً عناصر الموجودات الحية وغيرها ، فالعالم حادث ، ولكن الذي سبب حدوثه ووجوده هو هذا التفاعل الذي بدأ بأبسط الموجودات ثم ترقى صعداً إلى أعقدها وأعلاها .

فالجواب أن هذا الفرض يستلزم القول بالدور ، والدور فرضية باطلة لا تتحقق باتفاق العقلاء .

ومعنى الدور الباطل أن يتوقف الشيء ، في وجوده المطلق . أو تكييف معين له ، على شيء آخر . إلا أن هذا الشيء متوقف في ذلك الوجود أو التكييف وفي نفس الوقت على ذلك الشيء الأول . فمن المحال إذاً أن يوجد أو يتكيف هذا الشيء أو ذاك . ولا يمكن أن تجد عاقلاً يقول : بل إنهما تعاونا فأوجد كل منهما الآخر .

مثال ذلك ما لو فرضنا أنك حاولت الانتساب إلى كلية التربية ، فقيل لك إن ذلك متوقف على أن تكون موظفاً في سلك التدريس الرسمي ، ولما حاولت أن تدخل في سلك التدريس قيل لك إن ذلك متوقف على أن تكون متخرجاً من كلية التربية . إن من البدهي أنك لن تستطيع أن تحقق لنفسك أي الغرضين ما دام الأمر كذلك .

ومثاله أيضاً ما لو قلنا إن وجود البيض متوقف على وجود الدجاج ، ثم نقول إن وجود الدجاج نفسه متوقف على البيض ، وفرضنا أن لا وسيلة إلى وجود هذا ولا ذاك إلا عن هذا الطريق ، فإن من البدهي أن كلا الأمرين يظلان معدومين حتى يأتي مؤثر خارجي يفك طوق هذا الدور[1] .

إذا علمت هذا ، نقول لمن أقر بحدوث العالم وادعى أنه وجد بتأثير نفسه : ما هو أول نواة أو ذرة من ذرات العالم سبقت غيرها في الظهور إلى الوجود ؟ ومهما كان هذا الشيء فإنا نقول : فما هي العلة التي أوجدته وأنهضته من ظلمات اللاشيء فوضعته في أول مدارج الوجود ؟

إن قولك التفاعل الذاتي ، يعني أنه هو العلة المؤثرة في إيجاد ذاته ، أي إنه حينما كان في ظلمات العدم المطلق ، كان وجوده متوقفاً على أن يولد خارجاً من جوف عدمه هذا ، فإذا ولد وظهر في ساحة الوجود تهيأ بذلك لأن يصبح علة لوجوده ، وهذا ما قد حصل ، فقد ولدت هذه الذرة الصغيرة أولاً من جوف العدم فأصبحت بذلك علّة لإيجاد نفسها !!. وهذا هو الدور في أوضح أشكاله .

فهل تستطيع أن تُبقي في رأسك ذرة من ذرات العقل ثم تصدق هذا الكلام ؟

ولا يقلب هذا الباطل حقاً أو يصير هذا المستحيل ممكناً ، أن تخدع نفسك فتلقى له تعبيراً أملس ظريفاً مثل كلمة : التفاعل ، والتوالد الذاتي وما شابه ذلك . فلو كانت في الألفاظ والتعابير قوة التحويل وقلب المعاني لكان في كلمة

---

(١) ينقسم الدور إلى قسمين : مصرح ومضمور . فالمصرح كما إذا قلنا : إن « آ » متوقف على « ب » و « ب » متوقف في الوقت نفسه على « آ » . أو أن يكون الشيء موقفاً على نفسه باعتبار واحد كما إذا قلت أن وجود « آ » متوقف على وجود « آ » وكمثالنا في توقف وجود العالم على نفسه .

والمضمر هو أن نقول : إن « آ » يتوقف على « ب » و « ب » يتوقف على « ح » و « ج » يتوقف على « آ » . فلقد زادت حلقة في نطاق الدور ولكنها عادت أخيراً فتوقفت على الحلقة الأولى ، فيتحقق البطلان أيضاً .

(الطبيعة) و (انتخاب الطبيعة) و (البقاء للأصلح) وما إلى ذلك ما ينسخ الحقائق الضرورية كلها ويقلب العلم جهلاً ، والجهل علماً ، ولكان الناس في غنى عن تحمل مشاق العلم والبحث عن حقائق الأشياء إذ إن لهم في بضاعة الألفاظ والحرية في صياغتها كما يحبون ، مندوحة عن تحمل ذلك الجهد الذي لا داعي إليه .

ولكن العقلاء كلهم يعلمون أن الألفاظ والصياغات إنما تأتي من وراء الحقائق وليست الحقائق هي التي تنساق خاضعة لإرادة الألفاظ .

☆ ☆ ☆

والآن : تبين لك أن القول بحدوث العالم طفرة بدون أي علّة تؤثر فيه باطل . لأنه يستلزم فرضية بدهية البطلان وهي : الرجحان بدون مرجح .

وتبين أن القول بكونه قديماً باطل لأنه يستلزم تسلسل الممكنات إلى ما لا نهاية ، والتسلسل باطل بالبداهة أيضاً .

وتبين أن القول بكون العالم علّة نفسه والمؤثر في إيجاده ، يستلزم القول بالدور ، وهو أيضاً من الأمور الباطلة بالضرورة .

فما الذي بقي ؟ بقي أن العالم لا بد له من موجد مستقل عنه أوجده ، وهذا الموجد لا يحتاج بدوره إلى موجد له ، وهو ما نسميه بالذات الواجبة الوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وقد ظهر وجود الله عز وجل ، بالدليل اليقيني القائم على برهان التلازم المرتكز على الاستقراء التام .

قانون العلية أو « العلة الغائية » :

ولننتقل بعد هذا من برهان التلازم إلى القياس .

سنعرض أمامك حقيقة أخرى من الحقائق الثابتة بالبداهة المطلقة ، نقيم عليها برهاناً قطعياً آخر على وجود واجب الوجود جل جلاله ، عن طريق القياس اليقيني الأولى القائم على الاستقراء التام .

هذه الحقيقة هي ما يصح أن نطلق عليه اسم : (دليل العلّة الغائية) أو دليل الحكمة والنظام الكوني[1] .

وإليك بيان هذه الحقيقة ودلالتها ، في مثال صغير ثم في أكبر منه ، ثم في ما نحن بصدده من مظهر هذا العالم .

١ ـ افرض أنك نظرت إلى وعاء أمامك ، فوجدت فيه نِثاراً من الآلات المختلفة الدقيقة ، ولما تأملتها جيداً ، بدأت تدرك صلة انسجام وتآلفٍ بين جزئيات هذه الآلات ، واكتشفت أن لكل واحدة منها مكاناً تركيبياً دقيقاً من الأخرى ، فأخذت تجمع هذه الأجزاء إلى بعضها وتؤلف بينها وفق هذا التركيب المصممة على أساسه ، وعندما فرغت من وضع آخر آلة منها في موضعها ، فوجئت بصوت دقيق رتيب ينبعث في حركة مطردة من داخل تلك الآلات التي انقلبت

---

(١) العلة الغائية والعلة الباعثة بمعنى واحد ، وهي عبارة عن القصد الذي يدفعك إلى تحقيق عمل من الأعمال . فلولا قيام هذا القصد بذهنك واتجاهك إلى تحقيقه لما قمت بهذا العمل المعين . فقد كان قصدك هذا علة لوجوده .

ومن شأن العلة الغائية هذه أنها تسبق المعلول في الوجود الذهني ، وتتأخر عنه في الوجود الخارجي . فالحصول على الشهادة علة غائية لدراسة الطالب . وهو أمر مركوز وموجود في الذهن قبل الدراسة ، ثم يصبح موجوداً في الخارج من بعدها .

وليس معنى استدلالنا بهذه الظاهرة في الكون على وجود الله ، أننا نعلل أفعال الله بالعلل الغائية . إذ ليس شيء من موجودات الكون وسائط حقيقية إلى تحقيق غايات معينة عند الله عز وجل . ولو كان كذلك لأدى ذلك إلى وصف الله بالعجز . ولكن المقصود أن الكون مركب فى وجوده ووجود أجزائه على نحو تنظيمي معين يستتبع غايات هامة للإنسان . مع العلم بأن الله كان ولا يزال قادراً على أن يحقق له هذه الغايات بدون وساطة شيء من مظاهر الكون .

ولهذا البحث تفصيل واف سنعرض له عند الحديث عن معنى صفة الإرادة لله عز وجل .

إلى جهاز متكامل ، وتأملت فإذا هي ساعة زمنية تضبط سير الزمن وحركته ـ فما الذي تدركه عقب هذا كله ؟

إنك تدرك بدون ريب أن لكل آلة من تلك الآلات الدقيقة ، غاية جزئية معينة قد هُيئت لتحقيقها ، وأن لمجموعها غاية نوعية واحدة هي : ضبط الزمن .

وتدرك مع هذا ـ بدون ريب أيضاً ـ أن هناك مدبراً وراء دفع هذه الآلات الدقيقة إلى تحقيق تلك الغاية النوعية العظيمة .

٢ ـ افرض أنك دخلت إحدى المطارات العالمية الفخمة ، ومعك حقائبك التي شغلت بها كلتا يديك ، ولما دنوت إلى الباب الزجاجي المغلق فوجئت بكلا مصراعيه ينفتحان أمامك في حركة تلقائية مجردة .

حتى إذا دخلت وتجاوزته عاد مغلقاً كما كان ، وبينما أنت تشكر هذه المصادفة العجيبة التلقائية ملتفتاً إلى الباب في دهشة واستغراب ، إذا به ينفتح مرة أخرى في استقبال قادم آخر مثلك ، وعندئذ وضعت حقائبك تتأمل ، فرأيت أن المسألة تتكرر بانتظام كلما جاء قادم ودعت الحاجة !..

ولما رحت تبحث عن حقيقة الأمر بدافع التطلع الفكري لديك ، أدركت أن الباب يرتكز على جهاز خفي من تحته ، سرعان مايتأثر عند اجتياز شخص من فوقه ، على نحو يدفع مصراعي الباب إلى التجافي والانفتاح .

وينقدح في ذهنك بحكم البداهة أن لهذا الجهاز وحركته هذه علة غائية ، هي تسهيل المرور على المسافر الذي قد لاتساعده يده ـ لما يحمل معه من أمتعة ـ على دفع الباب : ولما كانت هذه الغاية الإنسانية الرائعة مما لا يمكن أن تسند إلى الآلات الجامدة التي لاتحس ولاتعقل ، فقد كان لابد أن يكون هذا التصميم من تدبير بعض المفكرين .

فهذا المعنى الذي ظهر لك في هذين المثالين ينطبق على كل الأمثلة المشابهة ،

فما من مجموعة تركيبية معينة تتناسق في سبيل تحقيق غاية تطرد في تحقيقها ، إلا ومن وراء هذه الجملة عقل مدبر . واضرب مثلاً لذلك جميع الأجهزة المتنوعة المختلفة ، وجميع مايسمى بالمصنوعات من ألبسة ، وأثاث ، وفرش ، ودور ، وغير ذلك .

فهذه هي الحقيقة البدهية التي يطلق عليها اسم : دليل العلّة الغائية أو دليل الحكمة والنظام في الشيء . وهي أصل في مسألة الدليل على وجود الله ، يقوم على علة مؤثرة ثابتة بالاستقراء التام .

فإذا انتقلت بعد ذلك لتنظر إلى بناء هذا الكون العجيب ، رأيت في تراكب أجزائه بعضها مع بعض ، وفي تراكب أجزاء أجزائه ، وفي تراكب ذراته الدقيقة التي لاتتجزأ تطابقاً على أدق مايمكن أن يتصور من معاني الدقة ، ورأيت الأجزاء الصغيرة فيه مندفعة إلى تحقيق غايات معينة بالتآلف مع الأجزاء الأخرى ورأيت بعد ذلك مجموع الأجزاء والجزئيات مندفعة إلى تحقيق غايات نوعية سامية ضمن ظروف وشروط دقيقة لو تخلف بعض منها أقل مايمكن أن يتصوره الذهن من التخلف ، لما تحققت تلك الغايات بل لسرى الفساد إلى جميعها !..

ولو رحت تسرد وتصف مظاهر التنظيم والتناسق بين شتى المكونات التي تراها أمامك لضاق العمر كله عن استقصاء ذلك وتجليته ، ولارتدَّ إليك الفكر خاسئاً كليلاً من روعة التدبير العجيب الذي يسري بدءاً من كهارب الذرات ، إلى الأرض وشتى ما عليها من مكونات إلى السماء وشتى مافيها من أفلاك ، كلها تسير وفق نظام رتيب لايتخلف ، وكلها يطوف حول غايات رائعة عجيبة ينتهي معظمها إلى خدمة هذا الإنسان ومصلحته !..

تتأمل في الأرض ، فتجد أن لها وزناً معيناً ، يمدها بقدر معين من الجاذبية ، وتتأمل في هذه الجاذبية فتجدها مقدرة بالقدر الذي يقيم الإنسان في حياة منتظمة عليها !..

فلو زاد وزن الأرض ، لزادت جاذبيتها ، ولو زادت جاذبيتها ، لما استطاع الإنسان أن يتنقل عليها ولالتصق بها فما يملك إلا أن يجر نفسه عليها جراً . ولو قلَّ وزن الأرض ، لقلّت الجاذبية ، ولما أمكن الإنسان أن يستقر عليها كما يريد . ويدلك هذا بوضوح على أن للأرض غاية هي أن تكون قراراً ومهاداً للإنسان يجد عليها مستقره الآمن .

وتتأمل في عينك الباصرة فتجدها في جملتها وتفصيلها قائمة على أدق قوانين الرؤية التي لايزال يحار العلماء في فهمها . ثم تنظر فتجد قوانين الضياء في الكون قد مهّدت لها وعبّدت لها الطريق من قبل ، فلا تشك في اجتماع هذه وتلك على غاية معينة هي أن ترى بهذين الثقبين العالم المرئي أجمع . ويتجسد أمامك هذا المعنى عندما تستمع إلى أي عالم وهو يصف لك دقائق العين مثلاً وكيفية تركيبها ، تجده لا يفتأ يستعمل لام التعليل في كل جملة من كلامه . فتجده يقول عن الأعصاب الممتدة من المخ إلى العين ، إنها متصلة بها لتنقل إلى (الرطوبة الجليدية فيها) أخبار الصور القادمة فترتسم فيها . وإنما كانت (العنبية) : تلك القشرة السوداء التي تحت (القرنية) ملونة بالسواد لتحصر الأجسام المشفة وراءها فلا ينتشر ماحصل فيها من الضياء ، وإنما كانت (القرنية) محدودبة لتتجمع فيها الصور .. إلخ . وهكذا فإن الباحث لايستطيع أن يحلل ويصف دون الاستعانة بلام التعليل ؟.. ولكن ماالذي يسوقنا إلى هذا التعليل الذي هو من أعقد عمليات الإرادة والإدراك ؟ أيتصور العقل ولو لحظة واحدة أن تكون مجموعة تلك الرطوبات واللزوجات والأعصاب هي التي تريد ، ثم تربط ، وتتوسط وتعلل ؟!..

وتتأمل في رئتك ، فتجد أنها منسجمة مع نسبة مولد الحموضة في الجو حتى لو ازدادت أو نقصت لما تهيأ لك الشرط الكامل للحياة ، فلا تشك أن هذين المظهرين يلتقيان لتحقيق غاية متعلقة بتحقيق كامل الأسباب لحياتك .

وتتأمل في ذاتك وما أودع فيها من القوى المدركة (وأنت جزء من هذا الكون كما تعلم) فتجد أنك قد أعطيت سلاحاً لاينتهي العجب من شأنه ولا يقف عقل العالمين كلهم على حقيقته . وتتأمل فتعلم أن لوجود هذه القوة غاية معينة هي أن تسخِّر بها كل ماتراه حولك من مظاهر المكونات وأن تمتلك بها مقاليد الاستفادة منها وأن تسبر غورها وتصل إلى جذورها وقوى الفاعلية فيها .

وقس على هذا الذي ذكرته لك سائر مظاهر الكون المختلفة التي تراها أو يصل فكرك إليها . فترى أنها جميعاً تسير نحو غايات معينة تمد هذا الوجود بأدق صور التناسق والتنظيم ، وتمد الإنسان بالرحمة والقدرة على كل ماهو بسبيله من شؤونه المختلفة .

إذا علمت هذا ، فلا مناص من أن تستيقن مايلي :

كما أننا نقول أن ظهور العلة الغائية في الأجهزة والمصنوعات الإنسانية المختلفة دليل قطعي على وجود مدبر صممها على هذا النحو إذ لاتملك الأجهزة الجامدة أن تفكر لتسير بنفسها نحو غايات معينة ـ فإن ظهور العلة الغائية في هذا الجهاز الأعظم ، الذي هو الكون ، بهذا المظهر العجيب ، دليل قطعي أيضاً على أن من ورائه مدبراً له يدفعه في طريق غاياته هذه ، وهي غايات لايمكن أن تلتقي أجهزة البشر كلها (متعاونة) على استهداف مثلها .

هذه الحقيقة الواضحة ، التي تشكل برهاناً يقينياً آخر على وجود الله جل جلاله ، والتي يسميها الغربيون (العلة الغائية) وعلماء الكلام (دليل الحكمة والتناسق) هي التي يظل القرآن يوجه العقول إليها بأساليب رائعة مختلفة يفهمها الناس على اختلاف مستوياتهم وثقافاتهم .

وهو برهان يخرس ألسنة الملحدين ويسدُّ دونهم منافذ الحيل كلها ، غير أن من أراد الله عز وجل أن يحيق به عقابه الخالد (إذ لم يشكر نعمة العقل الذي في

رأسه فيستعمله في البحث الحر) يجعل عقله في غطاء من هذه البراهين البدهية القطعية كلها . ولذلك لاتعجب أن تجد قائلاً منهم يقول :

إن كل ماتقوله يحتمل أن يكون بمحض المصادفة !.. ويذهب يمثل كيف أن ذلك يحتمل ، فيقول : إننا لو نثرنا كمية كبيرة من الحروف المطبعية على سطح فسيح أملاً في أن يتشكل منها ديوان شعر لمثل (هوميروس) أو (فيكتور هوجو) وتكررت هذه المحاولة سنوات طويلة تقدر بالملايين ، فربما يحصل في كل مرة أو مرات من نثر تلك الحروف تشكُّلُ جزء من تلك القصائد ثم جزء آخر ، وهكذا حتى يكتمل الديوان خلال الزمن الطويل ذاك !..

فأنت إذا تأملت في هذا الكلام ، وجدت الرجل يهذي بما لايعقل ! بل إنك لتعجب من أن يصل به الهذيان ـ وهو يصطنع البحث والفكر ـ إلى هذا الحد ..

ولأنقل لك في تصوير هذا الهذيان مايقوله تعقيباً عليه العلامة الأستاذ مصطفى صبري في كتابه موقف العقل :

« يُردُّ عليه بأن عدم الانتظام لايتحول بنفسه إلى نظام ولو دام ألف ألف عام ، بل يزيده الدوام تشوشاً وارتباكاً ، ولايجديهم نفعاً تصور احتمال تشكل جزء من قصائد الديوان في كل فترة ، إذ لايكون من حقهم أن يفرضوا حفظ الجزء المتشكل ونثْر ماعداه في المرة الثانية حتى يتشكل جزء آخر ، وهكذا إلى أن يتم شكل القصائد كلها ـ بل يلزم أن يفرض في كل مرة نثر جميع الحروف المنثورة في المرة الأولى الشاملة لحروف الجزء المتشكل ، فينقض في المرة الثانية ماانتظم في الأولى ، وإن كان في الإمكان تشكيل جزء آخر فسينتقض هو الآخر في المرة الثانية ، ولو لم نفرض هكذا ، لكان حفظ الأجزاء المتشكلة في أي مرة وحصر تكرار النثر في الباقي بعد تلك الأجزاء ـ نظاماً مقصوداً ، فيلزم خلاف المفروض الذي هو عدم القصد إلى النظام »[1] .

---

(١) موقف العقل : ٢ / ٣٤٨ .

وليس هذا هو مبلغ هذيانهم العجيب ، بل إنهم ليشتطون عن ذلك إلى إنكار أن تكون العيون مخلوقة فينا للإبصار ، والآذان للسمع ، والعقل للتفكر والفهم ، إذ لو لم ينكروا ذلك للزم عليهم القول بأنها مخلوقة لعلل غائية ، وتكون حينئذ مصنوعة لهذه الفائدة من قبل صانع فعل ذلك عن إرادة . فيتهربون عن هذا اللزوم ، ولو كلفهم ذلك أن ينهضوا بأعباء مكابرة لايتصورها العقل . فتراهم يقولون : إن العين التقت مع الإبصار بمحض المصادفة ، والتقت الأذن بالسمع بمحض المصادفة أيضاً ، والتقى هذا المخ في جوف الرأس مع الفكر بمحض المصادفة أيضاً .

وأنا أقول : لعمري ولعمر الحق ، إن هذا الهذيان نفسه من أبلغ البراهين الناطقة بوجود الله !.. فما كان للعقل أن يتعطل عن الاهتداء إلى أوضح ما هو واضح أمامه ، لو أن سيره إلى فهم الأشياء كان بشكل آلي مجرد . أما وقد تعطل عن الفهم رغم وجوده ووجود كل مقومات الفهم (بعد أن جنح صاحبه إلى الإلحاد في ذات الله واستكبر عن التأمل المنصف) فإنه لأبلغ دليل على أن هذه القوة إنما هي من تدبير فاطر حكيم أوقفها عن الإنتاج في رأس هذا المستكبر ، جزاء لاستكباره ، وتحقيقاً لسبب عقابه الخالد يوم القيامة .

فإذا تأملت في هذه البراهين التي عرضناها ، أدركت أن كلمة « الإلحاد » لاتعني شيئاً أكثر من مخاصمة العقل ، مهما كان نوع هذا الإلحاد ومنبعه ، ومهما كانت فلسفته أو دوافعه .

ولكنك لاتجد في أنواع الإلحاد أوغل في المكابرة والمخاصمة للعقل من ذلك النوع الذي يقوم على الفلسفة المادية التي تزعم أن المادة هي أمّ الوجود وأبوها ، وأن جميع مظاهر الكون إنما تنبعث وتتصاعد عن طريق تلاقي المتناقضات وتقارعها ، حيث يتغلب الأفضل ويذهب الآخر جفاء !.. وهي فلسفة نمت وترعرعت يوماً ما في جهة من جهات العالم ، ثم إنها خبت وذوت واضمحلت

وتقوض بناؤها الفكري الذي كانت قد أقيمت فيه ، ولم يبق إلا هيكل سياسي مجرد يمسكها وتمسكه : يمسكها لتكون الركن المثبت له وتمسكه ليكون البوق المؤيد لها .

وهذه الفلسفة محجوجة ـ على كل حال ـ بكل تلك البراهين التي ذكرناها ، ثم هي محجوجة بعد ذلك بأوضح المسلمات البدهية التي تقوم على معارضتها ومخاصمتها :

ونحن نناقش هذه الفلسفة في كلا فرعيها المعروفين عند أربابها باسم :

ـ المادية الجدلية

ـ المادية التاريخية

ونبدأ بمناقشة الفرع الأول منهما فنقول :

إن من المسلمات التي يؤمن بها العقل ، أياً كان الرأس الذي هو فيه : أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد ومكان واحد ، ولا يتولد أحدهما من الآخر . فالسواد واللاسواد نقيضان ، ومن ثم فإنهما لا يمكن أن يلتقيا في زمن معين واحد ، بحيث يصدق في لحظة من اللحظات أن يتصف ذلك المكان المعين بكل من السواد المظلم والبياض المشرق معاً ولذلك لا يمكن أن ينشأ السواد المظلم من جوهر البياض المشرق ، إذ هو يستلزم في الحقيقة تولد الشيء من نقيضه ، والتقاءهما معاً ولو للحظة واحدة ، وهو ظاهر الاستحالة[1] .

ومن المعلوم أن المادة التي هي موجود ، جامد لا يحس ، نقيض الروح التي هي موجود يشعر ويحس . فإذا زعمنا أن أصل الحياة التي في الكون ، بل أصل الموجودات كلها إنما هو المادة ـ فمعنى ذلك أن الحياة التي تسري في أبداننا إنما هي ناشئة من المادة الجامدة التي تناقض الحياة ..

---

(١) اقرأ بسط هذا الكلام في كتاب نقض أوهام المادية الجدلية ص ٥٧ ـ ٦٦ لمؤلف هذا الكتاب .

ولا مفر لدى البحث عن أي معنى لهذا الكلام ، من فهم أحد معنيين فقط لا ثالث لهما :

فإما أن يكون المعنى هو التزام أن بين المادة الجامدة والحياة تناقضاً وأنها مع ذلك تلاقيا بل كان الأول منهما منشأ للثاني ، وواضح أن هذا المعنى مكابرة عجيبة للعقل ! ..

وإما أن يكون المعنى أن المادة ليست كما نظنّ نقيضاً للحياة ، بل هما يلتقيان في حقيقة جوهرية واحدة ، وإذاً فلماذا يصرون على أن أصل الحياة هو المادة ولا يقولون إن أصل المادة هو الحياة ؟ وما الفرق بين التعبيرين ما دامت المادة ليست (على هذا المعنى) نقيضاً للحياة بل تلتقي معها في جوهر وفي صعيد مشترك ؟

ويبقى هذا السؤال بلا جواب ، ما دام أنه لا يوجد بيد الماديين أو في فكرهم أيّ دستور يوضح العلّة في أن الحياة هي التي نشأت عن المادة وليس العكس هو الذي تمَّ .

ويصبح القول بأن المادة هي أصل الحياة ، كلاماً اعتباطياً مجرداً ، لا يقوم على أي برهان أو مرجح .

وهكذا يبدو لك تهافت قولهم : المادة مصدر الوجود كله ، سواء فسرته على المعنى الأول أم على المعنى الثاني ، ولن تجد له أي معنى ثالث إطلاقاً .

ثم إن هذه (الفلسفة) محجوجة بعد ذلك بواقع التجربة الملموسة . فإذا كانت الحياة ليست إلا ثمرة من ثمار المادة الجامدة ، فلماذا لا يفهمون سر الحياة ، ولماذا لا يوجدون الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي ولماذا لا يقفون على العناصر المادية التي تكونت بتآلفها الحياة ؟

لقد امتدت آفاق العلم حتى حوت دقائق المادة ، وأسرارها ، وذراتها ، وحتى

استجلى العلم دقائق الذرة نفسها ، ومكمن الطاقات التي فيها ، فكيف نعقل أن ينبسط سلطان العلم إلى هذا الحد فيما يتعلق بالمادة التي هي المنشأ والأصل ثم يتقلص سلطانه كل التقلص ويفقد فقداناً مطلقاً فيما يتعلق بالحياة التي هي ثمرة وفرع ؟

وهل صدّق إنسان أن عالماً وقف على التحليل الدقيق لشجرة من أدنى جذعها إلى أعلى ورقة فيها ، فلما أراد أن يعلم علماً عن ثمارها استغلقت عليه ولم يفهم منها أي شيء ؟ ..

ولعلك تقول : فما أدراك أنهم لم يبحثوا عن الحياة ولم يفهموا شيئاً عنها ؟

والجواب أن كلمة علماء العالم كلهم قد اجتمعت على أن العلم لم يتوصل إلى فهم شيء عن حقيقة الحياة ، وأن موضوع الروح يدخل ضمن القضايا الغيبية التي لا سلطان للعلم عليها .

فأول الذين اعترفوا بهذا الجهل ، أنجلز ، زميل ماركس في وضع الفلسفة المادية وترويجها فهو يقول في كتابه « انتي دوهرنغ » ما نصه :

(.. إنه - يقصد العلم الطبيعي - لم ينجح بعد في إنتاج الهيولى البسيطة والأجسام الآحينية الأخرى من العناصر الكيميائية وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن ، أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة) ..

ثم مر الزمن ، وتقدمت العلوم وجاء عام ١٩٥٩ حيث التقى ستة من أئمة علماء الشرق والغرب المختصين في مدينة نيويورك على مائدة مستديرة ، للتعاون في سبيل فهم شيء عن أصل الحياة ونشأتها على ظهر هذه الأرض ، وكان فيهم العالم الروسي (ألكسندر إيفانوفيتش أوبارين) أستاذ الكيمياء الحيوية بأكاديمية العلوم السوفييتية ، وأخطر المهتمين بأمر نشأة الحياة .

وانتهى المؤتمر كما بدأ دون أن ينتهي المؤتمرون إلا إلى مزيد من التأكد بأن

أمر الحياة لا يزال مجهولاً ، ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما . وكان أول من صدّق على هذا ذلك العالم الروسي نفسه .

ومجمل القول ـ كما يقول الدكتور أنور عبد العليم ـ أن العلم لم يتوصل بعد إلى كشف هذا السر الأعظم المعروف بالحياة ، كما يتضح أن هذه المشكلة هي أبعد مدى من أن تكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة[1] .

وتقتضي الحكمة الإلهية العظيمة أن تزداد هذه الحقيقة تأكداً ووضوحاً على لسان العالم الروسي بالذات ؛ ففي العام المذكور : ١٩٥٩ تناقلت وكالات الأنباء وفي مقدمتها وكالة الأنباء السوفييتية (تاس) ما يلي :

أعلن ألكسندر أوبارين ، رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا بعد أن ظل يبحث ٣٧ عاماً في أصل الحياة وفي البحث عما إذا كان من الممكن إيجاد الخلية الأولى عن طريق تفاعل كيميائي ، أن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم أو أن تتوالد من التفاعل الكيميائي والتوالد الذاتي ، وأن العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادة .

فأي معنى يبقى بعد هذا الكلام والذي قبله ، للفلسفة المادية التي تخيلها ماركس ذات يوم من الأيام بدافع انفعالي معين ؟ .. وها أنت ترى أننا لسنا نحن الذين نزيح عنها لثامها الفلسفي الوهمي الذي يختبئ خلفه قدر كبير من الجهل والوهم ، ولكن الذي يفعل ذلك إنما هو أهل الدار نفسها ، فقد شهد شاهد من أهلها . وكفى الله المؤمنين القتال .

أما تفصيلات هذه الفلسفة ، والنظر في مقولاتها وقوانينها ، فلسنا الآن في

(١) انظر خبر هذا المؤتمر في كتاب قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم ص ١١ ـ ٢٣ .
وانظر كتاب انتي دوهرنغ لإنجلز ترجمة الدكتور فؤاد أيوب ص ٩٠ .

معرض مناقشتها أو نقضها . وهي على كل حال مقولات لا تستند إلى شيء من البراهين العلمية ، وإنما تستمد سندها الوحيد من العامل الذرائعي .. وبوسعك أن تقرأ تفاصيل ذلك كله في كتابنا « نقض أوهام المادية الجدلية »

☆ ☆ ☆

ثم نناقش الفرع الثاني من فروع هذه الفلسفة وهي (**المادية التاريخية**) فنقول :

إن المقصود بهذا العنوان دعوى أن تركيب المجتمع الإنساني بما فيه القيم المختلفة والأفكار واللغة والمعارف ، كل ذلك ناشئ عن الوضع الاقتصادي الذي نشأ هو بدوره عن سبب الأسباب كلها ، ألا وهو « وسيلة الإنتاج » وعلى هذا فإن « الحقيقة المطلقة » لا مكان لها في الوجود كله ، وإنما يمتد في مكانها وعلى اتساع الوجود كله قانون « النسبية المتطورة » في كل شيء ، إذ المعرفة ذاتها وليد ظروفها الاقتصادية ، فمن أين تأتي الحقيقة المطلقة ؟

ثم يزعمون أن تركيب المجتمع الإنساني يتطور تحت سلطان الوضع الاقتصادي ووسيلة الإنتاج ، تطوراً ديالكتيكياً ، أي بعوامل من داخله تحمل بذور نقيضه ، وليس بواسطة عوامل من خارجه كما هو شأن العلة مع المعلول . فازدهار وسيلة الإنتاج يسبب تضخم رأس المال وهذا الوضع نفسه يحمل في طواياه بذور الثورة عليه إذ يتسبب عنه انتقال وسائل الإنتاج إلى طبقة البروليتاريا ، ويستمر هذا التناقض بين وسائل الإنتاج وعلاقات الملكية عاملاً وحيداً للصراع داخل المجتمع . ويظل هذا الصراع مستمراً حتى تنمحي الطبقية من المجتمع إلى الأبد ويدخل العالم في مرحلة الشيوعية العظمى ، وعندئذ يهدأ الصراع وتسكن العاصفة وينتهي كل شيء .

ونحن نقوِّم هذه الأفكار بميزان « التلازم » الذي أوضحناه في منهج البحث فنقول :

١ ـ إن وسيلة الإنتاج التي هي السبب الأصلي لكل تطور وظاهرة في هذا الكون ، قد نشأت في تاريخ الإنسان والحيوان معاً ، فقد ظهرت في الإنسان بادئ ذي بدء بمظهر اليد والحجارة .. وظهرت في الحيوان بمظهر المخلب والأنياب . ولا شك أنها كانت في الحيوان أقوى منها في الإنسان . فلو كانت هذه الفلسفة صحيحة لنشأ عنها في المجتمع الحيواني مثل الذي نشأ عنها في المجتمع الإنساني من معارف ولغة وعقل ودين ونظم اقتصادية ، والأمر كما هو واضح ليس كذلك .

إن الفارق الوحيد بين المجتمع الإنساني ودنيا الحيوانات الأخرى ، هو فارق العقل والتفكير : وقد ظل هذا الفارق قائماً مع سائر التطورات المختلفة التي لحقت العالم : فإذا كان هذا الفارق نفسه أثراً من آثار القاسم المشترك بين هاتين الخليقتين ، وهو « وسيلة الإنتاج » فكيف تمَّ الخضوع لحكمه في الإنسان فتدرج به إلى المعارف والعقل واللغة والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ونشأ التمرد على حكمه في الحيوان فلم يكتسب علماً ولا عقلاً ولا نظاماً ؟

وما دامت الفلسفة المادية لا تحدثنا عن سبب ذلك فهي فلسفة باطلة لا يوجد أي دليل على صحتها .

٢ ـ إن مقتضى سيطرة قانون الديالكتيك ، أن يظل تركيب المجتمع الإنساني في تطور وتناقض ، وهذا يعني أن قيام الشيوعية المطلقة من شأنه هو الآخر أن يحمل في داخله بذور نقيضه ، باعتباره طوراً من الأطوار الإنسانية التي تدور حول الفلك الاقتصادي . ولكنهم يزعمون بأن حركة التطور تقف وقوفاً تاماً عند انبثاق الشيوعية المطلقة . وهذا يناقض دعواهم الأولى مناقضة واضحة صارخة .

أحد شيئين : إما أن نظام الديالكتيك هو المسيطر حقاً على سير العالم ، وإذاً فليس صحيحاً أن شعلة التطور ستنطفئ عند قيام الشيوعية المطلقة . وإما

أن الصحيح هو الثاني ، وأن زوال الطبقية ينهي كل تطور ويقضي على كل صراع ، وإذاً فليس صحيحاً ما يقولونه من سيطرة الديالكتيك على حركة العالم .

٣ ـ لو صح أن ازدهار الاقتصاد وتضخم رأس المال هو الذي يقدح زناد الثورة ويسبب انتقال وسائل الإنتاج إلى البروليتاريا ، لاستلزم ذلك أن تقوم هذه الثورة في سويسرا وأمريكا ودول أوربا الغربية قبل ظهورها في أي بقعة أخرى من العالم . ولكنها بدلاً من أن تظهر هناك ، ظهرت في روسيا والصين وفي عهد كان الاقتصاد فيه ضعيفاً ومتخلفاً .

لقد انقدح زناد الثورة حيث كان ينبغي أن لا ينقدح ، ونامت عواملها نوماً مستمراً إلى يومنا هذا حيث كان ينبغي أن تستيقظ .

٤ ـ إن فرضية الديالكتيك تستلزم القول بأن العقل ومايتبعه من النشاطات الفكرية ليس إلا ثمرة لصراع الإنسان من أجل رفع مستواه الاقتصادي ، وتطوير وسائل الإنتاج ، ومن ثم فإن الحقائق المطلقة أمور نسبية لا وجود لها في ظل المادية التاريخية ، وهي ليست أكثر من ظلال لمقتضيات زمنية متطورة .

فإذا فرضنا أن هذا الكلام صحيح ، فإنه لدليل بدهي على أن الديالكتيك ليس قانوناً حقيقياً يستوعب التاريخ كله ويغطي أطوار الإنسانية كلها ، بل هو ليس إلا كبقية « الحقائق » المزعومة الأخرى ، أمر نسبي لا حقيقة ثابتة له .

إن من التناقض الذي لا يخفى على عاقل ، أن نقول بأن أحكام العقل ليست حقائق مطلقة ثابتة ، ثم نعتمد على أحكام العقل ذاته في استنباط ما ندعي أنه أعظم حقيقة ثابتة تستوعب التاريخ الإنساني كله .

والخلاصة ، أننا نطرح هذا السؤال : ما هو علة التطور الاجتماعي ؟
والجواب الواضح على لسان كل باحث : إنه الفكر .

ولا بد أن نسأل بعد ذلك فما هو عامل انبعاث الفكر ؟ .. وتجيب المادية التاريخية على هذا السؤال الثاني بكل بساطة : إنه العامل الاقتصادي المتمثل في وسائل الإنتاج ، فالشعور بالحاجة إلى الطعام والشراب هو الذي حرك البذور الأولى للفكر والعقل ، وهو الذي فجَّر أيضاً طاقة اللسان وقدرة التعبير .

ولاِ بد أن يسأل كل عاقل في الدنيا :

فلماذا تخلفت البهائم والسباع المختلفة ، عن زميلها « الإنسان » في هذه المرحلة التي تكافأت فيها الفرص ، وأظلها نظام قانون واحد ؟ ولماذا استطاعت سياط الدياليكتيك أن تدفع بالإنسان إلى حيث وصل الآن ، دون أن تستطيع هذه السياط نفسها تحريك سائر الحيوانات الأخرى شبراً واحداً إلى الأمام ؟ فلا هي تمتعت بفكر ولا اغتنت بلغة ولا ازدهر فيها اقتصاد ! ..

إن الجواب الذي لا مفر منه بحال من الأحوال ، هو أن الفكر حقيقة مستقلة تنزلت إلى الإنسان من لدن خالق الإنسان .

وعبث لا طائل فيه أن تبحث للفكر عن جذور أو عوامل في دنيا المادة أو الاقتصاد أو وسيلة الإنتاج[1] .

☆ ☆ ☆

هذه هي الطريقة الأولى في الاستدلال على أوضح حقيقة كونية وأخطرها ، ألا وهي حقيقة وجود الله عز وجل . عرضناها عرضاً إجمالياً ينسجم مع طبيعة هذا الكتاب ؛ وطبيعة القارئ . وإن العقل المنصف الحر لفي غنى عن ترتيب كل تلك المقدمات والبراهين والموازين لولا أن ثمة عقولاً مكبلة بأغلال من الأغراض والاتجاهات تقتضيها أن تغمض العين وتصرف النظر .. فهي تظل تصطنع الشبه

(١) إذا أردت أن تقف على خرافة الفكر المادي بتفصيل ، فارجع إلى كتاب نقض أوهام المادية الجدلية لمؤلف هذا الكتاب .

اصطناعاً وتخترع المشكلات اختراعاً ، وتركب رأسها في مخاصمة البدهيات ومناقشة الضروريات . وبذلك تظهر مسألة وجود الله بين كثير من الفئات بمظهر الموضوع العلمي العويص الذي يكتنفه شبه ومشكلات كثيرة .

فهذه الظاهرة التي تلبَّست بعض العقول هي التي تدعو ـ كما قلنا في المقدمة ـ إلى أن نحمل الأمر على محمل الجد ، وأن نقبل تمثيل الممثلين واصطناع المصطنعين ، ونفرض الأمر البدهي نظرياً والقضايا الفطرية معضلات فكرية ، فنخاطبهم بالطريقة ذاتها ، ونلحق الكذاب كما يقولون إلى ما وراء الباب ! ..

من أجل هذا لن نقتصر على عرض هذه الطريقة فيما انتهينا إليه ، بل نتجاوزها إلى الطريقة الثانية أيضاً ، وهي الطريقة التي تبدأ بمرحلة الخبر اليقيني ، وهي التي سميناها :

طريق التدرج من الادنى

وكما قلت لك . فإن هذه الطريقة الثانية تبدأ بالنظر في مسألة علمية ماثلة أمامنا ، حتى إذا انتهينا من تفسيرها ، انكشف لنا من ورائها مسألة أخرى متعلقة بها ، فإذا نظرنا فيها هي أيضاً وانتهينا من تحليلها ، انكشفت لنا عن مسألة ثالثة ، حتى تتدرج بنا هذه المسائل إلى إثبات الحقيقة ذاتها التي ظهر ثبوتها لنا آنفاً ، وهي حقيقة وجود الله عز وجل .

نحن الآن أمام كتاب غريب اسمه (القرآن) تناقلته إلينا أيدي القرون من مصدر معين ، إذاً فنحن أمام مسألة خبرية تجسدت في صورة هذا الكتاب ، وعلينا أن نبدأ في تحقيقها حسب المنهج العلمي المتبع للتحقيق في النقول والأخبار .

ولدى التحقيق . نعلم بأن هذا الكتاب وصل إلينا (بسند صحيح متواتر

لايخضع لإمكان الكذب في روايته) عن رجل اسمه محمد بن عبد الله ﷺ ظهر في غضون القرن السادس الميلادي في الجزيرة العربية . كما نعلم لدى التحقيق في ذلك أيضاً بأن الرواية الصحيحة المتواترة أثبتت أنه كان يقول بأن هذا الكتاب ليس من تأليفه وليس له كسب في شيء منه ، وإنما هو يتلقاه وحياً من الله بواسطة جبريل عليه السلام !..

فإذا انتهينا من تحقيق كل من هذين الخبرين ، وجدنا أنفسنا أمام مسألة علمية أخرى هي ظاهرة هذا الوحي الذي أخبر عنه محمد ﷺ فما هي حقيقته ؟ وما الفرق بينه وبين الإلهام النفسي ؟ ومامدى الاحتمالات العقلية للكذب في هذه الدعوى ؟.. فهذه قضية علمية أخرى ليست نقلاً حتى يكون تحقيقه عن طريق الرواية والسند ، وليست حقيقة مادية محسوسة حتى يكون تحقيقها عن طريق التجربة المحسوسة المشاهدة ، وإنما هي من قبيل القضايا العقلية المجردة ، فليس من سبيل للتحقيق في أمرها إلا سبيل برهاني اللزوم البيِّن والقياس اليقيني الأولى القائمين على الاستقراء التام .

ونحن عندما نحقق في (ظاهرة الوحي) على هذا الأساس ، نضطر إلى القطع بأن الوحي لم يكن شعوراً داخلياً ساور محمداً عليه الصلاة والسلام ، وبأنه لم يكذب على الناس فيما قال ، وبأن أحداً ممن كان في عصره لم يكن يختبئ خلفه ليعلمه هذا الذي يقول عنه إنه وحي من الله ، وبأنه لايمكن أن يكون وسوسة جن أو شياطين ؛ نضطر إلى القطع بنفي هذه الاحتمالات بدليل التلازم والقياس الأولى والاستقراء الدقيق التام (وأنت تعلم أن المكان الملائم لتفصيل هذه البراهين وعرضها عند البحث في قسم النبوات الآتي قريباً إن شاء الله وإنما نحن هنا نصور خطوات البحث ومراحله وكيفية التدرج من الأدنى إلى النهاية التي سنكتشفها) .

فإذا انتهينا من التحقيق في الوحي بهذا الشكل ، وجدنا أنفسنا أمام ضرورة

الإيمان بوجود الله ، طبقاً لما يقوله هذا القرآن نفسه ، وطبقاً للمعجزات والخوارق المؤيدة والتي في مقدمتها هذا الكتاب .

فإذا انتهينا من الإيمان بالله . وجدنا أنفسنا أمام ضرورة الإيمان بكل مايخاطبنا به هذا الكتاب من الأخبار والأوامر والنواهي وغير ذلك .

واعلم أن الباحث ، بواسطة هذا الطريق الثاني ، مضطر في نهاية الأمر إلى الاعتقاد بوجود الله عز وجل مادام أنه تدرج صعداً في تلك الخطوات التي أوضحناها بإيجاز ، حتى ولو لم يفكر في شيء من البراهين الأخرى التي عرضناها عند بيان الطريقة الأولى . ذلك أن إدراك المقدمات اليقينية بشروطها العلمية المعروفة ، يفرض على المدرك الإيمان بنتيجتها ، إذ لايتصور الشك في النتيجة مع الإيمان اليقيني بالمقدمة . ولو جاز تصور ذلك ، لجاز تصور اجتماع النقيضين في مكان واحد وزمان واحد .

غير أن الباحث عندما يصل إلى النتيجة القطعية التي تفرض عليه الإيمان بالله ، يجد هناك تلك البراهين العقلية الأخرى قائمة أمام ذهنه فيُكسبه ذلك يقيناً فوق يقين ، ويتحقق له من كلا الطريقتين منهج علمي لايمكن أن يدنو إليه أو يطوف حوله أي ريبة أو شك .

وأخيراً ، فإذا رأيت إنساناً عاقلاً عرضت أمامه هذه البراهين كلها وبقي مع ذلك متململاً في شأنها ، شاكاً في نتيجتها ، لايملك عليها أيّ ردّ ، ولكن لايهتدي من ورائها أيضاً إلى أي حق ، وهو مع ذلك حاضر الفكر والعقل ، فاعلم أنك من هذا الإنسان أمام دليل آخر على وجود الله عز وجل .

ذلك لأن العقل إذا ترك وشأنه ، فلابد أن يعمل عمله الطبيعي في اكتشاف الحقائق والوصول عن طريق المقدمات إلى النتائج ، ولو لم يكن هناك موجد عظيم لهذا العقل ، له السلطان المطلق على عمله وسيره يستطيع أن يوقفه عن

عمله عندما يشاء ويستطيع أن يصده عن فهم أبسط الحقائق في كل لحظة من الزمن ـ لما توقف عقل هذا الإنسان عن فهم هذه الحقيقة البدهية الواضحة خصوصاً بعد النظر في براهينها اليقينية القاطعة .

أما وقد وقع منه هذا العجز الغريب ، فإنه مصداق لسنة الله الجارية في عباده : ينير الطريق أمام العقل الذي لم يستكبر صاحبه عن التأمل في معرفة الحق منذ أول الطريق ، ولم يفضل اتباع شهواته على اتباع نداء عقله منذ أولى مراحل الفكر .. ويسد الطريق أمام العقل الذي استكبر منذ الخطوة الأولى ، إذ أعلن بلسان حاله أو مقاله أنّه ليس على استعداد لأن يتبع الحق الذي يصده عن شهواته ويضيق عليه السبيل إلى أهوائه . فتراه بعد ذلك يفهم كل دقيق من شؤون الحياة المختلفة ، حتى إذا وضعته أمام أجلى حقيقة فيها وهي وجود الله عز وجل ، وجدته فيها كمجنون يتخبطه الشيطان من المس !..

وانظر كم هو واضح هذا المعنى في قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّه فأعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ماقَدَّمَتْ يَداهُ . إنّا جَعَلْنَا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً وَإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أبداً ﴾ . [الكهف : ٥٧] .

أجل ياأخي القارئ !.. إن هذه الظاهرة لمن أجلى البراهين على وجود الله .



ثانيًا

صفات الله تعالى

يجب أن تعلم في كلمة جامعة مجملة ، أن الله عز وجل متصف بكل صفات الكمال ، ومنزه عن جميع صفات النقصان . إذ إن ألوهيته تستلزم اتصافه بالكمال المطلق لزوماً بيّناً بالمعنى الأخص .

ثم إن علينا بعد ذلك أن نقف على تفصيل أهم هذه الصفات ، ونبين معناها ، وماتستلزمه من أمور ومعتقدات . وقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه الكريم بصفات كثيرة مختلفة ، إلا أن جزئيات هذه الصفات كلها تلتقي ضمن عشرين صفة رئيسية ثبتت بدلالة الكتاب وبالبراهين القاطعة .

وقد قسموا هذه الصفات إلى أربعة أقسام هي :

الصفة النفسية ، الصفات السلبية ، صفات المعاني ، الصفات المعنوية .

آ ـ الصفة النفسية

والمراد بها صفة ثبوتية يدل الوصف بها على الذات دون معنى زائد عليها ، ككون الجوهر جوهراً وكونه شيئاً موجوداً .

والصفة النفسية صفة واحدة هي (**الوجود**) ، وقد تحدثنا عنها بما يُغني عن إعادة البحث فيها ، فقد ثبت لك بالأدلة المختلفة السابقة وجود الله عز وجل ، وذلك هو الدليل على اتصافه بهذه الصفة ، إذ هي كما قلنا ليس شيئاً غير ذاته سبحانه وتعالى .

الوجود الكامل والوجود الناقص :

إلا أن الذي ينبغي أن تعلمه هنا ، أن الوجود ينقسم إلى قسمين : وجود كامل ووجود ناقص . وبتعبير آخر نقول : وجود ذاتي ، ووجود تبعي . فأما وجود الله تعالى ، فهو وجود كامل ذاتي ، بمعنى أنه موجود لذاته لا لعلة مؤثرة فيه . ومن خصائص الوجود الذاتي أنه لايقبل العدم . وأما وجود ماعداه فوجود ناقص وتبعي . بمعنى أنه مستمد من غيره وأنه متوقف على الموجد له ، ومن خصائص هذا النوع الثاني من الوجود أنه لابد أن يقوم بين عدمين : سابق ولاحق .

وعلى هذا فالوجود الذاتي الكامل المطلق هو وجود الله فقط .

والوجود الناقص التبعي هو وجود كل ماسواه .

ولا ينبغي أن تجتاز هذا الحد في التأمل في معنى وجوده سبحانه وتعالى ووجود غيره من الممكنات ، أو أن توغل في تأمل الفرق بين الذات والوجود ، لأنك لاتملك مع هذا التأمل أي عدة من البحث العلمي ومنهجه ، لا في الخبر والنقل اليقيني ولا في دليل التجربة والمشاهدة أو برهان التلازم أو القياس والاستقراء . كل ماتمتد إليه طاقتك هو تحريك الحدس والخيال تجدِّف بهما في يم متلاطم لاأول له ولاآخر . وجدير بك إن فعلت ذلك أن تقع إما في الخبل الذي وقع فيه بعض الفلاسفة (الوجوديون) أو في الوهم الذي انجرف فيه بعض الصوفية . فقد زعم أولئك أن حقيقة الله عبارة عن الوجود المجرد عن الماهية التي تشغله وتملؤه ، أي إذا سألنا عن هذا الوجود وجود أي شيء هو ؟ فالجواب أنه ليس وجود أي شيء غير ذاته !

أما هؤلاء فقد انتهى بهم الوهم إلى أن حقيقة الله هي وجود العالم نفسه ، فهذه الأكوان التي تراها من حولك هي في الحقيقة ليست شيئاً أكثر من وجود الله عز وجل تجسد في هذه الصور والأشكال !..

فانظر إلى مايفعله الخيال والتأمل الأعزل عن طاقة العقل ومنهجه !..

أولئك تخيلوا وجود الله عز وجل وعاءً فارغاً ليس فيه إلا شيء اسمه الوجود !.. وهؤلاء تخيلوه وعاء ممتلئاً بكل ماتراه من أصناف المكونات والمخلوقات !.

أما العقل ، بكل مايملكه من عدة وبراهين ومناهج للبحث ، فإنه يقول : أما وقد ثبت بالبرهان اليقينُ الذي لاشك فيه أن وجود هذه الممكنات كلها تستند إلى ذات واجبة الوجود تتصف بكل صفات الكمال وتبتعد عن كل صفات النقصان ، فلا مندوحة من الإيمان بوجود هذه الذات العظيمة المدبرة لأمر هذا الكون كله وأنها بالضرورة غيره ومستقلة عنه . ولكن ماهي العلاقة بين الذات والوجود ، وما الفارق بينهما ؟..

يقول العقل في الجواب على هذا : لاشأن لي بشيء من ذلك ، لأنه خارج عن متناول فهمي وسلطاني . ورحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده[1] .

---

(١) لايحملنك هذا الذي نقول ، على أن تقلد بعض الناس فتكفر ، أولئك الذين عرفوا بالقول بوحدة الوجود كالشيخ محي الدين بن عربي وعيره . فإن هؤلاء الذين دلت كتبهم على أنهم كانوا يقولون بوحدة الوجود ، يحتمل أن يكونوا بريئين من هذا المقال وإنما دس ذلك في كتبهم من قبل بعض الزنادقة الذين كانوا يمارسون هذه الخيانة ، ويحتمل أن حالاً وجدانية اعترتهم فتاهوا عن الجادة ونطقوا بما لا يعتقدون ، وربما اعتقدوه ولكنهم عادوا عنه بعد ذلك . وإذا كانت هذه الاحتمالات كلها قائمة ، فإن من الظلم للحقيقة والعدل أن نتجاهلها كلها ونتمسك باحتمال آخر لنسوغ بذلك تكفيرهم .

ومن المعلوم أنك لو عشت العمر كله لاتقول عن الكافر المتيقن كفره : كافر ـ لم يؤاخذك الله يوم القيامة على ذلك ، وأنك لو أطلقت الكفر مرة واحدة في حياتك على من هو عند الله غير كافر ، عرضت نفسك للعقاب العظيم من الله عز وجل .

فما الموجب ، بعد ذلك ، لتوزيع ألقاب الكفر على من عرفوا في حياتهم بالإسلام والتقوى وشاع أمرهم بين الناس على ذلك ولانعلم كيف آبوا إلى ربهم جل جلاله . وحسبك لبيان الحكم وتحذير الناس من التقليد أن نوضح لهم الحق ونفند الباطل ونحذرهم من اتباعه بقطع النظر عن قائله . =

ب ـ الصفات السلبية

وهي كل صفة مدلولها عدم أمر لا يليق بالله سبحانه ، وهذه الصفات كثيرة الجزئيات لأن كل نقص إنما يُنْفى بعكسه ، والنقائص كثيرة الأشكال والأنواع إلا أن هنالك خمس صفات هي أمهات الصفات السلبية كلها ، فيكتفى بها عما سواها من الجزئيات الكثيرة ولنبدأ بذكر هذه الصفات الخمس وشرحها .

١ ـ (**الوحدانية**) ومعناها سلب تصور الكمية في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى : سواء الكمية المتصلة والكمية المنفصلة أي فهو سبحانه وتعالى ليس مركباً من أجزاء ولا مكوناً من جزئيات ، وكذلك صفاته .. فليس له سبحانه وتعالى مثلاً علمان أو قدرتان ، بحيث تتم كل واحدة منهما الأخرى . فهذا هو نفي الأجزاء عنها . وليس لغيره سبحانه وتعالى علم كعلمه ، أو قدرة كقدرته ، فهذا هو نفي الجزئيات عنها .

والجزء من الشيء ، مايتركب ذلك الشيء منه ومن غيره ، بحيث لا يصدق اسم ذلك الشيء عليه وحده حتى تتكامل معه بقية أجزائه الأخرى ، مثل الجدار من الغرفة والغلاف من الكتاب واليد من الإنسان . ويطلق على مجموع الأجزاء بعد تناسقها وتمامها اسم الكل ، فالغرفة كل والجدار الواحد جزء منه .

والجزئي هو مايندرج تحت الجنس أو النوع من الأعداد والأفراد ، بحيث

= فهذا يكفيك في أداء أمانة العلم والدين ويكفي الناس في التنبه إلى الحق ، وما كلفك الله بأكثر من ذلك .

وليسعك ماوسع أئمتنا الأعلام من قبل ، من بيان حرمة قراءة هذه الكتب التي تتحدث عن مثل هذه الشطحات كالفتوحات المكية وفصوص الحكم للشيخ محي الدين ، وأن على الناس أن يتجنبوها ، دون أن تقتحم إلى تكفير أحد بعينه .

يصح إطلاق ذلك الجنس أو النوع على كل فرد من أفراده على حدة ، مثل الإنسان ، فهو اسم لنوع من الحيوان يندرج تحته أعداد وأفراد كثيرة . ومن المعلوم أن اسم الإنسان كما يطلق على النوع في جملته ، يطلق أيضاً على الفرد الواحد المندرج تحته ، فنقول عن فلان من الناس : إنسان ، ويطلق على النوع أو الجنس الشامل لكل الأفراد اسم الكلي .

وبهذا نعلم أن الجزء يقابله الكل ، والجزئي يقابله الكلي .

فالمقصود بوحدانية الله أن تعلم بأنه سبحانه وتعالى ليس كلاً مركباً من أجزاء ولا كلياً مكوناً من جزئيات .

والدليل الجامع على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ فقد نفت الآية ، بإسناد صفة الوحدانية إليه ، كلاً من صفة الكل والكلية عنه .

وأما الدليل العقلي على نفيهما ، أي أنه سبحانه ليس كلاً قابلاً للتجزء ولا كلياً يندرج فيه أفراد وأعداد ، فهو ما يلي :

أولاً ـ لو صح أنه سبحانه وتعالى كلّ مركب من أجزاء ، لاستلزم ذلك أن يكون عاجزاً بنفسه محتاجاً إلى غيره ، وللزم من ذلك أن يكون مشابهاً للحوادث ، وذلك باطل في حق الله كما قد علمت .

ثانياً ـ لو صح أنه سبحانه وتعالى كلي مكون من أفراد ، لأمكن أن يقوم بينهم تمانُع في الإرادة والخلق ؛ وذلك بأن يريد واحد منهم إيجاد شيء ويريد الآخر إعدامه . وحينئذ إما أن يحصل الأمران فيجتمع النقيضان وهو محال ، أو يحصل أحدهما فيظهر عجز الآخر وهو مناف للألوهية ، أو يتصادما فلا يوجد هذا ولا ذاك فيظهر عجزهما معاً ؛ ومادام وقوع هذا التمانع ممكناً فإن صفة الكمال لهما تصبح غير ضرورية . وقد ذكر الله هذا البرهان بأسلوب مبسط في قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا ... ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

٢ ـ (القدم) ومعناه عدم وجود أول له سبحانه وتعالى :

ودليل ثبوت هذه الصفة له سبحانه ، قوله تعالى : ﴿ هوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] ، وأنه لو كان مسبوقاً بالعدم لكان لابد من مؤثر في إيجاده ، ومحال أن يكون مع ذلك إلهاً ، وعندئذ ، فلابد أن يكون الإله هو السابق عليه والموجد له ، فيكون هو القديم إذاً وهذا هو المطلوب بيانه ، أو أن يكون ذلك السابق أيضاً مسبوقاً بعدم وأنّ موجوداً قد أثر فيه فأوجده .. وهكذا ، فيستلزم ذلك فرض التسلسل ، وهو باطل بالبرهان العلمي الذي فرغنا من عرضه وبيانه .

فلابد إذاً من أن تكون الموجودات كلها مستندة في وجودها إلى ذات واجبة الوجود ؛ ولاتكون هذه الذات واجبة الوجود إلا إذا كانت مؤثرة في غيرها غير متأثرة بسواها . وذلك يستلزم أن تكون متصفة بالقدم .

هذا برهان علمي واضح لايمكن أن يماري فيه العقل ؛ ولابد أن يجزم به .

ولكن العقل بعد ذلك قد يعجز عن تصور هذا القدم وهضمه تحليلاً وتكييفاً . ومن أجل ذلك ترى بعض السطحيين يحوك في نفوسهم هذا التساؤل : من الذي خلق الله ؟..

ومصدر هذا التساؤل ، كما قلت لك ، أن خيال السائل لايهضم صورة القدم ومعناه بالنسبة لذات الله تعالى ، ولما كان الإنسان متطلعاً إلى تصور ولمس كل حقيقة تعرض عليه فإنه لايفتأ يفكر في ذلك السؤال .

ولكن الإشكال يزول بإيضاح هذه الحقيقة التالية :

إن جميع مدارك الإنسان إنما هو وليد تصوراته ، والتصورات إنما تتجمع في الذهن عن طريق نوافذ الحواس الخمس . وهذا يعني أن الإنسان لايعقل من

المجردات إلا ماكان له مقاييس ونماذج حسية في ذهنه ، فما لم يسبق له في ذهنه أي نموذج أو مقياس فإن من المحال بالنسبة إليه أن يتصوره ويدركه .

وعلى هذا القياس فإن من السهل عليك أن تفهم صفة الرحمة في ذات الله تعالى لأنك تحتفظ في ذهنك بتصورات لمعانيها وآثارها ؛ ومن السهل عليك أن تتصور له صفة العدل والجلال والإكرام ، وأنه شديد العقاب ، لأنها كلها تعود إلى معان توجد في ذهنك صور لها ، وإن كانت هذه الصفات مختلفة في ذاته تعالى عنها في ذوات المخلوقين . فإذا قيل لك إنه لا يحده مكان ولا زمان ، فهذا ما لا تدركه ، لأنك لا تحتفظ في ذهنك بأي معنى أو صورة لهذه الصفة بسبب أنها صفة خاصة بذاته تعالى . وكذلك إذا قيل لك إنه سبحانه وتعالى قديم لا أول له ، فأنت تذهب لتتخيل صورة عدم الأولية ، فلا تستطيع أن تتخيل أو تتصور ذلك . إذ إنه معنى طارئ على مخيلتك لم تسبقه رؤية لحقيقته أو ممارسة له بذاته . ولذلك فلا مطمع لأن يهضم خيالك أو تصورك هذا المعنى .

غير أن من السهل عليك جداً ، وقد أدركت هذه الحقيقة وآمنت بها عن طريق البرهان العلمي الذي ذكرناه ، أن تتيقنها وتعتقد بها اعتقاداً جازماً دون أن تنتظر إمكان تصورك لها ، لأن من السهل عليك أن تفهم أن عقلك لم يستوعب جميع حقائق الوجود ، وأن فكرك لم يسجل جميع صوره وأشكاله . وفي ذلك يقول الفلاسفة وعامة العقلاء والباحثين : (عدم الوجدان للشيء لا يستلزم عدم وجوده في الواقع) . فالعقل إنما يدرك بواسطة نوافذ الحواس الخمس ، والحواس الخمس تحس بقدر محدود وإلى مسافة محدودة فهل هذا يعني أن ما وراء هذا المحدود هو اللاشيء ؟!

إن الاستمرار اللانهائي لا يدرك ، وليس ذلك إلا لأن الطاقة الفكرية في الإنسان محدودة ومتناهية .

ولكن ذلك لا يعني أن العقل يجزم باستحالته ، فرب أمر يدرك العقل إمكانه أو وجوده وهو في الوقت نفسه يعجز عن تصوره وإدراك كنهه .

٣ - (**البقاء**) ومعناه امتناع لحوق العدم بذاته سبحانه وتعالى ، ودليله النقلي الآية ذاتها التي هي دليل القدم ، وهي قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] ويقال في دليله العقلي ما قلناه في دليل القدم . إذ كما لا يتصور وجود مؤثر في واجب الوجود بالإيجاد فلا يتصور وجود مؤثر فيه بالإعدام ، وإلا لم يكن واجب الوجود .

كما أنه يمكن فهم هذه الصفة بالطريقة ذاتها التي نفهم بها صفة القدم ، إذ كلا الصفتين لا مقياس في الخيال لهما ، وإن كان في العقل دليل على ثبوتها . فمن المستحيل أن يستطيع الخيال تصورهما وفهم حقيقتها وإن كان العقل يجزم في الوقت نفسه بثبوتها . وهكذا تعلم أن عدم قدرة العقل على تصور الشيء ، ليس دليلاً على عدمه البتة كما هو واضح معلوم .

٤ - (**القيام بالذات**) أي إنه تعالى غير مفتقر إلى موجد يوجده ولا إلى محل يقوم به . فقد كان الله تعالى قبل وجود أي شيء وقبل وجود الزمان (أي الأفلاك التي تحد سير الوقت) والمكان . والدليل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى بالإضافة إلى دليل العقل الواضح قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ أي الذي لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء .

واعلم أنه لا مجال لتوقف العقل في إثبات هذه الصفة لله تعالى ، بعد معرفة أنه واجب الوجود وأنه قديم لا يتأثر بشيء ويتأثر به كل شيء ..

فإن قلت : كيف أفهم أنه لا مكان لله ، والذي أعلمه أنه ما من موجود ، إلا وهو متحيز في مكان ما ؟ فالجواب أن علمك هذا إنما استقيته من استقراء حالات الأجسام والحوادث . والصفات المتلبسة بالأشياء الممكنة والحادثة لا يجب تلبسها

بالواجب أيضاً . وإن رحت تقيس فذلك قياس لا برهان عليه ، إذ لا علَّة جامعة بين الأصل والفرع . بل العقل يوجب اختلاف واجب الوجود عن الممكنات في كل ذلك .

ولا يضيرك بعد معرفة هذا أنك لا تستطيع أن تتخيل في ذهنك عدم تحيزه سبحانهِ وتعالى في مكان ، لأنك قد علمت أن الخيال ليس أكثر من مرآة تثبت فيها صور المرئيات التي مرت على حواسك . وهذا مما لم يمر على شيء من حواسك بعد ، فكيف تتخيله وتتصوره ؟

ثم إنه لو ثبت لله مكان يتحدد فيه ، وأمكنك أن تتصوره في مكانه ذلك ، لكان عقلك أكبر إحاطة بالأشياء من إحاطة خالقها بها ، وذلك يدل على عدم ألوهيته . فكان طبيعياً من العقل إذاً أن يستيقن ولا يتصور بل يحتار ويجهل .

وليس شيئاً كثيراً في حقك أن تبلغ الحيرة بك في تصور الذات الإلهية مبلغ حيرتك في عقلك وروحك والطاقة التي جعلها الله تعالى سراً يقوم عليه وجود أكثر ما تراه حولك من الموجودات ، فأين هو مكان العقل أو الروح في جسمك وأين هو مستقر الحياة من الأشياء الحية وما هي حقيقتها ؟ لا تعلم ولا أحد يعلم الجواب ، على الرغم من تيقن الجميع بوجود العقل والروح والحياة .

إن الحيرة أمام هذه الأمور ضرورة ناتجة عن كون العقل محدوداً بالحدود التي أرادها له الخالق جل جلاله ، وكيف لا يحار المخلوق لدى محاولة تحليل خالقه وتصوره ؟!.. من أجل هذا كانت الحيرة ـ بعد الإيمان به وبصفاته سبحانه وتعالى ـ أعلى مراتب الإيمان ، فحسبك أن تتيقن بوجوده ثم تحار في فهمه وتصوره .

وتلك هي حقيقة (الإيمان بالغيب) الذي أمر الله به عباده . إذ هو أن يؤمنوا بما غاب عن محسوساتهم وعن عقولهم من حيث التحديد والتكييف لهذا

الغيب . ومن هنا يثبت فضل المؤمن علىَ الملحد . أما إن زال الغطاء وكشف الحجاب وأصبح الغيب حاضراً ومشاهداً ، فلا فضل حينئذ للمؤمن على الكافر ، إذ يسقط بذلك أهم مقوم من مقومات التكليف .

٥ ـ (**المخالفة للحوادث**) ومعناها عدم مماثلته جل جلاله لها . فهو سبحانه وتعالى ليس بجرم ولا عرض ولا كلي ولا جزئي كما مر بيانه ، ولذلك فهو منزهَ عما تستلزمه هذه الصفات أيضاً من مختلف الصفات والأحوال والعوارض الجزئية التي تعتور الإنسان وغيره من الكائنات الأخرى ، كالنوم والغفلة والجوع والعطش والحاجة والعوارض النفسية والجسمية وما إلى ذلك .

وقد ثبت برهان هذه الصفة لله تعالى بكل من دليلي العقل والنقل . أما دليل العقل فهو اللزوم البين بالمعنى الخاص . إذ الألوهية تستلزم البعد عن سائر النقائص ومن أبرز مظاهر النقص ما تتلبس به الحوادث من الصفات التي هي في الحقيقة ليست إلا نتيجة حدوثها وحاجتها إلى الموجد والمخصص . وأما دليل النقل فقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهوَ السَّميعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] وإدخال كاف التشبيه على لفظ المثل مبالغة في نفي الشبيه والمثل لله تعالى . ومثله قوله جل جلاله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد ﴾ والكفؤ والمماثل واحد .

إذا علمت هذا ، فإن لك أن تسأل : ولكننا نرى أن هنالك كثيراً من الصفات يشترك فيها الإنسان (وهو من الحوادث) مع الله جل جلاله كصفة العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر ونحوها ، وذلك يناقض ما ثبت من أنه مخالف للحوادث .

والجواب أن الإنسان يتصف بطائفتين من الصفات : الأولى صفات هي في الحقيقة ثمرة الحدوث والمخلوقية القائمة فيه ، كالتحيز في المكان والزمان والحاجات الجسمية والنفسية المختلفة وعوارض العجز والضعف ومظاهر الطبع ، فهذه صفات نابعة من كيانه الذي يتميز بالحدوث .

والطائفة الثانية صفات هي في الحقيقة من صفات الله جل جلاله ، ولكنه سبحانه وتعالى متع الإنسان بفيوضات يسيرة جداً منها ، ليتهيأ له بواسطتها أن ينهض بالتكاليف التي خلق من أجلها ، وليتسنى له أن يسخر لنفسه مظاهر الكون التي من حوله ويفيد منها ، كما مر بيان ذلك في التمهيد الثاني لهذا الكتاب ، كالعلم والقدرة والإرادة والإدراك وما شابه ذلك ، فهذه الصفات ليست نابعة من كيانه المتميز بالحدوث ، بل هي ليست منها في شيء ، وليست من خصائصه مطلقاً .

وبتعبير آخر نقول : إن القدر اليسير الذي يتمتع الإنسان به من هذه الصفات لا يسوغ اعتبار الإنسان شريكاً مع الله فيها لسببين :

الأول ـ أنها صفات ذاتية بالنسبة لله تعالى ، أما بالنسبة للإنسان فهي صفات غير ذاتية ، إذ هي في حقيقتها ليست أكثر من فيوضات إلهية عليه . وهيهات أن يكون هذا المعنى موجباً لشركة الإنسان مع الله في شيء منها .

الثاني ـ أنها تختلف عن صفات الله تعالى في الحقيقة والجوهر ، وإنما تشترك معها في التسمية فقط ، ولولا التجاوز في الإطلاق وملاحظة الاصطلاحات الخاصة بالإنسان لما استقام الاشتراك في التسمية أيضاً ، إذ ما هي قيمة العلم الذي يتصف به الإنسان أمام علم الله تعالى ، وما هي قيمة القوة التي قد يتمتع بها الإنسان في جنب قوة الله وعظيم سلطانه ؟..

والخلاصة أن الملاحظ في نفي مماثلة الله تعالى للحوادث ، نفي المماثلة في الصفات التي هي من مستلزمات الحدوث وخصائصه ، أما الصفات الأخرى التي هي من مستلزمات الرب جل جلاله ، ولكنه سبحانه وتعالى أفاض منها آثاراً أو ظلالاً على بعض مخلوقاته كالإنسان ، فهي غير داخلة في عموم هذا النفي .

ج ـ صفات المعاني ، والصفات المعنوية

ونبدأ بصفات المعاني فنقول :

هي كل صفة قائمة بذاته سبحانه وتعالى ، تستلزم حكماً معيناً له ، كصفة العلم مثلاً فهي تستلزم أن يكون المتصف بها عليماً . وصفات الكمال لله تعالى كثيرة ، ولكنها تجتمع في سبع صفات رئيسية معينة قام عليها الدليل التفصيلي من الكتاب[1] .

---

(١) هذه المسألة مما خالف فيه المعتزلة جمهور المسلمين الذين يطلق عليهم اسم أهل السنة والجماعة ، فقد أنكروا وجود صفات المعاني هذه ، وذهبوا إلى أن الله تعالى عالم بدون أن يتصف بشيء اسمه العلم ، وقادر بدون أن تسند إليه صفة اسمها القدرة .
وإنما حملهم على هذا ، تصور أن إسناد هذه الصفة الذاتية إلى الله تعالى يستلزم تعدد القدماء بقدر تعدد هذه الصفات ، واعتقاده كفر بالاتفاق ، وقالوا إن عالميته وقادريته واجبة لذاته تعالى ، فلا تحتاج لوجودها إلى العلم والقدرة ، كما هو الشأن بالنسبة إلينا ، وقالوا الله كامل بذاته .. فيلزم إذا قلنا إن عالميته ثابتة بواسطة صفة العلم فيه أن يكون ناقصاً بذاته مستكملاً بواسطة غيره . وهو باطل باتفاق . (ر : المواقف : ٢ / ٣٤٦) .
وهذه كلها أوهام جسمها في نظر المعتزلة تحميل العقل أكثر من طاقته في هذه المسائل وهو مسلكهم الذي عرفوا به . فالمحال في تعدد القدماء أن تتعدد الذوات القديمة لا أن تتعدد صفات لذات واحدة ، والعالمية ليست أكثر من إسناد صفة العلم نفسه إلى الله ، فليس هناك محتاج ومحتاج إليه . وبذلك تعلم أيضاً أن إسناد صفة العلم إليه تعالى لا يعني استكماله بغيره .
وحسبنا دليلاً في هذا الصدد أن الله تعالى قد أسند إلى ذاته صفة العلم إذ قال : ﴿ وَلا يُحيطونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِما شاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وطبيعي أن يجزم العقل بقياس صفاته الأخرى على هذه الصفة ، فيسند إليه صفة الحياة والقدرة والسمع والبصر .. الخ .
والاستدلال بهذه الآية ثابت حتى ولو أولنا العلم فيها بالمعلوم ـ وهو تأويل لا ضرورة إليه ـ إذ لو كان العلم غير ثابت لله عز وجل لما نسب الباري تعالى ذلك إلى نفسه ، ولما عبر به عن المعلوم . فالتعبير بالعلم عن المعلوم فرع عن صحة نسبة العلم إليه تعالى .
ولم نشأ أن نقحم هذا النزاع الذي أثاره المعتزلة في صلب الكتاب ، مكتفين بهذا الإلماح ، لأننا أخذنا على أنفسنا أن لا نتعرض لشيء من هذه المجادلات والمماحكات التي لا حاجة بنا إلى خوضها اليوم بعد أن انتهى أمر المعتزلة وطويت شبههم ، وتبينت لنا براهين أهل السنة والجماعة القائمة على كل من منطق العقل السليم ونصوص الكتاب والسنة والفطرة الإنسانية الصافية . على أن أقوى البراهين التي تؤكد أن الحق إلى جانبهم أنهم كانوا منذ عصر الصحابة إلى يومنا هذا يشكلون السواد الأعظم من المسلمين وعلمائهم وهم الذين أمر رسول الله ﷺ باتباعهم في أحاديث صحيحة كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي .

ثم إن لمعرفة هذه الصفات بخصوصها أهمية أخرى ، إذ ينبثق من معرفتها ومعرفة ضرورة الإيمان بها حقائق هامة يجب اعتقادها والإيمان بها ، كتلك الحقائق المتعلقة بتسيير الإنسان واختياره وقضاء الله وقدره وأثر العلية وعدمها في أفعاله سبحانه وتعالى .

وسنتّبع في شرح هذه الصفات الطريقة التالية :

١ ـ ذكر صفات المعاني وبيان معنى كل منها ودليله .
٢ ـ ذكر الصفات المعنوية ومعنى كل منها .
٣ ـ بيان متعلق هذه الصفات .

☆ ☆ ☆

١ ـ ذكر هذه الصفات وبيان معنى كل منها ودليله

١ ـ **(العلم)** وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها كشف الأمور والإحاطة بها على ما هي عليه في الواقع أو على ما ستكون عليه في المستقبل .

ولدى تأملك في هذا التعريف تعلم أن هذه الصفة ليس من شأنها تخصيص الممكنات أو التأثير فيها بوجه من الوجوه ، ولكن شأنها مجرد الكشف والاطلاع ، سواء تعلق بواقع ظهر إلى الوجود أم بمغيب لا يزال في جوف العدم .

ودليل هذه الصفة آيات كثيرة في كتاب الله تعالى مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ ﴾ [التوبة : ١١٥] .

٢ ـ **(الإرادة)** وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها ، من وجود ، وعدم ، وتكيُّف بقطع النظر عن أي مؤثر خارجي .

انقسام الإرادة إلى صلوحية وتنجيزية :

ثم إنك إن لاحظت هذه الصفة ، من حيث هي معنى أزلي قائم بذات الله صالح لأن تخصص به الممكنات ، فتلك هي الإرادة الصلوحية ، وإن لاحظت تعلقها الواقعي بمراد من المرادات ، فتلك هي الإرادة التنجيزية . وهي على كل إرادة واحدة وقديمة ، ولكن الذي يختلف فيها اعتبار التعلق وعدمه .

ولعلك تسأل : فكيف يكون تعلق الإرادة الإلهية بالممكنات قديماً أيضاً ، كالإرادة الصلوحية العامة ، مع أننا نسميها بالتنجيزية ؟

والجواب أن تعلق الإرادة الإلهية بإيجاد شيء أو إعدامه ، قديم ولا يمكن أن يكون حادثاً . إذ لو كان كذلك ، لكان من مستلزماته أن لا يكون الله عالماً ببعض ما يريد خلقه وفعله في المستقبل . وهو محال لما مرَّ بيانه . فثبت عكسه إذاً ، وهو أن الله يعلم في الأزل كل ما سيفعله وسيخلقه في الحين والوقت الملائمين ، وهذا يعني بالبداهة أن إرادة الله التنجيزية مصاحبة لعلمه القديم هذا .

بقي أن تعلم بأن الشبهة إنما تحوم حول فكرك ، من كلمة : « التنجيزية » . إذ تتخيل أن معناها الخلق والظهور وهو شيء حادث قطعاً ، غير أن هذا صحيح بالنسبة للقدرة التي سنتحدث عنها . أما الإرادة فالتنجيز بالنسبة لها هو محض تعلقها بممكن من الممكنات ، سواء ظهر هذا الممكن إلى طور الوجود أم لم يظهر بعد . وقد تتعلق إرادة الإنسان بعمل من الأعمال ، ثم يطويه عن التنفيذ إلى ما بعد سنوات كثيرة فتسمى إرادته هذه تنجيزية ، أي ليست مجرد قابلية محضة ، بل هي توجه فعلي إلى مراد معين .

ودليل هذه الصفة من العقل اللزوم البيِّن أيضاً ، إذ لو لم تكن موجودة وأزلية فيه سبحانه وتعالى للزم عليه نقيضها وهو الإكراه ، وهو يستلزم مكرهاً ، وذلك ينافي واجب الوجود ومعنى الألوهية .

ودليلها من النقل ، آيات كثيرة من مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة : ٤١] وقوله : ﴿ وإذا أرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سوءاً فلا مَرَدَّ لَهُ ومَا لَهُمْ مِنْ دونِهِ مِنْ والٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

ثم لا بد أن تعلم أن الإرادة والأمر متغايران ، ومنفكان . فلا لزوم بينهما كما يتصور ، على ما حققه أهل السنة والجماعة . وموعدنا معك في شرح هذا التغاير وبيانه ، عند الحديث عما يترتب على معرفة هذه الصفات من الحقائق الاعتقادية .

٣ ـ (**القدرة**) وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه وتكييفه . ثم إنك إن لاحظت هذه الصفة من حيث هي معنى أزلي قائم بذاته تعالى ، صالح لأن يوجد به الممكنات أو يعدمها أو يكيّفها ، بقطع النظر عن التنفيذ ، فتلك هي القدرة التي تتعلق بالأشياء تعلقاً صلوحياً فقط . وإن لاحظت تنفيذ الإيجاد والإعدام أو التكييف الفعلي ، فتلك هي القدرة الإلهية في تعلقها التنجيزي .

وبذلك تعلم أن القدرة واحدة أيضاً . فإن نظرت إلى تعلقها الصلوحي فهو تعلق أزلي قديم وإن نظرت إلى تعلقها التنجيزي فهو تعلق حادث . أي إن كلا التعلقين عائدان إلى قدرة واحدة ، وإنما الحادث هو التعلق التنجيزي بالأشياء . أما القدرة ذاتها فهي قديمة على كل حال .

٤ ـ (**السمع**) وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمسموعات ، أو بالموجودات ، فتُدرك إدراكاً تاماً لا على طريق التخيل والتوهم ولا على طريق تأثير حاسة ووصول هواء .

٥ ـ (**البصر**) وهو أيضاً صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمبصرات أو

الموجودات فتُدرك إدراكاً تاماً لا على طريق التخيل والتوهم ولا عن طريق تأثر حاسة ووصول شعاع[1] .

واعلم أن اتصافه جل جلاله بهاتين الصفتين إنما استُفيد من دليل النقل الثابت بالقطع في كل من الكتاب والسنة بحيث لا يسع العاقل أن ينكر أو يؤول .

والتمسك بالدليل النقلي في هذا هو الذي منعنا من أن ننسب إليه سبحانه وتعالى صفة الذوق والشم واللمس ، إذ لم يرد دليل من النقل يثبتها عن طريق حاسة أو آلة كما هو الأمر بالنسبة للإنسان والحيوانات .

ثم إن العلماء اختلفوا في مدى شمول كل من هاتين الصفتين ، فقال البعض منهم كالباجوري والسنوسي إنهما شاملتان لكل الموجودات مع اختلاف المعنى في كل منهما ، أي فسمعه تعالى يتعلق بما هو قابل للسمع بالنسبة إلينا وبما هو غير قابل له من سائر الموجودات ، وبصره تعالى كذلك . وقال البعض كسعد الدين التفتنازاني رحمه الله : إن صفة السمع تتعلق بالمسموعات وصفة البصر تتعلق بالمبصرات .

والذي ينبغي أن نقف عنده في هذا الصدد هو الإيمان بثبوت هاتين الصفتين له سبحانه وتعالى طبقاً لما وصف به نفسه ، ثم الإيمان بأن لكل صفة من هاتين الصفتين وظيفة تمتاز عن الأخرى ، وإلا لما كان في إسناد كل منهما إليه تعالى على حدة أي معنى غير التكرار ، وهو محال في هذا المقام .

أما عن حقيقة كل من هاتين الصفتين ومدى شمولهما ، وهل لكل منهما وظيفة خاصة تتعلق ببعض من الموجودات كما هو الشأن بالنسبة إلينا ، أم هما

---

(١) اعتمدنا في تعريف هاتين الصفتين على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد « اتحاف المريد : ١٠٧ و ١٠٩ » .

بالنسبة إليه جل جلاله قائمتان على وظائف أخرى أشمل وأعم ـ فنكل علم ذلك إلى الله جل جلاله ، وحسبنا في مثل هذه الأمور التي لا نافذة للعقل إلى الإثبات أو الإنكار فيها إلا الاعتماد على النقل اليقيني والنص القطعي ، حسبنا في ذلك أن نقف عند ما تستوجبه هذه النصوص . وتلك هي طريقة السلف رحمهم الله تعالى في فهم حقائق العقيدة الإسلامية .

٦ ـ (**الكلام**) وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، هو بها آمر وناه ومخبر ، عبر عنها نظم ما أوحاه إلى رسله كالقرآن والتوراة والإنجيل .

فأما دليل ثبوت هذه الصفة لله تعالى فالنصوص القطعية الثابتة في كل من الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْليماً ﴾ [النساء : ١٦٤] وقوله جل جلاله ﴿ وإنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مأمَنَهُ ﴾ [التوبة : ٦] ومنها ما ثبت في الحديث الصحيح من أن الرسول ﷺ خاطب ليلة المعراج ربه جل جلاله وفُرضت إذ ذاك عليه الصلوات الخمس .

وأما التحقيق في معناها ، فاعلم أن الكلام في اللغة العربية يطلق على معنيين :

أحدهما : الألفاظ المعبرة عن المعنى القائم بالنفس ، فتقول : هذا كلام فصيح ، وكلام واضح .

ثانيهما : المعنى القائم بالنفس الذي من شأنه أن يعبَّر عنه بألفاظ ، وعليه قول الأخطل :

إنَّ الكلام لفي الفؤاد وإنما　　　جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومثله قول عمر رضي الله عنه : إني زورت في نفسي مقالة ، أي قومت

وهيأت كلاماً . وكثيراً ما تقول لصاحبك إن في نفسي كلاماً أريد أن أذكره لك .

جوهر الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة :

إذا علمت هذا ، فاعلم أنه قد ثبت (الكلام) لله تعالى بإجماع الأمة ، وتواتر النقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أنه سبحانه وتعالى متكلم مع القطع باستحالة التكلم بدون ثبوت صفة الكلام . وهذا القدر من الإجماع لا خلاف لأحد من المسلمين فيه[1] .

ثم إن المعتزلة فسروا هذا الذي أجمع المسلمون على إثباته لله تعالى بأنه أصوات وحروف يخلقهما الله في غيره كاللوح المحفوظ وجبريل ، ومن المعلوم أنه حادث وليس بقديم . ثم إنهم لم يثبتوا لله تعالى شيئاً آخر من وراء هذه الأصوات والحروف ، تحت اسم : الكلام .

أما جماهير المسلمين ، أهل السنة والجماعة ، فقالوا : إننا لا ننكر هذا الذي تقوله المعتزلة ، بل نقول به ، ونسميه كلاماً لفظياً ونحن جميعاً متفقون على حدوثه وأنه غير قائم بذاته تعالى ، من أجل أنه حادث ، ولكننا نثبت أمراً وراء ذلك وهو الصفة القائمة بالنفس والتي يعبّر عنها بالألفاظ وهي غير حقيقة العلم وغير الإرادة ، وإنما هو صفة مهيأة ، لأن يخاطب بها الآخرون على وجه الأمر أو النهي أو الإخبار ، تدل عليه الألفاظ وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، ضرورة استحالة توارد الخواطر وطروء المعاني عليه كما هو شأن الإنسان . وهذا هو المقصود بإسناد الكلام إلى الله تعالى ، وبه يفسر ما أجمع عليه المسلمون[2] .

---

(١) ر : السعد على العقائد النسفية . وحاشية عصام عليه ص ٢٨٨ .

(٢) ر : شرح المواقف : ٢ / ٢٦١ .

وهنا افترق المعتزلة عن الجمهور ، إذ إنهم لم ينسبوا إلى الله تعالى صفة قديمة بهذا المعنى اسمها الكلام أو الكلام النفسي . فقد قالوا : إن مدلول العبارات الذي أطلقتم عليه اسم الكلام النفسي ، راجع في الحقيقة إلى صفة العلم إن كان هذا المدلول خبراً ، وراجع إلى صفة الإرادة إن كان أمراً أو نهياً[1] (وقد علمت أنهم يرون الإرادة والأمر بمعنى واحد) أما العبارات نفسها فألفاظ حادثة مخلوقة من الله ، كما اتفقنا جميعاً ، فهي ليست صفة لله تعالى ولكنها مخلوق من مخلوقاته ، وليس الكلام إلا عبارة عن هذا .

إذا تأملت فيما ذكرناه ، أدركت النقطة الخلافية بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة ، وهي : أن هنالك معنى لألفاظ القرآن يتكون منه الأمر والنهي والإخبار المتوجه إلى الناس وهو قديم . فما اسم هذا المعنى ؟

المعتزلة : اسمه العلم إذا كان إخباراً ، والإرادة إذا كان أمراً أو نهياً ..

الجمهور : اسمه الكلام النفسي ، وهو صفة زائدة على كل من العلم والإرادة ، قائمة بذاته تعالى .

وأما الكلام الذي هو اللفظ ، فاتفقوا على أنه مخلوق وعلى أنه غير قائم بذاته سبحانه ، باستثناء أحمد بن حنبل وبعض أتباعه ، فقد ذهبوا إلى أن هذه الحروف والأصوات أيضاً قديمة بذاتها ، وأنها هي المعني بصفة الكلام[2] .

ولا ندخل ـ بعد أن عرفت نقطة الوفاق والخلاف ـ في شيء من المناقشة والجدال اللذين قاما حول هذا البحث ، لاعتقادنا بأن الخطب أيسر من ذلك ، وإن كنا نعتقد ما ذهب إليه الجمهور من أن المعنى الذي هو مدلول العبارات اسمه

---

(١) المرجع السابق : ٢ / ٣٦٢ .

(٢) نص على ذلك الإمام أحمد بن حنبل في رسالته : الرد على الزنادقة ، وهي رسالة مطولة مطبوعة ضمن مجموعة من الرسائل الكبرى لابن تيمية . وانظر كتاب : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور النشار : ١ / ٢٥٣ فما بعد .

الكلام النفسي ، وأنه صفة زائدة على كل من صفتي العلم والإرادة ، غير أن المعتزلة متفقون على كلٍ مع الجمهور في ثبوت هذا المعنى لله تعالى ، وأنه صفة قديمة قائمة بذاته ، وإن لم يسموها مثلنا كلاماً . ومعظم ما تسمعه من الأصداء الرهيبة للخلاف التاريخي في هذه المسألة ، إنما منشؤه الخلاف بين أحمد بن حنبل رضي الله عنه والفرق الأخرى كالجهمية والمعتزلة .

استغلال الكيد الصليبي لهذه المسألة :

واعلم أنه كان بوسعنا أن نكتفي في هذا الصدد بعرض ما استيقنه جمهور المسلمين أهل السنة والجماعة ، أخذاً من الكتاب والسنة ، ومقتضيات العقل السليم ، دون أن نعرِّج على رأي المعتزلة في ذلك ونذكر أسباب هذا الخلاف . نقول ، كان بوسعنا أن نفعل ذلك ، لولا أن الكيد الاستشراقي والتبشيري خاض في هذه المسألة خوضاً باطلاً عجيباً ، أملاً منه بأن يخلف أي تشويش في ذهن أي فئة أو جماعة من المسلمين بأي شكل من الأشكال .

فمنبع الخلاف حول القرآن وأنه كلام مخلوق أو غير مخلوق ، إنما هو (في ما يراه الخوض التبشيري والاستشراقي) الجدل الذي قام بين المسلمين والكنيسة ، وكان أساس ذلك ما دار من جدل حول « كلمتُهُ » في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾ [النساء : ١٧١] فقد اعترض النصارى على المسلمين قائلين : من هو المسيح ؟ ـ إنه كلمة الله ـ فهل هذه الكلمة مخلوقة أم غير مخلوقة ؟ إن كانت غير مخلوقة كان المسيح هو الله ، وإن كانت مخلوقة لم يكن قبل ولادته ذا كلمة وروح ، فلا بد أن هذا هو السبب في النزاع الذي وقع حول اعتبار القرآن مخلوقاً أم حادثاً[(١)] .

ولا تنتظر مني أن أنقل إليك دليل هذا الادعاء الخطير ، ومصدر النقل أو

---

(١) انظر فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية للويس غريديه وجورج قنواتي ١ / ٦٢ .

السند فيه . فعلوم المستشرقين والمبشرين ، وخاصة في مثل هذه المسائل ، أبعد من أن يلحق بها أيٌّ دليل ، وأعلى من أن تخضع لأي منهج من مناهج البحث العلمي ، اللهم إلا منهج التوسم والحدس والأحقاد .

فحسب ذلك برهاناً على واقع تاريخي ينبغي أن يُصدَّق وتقام عليه المبادئ والحقائق . ولست أدري لماذا لا يصدقني الناس إذا سخَّرت أنا أيضاً لنفسي هذا المنهج ، فقلت : إنني أرى غيوماً متلبدة سوداء في جهة الشمال ، ولا بد أنها الآن تصب أمطاراً هائلة هناك تسبب عنها طوفان جرف كثيراً من النفوس أو الممتلكات ! ..

أمّا أن رجال الكنيسة قد احتجوا على علماء المسلمين بهذا الكلام السخيف . فليس ببعيد ، وإن كنا لا نثبته من الناحية العلمية إلا إذا نقل إلينا بسند صحيح يكسبنا اليقين[1] .

وأما أن علماء المسلمين ، قد أسقط في أيديهم أمام هذا الكلام ، فتململوا وتحيَّروا فيما بينهم ، حتى اقتضاهم الأمر أن ينفسوا عن حيرتهم بما تنازعوا فيه من مسألة خلق القرآن ـ فهو سخف لا علم للتاريخ به على الإطلاق ، ولا يمكن أن يصدقه العقل بحال من الأحوال .

أو لم يكن في علماء المسلمين ، يوم أن قيل لهم ذلك السخف من القول ، من

---

(١) نقول هذا لأننا نعلم أن في رجال الكنيسة قديماً وحديثاً من يحاول أن يجادل المسلمين في قدم عيسى عليه الصلاة والسلام بهذه الكلمة .. فقد جاء عن « يوحنا الدمشقي » أنه كان يلقن بعض المسيحيين ما يجادلون به المسلمين ليفسدوا اعتقادهم ، فيقول : إذا سألك العربي ما تقول في المسيح ؟ .. فقل إنه كلمة الله .. إلخ ، ولكن لم يقل أحد بأن في المسلمين من لم يستطع أن يرد عنه جدالهم إلا بزعم أن القرآن مخلوق ونفي صفة الكلام عن ذاته تعالى . إن المعتزلة إنما ذهبوا إليه لأنهم كانوا يرون أنه هو الحق بقطع النظر عن كل شيء . ولو كانوا يعلمون أن الحق ما يراه جمهور المسلمين لما تمسكوا برأيهم هذا وإن تألبت عليهم جميع رجال الكنيسة .

يجيبهم قائلاً : إن كلمة الله تعالى هي قوله : كن ، ولئن كان معنى « كن » هذه قديماً فإن ذلك لا يقتضي أن يكون متعلَّقها أيضاً قديماً . ولقد علم العقلاء وعامة علماء العربية أن عيسى ابن مريم ليس هو نفس كلمة « كن » ولكنه متعلَّقها . وإنما أخبر الله عن عيسى عليه السلام بالكلمة نفسها مبالغة في بيان هذا التعلق ومبالغة في تنبيه الذهن إلى أن خلقه إنما كان بمحض إرادة الله تعالى التي تمثلت في قوله : كن .

ولو كان متعلَّق الإرادة قديماً مثل الإرادة نفسها ، لكان العالم كله قديماً أيضاً ، إذ هو ليس إلا نتيجة إرادته سبحانه وتعالى وقوله له : كن . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾ [يس : ٨٢] فكما يقول الله تعالى لكل شيء يريد خلقه : كن ، فيكون . كذلك قال الله تعالى عن عيسى ابن مريم : كن فكان مخلوقاً ، وكما أن الأشياء كلها حادثة في خلقها وإن تعلق بها خطاب الله القديم ، فكذلك عيسى ابن مريم عليه السلام حادث في خلقه وإن تعلق به خطاب الله القديم .

ثم هل في الجهال جاهل لا يعلم أن كلمة الله التي بها أوجد الكون كله ، وبها ستطوى السماوات والأرض ، والتي تكرر ذكرها في كتابه في أكثر من مناسبة ، إن هي إلا قضاؤه وحكمه المبرم القديم ، حتى يغيب ذلك عن بال أولئك العلماء الأعلام فلا ينتبهوا إليه ؟!

وما علاقة الخلاف الذي بين المعتزلة والآخرين ، بهذه المسألة ، وقد علمت أنهم جميعاً متفقون على أن ألفاظ القرآن حادثة وأن معانيه قديمة وأن خلافهم محصور فقط في تسمية المعنى القديم : هل يسمى صفة الكلام ، أم يسمى صفة العلم والإرادة ؟ ..

ثم إنه ليس عجيباً كل العجب أن ترى في المستشرقين أو المبشرين من يفوه بهذا السخف رغم أن في رؤوسهم عقولاً يفكرون بها ، لأنها صنعتهم المعروفة .

ولكن العجيب والمضحك حقاً أن تلتفت حولك فتبصر أناساً من العرب المسلمين يتباهون بنفس ذلك السخف ويدندنون بعين ذلك الهراء في نشوة وطرب بالغين ، دون أن تبصر أي أثر للتأمل والفكر في شيء من كلامهم أو بحوثهم ! ..

فمن أجل أن لا تنطلي عليك أي شبهة من كلام كثيرين ممن خاضوا في الحديث عن تاريخ المعتزلة وقضية خلق القرآن وعدمه من أجانب مستشرقين أو مقلديهم من المسلمين ـ اقتضت الضرورة أن نفصل القول في ذكر حقيقة هذا الخلاف وجوهره ، وأسبابه .

٧ ـ (**الحياة**) وهي صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه وتعالى يتأتى بها ثبوت الصفات السابقة . ودليلها من النقل قوله تعالى ﴿ اللهُ لا إلهَ إلاّ هوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وكونه حياً نتيجة لثبوت صفة الحياة له . ودليلها من العقل ما ثبت من اتصافه جل جلاله بصفة العلم والقدرة والإرادة وغيرها ، إذ لا يتصور قيامها إلا بمن ثبتت فيه صفة الحياة .

فهذه جملة صفات المعاني التي جاء بها الدليل السمعي ، وأيده الدليل العقلي ، حسب ما ذكرنا عند شرح كل واحدة من هذه الصفات . وكما يجب اعتقاد هذه الصفات لله عز وجل ، فإنه يجب اعتقاد سلب نقائضها عنه عز وجل إذ هو من مستلزمات ثبوت تلك الصفات .



٢ ـ الصفات المعنوية

أما الصفات المعنوية فهي ليست أكثر من نتائج صفات المعاني ، أي هي الأحكام التي تترتب على ثبوت صفات المعاني . فهي كونه جل جلاله قديراً ، مريداً عليماً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، حياً ، ولم يخالف المعتزلة في نسبة هذه

الصفات بهذا الشكل إلى الله جل جلاله ، ولكنهم حكموا بها استقلالاً وابتداء ، ودون أن يروا أنها نتيجة صفات ذاتية ثابتة لله عز وجل كما مر بيانه . وليس لنا أي غرض في هذا المقام ببيان شيء أكثر من الذي أوضحناه لك في هذا الصدد .



٣ - بيان متعلق كل صفة من هذه الصفات

تنقسم هذه الصفات بالنظر إلى متعلقاتها إلى أربعة أقسام :

فالقسم الأول منها يتعلق بالواجبات والممكنات والمستحيلات جميعاً ، وهو كل من صفتي العلم والكلام . أما صفة العلم فلأنها كما قلنا ، إنما تكشف عن حقائق الأشياء على ما هي عليه دون أي تأثير فيها ، ومن المحال أن لا يكون ذلك بالنسبة إليه سبحانه وتعالى متناولاً لسائر الواجبات والممكنات والمستحيلات . وأما صفة الكلام فلأنها تتعلق بالأشياء تعلق دلالة وبيان أو أمر ونهي ، وقد احتوى بيانه سبحانه وتعالى وأمره ونهيه الحديث عن الواجب ، وعن المستحيل ، وعن الممكن كما تشهد بذلك آيات كتابه الكريم .

وأما القسم الثاني منها ، فيتعلق بالممكنات فقط ، وهو كل من صفتي الإرادة والقدرة . أما الواجب والمستحيل فلا شأن لهاتين الصفتين بهما .

وبيان ذلك أن كلاً من صفتي الإرادة والقدرة إنما يتعلقان بالأشياء على وجه التخصيص والتأثير كالإيجاد والإعدام ونحو ذلك . والواجب لا يمكن إعدامه والمستحيل لا يمكن إيجاده ، وإلا لم يكن الواجب واجباً ولا المستحيل مستحيلاً ، ولو أمكن انعدام الواجب مع بقائه واجباً أو إيجاد المستحيل مع كونه مستحيلاً ، لأمكن اجتماع النقيضين في آن واحد ومكان واحد ، وهو معلوم الاستحالة لكافة العقلاء .

تعلق الإرادة والقدرة بالممكنات وحدها لا يعني العجز :

وإذا أمعنت النظر في معنى هذا الكلام ، علمت أن تعلق الإرادة والقدرة بالممكنات فقط ، لا يعني العجز أو نقصان الإرادة . وإنما يعني أن الإرادة الكاملة التامة ليس من شأنها أن تتجه إلى الواجب ما دام أنه واجب ، أو إلى المستحيل ما دام مستحيلاً ، وكذلك القدرة . بل لا يمكن للعقل أن يفهم كيف تتعلق الإرادة أو القدرة بالواجب أو المستحيل . فلو قيل مثلاً : إن إرادة الله تعلقت بإيجاد المستحيل (وهو الشريك في الألوهية) فأوجدته ـ فإن عقلك لا يمكن أن يصدق إطلاقاً هذا الكلام ، لأنه مستحيل بالبداهة .

إذ معنى هذا القول أنه قد أوجد إلهاً مثله واجب الوجود ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مسبوقاً بعدم ، كما بيّنا من قبل ، وإذاً فليس هو في الحقيقة واجب الوجود . وإن قلت بل هو كذلك على الرغم من أنه مخلوق ومسبوق بعدم ، فمعنى ذلك أنك تقول : إنه واجب الوجود رغم أنه ممكن الوجود وهو تناقض صريح يلفظه العقل .

فهذا معنى قولنا إنّ عدم تعلق الإرادة والقدرة بغير الممكن لا يسمى عجزاً أو نقصاناً . وإنما هو لأن معناهما قائم على عدم التعلق بغير الممكن . كالإعدام مثلاً ، فإنه لا يمكن أن يظهر أثره إلا إذا تعلق بالموجود أما المعدوم بطبيعته فإن معنى الإعدام لا يمكن أن يتعلق به وليس ذلك دليلاً على نقص هذا المعنى أو ضعفه بحال . وإن رحت تكرهه على التعلق به بموجب الصياغة اللفظية مثلاً ، كقولك : أعدمت المعدوم ، فإنك لا تفعل بذلك أكثر من أن تؤلف كلاماً فارغاً لا معنى له .

وإنك لترى في الناس نماذج من المتهوسين ، يحسبون أن بإمكانهم زعزعة الإيمان بالله في قلوب طائفة من المؤمنين . إذا ما جابهوهم بهذا السؤال : هل

يستطيع الله أن يخلق إلهاً مثله ؟ تصوراً منهم بأن المسؤولين إذا أجابوا بالإمكان ، اعترفوا بذلك أنه ليس لهم أن يكفِّروا من أشرك مع الله غيره ، وإن أجابوا بعدم الإمكان فقد أسندوا إلى الله العجز وذلك دليل على أنه ليس بإله ! ...

وهذا التصور يعود في حقيقته إلى حمق من نوع عجيب ! ...

فمن المعلوم أن السائل ـ لكي يعتبر سائلاً في الحقيقة ـ ينبغي أن يتصور معنى سؤاله ، ولكي يتصور معناه ينبغي أن يكون له معنى : فأما إذا لم يكن للسؤال معنى فلا يمكن أن يكون له صورة في ذهن السائل ، وإذا كان كذلك ، فإن السؤال لا يسمى حينئذ سؤالاً إلا من حيث الصورة والأسلوب ، وأما من حيث الموضوع والمضمون فهو هذيان ، والهذيان لا جواب عليه ، لا عجزاً عن الإجابة ، ولكن لأن الإجابة لا تكون إلا على سؤال والسؤال لم يولد في الحقيقة بعد .

إن الذي يقول لك : هل تستطيع أن تكون في هذه اللحظة غائباً عني مشاهداً أمامي ؟ ـ هو في الحقيقة لا يقدم لك أي سؤال أو رجاء يطلب الإجابة عليه ، لأنه هو نفسه لا يعلم ما يريد بالضبط وليس في ذهنه أي صورة لهذا الذي يريد ، ومحال أن يكون في ذهنه صورة لمعنى هذا السؤال ، فمهما كان الجواب ـ على فرض أن يكون له جواب ـ فإنه لا يقع مطابقاً لأي معنى متخيل في ذهن السائل .

وبتعبير أوضح نقول ، إن هذا السؤال ليس في جوهره إلا هذياناً ليس من فرق بينه وبين أي جملة من الكلام المختلط الذي لا معنى له ، فمن الطبيعي أن تنظر بإشفاق تام إلى من يستوقفك ليضع لك هذياناً بصيغة سؤال ، ثم تشيح بوجهك عنه دون أن تجيبه بكلمة . ذلك لأنه لم يقل شيئاً يحتاج إلى جواب ، حتى ينتظر العاقل منك جواباً عليه .

إن الذي يستوقفك ليقول لك : هل يستطيع الله أن يخلق إلهاً مثله ، أو

سخفاً آخر من هذا القبيل[1] ـ ليس بأقل هذياناً من صاحب الجملة التي ضربنا المثل بها . إذ الهذيان ليس أكثر من أن لا يحتوي الكلام على أي معنى متصور في الذهن ، ولا ريب أن العاقل لا يتصور أي معنى لهذا السؤال عن الله ، حتى يتطلع إلى التأكد من صدق تصوره له .

أجل .. إن مثل هذا السؤال ، قد يكون له معنى متخيل وهمي ، ولكن ذلك يكون ، عندما يصدر السؤال من طفل صغير يجتاز مرحلة البحث عن كل شيء دون أن يكون قد قوي عقله بعدُ على اللحاق به في تطلعاته وتخيلاته ، فتجده يتعب والده بأسئلة كثيرة لا معنى لها وقد يكون من جملتها مثل هذا السؤال .

وعندئذ فلا بد من الحكمة .. لا بد لك من أن تضع أمامه صورة للإجابة وإن لم تكن في الحقيقة جواباً ، كما وضع أمامك صورة السؤال وإن لم يكن في حقيقته سؤالاً . كأن تقول له : الله قادر يا بني على أن يخلق كل شيء . ولكن شريك الله تعالى ليس شيئاً ، لأنه محال ، والمحال لا يسمى شيئاً .

ولعلك تقول : فلماذا لا يعتبر هذا الكلام جواباً حقيقياً ؟

وأقول لك : هذا ليس جواباً لسائل ، ولكنه تعليم لجاهل . إذ هو لو علم معنى كلامه ، وعلم معنى المستحيل والواجب والممكن لأدرك عجز تصوره لمضمونه ، ولأدرك بذلك أنه ليس سؤالاً قابلاً للتوجيه والإجابة عليه ، فكان يقلع بذلك عن عرضه وطلب الإجابة عليه . أما وقد عرض هذا الذي جاء في صيغة سؤال ، فمعنى ذلك أنه جاهل ، يحتاج إلى تعليم ، وليس سائلاً يطلب الإجابة .



(١) من أمثلة هذا السخف ، المذيان الذي يطرحه بعضهم : هل يستطيع الله أن يخلق صخرة يعجز عن حملها ؟ .. فمعنى السؤال : هل يستطيع الله أن يكون عاجزاً ؟! ..

وأما القسم الثالث : فيتعلق بالموجودات . وهو كل من صفتي السمع والبصر . فهما لا يتعلقان بالمعدومات ، وإنما يتعلقان بما وراء ذلك من مختلف الموجودات ، سواء كانت من نوع الممكن أم الواجب .

هذا إن قلنا إن كلاً من صفتي السمع والبصر يتعلقان بالموجودات كلها على وجه الإحاطة تعلقاً زائداً على العلم . أما إذا ذهبنا إلى مثل ما ذهب إليه السعد في شرح العقائد من أن السمع إنما يتعلق بالمسموعات ، والبصر يتعلق بالمبصرات ، فلا تتعلقان بكل الموجودات حينئذ .

وقد سبق أن ذكرنا تفويض الحقيقة في هذا الأمر إلى الله عز وجل كما جنح إلى ذلك كثير من الأئمة والباحثين ، وحسبنا أن نثبت ما أثبته الله تعالى لنفسه . أما ما وراء ذلك مما لم يأتنا خبر عنه وبيان له ، فنكل علمه إلى الله عز وجل .

غير أن المهم هنا أن تعلم بأن هاتين الصفتين لا تتعلقان بالمعدومات بالاتفاق . إذ لا يعقل تعلقهما بها . وإلا لكانت من قسم الموجودات ، ولا يمكن اجتماع الوجود والعدم معاً لأنه تناقض ، وهو محال . ومثل ذلك اللمس والذوق والشم ، أفنقول : لمست المعدوم أو ذقته أو شممته ؟! وإذا ادعى ذلك شخص أفيمكن أن يصدقه عاقل من الناس ؟

واعلم أن هذا البحث يعكس مزيداً من الإيضاح على بحث القدرة والإرادة وعدم تعلقهما بغير الممكنات . إذ المبدأ فيهما واحد .

وأما القسم الرابع : فلا يتعلق بشيء ، وهو صفة الحياة . فهي بالنسبة لله تعالى قائمة بذاته لا تعلق لها بشيء سواه . إذ ليس لها علاقة بالأشياء لا على وجه الكشف كالعلم والسمع والبصر ، ولا على وجه التأثير والتخصيص كالإرادة والقدرة . وإنما هي معنى قائم بذات الله تعالى ، شأنه أن يصحح قيام تلك الصفات السابقة به .

☆ ☆ ☆

ثالثًا

ما يترتب على هذه الصفات

من الحقائق الاعتقادية

وتتلخص هذه الحقائق في الأمور التالية :

أولاً ـ تنزيه الله تعالى عن أضداد هذه الصفات وسائر النقائص .

ثانياً ـ نفي العلة الغائية عن أفعاله جل جلاله .

ثالثاً ـ لا يجب على الله لعباده أو لأحد من خلقه شيء والحُسن والقبح أمر اعتباري .

رابعاً ـ مصير الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله جل جلاله .

خامساً ـ القضاء والقدر : معناهما وضرورة الإيمان بهما .

ولنبدأ بأولها وهو :

١ ـ تنزيه الله تعالى عن أضداد هذه الصفات وعن سائر النقائص

وبيان ذلك أن الصفات التي فرغنا من شرحها وبيان ما يتعلق بها ، ثابتة لله تعالى بكل من دليلي النقل والعقل القاطعين ، كما قد رأيت ، فلا بدَّ من الإيمان بها بأن نستيقن اتصاف الله عز وجل بكل واحدة منها .

والإيمان بها يقتضي سلب نقائض كل منها عن الله جل جلاله ، فالله عز وجل ، بموجب ثبوت تلك الصفات له ، ليس له شريك ولا ظهير ، ولا يتحيز في مكان ولا ينحصر في زمان ، ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ولا يصح عليه

شيء من لوازمها كأن يشار إليه بهاهنا أو هناك أو تنسب إليه الحركة والانتقال من مكان إلى آخر ، ولا يصح عليه الجهل ولا الكذب ولا النوم أو النسيان أو القسر والإكراه .. إلى آخر ما هنالك من أضداد الصفات التي ذكرناها .

المتشابه من آيات الصفات وموقف كل من السلف والخلف منها :

غير أنه يشكل على هذا ـ بحسب الظاهر ـ آيات في كتاب الله ، وأحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ ، تفيد بظاهر ألفاظها وتعابيرها ثبوت بعض هذه النقائص أو النقائض التي نفيناها عن ذات الله جل جلاله ، كالجهة والجسمية والجوارح والأعضاء والتحيز في المكان . كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] وقوله ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] وقوله ﴿ ... بَلْ يداهُ مَبْسوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ ﴾ [المائدة : ٦٤] وقوله ﴿ الرَّحْمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى ﴾ [طه : ٥] وكقوله عليه الصلاة والسلام : « إن قلوبَ بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله « إن الله خلق آدم على صورته » .

فكيف نوفق بين ما ذكرناه وأوضحناه بالأدلة القاطعة اليقينية ، وبين ظاهر هذه الآيات والنصوص ؟

والجواب أن هذه النصوص القرآنية من نوع المتشابه الذي ذكر الله عز وجل أن في كتابه الكريم آيات منه ، والمقصود بالمتشابه كل نص تجاذبته الاحتمالات حول المعنى المراد منه وأوهم بظاهره ما قامت الأدلة على نفيه . غير أن هنالك آيات أخرى تتعلق بصفات الله تعالى أيضاً ، ولكنها محكمات أي قاطعة في دلالتها لا تحتمل إلا معناها الواضح الصريح كقوله جل جلاله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ وقوله ﴿ قُلْ هوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

وقد أوضح الله في كتابه بصريح العبارة ، ضرورة اتباع المؤمن للنصوص المحكمة في كتابه ، وبناء عقيدته في الله بموجبها ، ووضع النصوص المتشابهة ، من ورائها ، من حيث فهمها والوقوف على المعنى المراد منها . وشدد النكير على من يتجاهل النصوص المحكمة النيرة القاطعة ليلحق العبارة المتشابهة الغامضة ويفسرها كما يشاء وذلك في قوله عز وجل ﴿ هوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فأمَّا الَّذينَ في قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغاء تَأويلِهِ ، وَما يَعْلَمُ تَأويلَهُ إلاَّ اللهُ والرَّاسِخونَ في العِلْمِ ، يَقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إلاَّ أولو الأَلْبابِ ﴾ [آل عمران : ٧]

القاسم المشترك بين الفريقين :

وبناء على ذلك فقد اتفق المسلمون كلهم ، على تنزيه الله تعالى عما يقتضيه ظاهر تلك النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، من الصفات المنافية لكمال الله وألوهيته ، تنفيذاً لأمر الله عز وجل ، وانسجاماً مع تحذيره من اتباع المتشابه والخوض في تأويله مع ترك المحكم الواضح .

وبعد أن اتفقوا على ذلك ـ وهذا هو القدر الذي يجب أن يعتقده المسلم ـ اختلفوا في موقفهم من النصوص المتشابهة ، إلى مذهبين : أولهما تمسك به السلف المتقدمون ، وثانيهما جنح إليه من بعدهم من المتأخرين .

ما انفرد به السلف :

فمذهب السلف ، هو عدم الخوض في أي تأويل أو تفسير تفصيلي لهذه النصوص ، والاكتفاء بإثبات ما أثبته الله تعالى لذاته ، مع تنزيهه عز وجل عن كل نقص ومشابهة للحوادث ، وسبيل ذلك التأويل الإجمالي لهذه النصوص ، وتحويل العلم التفصيلي بالمقصود منها إلى علم الله عز وجل .

أما ترك هذه النصوص على ظاهرها دون أي تأويل لها سواء كان إجمالياً أم تفصيلياً ، فهو غير جائز ، وهو شيء لم يجنح إليه سلف ولا خلف . كيف ولو فعلت ذلك لحمّلت عقلك معاني متناقضة في شأن كثير من هذه الصفات . فقد أسند الله إلى نفسه العين بالإفراد في قوله تعالى ﴿ ولتُصْنَعَ على عَيْني ﴾ [طه : ٣٩] وأسند مرة أخرى إلى نفسه الأعين بالجمع فقال ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّكَ بِأَعْيُنِنا ﴾ [الطور : ٤٨] فلو ذهبت تفسر كلاً من الآيتين على ظاهرها دون أي تأويل لألزمت القرآن بتناقض هو منه بريء . وتقرأ قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوى ﴾ [طه : ٥] وقوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] فإن فسرت الآيتين على ظاهرهما دون أي تأويل إجمالي ألزمت كتاب الله تعالى بالتناقض الواضح ، إذ كيف يكون مستوياً على عرشه وبدون أي تأويل ، ويكون في الوقت نفسه أقرب إليَّ من حبل الوريد بدون أي تأويل ؟!

وتقرأ قوله تعالى ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فإذا هِيَ تَمورُ ﴾ [تبارك : ١٦] وقوله ﴿ وَهوَ الَّذيْ في السَّماءِ إلهٌ وَفي الأَرْضِ إلهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] فلئن فسرتها على ظاهرهما أقحمت التناقض في كتاب الله جل جلاله كما هو واضح .

ولكنك عندما تنزه الله حيال جميع هذه الآيات عن مشابهة مخلوقه في أن يتحيز في مكان وتكون له أبعاد وأعضاء وصورة وشكل ، ثم أثبت لله ما أثبته هو لذاته ، على نحو يليق بكماله ، وذلك بأن تكِل تفصيل المقصود بكلّ من هذه النصوص إلى الله جل جلاله سَلِمْتَ بذلك من التناقض في الفهم وسلَّمت القرآن من توهم أي تناقض فيه . وهذه هي طريقة السلف رحمهم الله . ألا تراهم يقولون

عنها : أمرُّوها بلا كيف[1] ، إذ لولا أنهم يؤولونها تأويلاً إجمالياً بالمعنى الذي أوضحنا لما صح منهم أن يقولوا ذلك . إذ لماذا يُمِرُّونها بلا كيف ودلالة اللغة والصياغة العربية واضحة تمنع كل لبس أو جهل سواء في أصل المعنى أم كيفيته . ولكنهم أيقنوا أن الأمر ليس على ظاهر ما تدل عليه الصياغة واللغة ، بسبب ما دلت عليه الآيات المحكمة الأخرى ، وهذا تأويل إجمالي واضح . إلا أنهم لم يقحموا أنفسهم في تفسير هذه النصوص بكيفيات أخرى يلتزمونها ، وهذا هو التوقف عن التأويل التفصيلي . فتأمل ذلك فإنه دقيق وهو الحق الذي لا ينبغي أن يلتبس عليك بغيره .

ما انفرد به الخلف :

ومذهب الخلف الذين جاؤوا من بعدهم هو تأويل هذه النصوص بما يضعها على صراط واحد من الوفاق مع النصوص المحكمة الأخرى التي تقطع بتنزه الله عن الجهة والمكان والجارحة . ففسروا الاستواء في ﴿ الرَّحْمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى ﴾ [طه : ٥] بتسلط القوة والسلطان ، وهو معنى ثابت في اللغة ومعروف . وفسروا اليد في الآية الأخرى ، بالقوة أو بالكرم ، والعين بالعناية والرعاية ، وفسروا الأصبعين في الحديث بالإرادة والقدرة ، وقالوا عن حديث (إن الله خلق آدم على صورته) إن الضمير راجع إلى آدم لا إلى ذات الله ، أي إن الله خلق آدم منذ اللحظة التي أوجده فيها على صورته وهيئته التي كان يتمتع بها فيما بعد ، فلم يتطور من شكل إلى آخر ، وقالوا أيضاً : ويحتمل أن يعود الضمير فيه على الأخ ، المذكور في صدر الحديث ، حسب الرواية التي ساقها مسلم في صحيحه ، وهي (فإذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته)

---

(١) كان يقول ذلك مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك . وانظر سنن الترمذي : ٢٤/٣ باب فضل الصدقة . وانظر أيضاً كتاب الاعتقاد للبيهقي : ٤٣

أي فليكرم الوجه الذي هو مظهر لخلقة آدم عليه الصلاة والسلام . أو الضمير عائد إلى ذات الله تعالى ، وذلك كما تدل عليه الرواية الثابتة الأخرى : (إن الله خلق آدم على صورة الرحمن) . ولكن الصورة بمعنى الصفة ، أي جهزه بصفات العلم والإدراك التي هي من صفات الله عز وجل .

واعلم أن مذهب السلف في عصرهم كان هو الأفضل والأسلم ، والأوفق مع الإيمان الفطري المرتكز في كل من العقل والقلب . ومذهب الخلف في عصرهم أصبح هو المصير الذي لا يمكن التحول عنه ، بسبب ما قامت فيه من المذاهب الفكرية والمناقشات العلمية ، وبسبب ظهور البلاغة العربية مقعدة في قواعد من المجاز والتشبيه والاستعارة .

وهكذا ، فقد كان بوسع الإمام مالك رحمه الله أن يقول في عصره لذلك الذي سأله عن معنى الاستواء في الآية : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . إذ كان العصر عصر إيمان ويقين راسخين ، بسبب قرب العهد بعصر النبوة وامتداد الإشراق إليه . ولكن لم يكن بوسع الأئمة الذين قاموا في عصر التدوين وازدهار العلوم واتساع حلقات البحث وفنون البلاغة أن يسلِّموا ذلك التسليم دون أن يحللوا هذه النصوص على ضوء ما انتهوا إليه من فنون البلاغة والمجاز ، خصوصاً وإن فيهم الزنادقة الذين لا يقنعهم منهج التسليم ، ويتظاهرون بالحاجة إلى الفهم التفصيلي ، وإن كانوا في حقيقة الأمر معاندين .

والمهم أن تعلم بأن كلاً من المذهبين منهجان إلى غاية واحدة ، لأن المآل فيهما إلى أن الله عز وجل لا يشبهه شيء من مخلوقاته وأنه منزه عن جميع صفات النقص . فالخلاف الذي تراه بينهما خلاف لفظي وشكلي فقط .

هذا ، وليس لنا شأن في هذا المقام ، بتلك الطوائف التي شذت ، ممن يقال

عنهم المعطلة ، أو المجسمة ، وهم الذين تخيلوا الله عز وجل في صورة جسم ، ثم ذهبوا يتخيلون له الشكل والسمت الذي يريدون ، متمسكين بظواهر هذه النصوص ومعرضين عن النصوص القاطعة الأخرى ، ومتجاهلين طبيعة هذه اللغة وما فيها من مجاز واستعارة وأساليب مختلفة في التعبير .

فهؤلاء لا يقام لهم أي حساب فيما يتعلق بكتاب الله تعالى وتفسيره وليسوا من نصوصه ـ محكمه أو متشابهه ـ في شيء . وإنما هم قوم تصوروا الذات الإلهية كما صورته أخيلتهم المجردة ، ثم استنهضوا آيات من كتاب الله تعالى إلى تلك الأخيلة لتصدقها وتؤمن لهم بها ، وأنّى لآيات الله الباهرة أن تدلَّ إلا على الحق المنير ، فعادوا يعكفون على أصنام لهم أقاموها في رؤوسهم بدلاً من أن ينصبوها أمام أعينهم . وليس أصدق في وصف حالهم مما قال الله عز وجل عنهم : ﴿ فَأَمَّا الَّذينَ في قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغاءَ تأويلِهِ ﴾[1] [آل عمران : ٧]

٢ ـ نفي العلة الغائية عن أفعاله جل جلاله

تعريف العلة الغائية :

ويقصد بالعلة الغائية ، الغرض الذي يقوم في ذهن الإنسان ويتجه إلى تحقيقه ، فيدفعه ذلك إلى تنفيذ الوسائل والأسباب التي توصله إلى ذلك الغرض . فالغرض الذي قام في ذهنه هو العلة لتحقيق تلك الوسائل والأسباب ، ومن أجل أن هذا الغرض هو في الحقيقة غاية يستهدفها الإنسان عند مباشرته الأسباب ، يطلق عليه العلماء اسم : العلة الغائية . ومن شأن هذه العلة أنها في الوجود

---

(١) انظر للوقوف على مزيد من التفصيل في هذا البحث ، كتاب « من روائع القرآن » عند الحديث عن المبهم والمتشابه في القرآن ص : ٧٦ لمؤلف هذا الكتاب .

الذهني تكون سابقة على القيام بالوسائل والأسباب وأما في الوجود الخارجي والحقيقي فتأتي متأخرة عنها .

مثال ذلك شعورك بالحاجة إلى الدفء . فإنه غرض يحملك على أن تقوم فترتدي معطفك الثقيل ، فإذا فعلت ذلك تحقق لك الغرض المطلوب وأخذت تشعر بالدفء ، فتحقيق الدفء علة غائية ، لأنها الحامل على الفعل ، وهي ماثلة في الذهن من قبله ولكنها تتحقق في الخارج بعده .

بيان انتفاء العلة الغائية عن أفعال الله تعالى :

إذا علمت هذا ، نقول :

أولاً ـ ذكرنا أن من جملة صفات المعاني الثابتة لله تعالى ، صفة الإرادة . وقد علمت معناها وأنها تنافي الجبر والإكراه على فعل مالا يريد كما علمت أن إرادة الله تعالى تامة لا يشوبها أي معنى من معاني الجبر والحمل على مالا يريد . وبذلك تفترق إرادة الله عن إرادة الإنسان ، فهي في الإنسان ناقصة مشوبة بالقسر والجبر ، ولكنها بالنسبة لله عز وجل تامة كاملة .

وهذه حقيقة واضحة يفهمها الباحث بتأمل يسير .

ولكن هل يمكن والحالة هذه أن نقول بأن أفعال الله تقوم على علل غائية كشأن أفعالنا نحن ؟..

والجواب أنه لا يجوز لنا أن نقول ذلك ، لأنه يتنافى مع ما ثبت من أن صفة الإرادة في ذاته سبحانه وتعالى صفة تامة كاملة وأنه لا يشوبها أي جبر أو قسر . فلو قلت بأن الله عز وجل أنزل المطر من أجل علةٍ استهدفها ، وهو ظهور النبات على وجه الأرض ، وأنها هي الحاملة له على إنزال المطر (كما هو شأن العلة الغائية) فمعنى ذلك أنك تقول : إن الضرورة هي التي حملته على الإمطار ، إذ

كانت هي الواسطة التي لابدَّ منها للنبات فالإرادة الكاملة متجهة إذاً إلى الإنبات ، أما إلى الإمطار فإنها مشوبة بقدر كبير من الضرورة التي تنافي الإرادة . وكذلك القول بالنسبة لجميع المخلوقات التي هي أسباب غيرها . ومعلوم أن مثل هذا الاعتقاد أو القول في حق الباري جل جلاله ، كفر محض وأنه يتناقض مع مقتضى الألوهية تناقضاً بيناً .

ثانياً ـ ذكرنا أن من صفاته أيضاً القدرة التامة المطلقة وهي تستلزم أن يكون جميع الموجودات بخلقه وتكوينه ، وإلا لما صدقت صفة القدرة التامة المطلقة بالنسبة إليه جل جلاله . على أن القرآن قد صرح في أكثر من موطن بأن جميع الموجودات من خلقه . كقوله عز وجل ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديراً ﴾ [الفرقان : ٢] وقوله ﴿ هوَ الَّذي خَلَقَ لَكُمْ مافي الأَرْضِ جَميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ قادر على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٩٩] .

وإنما يصدق أن الله عز وجل قد خلق كل شيء ، إذا توجهت إليه قدرته ابتداء بدون اتخاذ أي واسطة أو سبب ، وكان وجوده بسبب مباشر واحد ، هو قدرة الله وخلقه . فأما إذا قدَّرنا العلة الغائية في أفعاله وخلقه ، فمعنى ذلك أن بين قدرة الله عز وجل وبين تلك العلة وسائل وأسباباً هي المؤثر المباشر في إيجاد الغاية ، فلم يتعلق خلق الله بها إلا عن طريق التوسط والتسبب إليها . وهو مناف لتلك النصوص القرآنية التي تنطق في عبارة قاطعة بأن الله هو الخالق المباشر لكل شيء كما أنه مناف لاتصاف الله تعالى بالقدرة المطلقة .

ثالثاً ـ علمت من مجموع ماذكرناه من الصفات السلبية وصفات المعاني والمعنوية أن الله عز وجل متصف بكل صفات الكمال ومنزه عن كل صفات النقص . فلو قلنا مع ذلك بأن أفعال الله عز وجل تنطوي على العلة الغائية كما

هو الشأن بالنسبة لنا ، لاستلزم ذلك القول بأن الله عز وجل متصف ببعض النقائص وأنه يستكمل هذه النقائص بغيره ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . لأن من يحتاج إلى أمر ثم لا يستطيع بلوغ هذا الأمر إلا بواسطة معينة يستعملها فإنما هو ناقص من جهتين : الأولى من حيث إنه يحتاج إلى ذلك الأمر ، والحاجة فرع من النقص ، والثانية من حيث إنه لم يقدر أن يصل إليه إلا مستعيناً بغيره . فهذا شأن كل من تقوم أعماله على أساس العلة الغائية . فكيف يصح أن تستند هذه العلة إلى شيء من أفعال الخالق جل جلاله ؟![1]

رابعاً ـ ذكر الله في كتابه العظيم في بيان مشرق معجز ، أنه سبحانه خلق كل شيء مما تراه موجوداً ، وبث فيه عمله الذي أراده له ، أي خلق الذات وأعطاها السببية أيضاً لما شاء من المسببات فقال : ﴿ قالَ رَبُّنا الَّذيْ أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى ﴾ [طه : ٥٠] وقال ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى الَّذيْ خَلَقَ فَسَوَّى والَّذيْ قَدَّرَ فَهَدى ﴾ [الأعلى : ١ ـ ٣] وهذا نص صريح قاطع بأن لا سبب في الكون إلا بخلقه وجعله ، فكيف يتصور مع ذلك أن يوسط هذا الخالق العظيم بعض مخلوقاته لتحقيق غايات معينة ؟!.

النصوص الموهمة لثبوت العلل والأغراض :

فإذا تأملت في هذا الذي ذكرناه أدركت جيداً معنى العلة الغائية ومعنى أن الله تعالى لا يمكن أن يتصف شيء من أفعاله بها ، واستيقنت ذلك بالأدلة العقلية والنقلية التي أوضحناها .

أما الآيات والأحاديث الموهمة لثبوت العلل والأغراض لله تعالى ، بسبب استعمال لام التعليل كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدونِ ﴾

---

(١) انظر شرح المواقف للعضد ، مع حاشية عبد الحكيم : ٢ ـ ٣٣١ ، وشرح جلال الدين الدواني : ٢ ـ ٣٠٦ .

[الذاريات : ٥٦] وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسيَّ كَثِيراً ﴾ [الفرقان : ٤٨ ـ ٤٩] فليست على ظاهرها الذي نتصوره من التعليل الحقيقي ، إذ لو كانت كذلك ، لاقتضى الأمر أن يكون الله جل جلاله مستكملاً ألوهيته بعبادة الناس له ولذلك احتاج إليها فخلق الناس من أجلها ، ولاقتضى الأمر أنه احتاج إلى إحياء البلاد بالنبات وسقيَ الناس ، فلم يكن بد لتحقيق ذلك من إنزال المطر ؛ وأنت تعلم بالبداهة أن هذا التصور محال على الله فالله غير محتاج إلى شيء ، ثم هو الخالق للعلة والمعلول ورابطة مابينهما من العلية والسببية أيضاً .

فاللام في مثل هذه الآيات إنما هي تعبير عن العلة الجعلية لا عن العلة الحقيقية ، أي تعلقت إرادة الله بإيجاد الإنسان ، وبتكليفه بمستلزمات العبودية له ، كما تعلقت إرادته بإنزال المطر ، وبإنبات الأرض وبأن يكون الأول علة للثاني برابط من محض مشيئته وقدرته .

فهذا المعنى إنما يعبر عنه ، لنا نحن البشر الذين اعتدنا على أن نتصور ارتباط الأشياء ببعضها في حقنا برابطة التعليل والسببية ، بلام التعليل ونحوها . وليس من ضير في ذلك ، ولا في أن تستعمل أنت أيضاً ، في كلامك عن خلق الله وترتيبه الأشياء على بعضها ، لام التعليل ، ولكن المحظور أن تفهم من لام التعليل الدلالة على ثبوت العلة الباعثة أو الغائية في حقه عز وجل .

☆ ☆ ☆

الفرق بين ثبوت نظام العلية في المكونات ، وانتفائه عن أفعال الله :

واعلم أن هذا المعنى الذي أوضحناه مما لايمكن أن يقع فيه خلاف أو نزاع . فالمسلمون كلهم متفقون على مضمون هذا الكلام . ولكن بعض الباحثين استعظم

نفي العلة الغائية عن أفعاله جل جلاله ، من حيث إن ذلك يوهم العبث في خلقه وأفعاله ، والعبث محال على الله بصريح الكتاب . وإنما ينتفي العبث بتعليل خلقه وأفعاله وفق المصلحة والفائدة ، وقالوا : كيف ننفي هذه العلة عن مخلوقات بديعة التنسيق والتنظيم والترتيب ؟!

والجواب أن نفي العبث عن الله لايكون بفرض العلة الغائية في أفعاله ، وإلا فهو إذاً فرار من سيء إلى أسوأ ، وإنما يكون ذلك بمعرفة أن من وراء أفعاله حكماً ومصالح تأتي مترتبة عليها يعلمها الله عز وجل ، دون أن تكون هذه الحكم والمصالح عللاً غائية دافعة له إلى تلك الأفعال . وهذا هو الواقع ، فقد شاء الله عز وجل أن يجعل لمخلوقاته المختلفة حكماً ومصالح عظيمة ، كان قادراً على أن يوجد تلك المصالح بدونها ، ولكنه أراد أن ينبه عقول العباد ، عن طريق هذا الترتيب والتنظيم الجعلي إلى أن للعالم خالقاً ومدبراً ، فيؤمنوا به وتُخبِتَ له قلوبهم ، وكان قادراً على أن يبث في روعهم هذا الإيمان به بدون التأمل بشيء من مظاهر الكون وبدون أن يقام على شيء من التنظيم والتنسيق ، ولكنه شاء أن يكون إيمانهم بجهد عقل يبذلونه ليستأهلوا الأجر أو الوزر على كسبهم وجهدهم الذاتي . وكان قادراً على أن لا يكلفهم ولا يخلقهم أصلاً ؛ ولم يكن يَنْقُصه شيء لو لم يخلقهم ولم يخلق شيئاً من هذا الكون كله ، ولكنه هكذا أراد، ولارادَّ لقضائه ولايُسأل عما يفعل ، ولو رحت تسأل عن سر كل خلق وإرادة فمعنى ذلك أنك تقدّر علة غائية دافعة له ، فأنت تبحث عنها في جذور التكوين ، وهذا ماأثبتنا خلافه .

وإذاً فالكون قائم في منهجه ومظهره على نظام العلية ولاشك ، وهو في ذلك يرمي إلى تنبيه الأذهان إلى وجود الخالق المدبر له ، وهذا كما ترى ينفي العبث عن فعله سبحانه وتعالى .

ولكن هذا لايعني ولايستلزم أن الله قد توسط لتحقيق بعض مايريد ببعض المخلوقات الأخرى . بل إنه هو الواسطة الأولى والأخيرة ، وهو خالق الأسباب

والمسببات والنتائج والمقدمات والحكم والمصالح . وإن كان قد رتبها على بعضها في الخلق ، فهو ترتيب جعلي فقط .

ولأختم لك هذا البحث بأدق ماوقفت عليه من كلام في هذا الصدد . فتأمله جيداً لتعلم زبدة ماقلناه : يقول العلامة مصطفى صبري في كتابه موقف العقل :

(أما القول باستلزام كون أفعال الله عبثاً واتفاقاً إذا لم تعلل بالأغراض والعلل الغائية ، فوهم محض منشؤه كون القائلين بهذا يقيسون الله تعالى على أنفسهم أي على الإنسان الذي لايعمل إلا بالمرجح والعلة الغائية ، فإذا لم يعمل بذلك يكون فعله عبثاً واتفاقاً . وكان حسبهم في التنبه لخطئهم في هذا القياس أن يعلموا أن الله تعالى لايحتاج إلى التأمل والتفكر في حين أن أصحاب الرويّة من البشر العاملين بالمرجح والعلة الغائية يعملون بهما من حيث إنهم في حاجة إلى التفكر في عواقب أفعالهم .

فنفي التعليل من أفعاله تعالى معناه أنه لايبني أفعاله عليهما ، لأن ذلك شأن المفكرين في عواقب الأمور الذي يجب تنزيه الله تعالى عنه ، ولاينافيه أن أفعاله تعالى لاتخلو عن الحكم والمصالح من غير بنائها عليها ، لكنها لايعبر عنها بالعلل الغائية ، لأن العلة الغائية مايبني الفاعل فعله عليه في ذهنه ويفكر فيه قبل الإقدام على الفعل ، ومن هنا قلنا الحكمة تتبع أفعاله ولم نقل أفعاله تتبع الحكمة ...) .

إلى أن قال : (وخلاصة القول أن أفعاله تعالى تصدر عنه من غير تفكير في عواقبها كما نفكر نحن البشر . وعدم التفكر هذا مقتضى كماله تعالى في حين أن كمالنا في التفكير ، وليس كمثله شيء . فإن اعترض معترض بأن الله تعالى يعلم عواقب أفعاله من غير تفكير ، فبهذا العلم يكون قد علل أفعال نفسه ، قلنا : ليس العلم بالعواقب والغايات تعليلاً منه تعالى لأفعاله بها ، إنما التعليل بناء أفعاله عليها في

علمه قبل فعلها وهذا هو التفكير في العواقب بعينه ، وهو ما لا يستطيع القائل بالتعليل إنكاره ، تعالى الله عنه . ونحن ننفي التعليل بالغايات لا الغايات ولا العلم بها . فخذ هذا الفرق الدقيق منا ، كما أخذناه من توفيق الله . نعم إذا نُظر في الأمر بأعيننا نحن البشر ، يكون كأن الله تعالى فعل تلك الأفعال لتلك الغايات بمعنى أنه لو كنا نحن فعلنا تلك الأفعال لكانت غاياتها التي تتبعها عللاً غائية لها . ومَن هنا صح اتخاذها دليل العلة الغائية لوجود الله ، مع أنه ليس هناك علية بالنسبة إلى فعل الله بل غايات فقط تتبع أفعاله وتدل على علم فاعلها بالمناسبة بين تلك الأفعال وتلك الغايات)[1] .

☆ ☆ ☆

٣ ـ لايجب على الله شيء
والحسن والقبح في الأشياء اعتباري

لعلك تدرك إذا تأملت في هذا العنوان ، أنه نتيجة ضرورية للحقيقة السابقة التي أوضحناها .

فإذا ثبت أنه لا واسطة بين الله وخلق أي شيء مما تعلقت إرادته بخلقه ، وأن كل الموجودات بما فيها من تكيُّف وأعراض إنما هو بخلق مباشر من الله ـ فقد ثبت إذاً أن الأشياء لاتنطوي (انطواء ذاتياً) على شيء من الحسن والقبح ، أي لا يمكن أن تكون متسمة بحسن أو قبح ، متأصلين فيها بالطبع لا بالخلق .

فخالقية الله لجميع الأشياء بجميع صفاتها ، تقتضي أن يكون هو الخالق للشيء ، وهو الخالق لمعنى الحسن ولمعنى القبح ثم هو الرابط والجامع بين ذلك الشيء وهذا المعنى .

---

(١) موقف العقل والعلم من رب العالمين : ٣ ـ ١٧ .

الحسن والقبح حالان اعتباريان لا موجودان ذاتيان :

وإذا أدركت هذه الحقيقة ، أدركت إلى جانب ذلك أن الحسن أو القبح ليس له جذور ذاتية مرتبطة بذات الشيء بحيث لايمكن الانفكاك عنه ، وإنما هو معنى استتبع حكماً من أحكام الله عز وجل ، فكان مانسميه نحن بالحسن أو القبح ، ولو شاء الله لعكس الأمر فجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، مادام الكل بخلق الله وحكمه . وهذا معنى قولنا : إن الحسْن والقبح في الأشياء اعتباري .

ولعلك تعجب فتقول : كيف أفهم أن حسن الصدق والعدل اعتباري وليس بذاتي فيه ، أو أن قبح الكذب والظلم اعتباري وليس بذاتي فيه ؟!

فالجواب : أن الحسن أو القبح في مثل هذه الأمور ينبع من عدة نواح كلها اعتبارية وخارجة عن ذات هذه الأمور وجوهرها ، فحسن الصدق إما أن يكون منبعثاً من أنه يجر إلى فوائد مختلفة تتحقق للصادق ، وإما من حيث إنه يثاب عليه يوم القيامة ، وإما من حيث إن النفوس جبلت على احترام الصادق والاشمئزاز من الكاذب ، وكلها - كما تجد - بواعث خارجة عن ذات الصدق نفسه . وهذا يعني أن الله كان ولايزال قادراً على تحويل النفوس وطبائعها فلا تتعلق بحب الصدق ولا تشمئز من الكذب . وكذلك القول في مبادئ العدل مثلاً ، فنحن إنما نعدها أمراً حسناً من أجل أنها إنما تضمن لكل ذي حق حقه ، وهي علة خارجة عن ذات ذلك المبدأ وجوهره . وكذلك وصول الحق إلى صاحبه ليس حسناً إلا لأن الله فطر الإنسان على التعلق بحاجات فهو لايستطيع الانفكاك عنها ، فكانت بذلك حقاً له . ولو فطره على طراز آخر ولم يجعله محتاجاً إليها ولا متعلقاً بشيء منها ، لما بحث عنها ، فما كانت بذلك حقاً له ، فما كان تفويتها عليه ظلماً ، ولاحفظها له عدلاً .

ونحن من شدة إلفنا للترابط الذي خلقه الله بين الأشياء وخواصها ، نظن أن

معنى الحسن أو القبح قد غدا كامناً في ذات كل منهما فهما لا ينفكان بعضهما عن بعض .

فإذا أدركت هذه الحقيقة إدراكاً جيداً ، علمت أن الله تعالى ليس مجبوراً في خلقه وفي حكمه على أي شيء ، إذ لو كان مجبوراً عليه ، لكان سبب الجبر هو ضرورة اتباعه الأصلح والأفضل ، وتجنبه عن الفاسد والقبيح ؛ وقد علمت أن الذي جعل الصالح صالحاً والفاسد فاسداً والقبيح قبيحاً هو الله عز وجل وأنه لاشيء يسمى بالنظر لذاته حسناً أو قبيحاً وأن الأمور كلها بالنسبة إلى الله في بدء الخلق سواء . فجائز على الله تعالى أن لايثيب الطائع ويعذبه ، وأن لا يعذب الكافر به ويثيبه . ولا يقال إن ذلك مناف للحكمة والمصلحة ، لأن الذي جعل الشيء حكمة أو مصلحة هو الله عز وجل ، فلا يعقل أن يتصف شيء من أعماله بأنه مناف للمصلحة .

غير أننا نقول : إن الله كتب على نفسه في صريح كتابه ، أن يثيب الطائع ، لطفاً منه ورحمة . فلا بد أن ينفذ وعده لأنه أخبرنا بذلك ولأنه أصدق الصادقين ، ولأنه جعل الصدق بشرعه حسناً والكذب قبيحاً .

وصفوة القول أن الله خلق ماشاء في هذا العالم ، ورتب جزئياته على بعضها ترتيباً صيّر البعض منها حسناً مفيداً ، وصيّر البعض الآخر قبيحاً مفسداً . ولم نكن نعلم أو نستشعر صفة الحسن أو القبح في هذا ولا ذاك لولا خلقه وترتيبه وتأليفه بين الذوات وخصائصها .

النتائج الهامة التي تنبثق عن هذه الحقيقة :

وهذه الحقيقة تكشف لك بكل سهولة عن ثلاث نتائج ، متفرعة عنها :

الأولى : أن الأشياء في أصلها خالية عن صبغة الحسن والقبح والنفع والضرر ، ثم إن الله عز وجل صبغ بعض الأشياء بهذه الصبغة وبعضها الآخر بتلك . وهذا معنى قولنا إن الحسن والقبح في الأشياء اعتباري وليس جوهرياً .

الثانية : أنه يصدق قولنا إذاً بأن الله خلق القبيح أو الضار . لأنه عندما ركب في الأشياء خصائص معينة أو ساقها إلى نتائج ذات تأثير معيّن تخالف مصالح الناس ، أو خلق في الأمزجة اشمئزازاً منها ؛ فمعنى ذلك أنه قد خلق القبيح ، ضمن ماخلقه من المكونات .

الثالثة : ليس من صفات النقص التي علمنا أن الله منزه عنها ، أن يكون قد خلق القبيح والضار في الكون . لأن من صفات الكمال الثابتة لله أنه يخلق مايشاء دون أن يصده عن ذلك أي شيء ، قوة كان أو عرفاً أو قانوناً . وليس خلقه لأصناف الموجودات من قبيح وحسن وضار ونافع إلا مظهراً لهذه الصفة الكاملة . ولكن المنافي لصفة الكمال والمستلزم للنقص ، أن يقال إنه اكتسب القبيح أو اتصف به . وفرق كبير بين هذا وذاك . ليس نقصاً في ذات الله أن يخلق العجز في الكون متمثلاً في شتى المظاهر ، ولكن النقص أن يتصف هو بشيء من العجز . وليس قبيحاً أن يخلق الله الكذب (ظاهرةً يتصف بها بعض الناس) ولكن القبيح أن يتلبس هو بشيء من هذا الكذب الذي خلقه[1] ، لا لأنه قبيح بحدّ ذاته عقلاً ، فقد أثبتنا بطلان ذلك ، ولكن لأنه متلبس بمعان ومستلزمات لاتتفق ومصالح العباد ولأن الله جعله بشرعه قبيحاً . فلا يمكن أن يتصف البارئ جل جلاله به .

ولا ينبغي أن يلتبس عليك الأمر فتقول : وقد جعل الظلم أيضاً بشرعه قبيحاً ، فلا ينبغي أن يتصف بالظلم ، وإذاً فلا ينبغي أن يعذب الطائع ، أو يبتلي الناس بمصائب دون جريرة اقترفوها ـ لأن الظلم هو أن تتصرف بشيء يخص غيرك بدون رضاه ، فهذا هو الذي قبحه الشرع .

---

(١) انظر الفرق بين خلق القبيح وكسبه ، وتفصيل القول في ذلك ، في شرح سعد الدين التفتازاني على العقائد : ص ٣٦٣ .

أما تصرف الله عز وجل بمخلوقاته ، فليس من ذلك في شيء ، بل هو إنما يتصرف بملكه الذي له المشيئة المطلقة فيه كما لايخفى عليك . والشبهة إنما تطوف بذهنك ، بسبب قياسك ذات الله تعالى على نفسك وعلى ما تواضع عليه عرف الناس في مجتمعاتهم ، فهذا الذي تواضع عليه عرف الناس إنما هو جزء يسير جداً من تكوين الله وخلقه ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون أي جزء من أجزاء هذه المخلوقات حاكماً على إرادة الخالق وتصرفاته .

على أن هذا الذي تراه في الكون من مظاهر البؤس والابتلاء والمصائب التي يصاب بها كثير من الناس ، والتي يسميها البعض حسب اصطلاحنا في التعامل مع بعضنا (ظلماً) ينطوي على حكم ومصالح قد تغيب عنا ، وليس من شرط صحتها أن نكون على علم بها واطلاع عليها ، كما أنه ليس من شرط مشروعيتها أن توقّع عقولنا عليها بالموافقة والرضا .

وحسبك مظهراً من مظاهر الحكمة أن تتأمل قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وإليْنا تُرْجَعون ﴾ [الأنبياء : ٣٥] وقوله عز وجل ﴿ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرونَ ؟ وَكانَ رَبُّكَ بَصيراً ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

ويترتب على كل ماذكرناه أن العقل بمفرده لايستطيع أن يستظهر حكم الله في الأشياء بموجب مايتراءى فيها من صفة الحسن أو القبح . لأن ماتراه فيها من هذه الصفة ليس ضرورة عقلية ملازمة للذات ، بحيث لابد أن يكون حكم الله تابعاً لها ، وإنما هو ارتباط جعلي أو تصور خيالي بسبب ارتباط تلك الأشياء بما ذكرناه من المصالح الظاهرة الخارجة عنها ، وقد لايأتي حكم الله على وفقها . ولذلك اتفق جمهور المسلمين على أنه لاشرع قبل بعثة الرسل ولا تكليف ، وأن أهل الفترة الذين انقطعوا عن خبر الأنبياء السابقين وبعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ليسوا مؤاخذين ولا مكلفين . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَما

كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسولاً ﴾[1] [الإسراء : ١٤] .

☆ ☆ ☆

خلاف المعتزلة في هذه المسألة :

واعلم أن المعتزلة خالفوا أهل السنة والجماعة في هذه المسألة ، فاعتبروا أن للأشياء حسناً وقبحاً عقليين منبعثين من ذات الشيء ، وقرروا بموجب ذلك أن أحكام الله تعالى لابد أن تسير وفق الأصلح والأحسن ، وأن ذلك واجب من الله عز وجل ، وأن العقل وحده يحكم في الأشياء ويعرف حكم الله فيها ، ولذلك فالعقلاء كلهم مكلفون ، سواء بُعثت إليهم الرسل أم لا ، والرسول في الآية هو العقل ، فيما زعموا .

ولقد زلَّ المعتزلة في هذه المسألة زلات كثيرة ، ولم يظهر تهافت أفكارهم في مسألة كما ظهر في هذه المسألة . ولقد علموا أنهم في كلامهم هذا يقفون على شفير الكفر ، وليس بينهم وبينه إلا أن يقولوا : إن مصالح الكون هي الحاكم على شرع الله وأفعاله ، وهو نتيجة طبيعية لتصورهم وحكمهم على الأشياء بالحسن والقبح الذاتيين . إلا أنهم لم يقولوا إنه يجب على الله الأصلح ، ولكنهم قالوا : يجب منه الأصلح ، فهم لايعنون بالوجوب إجباراً خارجياً له ، وإنما يقصدون أن صفة الكمال في الله هي منبع هذا الوجوب . وهذا كلام حسن ، ولكنه مضطرب مع أصلهم الأول الذي اعتبروه وهو ثبوت صفة الحسن والقبح في ذات الأشياء ابتداء .

☆ ☆ ☆

(١) إذا أردت أن تقف على مزيد من بيان أن صفة الحسن والقبح في الأشياء كلها اعتباري فقط ، فارجع إلى ماكتب في ذلك الإمام الغزالي في المستصفى ، فقد أتى فيه بكلام في منتهى الدقة والروعة ، وستجد فيه نظرية رد الفعل الشرطي التي يتباهى بعض أرباع العلماء بأنها من بدائع العصر الحديث ، فارجع إلى المستصفى (ج ١ ص ٥٧) .

٤ ـ مصير الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله جل جلاله

والآن ، وقد علمنا بأن إرادة الله تعالى مطلقة وكاملة ، وصالحة للتعلق بكل الممكنات ، فكيف نتصور أن تكون للإنسان أيضاً إرادة إلى جانبها ؟ وقد علمنا ببراهين التجربة والمشاهدة أن الإنسان يريد ويختار في كثير من سلوكه وتصوراته ، فما نوع هذه الإرادة وحقيقتها بل ما مصيرها في جنب إرادة الله ؟

والجواب أن الله عز وجل لما خلق الإنسان ، أقامه على نوعين من الحركة والتصرف ، أما أحدهما فيستوي فيه الإنسان مع سائر الموجودات الأخرى من حيوانات وجمادات ونبات وأفلاك : حركات قسرية ووظائف آليَّة ليس للإنسان فيها أي كسب أو مشيئة ، كحركة النمو وما يتبعه من قوة وشيب وضعف ، وكالولادة والموت ، وكالانفعالات المختلفة من حب وكراهية وجوع وعطش وخوف وفزع .

وأما النوع الثاني منهما ، فتصرفات تنشأ من سر عجيب خاص أودعه الله عز وجل في الإنسان ، نسميه : الاختيار والإرادة . فلقد تعلقت إرادة الله عز وجل ، بأن يغرس في كيان الإنسان هذا السر الذي هو محور التكليف فيه وأن يجعله يصدر في كثير من تصرفاته عن هذا السر الذي به يسمى حراً ومختاراً .

ومعنى ذلك أن إرادة الله تعالى تعلقت بأن تكون مريداً ، فسرَت إرادة الله عز وجل ـ بذلك ـ إلى كل ماتريده وتختاره من الأعمال . وإذاً فلا يمكن أن يقع أي تعارض بين إرادة الله تعالى وما تختاره عن طريق إرادتك الخاصة ، إذ لو فرضنا أن الله غير مريد لعمل قد اخترته بإرادتك ، فمعنى ذلك أنه سبحانه وتعالى غير مريد لإرادتك التي وجهتك إلى ذلك الفعل ، وهو مناقض لما ثبت من أن الله عز وجل قد شاء لك أن تكون مريداً وشاء أن يخلق فيك هذا السر ، فثبت بطلان فرض أن الله قد لايريد العمل الذي تختاره .

ولأضرب لك مثلاً يقرب إليك هذه الحقيقة : خادم عندك في الدار ، تريد أن تعلم مدى صدقه وأمانته في الخدمة والمعاملة ، ولكي تصل إلى بغيتك هذه ، تعطيه مبلغاً من المال وتبعثه إلى السوق لشراء بعض الحوائج وتفسح له المجال أن يتصرف كما يشاء دون أن تضع عليه رقيباً أو تضيق عليه السبيل .

فأنت بترتيبك هذا أردت أن يكون حراً فيما يفعل ويذر ، لا يستجيب إلا لنداء ضميره وتفكيره الداخلي ، بحيث يتمتع بإرادة لا يشوبها قسر ، حتى تعلم بذلك طويته . فإذا عاد وقد خان الأمانة فيما أعطيته من المال وما عاد به من المتاع ، فأنت في الواقع مريد لهذه النتيجة[1] وإذا عاد وقد حقق منتهى الأمانة في عمله ، فأنت مريد أيضاً لهذه النتيجة ، إذ أنت لم ترد إطلاق يده بالتصرف كما يشاء إلا وأنت مريد لظهور نتيجة ذلك أياً كانت النتيجة ، تحبها وترضاها أم لا .

إذا تبين لك هذا ، علمت أن مصير الإرادة الإنسانية في جنب إرادة الله ، ليس إلا كمصير إرادة الخادم في جنب إرادة سيده ، ولله المثل الأعلى . فإرادتك المتعلقة بتصرفاتك الاختيارية منطوية تحت إرادة الله تعالى ، ولكن لا عن طريق القسر والإكراه (كما هو شأن إرادته المتعلقة بالنوع الأول من حركات ووظائف) وإنما عن طريق بث سر الإرادة والاختيار في كيانك ، وكانت حكمته من ذلك أن تكسب بموجبها كل ماتحب ، دون قسر أو إكراه ، لتتجلى طويتك في سلوكك ، فتستأهل بذلك مثوبة الله أو عقابه . وواضح أن سلوكك هذا يصبح بسبب ذلك من مرادات الله عز وجل .

وهكذا تعلم أن الله لايقع في ملكه إلا مايشاء ويريد ، ولا يناقض ذلك أنه أعطاك أيضاً إرادة ومشيئة ، كما لا يناقض علمه بالأشياء كلها أنه أعطاك أنت أيضاً علماً ببعض يسير منها .

---

(١) مع ملاحظة الفرق ، وهو أن الله يعلم طوية العبد ويعلم ماسيختاره بمحض إرادته .

الفرق بين الإرادة والرضا :

ولعلك تسأل بعد هذا : فكيف يعاقب الله الإنسان على فعل هو من مرادات الله عز وجل ؟! .. بل كيف يكون السلوك الذي نهى الله الإنسان عنه مراداً لله في الوقت نفسه ؟! .

والجواب أن هذا الإشكال فرع عن وهم ينبغي أن تحذر الوقوع فيه ، ألا وهو توَهمُ أن الإرادة والأمر بمعنى واحد ، وأن الواحد منهما يستلزم الآخر .

وهذا خطأ كبير في التقدير ، فقد علمت فيما سبق أنه لايقع شيء في الكون إلا بإرادته ، وإلا لكان ثمة ماهو موجود من فوق مشيئته واختياره ، وهو من أجلى مظاهر العجز والضعف التي ننزه الله عز وجل عنها ، وقد علمت أيضاً بأن الله يقول في كتابه ﴿ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الكُفْرَ ، وَإنْ تَشْكُروا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] وإذاً فكفر أبي جهل مثلا داخل في مرادات الله عز وجل ، كما ذكرناه ، ولكنه غير داخل فيما يُرضي الله عز وجل وفيما قد أمر به لدلالة الآية الصريحة على ذلك .

وفي مثال الخادم الذي ذكرته لك آنفاً ماينبهك إلى هذه الحقيقة . فقد قلنا : إنك لم ترد إطلاق يده بالتصرف بمالك كما يشاء ، إلا وأنت مريد لظهور نتيجة ذلك أياً كانت النتيجة سواء كنت تحبها وترضاها أم لا .. وهذه حقيقة نلمسها جميعاً في تجاربنا وتصرفاتنا الشخصية ومعاملة بعضنا لبعض ، إنني بكل تأكيد ، لأحب من تلميذي أن يكون مخفقاً في دراسته غير ناجح فيها ، وأظل أكرر على مسامعه الأمر بالدراسة وبذل الجهد ، ومع ذلك فأنا عندما أريد أن أختبره في نهاية العام ، فإن إرادتي تسري من غير شك إلى النتيجة التي سيكشف عنها ذلك الاختيار ، وإذاً فأنا أريد بذلك ظهور النتيجة أياً كانت ، نجاحاً أم رسوباً ولا يمكن أن يعتقد عاقل من الناس أن تناقضاً قد وقع بين ماكنت آمره به من الاجتهاد وما أريده اليوم من النتيجة التي تفصح عن واقع أمره .

وهكـذا ينبغي أن تعلم ، بـأن الإرادة لاتستلـزم الأمر ولا الرضـا بـالشيء المراد . وهذه أيضاً من الزلات التي تـاه فيهـا المعتزلـة واضطربت أقوالهم فيهـا بين كرّ وفر .

فـإذا أمعنت في هـذا الـذي ذكرنـاه ، أدركت أن الإنسـان ، في كل أعمـالـه وتصرفاته الاختيارية إنمـا يتحرك في دائرة الإرادة الإلهيـة لا يتخطـاهـا وأدركت أيَضاً أنه لا تنافي بين كون الإنسـان مختـاراً مريـداً في تصرفـاتـه هـذه وبين كونـه لا يتخطى الإرادة الإلهية ، وليس الأمر كما يظن بعض السطحيين أن فعل الإنسان مادام حاصلا يإرادة الله ، فليس له فيه إذاً حرية ولا كسب ، ليس الأمر كذلـك إلا إذا صح أن يقول التلميـذ الراسب في امتحـانـه لـلأستـاذ الـذي امتحنـه : إنني مقهور على هذا الرسوب ، لأنك قد أردت مني الرسوب عنـدمـا أردت امتحـاني ، وإلا إذا صح أن يقول الخادم لمخدومه : إنني مقهور على مابـدر مني من الخيـانـة في معـاملتـك ، تحت سلطـان إرادتـك التي توجهت إلى اختبـاري وإطلاق يـدي في التصرف بمالـك . وبـدهي أن أحـداً من العقلاء لايقول هـذا الكلام ولا يقبل أن يسمعه .

وفي بيان هذه الحقيقة يقول العلامة سعد الـدين التفتنـازاني على العقـائـد : (فإن قيل : بعد تعميم على الله تعـالى وإرادتـه ، الجبر لازم قطعـاً ، لأنها إمـا أن يتعلقـا بـوجـوب الفعـل فيجب أو بعـدمـه فيمتنـع ، ولا اختيـار مـع الـوجـوب والامتنـاع ـ قلنـا : يعلم ويريـد أن العبـد يفعلـه أو يتركـه بـاختيـاره ، فـلا إشكال)[1] .

فإن قلت ، فهـذا الـذي تقولـه مقنع ومفهوم ، لولا أن في القرآن آيـة تبطل هذا المعنى الذي تقول ، إذ تدل على أن الإنسان لايملك لنفسه أي مشيئة إلا بـإذن الله ومشيئته ، وهي قوله تعالى ﴿ وَما تَشاؤونَ إلاَّ أَنْ يَشـاءَ اللهُ إنَّ اللهَ كانَ عِليمـاً

---

(١) شرح العقائد النسفية ص ٣٥٤ .

حَكيماً ﴾ [الإنسان : ٣٠] ـ فالجواب : أن هذه الآية ليست إلا أساساً ودستوراً للكلام الذي ذكرناه ، فهي توضح بصريح العبارة أن الإنسان ماكان ليتمتع بإرادة في كيانه يتجه بسرها إلى اختيار مايشاء من التصرفات والأعمال ، لو لم يشأ الله عز وجل أن يضع في كيانه هذا السرّ العظيم ، وهذا أمر واضح الثبوت ، فأنا الآن أختار أن أحبس وقتي على كتابة هذه المباحث الهامة ، ولكن أنّى لي هذا الاختيار القائم على أعظم سر في كياني ، لو لم يكن الله عز وجل قد شاء أن يقذف في وجودي ، بمحض فضله وكرمه ، شيئاً من هذا السر العظيم ؟! .. والآن قد أكرمني الله ، فشاء أن يجعلني ذا إرادة في تصرفاتي الاختيارية ، ألست قد أصبحت إذا مريداً ومختاراً ، وأليست أعمالي التي أكسبها ثمرة إرادتي هذه ، حتى مع العلم واليقين بأنها دائرة في تلك الإرادة الإلهية ذاتها ؟ ..

ووالله ، إنه لاينتهي عجبي ممن يمسك بهذه الآية ، ثم يظلّ يحاول أن ينسف بها أعظم هبة إلهية للإنسان بعد العقل ، ألا وهي هبة الإرادة والقدرة على الاختيار ! ...

وليت شعري ماذا يفعلون ، وهم يحاولون هذه المحاولة ، بقوله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجورَها وَتَقْواها ﴾ [الشمس : ٧ ـ ٨] وبقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَليه فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً ، إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وإِمَّا كَفوراً ﴾ [الإنسان : ٢ ـ ٣] وبقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَينِ وَلِساناً وَشَفَتَينِ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ ـ ١٠] ! .

ثم إن هناك نقاطاً أخرى ، قد تتصل بهذا البحث ، تحتاج إلى كشف وبيان ، ولكنّ مجال ذلك البحث في المسألة الخامسة والأخيرة ، فلننتقل إليها .

٥ ـ القضاء والقدر : معناهما ووجوب الإيمان بهما

تتفرع ضرورة الإيمان بالقضاء والقدر من دليلين اثنين :

أولها : الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره) .

ثانيها : ماسبق من بيان أن الله عز وجل يتصف بالعلم والقدرة ، فالقضاء فرع عن ثبوت صفة العلم والإرادة لله عز وجل ، والقدر فرع عن ثبوت صفة القدرة له .

تعريف كل منهما :

فأما القضاء ، فهو علم الله عز وجل في الأزل بالأشياء كلها على ماستكون عليه في المستقبل .

والقدر : إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقاً لعلمه الأزلي المتعلق بها .

وقد عكس بعضهم ، فجعل تعريف القضاء للقدر وتعريف القدر للقضاء ، والأمر محتمل والخطب فيه يسير .

ومعنى وجوب الإيمان بهما ـ كما ذهب أهل السنة والجماعة ـ هو أنه يجب على المكلف أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى علم أولاً بجميع أفعال العباد ، وكل ما يتعلق بالمخلوقات ، مما سيتوالى حدوثه في المستقبل ، كما يجب عليه أن يؤمن بأنه سبحانه وتعالى إنما أوجدها ، حين أوجدها[1] . على القدر المخصوص والوجه المعيَّن الذي سبق العلم به .

ومن هنا تعلم بأنه لاعلاقة للقضاء والقدر بالجبر مطلقاً ، كما يتوهم بعض الناس ، لأن الله سبحانه وتعالى (بموجب ألوهيته) لا بدّ أن يكون عالماً بما سيفعله عباده من مختلف الأعمال ، وبما سيقع ويحصل في ملكه ، وإلا لكان ذلك نقصاً في صفاته التي ذكرناها . ثم لا بد أيضاً أن تقع هذه الأمور مطابقة لعلم الله عنها ، وإلا لانقلب علمه جهلاً ، وهو محال .

---

(١) إيجاد الله لأفعال الناس لايستلزم إجبارهم عليها ولا يعني سلب الاختيار عنهم ، وسيأتي بيان ذلك بعد قليل .

وواضح أن هذا كله لاعلاقة له بكون هذه الأفعال قد صدرت عن أصحابها على وجه القسر والإكراه أو بمحض الإرادة والاختيار ، فقد علمت أن العلم صفة كاشفة فقط وكل شأنها أنها تكشف عن الأمور على ماهي عليه أو على ماستوجد عليه ، وهو شيء لاعلاقة له بالجبر أو التخيير .

يقول النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم ، بعد أن عرف القضاء والقدر بما ذكرناه :

قال الخطابي : (وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد وقهره على ماقدّر وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونه ، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من أكساب العبد وصدورها عن تقدير منه)[1] .

وذكر ابن حجر في شرحه على حديث ابن عمر عن الإيمان ، تعريف القضاء : فقال : (والقضاء علم الله أولاً بالأشياء على ماهي عليه ، والقدر إيجاده إياها على مايطابق العلم)[2] .



خالقية الله لفعل الإنسان لاتسلبه الاختيار :

إذا علمت هذا ، فإن لسائل أن يقول : فهب أن العلم لاعلاقة له بالأشياء إلا على وجه الكشف عنها ، كما ذكرت ، ولكن أليس وجود الأشياء التي قضى الله أنها ستوجد (أي علم بوجودها) بموجب خلقه هو ، وبموجب إرادته هو ؟ .. وإذاً فقد انتهى الأمر إلى القسر ، والإكراه ، إن لم يكن يتعلق بالعلم ، فبتعلق الخلق والإرادة .

---

(١) النووي على مسلم : ١ / ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٢) فتح المبين بشرح الأربعين : ص ٦٤ ، وانظر شرح المواقف : ٢ / ٢٩٢ ، وشرح السعد على العقائد : ص ٣٥٤

والجواب أن كل شيء لايوجد ولا يتكيّف إلا بخلق الله جل جلالـه ، ولا يتم أيضاً إلا بإرداته ، وقد أوضحناه فيما سبق ، أما مايترتب عليه في ظنـك من القسر والإجبار فإليـك بيـان بطلانـه ، بـالنسبـة لقضيـة الخلق أولاً ، ثم لقضيـة الإرادة ثانيا .

تنقسم مخلوقات الله تعالى إلى قسمين :

القسم الأول : مخلوقات لاكسب لأحـد فيهـا ، وهي كل مـايقع في الكون على وجـه القسر والحتم كحركـة الأفـلاك والفصـول ونمـوِّ الأشجـار والنبـاتـات والإنسـان ، وككثير من وظـائف الإنسـان وحركاتـه ، كالنـوم واليقظـة وحركـة الارتعاش والموت وما أشبه ذلـك . ولا كلام لنـا في هـذا القسم إذ لاإشكال فيـه ، خصوصاً إذا كنت قد علمت بأن الإنسان ليس مكلفاً بالنسبـة لشيء من تصرفـاتـه وأوضاعه القسرية ، ولا يتعلق بها ثواب ولا عقاب .

القسم الثـاني : مخلـوقـات اكتسـابيـة يتصف بهـا الإنسـان بكسبـه وسعيـه الاختياري ، كإقباله على الطعام والشراب والدراسة ، وكمختلف مايختـاره لنفسـه من السلوك والأعمال ، وهذا مايتعلق به الإشكال .

فاعلم أولاً ، أن أفعال الإنسان الاختيارية من جملة مخلوقـات الله عز وجل ، فالله هو الذي يخلق فيك الإقبال على الدراسة والانصراف عنها ، وهو الـذي يخلق فيك تصرفاتك كلها من طاعة وعصيان . ثبت ذلك بـالـدليل العقلي البين ، إذ لو لم يكن شيء من ذلك بخلق الله وقدرتـه لمـا اتصف إذاً بكل صفـات الكمـال ولكان ذلك بتأثير مستقل من غيره ، وهو محال على الله ، كما قـد علمتـه سـابقـاً بـالـدليل النقلي القـاطـع ، وهـو قـولـه عـز وجـل ﴿ وَخَلَـقَ كُـلَّ شَيءٍ فَقَـدَّرَهُ تَقْـديراً ﴾ [الفرقان : ٢] والفعل من جملة الأشياء بلا شك ، هذا ماعليه عـامـة أهل السنـة والجماعة .

غير أن خلق الله لأفعالك لايستلزم أن تكون مكرهاً عليها ، وليس بينهما أي تلازم إلا فيما يتوهم بعض الناس .

ذلك لأن تلبسك بفعل ما ، يتوقف على أمرين اثنين ، وجود هذا الفعل في الخارج (أي وجود مقوماته كلها المادية والمعنوية) ثم اكتسابك له عن طريق انبعاثك نحوه . فأنت مريد ومختار بوصفك كاسباً ومنبعثاً إليه ، لابوصفك خالقاً وموجداً لمقوماته وعناصره .

وإيضاح ذلك بالبيان الحسي ، أن تقول : إن اليد وما فيها من حياة وشرايين وأعصاب ودماء ، وبما تتصف به بسبب كل ذلك من القدرة على الحركة ـ كل ذلك بخلق الله عز وجل ، والورق الذي أمامك في صورته وجوهره وخصائصه من خلق الله أيضاً ، والقابلية الموجودة في القلم للكتابة هو أيضاً من خلق الله عز وجل .

وتلاقي هذه العناصر كلها لتوجد خطأ مرقوماً على الورق ، لاشك أنه هو أيضاً بقدرة الله عز وجل وخلقه .

فهذا معنى قولنا : إن الله هو الخالق لفعل الإنسان .

ولكن هل يُنسب إليك أنك قد كتبت سطراً على الورق بمجرد تكامل هذه العناصر كلها ؟.. لا ، إن خالقيّة الله لهذه العناصر كلها لا تعني أنك قد كتبت . وهذا واضح جداً . لا بدّ ، لكي توجد الكتابة منك ، أن تعزم في نفسك على الكتابة ، وأن تنبعث إرادتك إلى التنفيذ ، فحينئذ يأذن الله تعالى للقوة التي أودعها في يدك أن تلبي وللشرايين والأوردة أن تساعدك على قصدك ، وللحبر أن ينساب كما تشاء وللورق أن يتأثر بذلك على النحو التي تتحقق فوقه الكتابة . وعندئذ تسمى كاتباً وينسب إليك كسب هذا الفعل ، على الرغم من أن الله عز وجل هو الخالق له . أي فالقصد والعزيمة والكسب منك (وذلك بسر الإرادة التي

ركبها الله في نفسك) وخلق الفعل وأسبابه القريبة والبعيدة من الله تعالى . وإنما تكون المقاضاة والمحاسبة على القصد والكسب لا على خلق الوسائل والأسباب وخلق الفعل نفسه .

وهذه حقيقة نعلمها جميعاً في حياتنا الاجتماعية والقانونية ، فالمقاضاة إنما تكون على الكسب لا على جوهر الفعل المستقل بذاته . إن الذي يدعس بسيارته إنساناً فيقتله ، لا يُقاضى على الفعل ، لأنه ليس هو صاحب الفعل بالذات ، بل صاحب الفعل المباشر هو السيارة نفسها ، ولكنه يُقاضى على الكسب ، والذي جاء بالعمال فحفروا له في قارعة الطريق حوضاً أو بئراً ، لا يعاقب على إفساده للطريق العام لأنه هو الفاعل ، بل لأنه هو الكاسب . والذي جاء بقارورة السم فوضعها في مكان قارورة الدواء التي إلى جانب المريض ، فتناول منها المريض فمات يُقاضى ويقاصَص ، مع أنه ليس هو الفاعل ، ولكنه الكاسب للفعل والمتلبس به .

والله عز وجل إنما يقاضي عباده ويحاسبهم ، على هذا الشيء الذي اسمه الكسب ، أي على الانبعاث النفسي إلى التلبس بالفعل ، ألا تلاحظ قوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ، لَها ما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وقوله : ﴿ اليَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ﴾ [المؤمن : ١٧] وقوله : ﴿ وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبوا ﴾ [الزمر : ٤٨] وقوله : ﴿ إنَّ الَّذينَ يَكْسِبونَ الإثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانوا يَقْتَرِفونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٠] إلى ما هنالك من الآيات الكثيرة الأخرى التي تنص على أن مناط الأجر والعقاب إنما هو كسب الإنسان أي انبعاثه نحو الشيء الذي أمر به أو نهي عنه . وإنما شاء الله أن يجعل خلقه وقدرته وفقاً لانبعاثاتهم ، حتى يكون ذلك بمثابة السجل الذي تثبت فيه هذه الانبعاثات مجسدة في مظهر الفعل الذي ظهرت فيه .

فقد علمت إذاً أن تعلق صفة الخلق بكل ما قد علم الله وجوده ، فيما لا يزال ، لا يستلزم شيئاً من القسر والجبر المتوهمين .

أمّا أن علمه بوجود هذه المخلوقات والأفعال يستلزم تعلق إرادته بها ، فواضح أنه لا إشكال في ذلك بالنسبة للقسم الأول من المخلوقات ، وأما القسم الثاني وهو المخلوقات الاكتسابية القائمة على الاختيار الإنساني فقد علمت مما ذكرناه في المسألة الرابعة ، أن إرادة الله عز وجل متعلقة بخلق سر الإرادة في كيانك ، وهو مستلْزِم كما تعلم لتعلق الإرادة الإلهية بما تختاره أنت من الشؤون والأفعال بموجب هذه الإرَادة التي منحك إياها . ولكن ذلك ليس موجباً لأن تكون مجبراً غير مخير ، وإلا لوقع التناقض بين قولنا : إنه وهبك سر الإرادة التي تنبعث بها إلى اختيار الأفعال ، وقولنا إن ما تختاره بموجبها فعل قسري تقوم به جبراً عنك . وقد فصلنا القول في هذا البحث في شرح المسألة الرابعة التي قبل هذه ، فارجع إليها إن شئت .

☆ ☆ ☆

ولعلك تسأل بعد ذلك : ولكن الله يقول في كتابه : ﴿ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعينَ ﴾ [النحل : ٩] ويقول : ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّك لآمَنْ مَنْ في الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَميعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكونوا مؤْمِنين ﴾ [يونس : ٩٩] وفي القرآن آيات أخرى بهذا المعنى ، وهذا إنما يثبت أن إرادة الإنسان أسيرة في قبضة الله عز وجل .

والجواب أن هذه الآيات التي تعنيها ، ليست من بحثنا هذا في شيء وإنما هي توضح حقيقة مستقلة أخرى لا شك فيها ولا نزاع ، وهي أن الله عز وجل لو شاء لأمد الناس جميعاً بلطف من عنده يجعلهم يختارون الإيمان والانصياع للحق ، دون أن يستجيبوا لشيء من أهوائهم ورعوناتهم ، أو وساوس شياطينهم أو ينساقون إلى اليقين بالحق قسراً دون اختيار منهم . ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء أن يضع الإنسان مختاراً بين واقعين يتجاذبانه وهما النفس بشهواتها والعقل بتدبيره ، كي يتجلى في طاعته لله معنى الجهاد والتكليف ، وإلا لما أحرز المجاهدون والمستقيمون على الطاعة أي أجر على جهادهم ، إذ لا جهاد حينئذٍ أصلاً .

هذا ما تعبر عنه هذه الآيات ، فما علاقة هذا المعنى بموضوعنا الذي أثبتناه من أن الإنسان مخير مريد ، بالنسبة للتصرفات الاختيارية ؟

الإرادة الإنسانية خاضعة لألطاف الله ومقته :

ولكن ينبغي أن تعلم بعد هذا كله أن إرادتك التي بين جنبيك معرَّضة لتأثرات من ألطاف الله عز وجل وعقابه ، فربَّ إنسان لطف الله به فوفقه للرغبة في الخير والانبعاث نحو السبيل الحق . ورب إنسان حاق به عقاب الله في الدنيا فعميت إرادته إلا عن الشر ولم يتجه قصده إلا نحو أسباب الشقاء . غير أن سنَّة الله في عباده جارية على أن يكون لذلك اللطف أسباب معينة يكتسبها الإنسان ، ولهذه العقوبة أسباب أخرى يتعرض لها الإنسان .

فمن عقد العزم منذ أول الطريق على أن لا يعاند الحق إذا رآه وأن لا يعطل عقله الذي وهبه الله إياه ، حتى إذا آمن بالله وأدرك أنه إله وهو عبد له ، أخذ يبسط يديه بالذل نحوه ويسأله مقبلاً عليه في دعاء منكسر واجف أن يعينه في أمره وأن يوفقه للتمسك بأحكامه ، وأن يضيف إلى طاقته عناية من رحمته - أدركته ألطاف الله ورعايته ، فيزيد إلى طاقته طاقة أخرى من توفيقه ويزيد إلى عقله عقلاً آخر من هدايته ، ويضع في إرادته معنى العزيمة والإصرار . وعن هؤلاء يقول الله عز وجل : ﴿ وَالَّذين اهْتَدَوا زادَهُمْ هُدًى وآتاهُم تَقْواهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] ويقول : ﴿ وَيَزيدُ اللهُ الَّذينَ اهْتَدَوا هُدًى ﴾ [مريم : ٧٦] ويقول : ﴿ يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ [المائدة : ١٦] ويقول : ﴿ إنَّ الَّذين آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ يَهْديهِمْ رَبُّهُمْ بِإيمانِهِمْ ﴾ [يونس : ٩] ويقول في الحديث القدسي : « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم »[1] . والمهم أن تعلم أن الله عز وجل قد جعل من

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه .

صدق اتجاه الإنسان إلى معرفة الحق ثم من مظاهر تذلله ودعائه له ، عقلاً ثانياً يهبه إياه بالنسبة لإدراك ألوهية الله والانصياع إلى الحق الذي من ورائه .

أما من عقد العزم منذ أول الطريق على معاندة ما لا يرغب فيه من المبدأ والسلوك وإن كان حقاً في ذاته ، وأن يتصامم عن وحي العقل الذي في رأسه ، وأن لا يلبي إلا نداء شهواته وأهوائه ، ثم مضى يسلّك نفسه في هذا الطريق طبق هذا العزم والتصميم مشعراً كل من يحاول أن يذكره بطرف من الحق الإلهي أنه مقرر سلفاً أن لا يفهم شيئاً مما يلقى إليه في هذا الباب ـ فإن سنّة الله جرت بالنسبة لهؤلاء أن يزج بهم في مزيد من الغواية والضلالات العقلية وأن يذيب إرادتهم فيما يضرم عليهم من سعير الشهوات والأهواء المتأججة ، وأن يبتليهم بمزيد من الانصراف عن موعظة المذكرين وآيات الله في العالمين . وعن هؤلاء يقول ربنا جل جلاله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسيَ مَا قَدَّمَتْ يَداهُ ، إِنَّا جَعَلْنا على قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهوهُ وفي آذانِهِمْ وقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدى فَلَنْ يَهْتَدوا إذاً أبَداً ﴾ [الكهف : ٥٧] ويقول : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آياتي الَّذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأرضِ بِغيرِ الحَقِّ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنوا بِها وَإنْ يَرَوْا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذوهُ سَبيلاً وَإنْ يَرَوا سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذوهُ سَبيلاً ﴾ [الأعراف : ١٤٦] ويقول : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثيراً وَيَهْدي بِهِ كَثيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفاسِقينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] ويقول : ﴿ وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقون ﴾ [التوبة : ١١٥] .

وهذه السنة الإلهية هي التفسير التطبيقي لقوله تعالى : ﴿ .. فإنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ ﴾ [فاطر : ٨] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ ﴾ [الرعد : ٣٣] أي أن الله لا يعجزه شيء عن أن يقذف أسباب الهداية الجبرية في قلب أضل الكافرين والمارقين ، وأن يقذف أسباب الضلالة في قلب أصلح عباده المؤمنين . ولكنه سبحانه كتب على نفسه (تفضلاً منه

وإحساناً) أن لا يضل من الناس إلا من تعرض لأسباب الغواية وصرف نفسه عن وسائل الهداية وأسبابها ، وأن يقرب أسباب الهداية والتوفيق لكل من عزم على استجابة أمر الله وتكاليفه ، وبسط يد العبودية نحوه يسأله العون والتأييد .

بل رب خصلة من الأعمال الصالحة ، تبدر من غويّ فاجر ، في لحظة استيقظت فيها إنسانيته وفطرته ، فتكون سبب هداية الله له ، وتكون عاملاً عظيماً في تحويل مجرى حياته .

ورب خصلة من القبائح العظيمة عند الله ، تبدر من رجل صالح ، يرتكبها غير مبال بها ، ثم لا يشعر بعدها بما يدعوه إلى التوبة عنها والندم على ما فعل ، فتكون سبب مقت الله له وعاملاً كبيراً في تحويل مجرى حياته هو الآخر .

وهذا هو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « فوالذي نفسي بيده إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، والذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » [متفق عليه] .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ، فإنك قد تسمع ، بعد الذي ذكرته لك ، كلمات يرددها بعض المتصوفة اليوم ، تنقلها الكتب عن بعض المشهورين منهم : أن الإنسان لا يملك في الحقيقة شيئاً ، وأنه ليس إلا ريشة في الهواء ، فهو مسيَّر في كل شؤونه وأعماله في قبضة الحكم الإلهي . وأن هذا الذي نراه من ظواهر الناس وأحوالهم ليس كل ذلك إلا ظلالاً لقضاء الله فيهم . وتجدهم يكثرون لدى ترداد هذا الكلام من الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمى ﴾ [الأنفال : ١٧] .

فاعلم أن هذا الكلام لا يستند إلى شيء من البراهين والعلم والخبر الإلهي الذي تكوّن منه الشرع المطهر ، ولكنه يستند (عند الصالحين من هؤلاء) إلى أحوال تعتريهم من شدة التأمل في عظمة الله فيغرقون بسبب ذلك في حال من الدهشة والذهول عن أنفسهم ، تجعلهم ينطقون بهذه الكلمات . وهي في الحقيقة ليست تقريراً علمياً لما وصلت إليه عقولهم ولكنها وصف نفسي لهذه الدهشة التي اعترتهم وطافت بمشاعرهم . أما عند (آخرين منهم) فإنما يستند إلى مجرد التقليد والمحاكاة لهم . ولعمري إنَّ أولئك إن كانوا معذورين فيما قالوا بدافع من حالهم ، فإن هؤلاء ليسوا معذورين فيما يتعمدونه من مجرد المحاكاة لهم .

على أن الذين ارتفعوا عن مستوى الأحوال ، من كبار الصوفية رضي الله عنهم ، ما فاهوا بمثل هذا الكلام قط ، وما التزموا إلا ما دل عليه ظاهر النصوص ، وأثبته البرهان العلمي الذي أجمع على اتباعه عامة المسلمين ، ولم يَفُتْ هؤلاء رضي الله عنهم أن قول الله تعالى : ﴿ ومَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمى ﴾ [الأنفال : ١٧] إنما يعني حادثة معينة بذاتها كانت من الخوارق التي أجراها الله على يد رسوله ، وذلك إذ أخذ حفنة من الحصباء ورماها في وجوه المشركين في غزوة حنين ، فتكاثرت في الجو حتى امتلأت بها أعين المشركين . فالآية تنبيه إلى هذه الحادثة التي ظهرت للأعين بمظهر الحفنة التي رماها النبي ﷺ نحوهم ، وهي في الحقيقة ليست إلا خارقة أكرم الله بها رسوله والمؤمنين . فأين هذا من عامة التصرفات التي مكن الله الإنسان منها بباعث الإرادة التي أودعها في نفوسهم ؟..

ولا أظن أننا بحاجة ، بعد هذا ، إلى مزيد من البيان فيما يتعلق بهذا البحث .

☆ ☆ ☆

رابعًا

رؤية الله تعالى

اعلم أن هذه المسألة مما وقع النزاع فيه بين جمهور المسلمين وبعض الفرق الإسلامية الأخرى ، وسبب ما وقع فيها من النزاع ، أنها لا ترتبط بأدلة قطعية جازمة مثل بقية مسائل العقيدة ، ولذلك لم يكن الخلاف فيها مستوجباً للكفر والردة ، وإن كانت مخالفة أهل السنة والجماعة ـ وهم جمهور المسلمين ـ تستوجب الفسق والجنوح عن الحق .

والكلام يتعلق بهذه المسألة من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : البحث في أن رؤية الله عز وجل مما يجوزه العقل أو يحيله .

الجانب الثاني : هل دل السمع (الأدلة السمعية) على وقوعها في الآخرة ؟

الجانب الثالث : هل دل السمع على وقوعها أو إمكان وقوعها في الدنيا ؟

☆ ☆ ☆

أما الجانب الأول : فقد ذهبت المعتزلة إلى أن العقل لا يجيز رؤية العباد ربهم مطلقاً ، بل هو قاض باستحالة ذلك . وأجمع جمهور المسلمين وهم أهل السنة والجماعة على أن ذلك مما يدخل في الممكنات ، وأن العقل لا يحيل رؤية العباد لربهم جل جلاله بأعين رؤوسهم .

أما شبهة المعتزلة فخلاصتها أن الرؤية إنما هي انطباع صورة المرئي في الحدقة ، ومن شرط ذلك انحصار المرئي في جهة معينة من المكان حتى يمكن اتجاه الحدقة إليه ، ومن المعلوم علم اليقين أن الله تعالى ليس جسماً ولا تحدُّه جهة من الجهات .

وأما دليل أهل السنة والجماعة ، فهو أن الرؤية أعم من أن تكون انطباعاً لصورة المرئي في الحدقة على نحو ما يقوله المعتزلة من الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الحدقة والشروط التي ينبغي أن تتوفر في الشيء المرئي .

وإنما هي قوة يجعلها الله في الإنسان متى شاء وكيف شاء ، يتم بها مشاهدة صورة المرئي على حقيقته ، والكيفية التي تحصل الرؤية بها اليوم ليست إلا كيفية من كيفيات كثيرة كان الله عز وجل ولا يزال قادراً على ربط حقيقة الرؤية بما شاء منها . وبناء على ذلك نقول : على الرغم من أن الله تعالى ليس جسماً ولا هو متحيز في جهة ما من الجهات ، فإن من الممكن أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر كما ورد في الأحاديث الصحيحة وأن يروا ذاته رؤية حقيقية لا شبهة فيها ، وستحصل هذه الرؤية إن شاء الله بدون الشرائط التي لا بد منها للرؤية اليوم ، وكما يقول الجلال الدواني : لا يلزم من كون تلك الشرائط شرطاً في إدراكنا في هذه النشأة كونها شرطاً في النشأة الآخرة[1] .

وأما الجانب الثاني : وهو البحث عن الأدلة السمعية ، هل فيها ما يدل على رؤية العباد ربهم ؟ فقد ذهب المعتزلة إلى أنه ليس في الأدلة السمعية ما يثبت أن العباد قد يرون ربهم ، بل فيها ما يثبت عدم إمكان رؤيتهم له ، وعمدتهم في ذلك قول الله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قالَ لَنْ تَراني وَلَكِنِ انْظُرْ إلى الجَبَلِ فَإِن اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَراني ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ [الأعراف : ١٤٣] الآية . قالوا : فقد أجاب الله على سؤال موسى الرؤية بقوله : لن تراني ـ وفيه نفي للرؤية كما هو ظاهر ـ ثم نفى الرؤية بأسلوب آخر ، وهو أنه علق إمكان الرؤية على استقرار الجبل في مكانه ، وقد علم الله عز وجل أنه لن يستقر وسيصبح دكاً ، فقد علق الرؤية على مستحيل في الواقع ، فتكون الرؤية أيضاً

---

(١) شرح جلال الدين الدواني : ٢ / ١٦٧ .

مستحيلة . ومن أجل تقوية هذا المعنى وتأكيده ، فسر الزمخشري (وهو من المعتزلة) لن بالنفي المؤبّد لتتم الدلالة في الآية على أن الرؤية منتفية في الدنيا والآخرة معاً ، ولا نظن أحداً غير الزمخشري فسر لن بالنفي المؤبد .

كما استدلوا على نفي الرؤية ، بقوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] قالوا : فقد نفى الله عز وجل أن يدركه أحد بالبصر والإدراك بالبصر هو الرؤية .

وذهب عامة أهل السنة والجماعة إلى أن الرؤية واجبة وثابتة بالسمع ، وقد وردت أدلة سمعية كثيرة تثبت ذلك ، فمن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وجوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ ، إلى رَبِّها ناظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ ـ ٢٣] وقوله عز وجل : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجوبونَ ﴾ [المطففين : ١٥] أي إنهم لا يرونه عقوبة لهم . وهو يدل على أن الصالحين من عباده يرونه إذاً إكراماً لهم . ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) ومن أجل وضوح هذه الأدلة أجمع عامة الصحابة على وقوع الرؤية في الآخرة .

أما قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَراني .. ﴾ [الأعراف : ١٤٣] الآية . فقد قال أهل السنة والجماعة إنها دليل على وقوع الرؤية لا على العكس كما فهم المعتزلة ، وذلك لسببين :

الأول : أن موسى لم يطلب رؤية الله عز وجل إلا وهو يعلم أنها ممكنة قابلة للوقوع والحصول ، ومن غير الجائز أن يتصور إمكان مثل هذا الأمر وهو مخطئ في تصوره ولو كانت رؤية الله مستحيلة ، لكان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام أولى من المعتزلة بمعرفة ذلك إذ إنّ ذلك هو المتفق مع كمال الأنبياء وعصمتهم وما أكرمهم الله به من علم وإلهام ومعرفة للحقيقة .

الثاني : أن الله تعالى علق رؤيته له على شيء جائز وهو استقرار الجبل إذ هو أمر ممكن في ذاته ضرورة كما هو معلوم ، وما عُلق على الممكن لا بد أن يكون هو أيضاً ممكناً[1]

وليست لن للتأبيد كما زعم الزمخشري ، بل هي للتأكيد ، ولذلك تُقيَّد بأبداً . وإن سلم أنها للتأبيد فإنه يكون في الدنيا ، كقوله تعالى ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : ٩٥] . مع أنهم يتمنون الموت في الآخرة للخلاص من العذاب[2] .

ولوضوح هذه الأدلة أطبق عامة المسلمين ما عدا المعتزلة على أن الصالحين من العباد يرون الله عز وجل يوم القيامة ، ومن أجل ذلك تعلقت آمال كثير من المقربين ، من نعيم الجنة كلها برؤية الله عزّ وجل ، وعاشوا في الدنيا وهم لا يمنُّون أنفسهم من نعيم الآخرة إلا بها .

وقد ذكر الربيع رحمه الله أنه كان ذات يوم عند الشافعي ، وجاءه كتاب من الصعيد يسأل فيه كاتبه عن قوله عز وجل : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجوبونَ ﴾ [المطففين ١٥] فكتب : لمّا حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضى . فقال له الربيع : أو تدين بهذا يا سيدي ؟ فقال : والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا[3] .

☆ ☆ ☆

أما الجانب الثالث : وهو البحث في أنه هل دل السمع على وقوع الرؤية أو إمكان وقوعها لأحد من الناس في الدنيا ؟ فقد اختلف في ذلك أهل السنة والجماعة إلى مذهبين :

---

(١) الجلال الدواني : ٢ / ١٦٦ والمسائل الخمسون للرازي : ٣٧٢ .

(٢) الجلال الدواني : ٢ / ١٨١ .

(٣) الطبقات الكبرى للسبكي : ١ / ٨١ .

فمنهم من قال لم يرد السمع إلا بما يدل على الرؤية في الآخرة فقط ، بل الذي جاء به السمع هو امتناع رؤية أحد من الناس ربه قبل الموت وذلك للحديث المرفوع الذي رواه مسلم عن عبادة بن الصامت أنه ﷺ قال : « واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » وزعيم القائلين بهذا الرأي من الصحابة السيدة عائشة رضي الله عنها ، فقد روى البخاري وغيره عن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمَّاه هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قفَّ شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللطيفُ الخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ﴿ وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجاب ﴾ [الشورى : ٥١] . ومن حدثك أنه يعلم ما في غدٍ فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ ومَا تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً ﴾ [لقمان : ٣٤] . ومن حدثك أنه كتم فقد كذب وقرأت قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليْك ﴾ [المائدة : ٦٧] . ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين .

وذهب الأكثرون إلى أنه قد دل السمع على جواز رؤية الله تعالى في دار الدنيا وزعيم القائلين بهذا هو عبد الله بن عباس رضي الله عنه ومعه جمهور الصحابة . ومن أهم أدلتهم على ذلك حديث الإسراء والمعراج وقول الله تعالى : ﴿ وَما جَعَلْنا الرُّؤْيا الَّتي أَرَيْناكَ إلاّ فِتْنَةً للنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] ، وأحاديث كثيرة وردت في ذلك .

وقد أنكر الفريق الأول صحة الاستدلال بهذه الآية : مستدلين بأن (الرؤيا) بالألف تطلق على الرؤيا المنامية لا الحقيقة . إلا أن الجواب على ذلك هو أن الرؤيا كما تطلق على رؤيا النوم فإنها تطلق أيضاً على رؤيا اليقظة دون تفريق . وذلك لقول الشاعر :

فكبَّر للرؤيا وهش فؤاده ... وبشَّر قلباً كان جماً بلابله

وقالوا أيضاً : إنه تعالى سمى هذه الرؤيا فتنة للناس : أي ابتلاء واختباراً لهم . وليس من المعقول أن يكون الحديث عن رؤيا في المنام سبب فتنة واختبار لإيمان الناس .

هذا وما دامت المسألة مختلفاً فيها بين الصحابة أنفسهم : فليس ثمة ما يدعو في باب العقيدة ـ إلى الجزم بقول من القولين ، وإن كنا نرجح في ذلك مذهب الجمهور من الصحابة ثم من بعدهم من الأئمة والعلماء ، وهو أن السمع دلّ على إمكان رؤية الله عز وجل في الدنيا بل دلّ على وقوعها أيضاً من رسول الله ﷺ .

وهذا آخر ما يجب أن تعلمه من حقائق الإلهيات ، وجميعها مطوي في شهادة أن لا إله إلا الله التي هي الشطر الأول من الشهادتين اللتين بهما يتم إسلام المسلم وإيمانه .

أما الشطر الثاني ، وهو شهادة : أن محمداً رسول الله ، فينطوي تحته كل أبحاث النبوات : التي آن أن نشرع في بيانها .



القسم الثاني

النبوّات

تمهيد

الآن ، وقد انتهينا من البحث في وجود الله عز وجل ، ورأينا كيف أن العقل لايتردد في الإيمان بوجود مدبِّرٍ للكون مالك لأمره وعلمنا الخصائص والصفات التي يتصف بها هذا الخالق العظيم ـ هل يسعنا أن نتساءل عن وظيفتنا في هذا الوجود ؟ وإذا تساءلنا عنها ، فهل يسعنا أن نتصور أنْ ليس لنا أي وظيفة ، ولاترتبط بنا أية مسؤولية .. وهل يصدق العقل ـ بعد الذي انتهينا إليه من الإيمان بالله وبأنه مدبر وحكيم ـ أن لاشأن لنا في الدنيا إلا ماهو شأن الدواب والحيوانات الأخرى ، نسرح ونمرح بين المأكل والمشرب والملبس والمنكح ، حقبة قصيرة أو طويلة من الزمن حيث يلتقمنا بعد ذلك جوف الهلاك والموت ؟! وهل كان مايمتاز به الإنسان عن سائر المكونات الأخرى وهو العقل الذي يستجلي أغوار الكون بمظاهره المختلفة ، مجرد ظاهرة صادف أن امتاز بها على غيره ، ثم هي لاتعني شيئاً أكثر من ذلك .

إن أي عاقل لايمكن (بعد أن انتهى من مرحلة الإيمان بوجود الخالق) أن يتصور شيئاً من هذه الفرضيات ، فضلاً عن أن يعتقدها ويتبناها . فقد علم هذا العاقل أن من أجلى صفات الله عز وجل أنه حكيم في خلقه وعامة أحكامه وأنه لايتصور في حقه العبث ، وأي عبث أعبث من أن تكون هذه الأكوان المنسقة غاية التنسيق ، ثم المسخرة للإنسان غاية التسخير بما أودع فيه من السر العجيب الذي لن تنتهي حيرة الإنسان منه ـ منتهية أخيراً إلى لاشيء ، ومتصدعة إلى غير غاية !

وهذا الإنسان الذي يعيش في وجود الله تعالى متألهاً متجبراً ، أسكرته تلك

المواهب الإلهية المودعة في كيانه ، يطغى على أخيه الإنسان بالقتل والظلم وشتى مظاهر الحيف والجور ، وهذا الآخر الذي عاش مهيضاً مستضعفاً تحت سلطانه وبطشه ، فلم يشعر من الدنيا إلا بما فيها من ضنك وبؤس ، على حين لم يشعر الآخر إلا بما فيها من رفاهية ونعيم ـ هل تنتهي قصتهما بالوصول إلى غلاف الموت دِون أن تأتي من وراء ذلك تتمة تعيد الحق إلى نصابه وتكشف عن سيادة العدل على الظلم والجور ؟ وهل رأى أحد من الناس مسرحية مثلت أمام المشاهدين من فصل واحد ، ثم أسدل الستار وانتهت القصة وإن حوادثها لاتزال مجزأة معلقة ، ولاتزال الأفكار متطلعة منها إلى تفسير ماظل مبهماً وتتميم مابُتِر مجزءاً ، ولاتزال الأعصاب مشدودة إلى معرفة المرمى والمغزى من القصة وكاتبها ؟!

إن طفلاً عاقلاً من الناس لايؤلف في مدرسته مسرحية بهذا الشكل ، أفيقيم الله الحكيم الخبير قصة كونه العظيم هذا على مثل هذا العبث العجيب الذي يتنزه عنه الأطفال ؟!

ومارأيت أعجب من مظهر إنسان عاقل ، يفكر طويلاً في الكون إلى أن يقول : لاشك أن ثمة (قوة خارقة) من وراء هذا الوجود : ثم يطوي فكره عن مزيد من البحث وينصرف إلى ماشاء من عمله ولهوه !

وهل هذا إلا مثل من آواه الليل إلى كهف منقطع في بطن جبل ، فأشعل ناراً وراح يقلب العين في جوانب الكهف وأرضها ، فرأى عظاماً عليها بقايا لحم مأكول ، فهز رأسه قائلاً : لابد أن سبعاً قد اتخذ هذا المكان مثابة له . والتهم فريسته هنا ، ثم طوى فكره عن أي مزيد من التأمل والبحث ، واستلقى على جهة من تلك الأرض ثم أسلم عينيه لسبات عميق !!

قد يكون معذوراً ذاك الذي لم يهتد بعد إلى وجود خالق ومدبر لهذا الكون ، فهو لايزال مكباً على وجهه في فجاج الحياة وإن كان غير معذور في عدم الاهتداء . أما ذاك الذي أدرك وجود مايسميه (القدرة الخارقة) فإن هذا

الإدراك ينبغي (فيما يفهم عقل كل مفكر) أن يضعه أمام طريق طويل لتفكير جديد . وينبغي أن يسير في هذا الطريق بكل جد ودقة وحذر .

(قوة خارقة)[1] أوجدتك وأوجدت هذا الكون ! ألا ينبغي أن يؤرّقك إذاً أمر هذه القوة ومدى ماقد يكون لها من سلطان عليك ؟ ألا ينبغي أن تفكر وتبحث طويلاً حتى تطمئن إلى أنك لست مسؤولاً تجاهها عن أي شيء ؟ وكيف تستطيع أن تتخيل أنك لست مسؤولاً أمامها عن شيء (وأنت المخلوق الوحيد الذي أودع فيك سر الفكر والعقل) على حين أنك ترى جميع رفاقك الآخرين من المخلوقات التي هي دونك في كل شيء . أنيطت بكل منها مسؤولية معينة فهي عاكفة عليها ماضية في أدائها لاتفتر ولاتمل !

من أجل بيان هذه الحقيقة الخطيرة وتأكيدها ، يكرر الله عز وجل في خطابه لنا ، التنبيه إلى أنه تعالى لايمكن أن يكون قد خلق الإنسان عبثاً ، لكي يلهو لنفسه أياماً ثم يموت ؛ ويهيب بالعقول أن تنتبه إلى هذه الحقيقة الواضحة :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ ـ ١١٦] .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاه مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٦ ـ ١٧] .

فإذا أدركت هذه الحقيقة ، بعد إيمانك بالله عز وجل ، فلا بدّ من أن تجدّ في البحث عما يكون مرتباً عليك من وظيفة ومسؤولية تجاه خالقك العظيم الذي لم يقتصر على أن يجعلك مجرد مخلوق من مخلوقاته الكثيرة بل جعلك سيد هذه

---

(١) وضعنا هذه الكلمة بين قوسين إشارة إلى أنها كلمة فاسدة لايجوز أن يعبر بها عن ذات الله تعالى لأن الله تعالى ليس قوة خارقة ، ولكن ذات متصفة بالقوة الخارقة وكل صفات الكمال ، كما أن الله تعالى ليس « محبة » وليس « سلاماً » كما يقول البعض .. ولكننا نقلنا كلام هؤلاء الناس بنصه تصويراً لواقعهم ، ونقلاً لكلامهم الدال على الفساد في أسلوبه ومضمونه .

المخلوقات وألقى إليك زمام تسخيرها ومقاليد كثير منها ؛ حتى إذا علمت وظيفتك في الكون ، شمرت عن ساعد الجد لتنفيذ الوظيفة وللاشتراك مع هذه المكونات كلها في القيام بما وكل إلى كل منها من الأعمال والمهام .

ولكي لاتحار طويلاً أيها الإنسان في معرفة وظيفتك هذه ، فقد أرسل الله عز وجل رسلاً إلى هذه الصفوة المختارة من مخلوقاته يبلغونهم أوامر الله ونواهيه ، ويُنهون إليهم شرائعه وأحكامه ، ويحذرونهم من أنَّ حياة أخرى تنتظرهم من بعد الموت ، وأنهم مجزيون فيها بدون شك على كل ما اكتسبوه في الدنيا من خير وشر .

فلنبحث إذاً في أمر هؤلاء الرسل والأنبياء وما قد أرسلوا به . وفي الدلائل العلمية على صدقهم وصدق ماقد بعثوا به ، وفي المؤيدات التي يؤيّدون بها ، حتى نعلم بذلك جيداً حدود المسؤولية المنوطة بعنق الإنسان والدليل اليقيني على ثبوتها وضرورة التزامنا بها .

وسنتناول في بحثنا ، هذه المسائل التالية :

أولاً ـ تحقيق معنى النبوة والرسالة وتعريف كل منها .

ثانياً ـ الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى وضرورة الإيمان بهم .

ثالثاً ـ صفات النبي وخصائصه .

رابعاً ـ المعجزات ، تعريفها وضرورة الاعتقاد بها وموقف العقل والعلم منها .

خامساً ـ النبوة لاتأتي بطريق الكسب والترقي .



أولاً

تحقيق معنى النبوّة والرّسالة

وتعريف كلٍّ منهما

النبوَّة ، مأخوذة من النبأ بمعنى الخبر ، ومعناها وصول خبر من الله بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده لتلقي ذلك ، فالكلمة إذاً تفسير للعلاقة التي بين النبي والخالق جل جلاله ، وهي علاقة الوحي والإنباء .

والرسالة ، تعني تكليف الله أحد عباده بإبلاغ الآخرين بشرع أو حكم معين . فالكلمة إذاً تفسير للعلاقة التي بين النبي وسائر الناس . وهي علاقة البعث والإرسال .

فإذا لاحظت في النبي الحالة التي بينه وبين الله عز وجل ، فهي النبوة . وإذا لاحظت حالته التي بينه وبين الناس فهي الرسالة . ومن هنا كانت النبوة أشرف من الرسالة . إذ كانت الرسالة بياناً لصلة ما بين الرسول والناس ، وكانت النبوة بياناً لصلة ما بينه وبين ربه عز وجل .

الفرق بين النبوة والرسالة :

وها هنا بحث اجتهادي ، غير داخل في الحقائق القطعية المتفق عليها ، ولذا وقع فيه الخلاف بين العلماء ، وهو : هل النبي والرسول كلمتان تطلقان على مدلول واحد ، أم يطلقان على مدلولين مختلفين حتى إنه يجوز أن يكون الإنسان نبياً ولا يكون رسولاً ؟

ذهب طائفة من العلماء إلى أن الكلمتين مترادفتان وأنها ذات مدلول واحد ، فكل نبي يسمى رسولاً ، وكل رسول يسمى نبياً ، غير أنه يسمى رسولاً بالنظر إلى ما بينه وبين الناس ، ويسمى نبياً بالنظر إلى ما بينه وبين الله . وكلاهما متلازمان ، وممن ذهب هذا المذهب القاضي عياض من المالكية وغيره .

وذهب كثيرون إلى أن بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً ، إذ النبي هو من أوحي إليه بأمر من الله ، سواء كلف بتبليغه أم لا ، فإن كلف بتبليغه كأن أوحي إليه بشرع أو كتاب إلى عامة الناس ، فهو رسول أيضاً . وعلى هذا ، فكل رسول نبي ، إذ الرسالة إلى الناس فرع عن النبوة من الله ، وليس كل نبي رسولا ، إذ قد يكون موحى إليه ، دون تكليف له بالتبليغ[1] .

ولكل من الفريقين أدلة من ظاهر الكتاب والسنة ، ولسنا بحاجة في هذا الصدد إلى عرض شيء منها ، أو إلى إطالة البحث بالترجيح . إذ الخطب يسير ما دام البحث كما قلنا لا يتعلق بشيء من قواطع الدين وضرورياته ، بل من الفروع الاجتهادية المحتملة .

تعريف كل منهما :

وعلى هذا فإننا نعرِّف كلاً من النبي والرسول بأنه : (إنسان أوحى الله إليه بواسطة جبريل أن يبلغ عامة الناس أو فئة منهم أمراً من قبل الله جل جلاله ، فإن أوحى الله إليه بأمر ولم يأمره بتبليغه فهو نبي فقط) .

وإذا تأملت في هذا التعريف الذي أجمع على مضمونه المسلمون كلهم ، ودلت عليه قواطع الأدلة كما سنعرض لك ، علمت ما يلي :

أولاً ـ ليس الوحي المعنيُّ هنا ما يشمل الإلهام والشعور الباطني وما يسمى بالفراسة والحدس ، وإن كانت كلمة الوحي تطلق على كل ذلك في مخاطبات الناس واصطلاحاتهم . وسيأتي تحقيق ذلك قريباً .

ثانياً ـ لا مجال لهذا الوحي في ابتدائه إلا حال اليقظة التامة ، فليس للرؤى والأحلام إذ ذاك أي علاقة بإثبات معنى النبوة أو الوحي الإلهي الذي يعتبر

---

(١) انظر حاشية المرجاني على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية : ١ ـ ١٢ وغيرها من كتب العقيدة .

الدعامة الأولى للنبوة ، فإذا ثبتت دلائل النبوة لنا ، فإن رؤى الأنبياء تعتبر بعد ذلك من الوحي ما لم يأت وحي في اليقظة يعارضه أو يردُّه .

وليس البحث في هذه المسألة مما يتسع لأي احتمال أو نقاش فيه (بالنسبة لمن سبق أن آمن بوجود الله جل جلاله) . ولذلك فقد كان مضمون كلمة (الرسالة الإلهية) محل اتفاق من جميع فئات المسلمين وجماعاتهم ، وكان الاعتقاد بذلك من الأسس التي لا بدَّ من الإيمان بها ليتم الإيمان بالله عز وجل . لما ثبت من الأدلة القاطعة في ذلك مما يفيض به الكتاب والسنة .

فإذا وقعتَ بعد ذلك على تعريفات (عصرية) جديدة للنبي أو الوحي مخالفة لهذا الذي نقلناه من كافة كتب العقيدة الإسلامية المستندة في أحكامها إلى اليقينيات من أدلة الكتاب والسنة ـ فاعلم أنها دسيسة وراءها ما وراءها ، أو هو ضعف بليغ في إيمان الكاتب أو القائل ، أو هو جهل متناه بأوضح الحقائق الإسلامية .

إذا علمت هذا فإنك لن تؤخذ أو تخدع بالتعريف العجيب الذي اخترعه الشيخ محمد عبده للنبي ، وذلك فيما نقله العلاَّمة الأستاذ مصطفى صبري عن تعليقاته على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية في صفحة (٣) حينما قال : (أقول : قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق علماً وعملاً . أي بحيث لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة ، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر ولكن التعليم الإلهي . فإن فطر أيضاً على دعوة بني نوعه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضاً)[1] وأنت في غنى عن أن أعلق شيئاً على هذا الاختراع العجيب لمعنى النبوة ، بعد أن عرفت معناها كما دل عليه الكتاب ودلت السنة وكما أجمع عليه أهل السنة والجماعة ، كما أنك في غنى عن أن أكشف لك السر الذي دعاه إلى أن يستعمل كلمة الفطرة ، في التعريف بدلاً من

---

(١) انظر كتاب موقف العقل والعلم من رب العالمين للأستاذ مصطفى صبري : ٤ ـ ٤٠ .

كلمة (الوحي) التي أطبق المسلمون كلهم ـ منذ عصر النبوة إلى عصرنا هـذا ـ على اتخاذها قيداً أساسياً في تعريف النبي .

ومع ذلك فلنذكر كلمة موجزة حول (ظاهرة الوحي) في حياة الرسول ﷺ وذلك كي تقف من وراء التأمل فيها على مدى ما يقع فيه الملاحدة ومحترفو التشكيك الديني ، من خلط وخبط واضطراب أثناء تحليلهم لهذه الظاهرة ، وكيف أنهم يندّون ويبتعدون عن الطريقة العلمية للبحث في أبسط مظاهرها وأشكالها ويرتضون لأنفسهم الاستسلام لأي وهم أو حدس وتخمين ، ما دام يبعدهم عن الاعتراف بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

ونحن لا نريد منك ، وأنت تتأمل في هذا البحث وحقيقته ، وكيفية روغان أعداء العقيدة الإسلامية عنه ، إلا أن تملك الحرية العقلية الصافية عن أي تبعية أو غرض أو هوى في نفسك .



ظاهرة الوحي :

الوحي هو الأساس الأول الذي يقوم على حقيقته معنى النبوة والرسالة ، ومن ثم فهو المنبع الأول لعامة الإخبارات الغيبية وشؤون العقيدة وأحكام التشريع ، ذلك أن حقيقة (الوحي) هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله ، والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيد .

من أجل هذا يهتم أعداء الإسلام ، بمعالجة موضوع الوحي في حياته ﷺ ويبذلون جهداً فكرياً شاقاً ، في تكلف وتمحّل ، من أجل التلبيس على حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام وحديث النفس ، بل وحتى الصرع أيضاً ، وذلك لعلمهم بأن موضوع (الوحي) هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد ﷺ من

عند الله . فلئن أتيح تشكيك المسلمين بحقيقته أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه من عقائد وأحكام ، وأمكنهم أن يحملوهم على الاستجابة لفكرة أن كل ما دعا إليه محمد ﷺ من المبادئ والأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتي .

من أجل تحقيق هذه الغاية ، أخذ محترفو الغزو الفكري ، يحاولون تأويل ظاهرة الوحي وإبعادها عما يرويه لنا بشأنها المؤرخون وترويه صحاح السنة الشريفة ، كما يحاولون تجريدها عن حقيقتها الظاهرة ، وراح كل منهم يسلك إلى ذلك ما يروق لخياله من فنون التصورات المتكلفة الغريبة .

فمن متصور بأن محمداً (عليه الصلاة والسلام) لم يزل يفكر .. إلى أن تكونت في نفسه بطريقة الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية ؛ ومن مفضل على ذلك إشاعة القول بأنه ﷺ تعلم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب ؛ ومن قائل بأن الأمر ليس هذا ولا ذاك ولكن محمداً ﷺ كان رجلاً عصبياً أو مصاباً بداء الصرع[1] .

وأعتقد أن من حق أي عاقل من الناس أن يبادر فيسأل عن البرهان العلمي الذي اعتمده هؤلاء المتصورون لإثبات مزاعمهم هذه عن الوحي وحقيقته ، خصوصاً وهم الذين يتهموننا كما قد علمت بأننا نقيم بحوثنا الدينية على أساس العقيدة فقط دون العلم ، فأين هو العلم أو حتى صورة العلم في بحوثهم هم ؟!..

أما نحن فنقول : إن مصدر كلمة (الوحي) في حياة محمد عليه الصلاة والسلام ، هو الخبر الذي نقل إلينا عن طريق القرآن وعن طريق السيرة وصحاح السنة ، فلولا أن الكلمة وردت إلينا من هذه المصادر ، لما كان لها وجود في أفكارنا ولا في أفكار أعداء الإسلام ، ومن ثم لم يكن ليقوم حولها أي بحث ولم

---

(١) راجع حاضر العالم الإسلامي : حـ ١ ص ٢٨ و ٢٩ .

تكن لتفسر بأي نظرية من النظريات أو معنى من المعاني لا عندنا نحن المسلمين ولا عند أولئك الآخرين .

ومعنى هذا الكلام ، أن نسبة (الوحي) إليه عليه الصلاة والسلام ، من حيث هو ظاهرة مفهومة أو غير مفهومة ، أمر متفق عليه عند جميع الباحثين بما فيهم المستشرقون وأعداء الإسلام والناعقون من ورائهم ، وسبب الاتفاق على ذلك دليل التاريخ ، التاريخ الذي يتمثل في وثيقة القرآن والسنة الصحيحة والسيرة النبوية ، وفي مقدمة ذلك كله قصة بدء الوحي المروية في صحيح البخاري وغيره .

وإذا كان كلامنا هذا واضحاً لا شبهة فيه ، فينبغي إذاً أن نرجع ، للوقوف على تفسير هذه الظاهرة ، إلى هذه المصادر التاريخية أيضاً ، إذا رأيناها تتولى تفسيرها بجلاء ووضوح ، وليس معقولاً أبداً أن نستدل لإثبات كلمة (الوحي) على اعتبارها ظاهرة مبهمة في حياته عليه الصلاة والسلام ، بنصوص التاريخ ونقوله الصحيحة ؛ ثم نضرب صفحاً عن هذه النصوص عندما تتولى لنا تفسير هذه الظاهرة وكشف اللثام عنها .

إن كل مفكر يعلم أن الباحث لا مفرّ له من سلوك أحد سبيلين : إما أن يضرب صفحاً عن حديث التاريخ كله وعن هذه النصوص الواردة جميعها ، وعندئذ فليس له أن يتحدث عن شيء اسمه الوحي في حياة رسول الله ﷺ أصلاً لأن المفروض أنها كلمة غير موجودة في حياته ، وإما أن يعتمدها ولا يسعه إنكارها ، وعندئذ فإن عليه أن يلقي السمع إلى كل ما تثبته وتنطق به هذه النصوص من الحقائق والوقائع .

ولذلك صح لنا أن نقول ـ في غير مبالغة ولا تجن على الحقيقة ـ : إن أولئك الذين يعمدون إلى القرآن ونصوص السنة والسيرة ، فيستلُّون منها كلمة الوحي مجردة ومشذبة عن كل ما يتولى تفسيرها وبيانها من تلك النصوص نفسها ، ليرغموا

الكلمة أن تحمل معاني وتأويلات أخرى غير تلك المعاني التي تولى التاريخ وتولت النصوص إعطاءها إياها - نقول : إن أولئك العابثين لا يعاندون العلم فقط ، بل إنهم ليعاندون العقل في أوضح مقتضياته البدهية المسلمة !!..

ونحن عندما نقارن بين تفسيرات هذه النصوص الحاسمة لظاهرة الوحي في حياته عليه الصلاة والسلام (وفي مقدمتها حديث بدء الوحي) وما يفسرها به أولئك المستشرقون والمخاصمون للإسلام من أمور خيالية عجيبة ، لا يرى العاقل مسوغاً للقول بها إلا التهرب من الإقرار بنبوته عليه الصلاة والسلام - ندرك في جلاء ووضوح الحكمة الإلهية الباهرة ، من بدء نزول الوحي عليه الصلاة والسلام بهذه الطريقة التي صح ورودها في حديث الإمام البخاري وغيره :

لماذا رأى رسول الله ﷺ جبريل بعيني رأسه لأول مرة ، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب ؟

لماذا قذف الله في قلبه عليه الصلاة والسلام الرعب منه والحيرة في فهم حقيقته ، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وحفظه له تقضي أن يلقي السكينة في قلبه ويربط على فؤاده فلا يخاف ولا يرتعد ؟ لماذا خشي على نفسه أن يكون هذا الذي ساوره طائفاً من الجن ولم يستيقن من أول الأمر أنه ملَك أمين من عند الله ؟

لماذا انفصل الوحي عنه بعد ذلك مدة طويلة ، وجزع النبي ﷺ بسبب ذلك جزعاً عظيماً حتى إنه كان يحاول - كما يروي الإمام البخاري - أن يتردى من شواهق الجبال ؟

هذه أسئلة طبيعية بالنسبة للشكل الذي ابتدأ به الوحي ، ولدى التفكير في أجوبتها نجدها تنطوي على حكمة : ألا وهي أن يجد المفكر الحر فيها الحقيقة الناصعة ، القائمة على المنهج العلمي اليقيني ، والواقية عن الوقوع في شرك محترفي الغزو الفكري والتأثر بأخيلتهم المتكلفة الباطلة .

لقد فوجئ محمد عليه الصلاة والسلام وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له اقرأ ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجرد ، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات . وضمُّ الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات ، قائلاً في كل مرة : اقرأ ، يعدّ تأكيداً لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور ، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط .

ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأى ، حتى إنه قطع خلوته في الغار وأسرع عائداً إلى البيت يرجف فؤاده ، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوقاً للرسالة التي سيدعى إلى حملها وبثها في العالم ، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد كان يتصوره أو يخطر في باله ، وإنما طرأت طروءاً مثيراً على حياته ، وفوجئ بها (بالرسالة) دون أي توقع سابق .

ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه - بطريقة الكشف التدرجي المستمر - عقيدة يؤمن بالدعوة إليها .

ثم إن شيئاً من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية لايستدعي الخوف والرعب واصفرار اللون . يدل على ذلك القياس اليقيني القائم على استقراء الحالات وجميع الظروف المشابهة وليس ثمة أي انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية ، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى ، وإلا للزم من ذلك أن يعيش جميع المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة .

وأنت خبير أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغير اللون - كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها والتمثيل بها ، حتى لو فرضنا

إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه عليه الصلاة والسلام ، وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة من الصدق والأمانة إلى عكس ذلك تماماً .

ويتجلى مزيد من صورة المفاجأة المخيفة لديه ﷺ ، في توهمه بأن هذا الذي رآه وغطه وكلمه في الغار قد يكون طائفاً من الجن ، إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسي) أي من الجان . ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذى الشياطين والجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة .

وقد كان الله عز وجل قادراً أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل : ملَك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس ولكن الحكمة الإلهية الباهرة اقتضت إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها ، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن الرسول عليه الصلاة والسلام سابقاً ولم يتصور الدعوة إلى شيء منه سلفاً .

ثم إن فيما ألهم الله خديجة من الذهاب به عليه الصلاة والسلام إلى ورقة بن نوفل وعرض الأمر عليه (وهو الشيخ الهرم العليم بشؤون النصرانية واليهودية) ، تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به عليه الصلاة والسلام إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله ، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير مارآه وسمعه .

أما انقطاع الوحي بعد ذلك ، وتلبُّثه ستة أشهر أو أكثر ، على الخلاف المعروف فيه ، فينطوي على مثل المعجزة الإلهية الرائعة . إذ في ذلك أبلغ الرد على مايفسر به محترفو الغزو الفكري الوحيَ النبوي ، من أنه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتفكير ، وأنه أمر داخلي منبعث من أعماق ذاته .

لقد شاء الله عز وجل أن يحتجب عنه الملَك الذي رآه لأول مرة في غار

حراء ، مدة طويلة ، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك ، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون الله عز وجل قد قلاه بعد أن أراد تشريفه بالوحي والرسالة ، لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه .

وراحت تحدثه نفسه ، كلما وصل إلى ذروة جبل ، أن يلقي بنفسه منها .. إلى أن رأى مرة أخرى الملك الذي رآه في حراء ، وقد ملأ شكله مابين السماء والأرض يقول : يامحمد إنك رسول الله إلى الناس . فعاد مرة أخرى وقد استبد به الخوف والرعب إلى البيت ، حيث نزل عليه قوله تعالى : ﴿ يـاأَيُّها المُدَّثِّر قُمْ فَأَنْذِر .. ﴾ [المدثر : ١ ـ ٢] .

إن هذه الحالة التي مر بها رسول الله ﷺ ، تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ، ضرباً من الجنون . إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لايمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال .

وإذاً فإن حديث بدء الوحي على النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح ، ينطوي على تهديم كل مايحاول المشككون تخييله إلى الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام ؛ يهدم كل ذلك بكل من برهاني اللزوم البيّن والقياس اليقيني الأولى ، القائمين على الاستقراء التام . فإنك لو ذهبت تفسر الوحي رغم ثبوت هذا النص ، بتلك التفسيرات الحدسية المتخيلة ، لاستلزم ذلك عدة نتائج كلها باطلة لايمكن أن يصدقها العقل .

نعم ، لك أن تقول : إنني لاأضع في حسابي ثبوت هذا النص وأمثاله (وإن كان ذلك مكابرة في تكذيب الخبر اليقيني) ولكننا نقول لك حينئذ : فمن أين ثبتت لك إذاً كلمة الوحي في حياته عليه الصلاة والسلام ؟! ولماذا تتعب نفسك في البحث عما تهواه من التفسيرات لها ، مادمت لاتصدق النصوص التي هي منبع هذه الكلمة وأساسها ؟

وربما عاد بعد ذلك سائل يقول : فلماذا كان ينزل الوحي عليه ﷺ ، وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملَك أحد منهم سواه ؟

والجواب أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار ، إذ إن وسيلة الإبصار فينا محددة بحد معين ، وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته . على أن من اليسير على الله جل جلاله ـ وهو الخالق لهذه العيون المبصرة أن يزيد في قوة ماشاء منها فيرى ما لاتراه العيون الأخرى ، يقول مالك بن نبي في هذا الصدد :

(إن عمى الألوان مثلاً يقدم لنا حالة نموذجية ، لايمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون ، وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لاتراها أعيننا ، ولاشيء يثبت عملياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون ، فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية)[1] .

ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يحمل نفس الدلالة على حقيقة الوحي وأنه ليس كما أراد المشككون ، ظاهرة نفسية محضة . ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يلي :

١ ـ التمييز الواضح بين القرآن والحديث ، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً ، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه ، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به ، بل لأن القرآن موحى به إليه بالألفاظ والحروف ذاتها بواسطة جبريل عليه السلام ، أما الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل ، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذي تلقاه من جبريل بكلامه هو .

---

(١) الظاهرة القرآنية : ص ١٢٧ .

٢ ـ كان النبي ﷺ يُسأل عن بعض الأمور ، فلا يجيب عليها ، وربما مرَّ على سكوته زمن طويل ، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال ، طلب السائل وتلا عليه مانزل من القرآن في شأن سؤاله . وربما تصرف الرسول ﷺ في بعض الأمور على وجه معين ، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عتب عليه أو ملامة له .

٣ ـ كان رسول الله ﷺ أمياً ... وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية ، كقصة يوسف ، وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليم ... وقصة فرعون ... ولقد كان هذا من جملة الحِكَم في كونه ﷺ أمياً : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بيَمِينِكَ إذاً لارْتابَ المُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

٤ ـ إن صِدْقَ النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك ، يستدعي أن يكون ﷺ ، من قبل ذلك ، صادقاً مع نفسه ، ولذا فلا بد أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل لعينيه أو فكره .

وانظر إلى هذه الآية التي جاءت تعليقاً على تأملاته ودراسته الأولى في محاولة لاستكشاف حقيقة ما قد ساوره من هذا الأمر : ﴿ فَإنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إلَيْكَ فاسْأَلِ الَّذينَ يَقْرَؤُونَ الكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ . لَقَدْ جاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴾ [يونس : ٩٤] .

ولذا روي أن النبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية لاأشك ولاأسأل .

ونلخص المنهج الذي سلكناه في فهم حقيقة الوحي في حياته عليه الصلاة والسلام ، بأننا نجد أنفسنا أولاً أمام خبر يقيني وصل إلينا بالتواتر طبق شروطه المعروفة ، ألا وهو خبر أن النبي ﷺ قد أوحي إليه .

وبذلك اجتزنا نصف المسافة إلى دراسة هذا الأمر ، ولما أردنا أن نحلل هذه

الظاهرة التي تأكدنا من تلبس النبي ﷺ بها ، وجدنا هذا الخبر نفسه يضعنا أمام وقائع وأحداث معينة .

فكان لابد من التصديق بذلك بعد أن صدقناه في إثبات أصل الوحي . ولما فرضنا (مع تصديق هذه الوقائع واعتمادها) أن يكون الوحي شيئاً مما يقوله الجاحدون بنبوته عليه الصلاة والسلام ، وجدنا هذه الفرضية تستلزم لزوماً بيناً نتائج باطلة لايقبلها عقل أي مفكر .

فالملهمون والشعراء لايقعون فريسة لارتعاد الفرائص واصفرار اللون عندما يمارسون شيئاً من التفكير ، ومحمد ﷺ لايعقل أن يكون منطوياً في وقت واحد على أدق صفات الأمانة والصدق وعلى أحط مظاهر التدجيل والكذب والتمثيل .

وإذا ظهر بطلان هذه النتائج في ميزان أي عقل ، ظهر بطلان الفرضية التي استلزمتها . وإذا بطلت تلك الفرضيات . ثبت مادلت عليه وقائع النصوص نفسها من أن الوحي لم يكن إلا تلقياً منه عليه الصلاة والسلام لحقيقة خارجة عن كيانه بعيدة عن إرادته ، لم يكن مستشرفاً لها ولامتوقعاً شيئاً منها ، وسنجد بعد ذلك عندما نتحدث عن القرآن وظاهرته أنه ليس إلا جبريل جاءه برسالة إلى البشر من عند الله .



ثانيًا

الأنبياء الذين بعثهم الله عزّ وجل

وكيفية الإيمان بهم

إذا أيقنت أن محمداً ﷺ قد أوحي إليه ، وأيقنت معنى الوحي بالبرهان العلمي القطعي الذي أوضحناه ، كان لا بد أن توقن بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك يعني أن تؤمن بأن القرآن كلام الله عز وجل أوحي به إلى رسول الله ﷺ .

فإذا آمنت بالقرآن أنه كلام الله عز وجل (وسيأتي مزيد من البحث عن القرآن وإعجازه وبرهان أنه من عند الله عز وجل) اقتضاك ذلك أن تعرف الأمور التالية ، بصدد الإيمان بالرسل والأنبياء :

أ - إن أول نبي أرسله الله تعالى مؤيداً بالوحي والأحكام هو : آدم أبو البشر عليه الصلاة والسلام ، وآخر الأنبياء هو محمد ﷺ فلا نبي بعده . فأما نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فهي ثابتة بصريح ما أخبرنا الله تعالى من قصة خلقه ثم إنزاله إلى الأرض وتكليفه بالهدى الذي سيأتيه من قِبَله له ولذريته (اقرأ قصة آدم في سورة البقرة والأعراف والكهف وطه) وأما أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء ، فقد ثبت ذلك بالنصوص الواضحة الصريحة في كتاب الله عز وجل وفي السنة المطهرة .

فمن نصوص الكتاب قوله جل جلاله : ﴿ ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسولَ اللهِ وخاتَمَ النَّبيِّينَ ، وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليماً ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

ومن نصوص السنة قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه : « مثلي ومثلُ الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاً وضِعَتْ هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

وهذا من البديهيات التي لا بد من الاعتقاد بها لبناء معنى الإيمان والإسلام في القلب .

ولا يخالف هذه الحقيقة ما هو ثابت بالأدلة من نزول عيسى عليه الصلاة والسلام قرب قيام الساعة (وسنتحدث عن ذلك في قسم الغيبيات إن شاء الله) ، فليس معنى ذلك أنه يأتي مؤيداً بوحي وشرع جديد من عند الله عز وجل وإنما هو يأتي منفذاً ومقرراً شريعة محمد ﷺ .

أي فليس مجيئه بوصف أنه نبي ينسخ نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . ولكنه يأتي مؤكداً ومقرراً لها ، ومنفذاً لشريعته ﷺ .

٢ ـ ذكر الله تعالى في كتابه أسماء خمسة وعشرين نبياً مرسلاً ، فهؤلاء يجب الاعتقاد بنبوتهم تفصيلاً ، ومعنى ذلك أنه لا يجوز للمسلم (إذا ما سئل عن واحد من هؤلاء الذين نص القرآن على نبوتهم) أن يجهله أو يجهل كونه نبياً . وهم : آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، أيوب ، ذو الكفل ، موسى ، هارون ، سليمان ، داود ، إلياس ، اليسع ، يونس ، زكريا ، يحي ، عيسى ، محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وهنالك أنبياء آخرون لم يتعرض القرآن لذكرهم تفصيلاً ولم يقص علينا شيئاً من أخبارهم ولكن أخبرنا عنهم في الجملة . فيجب الإيمان بهم أيضاً في الجملة ، أي أن نوقن بأن الله عز وجل أرسل رسلاً وأنبياءَ كثيرين إلى كل أمة وجماعة ، وفي مختلف الأمكنة والعصور .

ومن هنا تدرك مدى جهل من قد يتصور بأن الله عز وجل إنما خص منطقة الجزيرة العربية وما حولها بالرسل والأنبياء .. فالأنبياء الذين أرسلوا إلى هذه المنطقة من العالم هم بعض يسير فقط من مجموع الأنبياء الذين أرسلوا إلى مختلف الجماعات من الناس في شرق العالم وغربه .

وفي إثبات هذا يقول الله عز وجل : ﴿ .. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْليماً ﴾ [النساء : ١٦٤] .

ويقول الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فيها نَذيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى حَتَّى يَبْعَثَ في أُمِّها رَسولاً يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِنا ومَا كُنَّا مُهْلِكي القُرى إلاَّ وَأَهْلُها ظالِمونَ ﴾ [القصص : ٥٩] .

وعلى هذا ، فلا بد أن يكون عدد الأنبياء على مرّ العصور قد تجاوز الآلاف وقد حدد بعض العلماء عددهم بـ ١٢٤ ألفاً . ولكننا لا نرى كما قال جمهور العلماء ـ دليلاً من كتاب أو سنة أو أثر صحيح متبع يحملنا على التزام تحديدهم بهذا العدد أو بغيره . بل إن التزام ما جاء به القرآن والتأدب بأدبه يقتضينا أن نلتزم في ذلك جانب الإيمان الإجمالي تحقيقاً لمقتضى قوله عز وجل : ﴿ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ .

ولا يُؤمنُ في ذكر العدد ـ كما قال النسفي ـ أن يُدْخل فيهم من ليس منهم أو يُخرج منهم من هو فيهم[1] .

٣ ـ من أهم مظاهر الفرق بين نبوة نبينا محمد ﷺ والأنبياء السابقين أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام بعث إلى الناس كافة ، كما قال في الحديث

(١) انظر العقائد النسفية وشرحها للسعد : ص ٤٤٦ .

الصحيح الذي رواه مسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأُحلّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحد قبلي وجُعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة »[1] .

٤ً - ينبغي أن تعلم أن النبوة التي أكرم الله بها الأنبياء ، حقيقة واحدة لا تتفاوت ولا تختلف ما بين نبي وآخر . فلا يجوز التفريق بين نبوة نبي وآخر ، من هذه الناحية . وهو المقصود بقوله جل جلاله : ﴿ آمَنَ الرَّسولُ بِما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنونَ . كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لا نُفَرِّقُ بينَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] . وهو المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تخيِّروني على موسى ، ولا تفضلوني على الأنبياء » .

أما من حيث المنزلة - بقطع النظر عن معنى النبوة التي هي قدر مشترك بين الجميع - فلا ريب أن أفضل الخلق على الإطلاق هو نبينا ﷺ وهو مما أجمع عليه المسلمون قاطبة ، وذلك لعموم بعثته إلى الناس كلهم ، وفي بيان ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر » وفي بيان ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، إذ لا شك أن خيرية هذه الأمة تابعة لخيرية نبيها ﷺ .

٥ً - لا بد من الإيمان بالكتب التي بعث الرسل بها إلى أقوامهم وجماعاتهم . نؤمن بها إجمالاً ، بالنسبة لما لم يأت فيه تفصيل وذكر أسماء . ونؤمن بها تفصيلاً بالنسبة لما ورد تفصيل في شأنه كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف التي أنزلت على بعض الرسل كإبراهيم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) رواه مسلم في باب المساجد ورواه البخاري في باب التيم والمساجد .

ومعنى الإيمان بها ، الاعتقاد بأنها وحي من الله عز وجل للأقوام الذين أرسل الله إليهم الرسل الذين بعثوا بها . وهذا لا يستلزم الاعتقاد بأن مسمى هذه الكتب اليوم لا يزال حقاً من عند الله عز وجل ، بل الواقع اليقيني أن التبديل والتحريف قد شاع كل منهما في هذه الكتب ، مع تطاول الزمن ، وبفعل كثير ممن استغلوا دين الله عز وجل لأغراض كثيرة مختلفة ؛ وخير مثال تاريخي واضح في هذا الصدد ، ما فعله بولس بالنسبة للإنجيل ، من تلاعب به وتغيير بحقائقه وإتلاف لما لم يعجبه منه وإقحام ما رأى إقحامه فيه بمقتضى رأيه الكاسد واختراعه الباطل .

كما أن ضرورة الإيمان بهذه الكتب لا تستلزم ضرورة الإيمان بأن كل مافي مضمونها من الأحكام التشريعية يجب الأخذ به وتطبيقه بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام . ذلك أن الجانب التشريعي الذي في هذه الكتب قد نسخ بالشريعة الإسلامية كما تعلم ، فلا يطبق شيء منه ولا يعتمد حتى ولو لم يكن مما دخله التحريف والتبديل .

والخلاصة أن معنى ضرورة الإيمان بالكتب السماوية أنها كتب موحى بها في الأصل من الله عز وجل ، وأنها تحتوي على عقيدة التوحيد الخالص الباقية مدى الدهر ، كما تحوي أحكاماً تشريعية ـ قلّت أو كثرت ـ ولكن معظمها منسوخ بما قد جاء بعدها . وتفصيل ذلك في بيان البند السادس والأخير :

٦ ـ إن شريعة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السماوية السابقة : والمقصود بالشرائع ـ كما تعلم ـ تلك الأحكام العملية المتعلقة بالعبادات أو المعاملات المختلفة . فلا يعدّ الإيمان بنبوه سيدنا محمد ﷺ إيماناً كافياً حتى يضاف إليه الإيمان بأن ما بُعث به من الشرع ناسخ لكل ما كان قبله من شرائع الأنبياء السابقين .

وهذه الحقيقة واضحة لا غبار عليها فيما يتعلق بالمسائل والأمور التي عرض

الكتاب أو عرضت السنة لحكم جديد لها ، فهو ناسخ لما كان من قبله . أما المسائل والأحكام السابقة التي لم يأت من الكتاب أو السنة أي بحث فيها ، فقد وقع الخلاف فيه عند علماء التشريع . فبعضهم قال : إن شرع من قبلنا يعتبر شرعاً لنا ما لم يرد ما ينسخه ، والبعض قال : هو ليس شرعاً لنا مطلقاً ، إذ إن مجرد بعثة محمد ﷺ يعتبر نسخاً لمجموع الشرائع السابقة .

ومكان تحقيق هذه المسألة علم أصول الفقه . فلا نطيل البحث فيها هنا . ومن هنا صح لك أن تقول : (الشرائع السماوية) ، لتعددها واختلافها . ولا يصح لك أن تقول : (الأديان السماوية) لعدم تعددها أو تخالفها ، إلا إذا أطلقت الدين على الشريعة مجازاً .

أما شريعة سيدنا محمد ﷺ فلا ينسخها أي شرع ، إذ لا عبرة بالشرع إلا إذا كان وحياً من عند الله عز وجل ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء ، فلا يتصور مجيء أي شرع ناسخ له .

ثم إن شريعة نبينا ﷺ فيها ـ كما تعلم ـ ما قد نسخ بعضه بعضاً لحِكَم باهرة لا مجال لشرحها هنا ، ومكان تفصيل الأمر في ذلك في علم أصول الفقه .

☆ ☆ ☆

ثالثاً

الصفات الضرورية للأنبياء

ونقصد بصفاتهم ما يشمل شرائط النبوة التي يجب أن تتوفر فيهم كما يعبِّر بذلك أكثر علماء الكلام إذ الصفات الضرورية والشرائط شيء واحد لا فرق بينهما .

وجملة ما يجب للأنبياء أربع صفات :

الصفة الأولى : الذكورة :

فلا تكون النبوة والرسالة لأنثى ، واعلم أن دليلنا على ذلك هو كل من الواقع الذي دل عليه إخبار الله تعالى عن الرسل والأنبياء الذين بعثهم إلى الناس على مر الزمن ، وصفة الكمال التي يجب توفرها للرسل والأنبياء ، وهي تنافي الأنوثة كما هو معلوم ، ولم يقع خلاف عند جمهور المسلمين في اشتراط هذه الصفة .

واعلم أنه لا يتنافى مع هذه الحقيقة ، إسناد الوحي في القرآن إلى أم موسى في مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنا إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعيه ... ﴾ [القصص : ٧] الآية ، ولا يتنافى معها أيضاً إسناد الأمر الإلهي إلى أم عيسى عليه الصلاة والسلام في قوله جل جلاله : ﴿ فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاّ تَحْزَني ... ﴾ [مريم : ٢٤] .

إذ الوحي المسند إلى أم موسى إنما هو بمعنى الإلهام ، وهو قدر مشترك للناس كلهم ، وقد أسند الله الوحي إلى النحل ، فقال : ﴿ وَأَوْحى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذي مِنَ الجِبالِ بُيوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ ومِمّا يَعْرِشون ﴾ [النحل : ٦٨] والأمر المتجه إلى أم عيسى قد يكون نداء من ملك مثل جبريل ، وهو بمجرده لا يعني النبوة ولا يستلزمها .

الصفة الثانية : الأمانة :

ونعني بها الصدق وحفظ الله لظواهرهم وبواطنهم عن التلبس بأي منهي عنه ، إذ لو لم يكونوا كذلك لكانت بعثتهم إلى الناس عبثاً ، وهو محال على الله عز وجل كما قد علمت .

وهذا يعني أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الكذب خصوصاً فيما يتعلق بأمر الشرائع وتبليغ الأحكام وإرشاد الأمة . أما عمداً فبالإجماع ، وأما سهواً فعند جمهور المسلمين .

الصفة الثالثة : العصمة عن الوقوع في الذنوب :

وفي هذه الصفة تفصيل يجب الوفاء به ، وهو أن الذنوب تختلف في الخطورة . فأما أخطرها وهو الكفر ، فهم معصومون عنه قبل النبوة وبعدها بالإجماع ، وأما تعمد ارتكاب الكبائر فهو أيضاً محال عليهم قبل النبوة وبعدها بالإجماع .

وأما الصغائر التي لاتخل بالمروءة ولاتستلزم خسة ، فهي محل خلاف وبحث عند العلماء ، والبحث فيه داخل في الأمور الاجتهادية التي لم تنهض لها أدلة قاطعة تقطع دابر الخلاف فيها ، وإن كان جمهور أهل السنة والجماعة يميلون إلى القول بامتناع الصغائر في حق الأنبياء خصوصاً بعد البعثة ، ومن أجل أننا التزمنا في هذا الكتاب أن لانفصّل القول إلا في اليقينيات التي قامت على براهين قاطعة ، مما يكفر جاحدها ـ لانرى لزاماً أن نخوض في شيء من الخلافيات الفرعية التي يجوز للمجتهد أن يجنح فيها إلى أكثر من حكم واحد نظراً للأدلة المحتملة ، وحسبك أن تعلمَ وتعتقد بأن الأنبياء معصومون عن الكفر والكبائر قبل البعثة وبعدها قطعاً ، ومعصومون عن الصغائر فيما ذهب إليه الجمهور .

واعلم أن الخطأ في الاجتهاد ليس داخلاً في شيء من الذنوب التي ثبتت عصمة

الأنبياء عنها إذ الاجتهاد عبادة يثاب عليها المجتهد أصاب أو أخطأ ولكن ثبت أن الأنبياء لايقرّون على الخطأ في الاجتهاد ، بل لابد أن يأتيهم الوحي ببيان ماهو الأتم والأصوب أو الأكمل في علم الله عز وجل . ومما لايخفى أن هذا التصويب الذي يأتي به الوحي دليل من أقوى الأدلة على نبوة النبي ﷺ . وعلى أنها ليست أفكاراً داخلية أو شعوراً وجدانياً كما يتصوره المشككون والمنافقون .

وعلى كل فإن خطأ النبي في الاجتهاد لايسمى خطأ إلا بالنظر لعلاقته ﷺ بربه . أما بالنظر إلى الناس فلا يسعهم إلا اتباعه في كلا الحالين . أي إن كل مايأتيهم به النبي ﷺ صحيح في حقهم يجب قبوله واتباعه .

الصفة الرابعة : كمال العقل والضبط والعدالة :

إذ هي من مستلزمات أداء الرسالة التي كلف بتبليغها ، ولو أمكن أن يكون الرسول ناقصاً في عقله أو ضبطه ، أو عدالته مع تكليفه بتبليغ الرسالة المنوطة به ، لكان ذلك متنافياً مع أصل الرسالة ، وهو من العبث المحال على الله عز وجل .

واعلم أن هذه الصفات الأربع التي يجب توفرها في الرسول والنبي ، دلَّ عليها كل من برهاني السمع والعقل ، أما السمع فما سمعناه في القرآن وصحيح السنة من صفات الرسل والأنبياء الذين بعثوا على مر الأزمنة والدهور ، وأما العقل فما قررناه من استلزام أداء الرسالة الموكولة إليهم ، لهذه الصفات وارتباطه بها .

وإذا تبين لك أن هذه هي الشرائط والصفات التي يجب أن تتحقق في الرسل والأنبياء ، أيقنت أنهم ليسوا من وراء ذلك إلا بشراً كسائر الناس ، يأكلون ويشربون وينكحون ويمشون في الأسواق ، وتعتلج في نفوسهم الشهوات الإنسانية كلها ؛ يجوعون فيشتهون الطعام ، ويعطشون فيتوقون إلى الشراب ، ويتعبون فيميلون إلى الراحة ، ويُؤْذَون فيشعرون بألم الأذى كبقية الناس ، تتعرض قلوبهم

لكل ما يتعرض له قلب الإنسان من مشاعر الحب والكراهية والبغض والرحمة ، مادام أن شيئاً من ذلك لا يستوجب إثماً أو يستلزم شيئاً من خلاف الصفات الأربع التي ذكرناها ، وتتعرض أجسامهم لكل ما لم يكن منفراً من الأمراض والأسقام والأوجاع ، ثم تنتهي إلى مثل ما تنتهي إليه أجسام البشر كلهم من الموت وانقطاع جذوة الحياة عنها .

ولا ينبغي للباحث العاقل أن يجد في شيء من هذا منقصة تدعو إلى النظر : لأن الله تعالى اقتضت حكمته أن يتخذ من البشر أنفسهم صفوة يجعل رسالته إلى الناس عن طريقهم ، وليس من مستلزمات النبوة التي يتصف بها أحد الناس أن تغير شيئاً من فطرته وطبائعه البشرية ، بل اقتضت حكمة الله تعالى أن يظل كما هو بشراً في كل تصرفاته وطباعه ومشاعره ، باستثناء ما ينبغي أن نلاحظه من توفر الصفات التي ذكرناها في حقهم .

وفي بيان هذه الحقيقة يقول الله جل جلاله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

وفي بيان ذلك أيضاً يقول بأسلوب آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ، قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٤ ، ٩٥] .

أمر زواج الرسول ﷺ عامة وزواجه بزينب بنت جحش خاصة

أولاً ـ مسألة زواجه ﷺ بصورة عامة :

أوضحنا لك هذه الحقيقة المعروفة في الجليِّ من آيات الكتاب المبين لكي يتبين بعد ذلك عجيب ما يقع فيه بعض الباحثين ، من تصور أن زواج الرسول ﷺ بالنساء اللاتي تزوج بهن ، مشكلة تحتاج إلى بحث ، وأنه يخالف (في تصورهم) مقام النبوة والعصمة اللتين أكرم الله بهما نبيه .

فما معنى أن ذلك يخالف مقام النبوة والعصمة ؟.. هل يعدّ مافعله رسول الله ﷺ من إقدامه على الزواج من نسائه اللاتي تزوج بهن إثماً من الآثام المحرمة ، أم خدشاً لشرط الأمانة أو الصدق أو النزاهة في حياة الأنبياء ؟.. وإذا فرضنا أنه إثم محرم ، فما هو الدليل على أنه إثم ، وهل ثمة مصدر للتشريع الذي يحوي عامة أحكام الحلال والحرام والفرائض والواجبات غير القرآن الذي بلغنا بواسطة محمد ﷺ نفسه ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن نصفه بالحرام وقد أقره الله عز وجل في قرآنه بسورة الأحزاب على زواجه من كل من تزوج بهن ، وأنبأه أن له أن يؤوي من يشاء منهن إليه ويرجئ من يشاء ويطلق من يشاء منهن . وأوضح بذلك أن الله قد اختص رسوله ﷺ بحكم في الزواج لم يبحه لعامة الناس من دونه ، وقال له بصدد كل ذلك بصريح القول :

﴿ يا أَيُّها النَّبيُّ إنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبناتِ عَمِّكَ وَبنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبنَاتِ خَالِكَ وَبنَاتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، لِكَيْ لايَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً . تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ، فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، واللهُ يَعْلَمُ مافي قُلُوبِكُمْ ، وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ، لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴾ [الأحزاب : ٥٠ ـ ٥٢] .

فكلام من هذا الذي يخاطب به محمدٌ عليه الصلاة والسلام ..؟

إن كنت تجتزئ من قراءة كتابي ، هذه الفقرات فقط ، ولم تفرغ بعد من الإيمان بالله عز وجل ، والإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وبأن القرآن كلام

الله المنزل عليه ـ فلا ينبغي أن تبحث في هذه المسألة الفرعية وأنت لم تفرغ من فهم أصولها بعد ، ويجب أن تعلم بأن المشكلة التي في رأسك ليست في الحقيقة مسألة زواج النبي ﷺ ولكنها مشكلة عدم الإيمان بوجود الله وبنبوة محمد ﷺ وبأن هذا القرآن كلام الله . وخير لك ألا تغالط نفسك فتطوي مشكلتك الكبرى عن النظر والبحث وتذهب تسأل في هذا الأمر الفرعي الذي لو ظللت تسأل عنه مدَة حياتك كلها لما أقنعك فيه أي جواب ، بل عد إلى النظر في وجود الخالق عز وجل ثم في دلائل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وفيما سنتحدث فيه قريباً من معجزاته المختلفة ومايتعلق بها ، فإذا فرغت من الإيمان بالله عز وجل ، وثبتت لديك نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وآمنت الإيمان الصادق بأن القرآن ماينبغي أن يكون كلام محمد ﷺ وإنما هو كلام ذاك الذي خلق محمداً ثم اختاره من خلقه فخصه برسالته وبكلامه ، فلن تجد عندئذ في قصة زواجه عليه الصلاة والسلام أي مشكلة تحتاج إلى بحث .

إن الله عز وجل اختص محمداً ﷺ بطائفة من الأحكام الخاصة به ، فقد فرض عليه أن يقوم من الليل يتهجد ولم يفرض على أحد من الناس ذلك ، وحرم عليه أخذ الزكاة والصدقات ولم يحرم على أحد من المستحقين ذلك ، وحجز مايملكه من المال عن الإرث من بعده ، ولم يحجز مال أحد غير الأنبياء عن ذلك ، وأباح له أن يتزوج من النساء العدد الذي تزوج بهن مجتمعات ولم يجز لغيره من الناس إلا مثنى وثلاث ورباع .. وحرم على الناس نكاح أزواجه من بعده ولم يحرم ذلك بالنسبة لغيره من النساء . فأي إشكال في أن يختص الله بشيء من أحكامه أحداً من عباده ..؟

نعم كان الإشكال قائماً ، لو أنك لمست في حياة النبي ﷺ الزوجية مايدل على أنه قد أسفّ لحاقاً بشهوة جنسية أو انحراف أو ارتكب محرماً أو مخلاً بالآداب من أجل ذلك . فهل لمست في حياته ﷺ شيئاً من هذا ؟

هل وقعت في شيء مما صح من سيرته وسنته وأخباره على مايدلّ على أنه كان شهوانياً ضحى بشيء من القيم والواجبات في سبيل شهواته ؟

إن كل يوم من أيام حياته ، سواء منها ماكان قبل البعثة وبعدها ، بيان صريح واضح ينطق بأن النبي ﷺ منزه عن ذلك أتم التنزيه وأنه مع ذلك إنسان فيه كل ماقد فطر عليه الإنسان من الطبائع البشرية الأصيلة ، وفيه مع ذلك كل ما يمكن أن تتجمع في الإنسان من الفضائل والمزايا الرفيعة .

الرجل الشهوان ، لايبقى إلى سن الخامسة والعشرين من عمره عفيفاً نقي الإزار في مجتمع لايعرف العتاب أو اللوم على أي انحراف من هذا القبيل ، تموج فيه الرذيلة وتستجيب لمن شاء بثمن زهيد من الرغبة فقط . وإذا تزوج هذا الرجل الشهوان بعد ذلك فإنه لايتزوج من امرأة تقارب من الكبر ضعف عمره وقد تزوجت من قبله مرتين وهو لو شاء لوجد ماشاء من الأبكار من حوله بما شاء من المال دون أن يلقى في ذلك شططاً أو يحمل ما لا يطيق ، والرجل الشهوان لايبقى حبيساً على زوجته هذه بعد ذلك إلى أن يدخل في مدارج الخمسين من عمره .

(وأنت تعلم أن محمداً ﷺ لم يتزوج من غير خديجة إلا بعد وفاتها بأمد غير يسير وكان قد أربى على الخمسين من عمره) والرجل الشهوان لايجرد نساءه اللاتي يتزوجهن عن أبسط الزينة ولايحرمهن من أقل ماتتمتع به بقية النساء من مظاهر النعيم .

أفيكون محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو صاحب هذه الصفات ، بإجماع المؤمنين والكافرين به على السواء ، على الرغم من كل هذا رجلاً لاحقاً وراء شهواته منحرفاً إلى غير المباح من ملاذه ؟!

إن الذي يقول هذا ، ياصاحبي المفكر ، ليس إلا رجلاً سبق أن امتلأت

نفسه حقداً على النبي وعلى نبوته وعلى ما أثمرته دعوته من ثمار السعادة للإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها ، فهو يبحث في مطعنه هذا عن متنفس لحقده السابق الذي لاعلاقة له في الحقيقة بشيء من الزواج وأمره . وأنت خبير أن بحوثنا هذه كل ماتملكه هو تنبيه العقول إلى اتباع الحق ، وليس منها أي جدوى في شفاء النفوس من الحقد .

☆ ☆ ☆

ثانياً ـ مسألة زواجه من زينب خاصة :

وكما أنه لا إشكال في أمر زواج الرسول ﷺ ، بالنسبة لمن كان مؤمناً بالله ورسوله ، وبأن القرآن كلام الله ـ فكذلك لا إشكال في قصة زواجه من زينب رضي الله عنها بعد طلاقها من زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، لمن كان مؤمناً هذا الإيمان .

زيد بن حارثة ، كان ـ كما تعلم ـ متبنّى رسول الله ﷺ ، وكان الناس يدعونه : ابن محمد ﷺ وكان التبني عادة شائعة في المجتمع الجاهلي ، وكان له عندهم من النتائج والثمرات كل ماتستحقه البنوّة الحقيقية . وكان مشيناً جداً ، بسبب ذلك ، أن يتزوج الرجل مطلّقة متبناه ، كانوا ينظرون إلى ذلك النظرة ذاتها التي ينظرونها إلى من يتزوج من بنته . والرسول الذي كان يحب متبناه هذا حباً شديداً ، زوَّجه من إحدى قريباته : زينب ، باقتراح واختيار منه ﷺ ، فتزوجها ودخل بها ، ومضت على ذلك مدة .

ويريد الله جل جلاله أن يلغي عرف التبني هذا من المجتمع الإسلامي ، بكل مايتبعه من العادات والتقاليد الراسخة جذورها في المجتمع العربي منذ أحقاب بعيدة . ومن عظيم حكمة الله وتدبيره أن أقام أحكامه التشريعية المتدرجة على أحداث وقعت ومشكلات واقعية طرأت ؛ ليكون كل حكم منها موصولاً بجذور

نافذة في تربة المجتمع وكيانه ، فلا يعود إليه بالتأثير شيء من عواطف العادات والتقاليد البائدة . فما السبيل ـ وهذه هي سنة الله في إقامة تشريعه ـ إلى نسخ عادة التبني وملحقاتها نسخاً لامردَّ إليه ؟

السبيل الذي شاءه الله عز وجل : أن يتعكر صفو الحياة بين زيد وزوجته ، فيطلقها . وأن يقذف الله جل جلاله في قلب محمد ﷺ استعداداً للزواج منها ، ثم أن يوحي إليه الأمر بتزوجها في آية صريحة واضحة من القرآن ، فيتزوجها ﷺ فتشيع القصة في العرب ، وتشيع معها الآية التي تبلِّغ حكم الله عز وجل بإبطال هذا العرف الجاهلي وإلغائه عن الاعتبار .. فأي عتب لك على هذا السبيل الذي اقتضته حكمة الله ؟ بل أقول : أي سبيل عندك أفضل من هذا ، لإبطال عادة جاهلية أصيلة في المجتمع الجاهلي إبطالاً لا يترك أي حنين إليها ولايترك أرضاً تصلح لأن تعود فتُغرس فيها ؟ لا أعتقد أن عاقلاً يناقش في هذا الحق بكلمة واحدة .

وهذا ماحدث : فقد تعكر صفو العيش بينهما . وكان زيد يشكو منها غلظة القول وعصيان الأمر والأذى باللسان والتعظم بالشرف ، وأقبل مراراً يستأذن رسول الله ﷺ في طلاقها ، فيقول له عليه الصلاة والسلام في كل مرة : أمسك عليك زوجك واتق الله . وربما أبصرها خلال هذه المدة ، ذات يوم ، فتحرك قلبه نحوها ، فأشاح بوجهه قائلاً بينه وبين نفسه : « سبحان الله مقلب القلوب » فقد ذكرت روايات شيئاً من هذا القبيل ، ولست أدري ماهو هذا الذي يدعو إلى التحرج من قبول هذه الرواية أو استشكالها أو الوقوف عندها[1] . ماذا من

(١) نقول هذا الكلام لمن رأى أن يتمسك بهذه الرواية التي أشرنا إليها ، ويعدّها رواية صحيحة ، اتباعاً لما رواه الطبري والنيسابوري وذكره البيضاوي وابن الجوزي لنوضح له أنها ـ على فرض أنها صحيحة ـ لا تصلح معتمداً لبث أي نقيصة في جانب رسول الله ﷺ .
وقد ضعفها جمع كبير من علماء الحديث وأئمة التفسير ، ومنهم القرطبي وابن كثير ، قالوا : والرواية الصحيحة المعتمدة في ذلك هي ما روي عن علي بن الحسين أن النبي ﷺ كان قد أوحى =

الشبهة أو الإشكال في أن يريد الله أن يزوج رسوله من مطلقة متبناه لحكمة تشريعية معينة ، فيهيء لذلك سبيله الإنساني المعروف ؟! بل دعني أقول لك : ماذا في أن يتحرك قلب رسول الله ﷺ بالميل إليها ؟ ومتى كان ميل القلوب فعلاً يتعلق به حكم من أحكام الشريعة وقد علمت الدنيا بأسرها أنَّ الميل القلبي من الانفعالات القسرية وليس من الأفعال الكسبية والاختيارية ؟ على أني أذكر مرة أخرى أن رسول الله ﷺ كان قد رآها قبل أن يزوجها من زيد ، ولو أن المسألة كانت مسألة طمع فيها لما منعه أي مانع من أن يتزوج هو منها دون أن بضع بينه وبين هذا الزواج عقبة كأداء من الأعراف الجاهلية .

فلما طلقها زيد بعد أن نفذ صبره على احتمال ماكان يلقى منها ، نزل الوحي على رسول الله ﷺ بهذه الآية :

= الله إليه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها . فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب وأنها لاتطيعه وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له على جهة الأدب والوصية : « اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك » وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه وعاتبه عليه الباري جل جلاله ، بقوله وتخفي في نفسك ماالله مبديه .

ونحن ، فقد آثرنا أن لا نضرب صفحاً عن الرواية الأخرى التي ساقها الطبري وآخرون ، كما يرى البعض ، بل أحببنا أن نكشف عن عصمة سيدنا رسول الله ﷺ عما يرميه به طائفة من المستشرقين وأرباب الغزو الفكري ، حتى على فرض صحتها ، فهي لاتزيده ﷺ ـ على كل حال ـ إلا رفعة في الخلق وسمواً في الجانب . ولامسوغ لبيان عصمة النبي ﷺ على أساس تجاهل هذه الرواية أو القطع ببطلانها ، فأنت بذلك تشعر السائل أن الطبري ومن جرى مجراه ممن لم يضعف هذه الرواية لم يبالوا أن يلحقوا النقيصة بخلقه عليه الصلاة والسلام . وحاشاهم عن ذلك . بل إن من شأنه أن يزيد في شكوك أصحاب الوساوس وضعاف الإيمان . أولئك الذين لايعدمون وسيلة يطلعون منها على هذه الرواية في مصادر قد لاتضعفها ولاتتحدث عن بطلانها . فيمضي أحدهم يلحق النقيصة برسول الله عليه الصلاة والسلام زاعماً أنه يسير في ذلك على مذهب الطبري وأمثاله ..!!! أو زاعماً ـ بخبث ـ أنه يلحق النقيصة برسول الله ﷺ على احتمال ضعيف ..!!

ومن أخطر آفات هذا التجاهل أنه يقتلع الثقة بالداعية من نفوس هؤلاء الناس ، إنه يجعلهم يتصورون أن أمر هذا الدين بيد « مشايخه » فإذا أعجبهم شيء منه دعموا الأحاديث الواردة فيه ، وإذا لم يعجبهم أغلقوا طريق النقاش فيه بالتضعيف أو الإنكار أو ادعاء الوضع .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لايَكُونَ على المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ في أَزْواجِ أَدْعِيَائِهِمْ إذا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

والآن لابد من أن تجيبني على هذين السؤالين :

أي ضرورة هذه التي تدعو محمداً ﷺ (وإنَّ سمعته لعزيزة عليه) إلى أن يغامر فيقتحم عادة من أهم العادات العربية ويتزوج مطلقة متبناه غير مبال بكلامهم وتقريعهم ، لولا أن حكماً إلهياً قد ساقه إلى مافعل ، بل إن الرسول - كما تدل الآية وكما يدل الوضع الإنساني - كان يُقدم على تنفيذ هذا الأمر الإلهي وهو مشفق مما قد يلقاه من حديث الناس عنه عندما يفاجؤون به وهو مقبل على هذا الأمر المشين جداً في أعرافهم ؟!

أي ضرورة هذه التي تدعوه إلى أن يُدرج هذه الآية في القرآن فيقرأها الناس كلهم ، وهي من أول حرف فيها إلى آخر حرف عتاب للرسول شديد ، وكشف عما يخفيه في نفسه من معرفة أنه سيتزوج زينب بعد تطليق زيد لها ، أو من الميل القلبي إليها ؟ ثم هي بيان لما يخشاه من كلام قومه إذا أقدم فتزوج مطلقة متبناه . وإيضاح لحكم الله الذي لابد أن ينفذ فيه - نقول : أي ضرورة تدعو سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام إلى أن يُدرج هذه الآية في القرآن ، ويسجلها على مر الدهر كله ، لو لم يكن هذا القرآن كلام خالقه الذي لايسعه أن يستخفي على حرف واحد منه ؟! من أجل هذا تقول عائشة فيما يرويه مسلم وغيره : (لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية) .

وأنا ، فلعمري ماوجدت في حوادث السيرة النبوية أدلَّ على نبوته ﷺ من هذه الحادثة ، وما وجدت آية في القرآن أدل على أن القرآن كلام الله الذي

لادخـل لمحمـد ﷺ في حرف واحــد منــه ، من الآيــة التي نـزلت بسبب هــذه الحادثة . وبوسع أي عاقل أن يبصر هـذا الـذي أراه ولكن لاحيلـة لنـا ، كما قلت لك ، في أن نعالج بشيء من هذه الحقائق حقد الحاقدين ، أو عصبيـة المتعصبين ، أو غيظ المغتاظين . ونشهد أن لا قِبَلَ لنا بشيء من ذلك إلا أننـا نسـأل الله تعـالى لأنفسنـا ولجميـع النـاس التـوفيـق إلى التحرر من كل سلطـان إلا سلطــان العقـل وحده ، وإلى معرفة أن قطار العمر الذي يغذّ السير بنا مسرعاً إلى الموت لا يغنيه شيئاً عن الموت أو عما وراء الموت أن نحقـد ونتعصب ونسوق الفكر تحت سيـاطهما إلى مـا يشـاءه سلطـانهما ، ولكن الـذي يغنيـه في ذلـك أن نعرف الحق الـذي هـو الحق ، ثم نتمسك به لا لشيء إلا لأنه الحق .



رابعًا

المعجزات

تعريفها وضرورة الاعتقاد بها وموقف العلم منها

تعريفها : هي كل أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين له ، على وجه يبين صدق دعواه .

فقولنا : أمر خارق للعادة ، يوضح أن المعجزة إنما تخالف العادة والمألوف ولا تخالف العقل والإمكان . وقولنا : يظهر على يد مدعي النبوة ، إخراج للخوارق التي قد تكون لبعض المقربين والصالحين مما يسمى بالكرامة . وقولنا : عند تحدي المنكرين احتراز عما قد يقع من ذلك مصادفة ، لا على وجه التحدي وإظهار صدق النبوة فهي عندئذ من نوع الإكرام الإلهي . غير أنه لا يشترط التصريح بالتحدي بل تكفي قرائن الأحوال . وقولنا : على وجه يُظهر صدق دعواه إخراج للخارقة التي تأتي تكذيباً لدعوى النبوة ، كما إذا تكلم الجماد فنطق بتكذيبه[1] .

وإذا علمت أن المعجزة إنما هي من خوارق العادة ، أدركت أن العقل لا يحيل إمكان وقوعها ، ذلك لأن استمرار الظواهر الطبيعية على نسقها المألوف الذي نراه ليس شيئاً ضرورياً يفرضه العقل فرضاً ، وإنما هو مما نسجته العادة وتكوَّن بفعل الأسباب الجعلية . وما يلحق هذه الخوارق من التعجب منها أو الاستنكار لها إنما هو بسبب غرابتها عن المشاهدة والمألوف .

---

(١) انظر الجلال الدواني على العقائد العضدية : ٢ / ٢٧٧ .

حكم الاعتقاد بها :

يجب على المسلم أن يعتقد بأن الله عز وجل قد جهز أنبياءه ورسله الذين أرسلهم إلى الناس بمعجزات تبين صدق دعوتهم وتوضح للناس ارتباطهم بالله جل جلاله وأنهم مؤيدون به . وما من نبي إلا وقد أكرمه الله عز وجل بمعجزة نبهت الناس إلى ضرورة الإيمان به والتمسك بهديه وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ :

« ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إليَّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .
والآيات القرآنية التي دلت على تأييد الله أنبياءه بالمعجزات المختلفة كثيرة ومعروفة لا حاجة لنا إلى سردها .

معجزات سيدنا محمد ﷺ :

والذي يعنينا تفصيله هنا ، هو البحث في معجزات نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وبيان وجوب الاعتقاد بها ، وأهميتها في كشف معنى النبوة وحقيقتها في حياته عليه الصلاة والسلام .

وأول معجزاته التي أيده الله عز وجل بها إنما هو معجزة القرآن :

وهو أبلغ وأعظم المعجزات التي أيد الله بها رسله وأنبياءه كافة . ذلك لأنها معجزة باقية على مر الزمن . ناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام في كل زمان ومكان ، على حين أن سائر المعجزات الأخرى التي أيد الله بها سائر أنبيائه قد انتهت وذهبت وأصبحت تاريخاً وأخباراً تذكر .

والحكمة في ثبوت هذه المعجزة لرسالة سيدنا محمد ﷺ دون الأنبياء والرسل السابقين أن رسالة سائر الأنبياء من قبله عليه الصلاة والسلام كانت موقوتة ببعثة من يأتي من بعده . أما رسالة نبينا محمد ﷺ فباقية إلى يوم القيامة ، فاحتاجت إلى معجزة تشهد لها خلال هذه العصور كلها .

أما وجوه إعجاز القران فكثيرة ، غير أنها تنقسم في مجموعها إلى جانبين ، جانب يعم الناس كلهم وجانب يخص العرب وحدهم .

أما الجانب الذي يعم الناس كلهم ، فيتمثل في إخباره عن المغيبات التي لم تكن قد وقعت بعد ، ثم وقعت كما أخبر ، وعن الأمم الماضية وقصصها . كما يتمثل في تشريعه الشامل الدقيق الصالح لكل زمان ومكان مع ما عرف من كونه عليه الصلاة والسلام أمياً لم يقرأ كتاباً ولا خطه بيمينه ، فضلاً عن أنه لم يدرس قانوناً ولا تشريعاً ، ولا عُنِيَ بشيء من أمر النظم الاجتماعية المعروفة إذ ذاك عند الفرس أو اليونان ؛ وفيما ينطوي عليه من القواعد والبحوث العلمية التي لا يزال الباحثون اليوم في طور اكتشافها والوقوف عليها .

فهذه الوجوه من إعجاز القرآن يستوي في فهمها العرب وغيرهم من كل من كانت لديه ملكة عقلية سليمة .

وأما الجانب الذي يخص العرب فقط ، فهو ما ينطوي عليه القرآن من النظم البديع الذي لا نجده منسجماً مع النثر والمعهود من أساليبه وطرائقه ، ولا متفقاً مع الشعر والمعروف من بحوره وأعاريضه ، مع بلاغة سامية عجيبة ، ومع أسلوب غريب يستوي في الإفادة منه كل فئات الناس من عوامّ ومثقفين وأرباب اختصاص ، حتى عجز جميع أرباب البلاغة والبيان منذ عصر النبوة إلى اليوم عن الإتيان بمثله على الرغم مما فيه من التحدي والاستنهاض بأساليب متكررة مختلفة إلى القيام بمحاولة ذلك .

وبيان ذلك أن العرب سألوا محمداً ﷺ أن يأتيهم بآية تدل على صدق دعوته ورسالته ، فأخبرهم الله تعالى بأن هذا القرآن هو أعظم آية تدل على ما يريدون ، فقد قال : ﴿ وَقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنَّما أَنا نَذيرٌ مُبينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ . إنَّ في ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يؤمِنونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٠ ـ ٥١] .

ولكن الكافرين ظلوا في عنادهم وجحودهم ، وأنكروا أن يكون في شيء من آي القرآن ما يدل على صدق محمد ﷺ في دعوته ، وأعرضوا عنه قائلين : ﴿ قَدْ سَمِعْنا لَو نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إنْ هذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلينَ ﴾ [الأنفال : ٣١] .

وحينئذ تحداهم الله عز وجل - أو قل تحداهم القرآن إن شئت - أن يأتوا بسورة من مثله . وأفرغ هذا التحدي في قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب ، وأنهضهم إلى ذلك بالتقريع والتحمس ومختلف أشكال التحدي فقال لهم مرة : ﴿ وَإنْ كُنْتُمْ في رَيبٍ مِمَّا نَزَّلنا على عَبْدِنا فأتُوا بسورَةٍ من مِثْلِهِ وادعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، فَإنْ لَمْ تَفعَلوا - وَلَنْ تَفعَلوا - فاتَّقوا النَّارَ الَّتي وَقُودُها النَّاسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ لِلكافِرينَ ﴾ [البقرة : ٢٣ - ٢٤] .

وقال لهم مرة أخرى : ﴿ قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يَأتوا بمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ وَلو كان بَعْضُهُم لِبَعضٍ ظَهيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وقال لهم متحدياً ومقرِّعاً : ﴿ أَم يَقولونَ تَقَوَّلَهُ ، بَل لا يؤمِنونَ ، فَليَأتوا بِحَديثٍ مِثْلِهِ إن كانوا صادِقينَ ﴾ [الطور : ٣٣ - ٣٤] .

وقد كان من مقتضى بلاغتهم المعروفة وقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ، وما كان يعتلج في صدورهم من الحقد والكراهية لهذا الذي جاءهم به النبي عليه الصلاة والسلام ، وما كانوا يظلون في بحث دائب عنه من الوقوف على وسيلة ما لإفساد أمره عليه ومنع دعوته من السير في طريق النجاح - كان من مقتضى كل ذلك أن ينهضوا لمعارضته ومجاراته بفصول من كلامهم البليغ ، على نحو ما كانوا يفعلونه في أسواقهم الأدبية من المساجلة والمقارضة في فنون الكلام ، ليقطعوا بذلك خطره عنهم وليعلنوا بذلك لمن قد ينخدع بهذا الذي يأتيهم به أنهم قد جاؤوا بمثله أو خير منه .

ولكنهم - على الرغم من هذا كله - لم يفعلوا شيئاً ولم يستجيبوا لتحدي

القرآن في محاولة ما ، غير أنهم تحولوا عن قولهم السابق : لو نشاءُ لقلنا مثل هذا ، إلى زعم أن محمداً ﷺ إنما يأتيهم بسحر .. أو كهانة .. أو شعر فريد ، كما قال الله عنهم : ﴿ وَلَمَّا جاءَهُمُ الحَقُّ قالوا هذا سِحرٌ وإنَّا بِهِ كافِرونَ ﴾ [الزخرف : ٣٠] .

ثم إن آيات التحدي هذه ظلت مسجلة في كتاب الله تعالى تقرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم في كل عصر وقرن فما استطاع واحد فيهم أن يسجل إلى جانب هذا التحدي عملاً ما يصلح أن يقال إنه قد عارض به القرآن فأتى بشيء حسن . فهذا الواقع من أجلى أدلة التجربة المشاهدة على ثبوت وصف الإعجاز للقرآن ، إذ هو دلالة الواقع نفسه خلال التاريخ والقرون .

ثم إننا نطبق على هذه الحقيقة برهان الاستقراء التام أيضاً فنقول : إن عجز العرب كلهم عن الإتيان بمثل القرآن دليل جلي على أنه لا يمكن أن يكون من تأليف أحدهم كورقة بن نوفل وبحيرا الراهب أو غيرهما من الناس ، إذ إن هذا الاحتمال مخالف لبرهان الإعجاز الذي دلت عليه التجربة والمشاهدة ، على أن القرآن فيه تعليق على أحداث وقعت بعد موت ورقة وبحيرا فكيف يكون مع ذلك من إيحائهما أو تأليف أحدهما ؟!.

ثم نقول : فلنفرض أنه موحى به إليه من قبل الجن ، غير أن هذا الفرض أيضاً يستلزم نتائج باطلة تكشف عن بطلانه . فالجني الذي يوحي إلى محمد بهذه الألفاظ ، لا يوحي بها إليه إلا وهي مما يقدر الجان على إيجاد مثله ، وليس ممكناً بحال أن لا يقوم في وجه هذا المخلوق الجنيِّ أحد من أمثاله يوحي بقرآن مثله خلال هذه القرون كلها إلى واحد من هؤلاء الناس الذين يشتهون أن يؤلفوا مثله فلا يستطيعون ، مع العلم بأن الله كما تحدى بالقرآن الإنس فقد تحدى به الجن أيضاً ، اسمع هذه الآيات مثلاً : ﴿ وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطينُ ، وَما يَنبَغي لَهُم وَما يَستَطيعون ، إِنَّهُم عَنِ السَّمْعِ لَمَعزولونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ ـ ٢١٢] .

وكما يوجد في الإنس من يحقدون على الحق مع علمهم بأنه الحق ، فيتمنون لو أمكنهم إفساد صفة الإعجاز في القرآن بأي وسيلة ممكنة ـ فإنه يوجد في الجن أيضاً من يحقدون مثل هذا الحقد ويتمنون مثل هذا التمني . فلما لم نر إنساناً أوحي إليه من قبل أحد الجان بمثل هذا القرآن ، علمنا بدليل التجربة أيضاً أنه ليس من تأليف الجان ولا من إيحاءاتهم .

وهكذا يتكامل دليل الاستقراء التام على أن هذا القرآن الذي تنزل على محمد الأميّ ﷺ ليس من تأليف أحد من الناس الذين كانوا في عصره ، وليس من تأليف جنيّ نفثه في روعه أو ألقى به إليه . فانحصر العقل عند ضرورة الإيمان بما يقوله ويقرره هذا القرآن نفسه ، من أنه كلام الله جل جلاله نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ ليكون خاتمة المنذرين إلى العالم كله . فثبت بذلك أنه رسول من رب العالمين جل جلاله . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ فإنْ لَم يَستَجيبوا لَكُم ، فاعلَموا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأن لا إلـهَ إلاَّ هوَ ، فَهَلْ أنتُم مُسلِمونَ ﴾ [هود : ١٤] .

☆ ☆ ☆

أما الحديث عن تحليل ظاهرة الإعجاز وبيان جوانبه ، فحديث طويل ، والدخول في تفصيله يخرجنا مما نحن بصدده ، وأنت تعلم أن ثمة مؤلفات خاصة بالبحث في إعجاز القرآن وبلاغته ، فارجع إلى ما شئت منها للوقوف على تفصيل هذا البحث[1] .

فإذا ثبت أن بلاغة القرآن المعجز حجة على العرب ، فإن العرب بدورهم حجة على سائر الناس . ذلك لأن الأعاجم إذا رأوا وسمعوا بأن العرب لم

---

(١) إذا أردت دراسة وافية عن إعجاز القرآن فارجع إلى كتابنا : من روائع القرآن . ففيه تفصيل لهذا البحث .

يستطيعوا أن يؤلفوا كتاباً مثل القرآن في بلاغته وفصاحته ولا أن يؤلفوا قدر سورة واحدة منه علموا من ذلك أن القرآن الكريم معجز وأنه ليس بكلام بشر .

فهذا الكتاب العظيم هو أعظم معجزات نبينا محمد ﷺ .

معجزاته الأخرى :

ثم إن للنبي ﷺ من دون معجزة القرآن معجزات كثيرة أخرى وصلت إلينا عن طريق الخبر الصحيح اتسع النقل بالنسبة لمجموعها إلى ما يزيد على حد التواتر .

فمنها معجزة الإسراء والمعراج ، وقد تحدث عنها القرآن وأجمع جمهور المسلمين على أنها كانت بالجسد والروح معاً .

ومنها معجزة انشقاق القمر ، وقد تحدث عنها القرآن وذلك في قوله تعالى : ﴿ اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ ، وإنْ يَرَوا آيَـةً يُعرِضوا وَيَقولوا سِحرٌ مُستَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ـ ٢] .

وورد الحديث عنها بطرق كثيرة جداً وانتهت عند المحققين من علماء الحديث إلى ما هو أعلى من حدود التواتر .

ومنها معجزة نبع الماء بين أصابعه . روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر . فالتمس الناسُ وضوءاً فلم يجدوه ، فأُتيَ رسول الله ﷺ بوضوء في إناء ، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده ، ثم أمر الناس أن يتوضؤوا منه ، قال أنس : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم . ولقد تكررت معجزة نبع الماء من بين أصابعه أكثر من مرة بروايات صحيحة .

ومنها معجزة تكليم الشاة المصلية المسمومة له ، وهي الشاة التي سمتها امرأة

مشكم بن سلام اليهودية وقدمتها له عليه الصلاة والسلام فمضغ لقمة منها فلم يسغها ، فألقاها قائلاً : إن هذا العظم يحدثني أنه قد سُم . والحديث رواه البخاري .

ومنها ما ورد بالطرق الصحيحة من زيادة الطعام ببركته وحنين الجذع إليه ، وإبراء المرضى بلمسه وغير ذلك من الخوارق الكثيرة التي تفيض بها كتب السنة والسيرة النبوية مما ورد بطرق صحيحة لا خدش فيها عند أحد من علماء الحديث .

واعلم أن لنا عند الحديث عن هذه المعجزات والخوارق التي أكرم الله بها محمداً ﷺ ، والتي وصلتنا (كما هو معروف ومتفق عليه) عن طريق التواتر ـ لنا عند هذا الحديث كلام لا بد أن نفيض فيه بالقدر الذي يكشف عن جوانب هذه الظاهرة وما يتصل بها وما قد اتصل بها بكل دقة وتحرر ، فلسنا على استعداد لأن نبيع عقولنا لأحد ، بكل ما في كلمة (أحد) من العموم والشمول ، وبدهي أن في مقدمة من يدخلون ضمن هذا الشمول كل من يريد أن يعكر صفو الرؤية بيننا وبين حقيقة ما ، من أجل غاية يرمي إليها أو فائدة يتوخاها .

ولكي لا تقع عقولنا في أي شرك قد ينصب أمامنا : ينبغي أن نكشف بنظرة سريعة عن أحداث تاريخية معينة لعبت دوراً خطيراً بالنسبة للإيمان بالغيبيات عموماً وبالمعجزة خصوصاً ، لنستجلي أسبابها ودوافعها ونتبين ما وراءها ومدى نصيب الحرية العقلية فيها ، ثم نتحدث بعد ذلك عن المعجزة في ميزان العلم والعقل ، وهل هي من الممكنات أم من المستحيلات ، ثم نتحدث عن المعجزة في ميزان الدين والقرآن نفسه ، ثم ننصت خاشعين بعد ذلك إلى حكم العقل النزيه السليم فأياً كان حكمه تمسكنا به واتبعناه .

أولاً ـ كلمة وجيزة عن أحداث تاريخية معينة لعبت دوراً خطيراً حول مفهوم (المعجزة) :

ظهر في أوائل هذا القرن باحثون ومفكرون في عالمنا العربي ، جنحوا إلى

رأي جديد في بحث المعجزات وبيان ما ينبغي أن يكون عليه موقف المسلمين منها ، لا سيما معجزات سيدنا محمد ﷺ .

وخلاصة هذا الاتجاه تتمثل في اعتماد أن النبي ﷺ لم تسجل له سوى معجزة واحدة هي القرآن ، فمعجزته الوحيدة التي أكرمه الله بها هي هذا القرآن الذي تنزل عليه . أما الخوارق الأخرى التي ظهرت على أيدي الأنبياء السابقين مما لا يدركه ويفهمه العقل فقد كان منكراً لها غير عابئ بها ولا ملتفت إلى المطالبين بها ، ويرددون أنه كان يؤكد دائماً بأن المعجزات والخوارق ليست من شأنه وليس له إليها من سبيل ويكثرون في هذا من الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ قُل إنَّما الآياتُ عِندَ اللهِ ﴾ [الأنعام : ١٠٩] ويزعمون أن هذا من الخصائص العليا له عليه الصلاة والسلام فهو لم يخاطب الناس بما لا يفهمون ، ولم يعاملهم بما وراء حدود العلم الذي يدركه البشر .

وإنك لتقرأ هذا الكلام وتجد هذا الاتجاه في كثير من الكتب الحديثة اليوم ، بعد أن تبناه من قبلُ أفراد معدودون تبنوا الدعوة إليه والتبشير به وارتبطت أسماؤهم من أجل ذلك بشعار (الإصلاح الديني) الذي شاع لأسباب معينة منذ ذلك اليوم .

ونحن نبدأ فنحدثك عن مبدأ هذا الاتجاه وأسبابه المقصودة البعيدة ثم نناقشه كما قلنا تحت مجهر العلم والعقل ونعرضه لدلائل التاريخ نفسه .



إن مولد هذا الاتجاه في عالمنا الإسلامي يعود إلى تاريخ الاحتلال البريطاني لمصر .

فقد احتلت بريطانيا يومئذ مصر وهي تعلم أن اعتمادها على القوة العسكرية وحدها لن يفيدها الاستقرار ، ولن يمكّن لها موطئ قدمها في البلدة التي احتلتها ، خصوصاً وإن العالم الإسلامي قريب العهد بانهيار الخلافة الإسلامية .

فرأت ـ كما هو شأنها دائماً ـ أن لا بد من الاستعانة بمنهج فكري يغير من تفكير المسلمين تغييراً يقصيهم عن هذه الشدة في التمسك بالدين والتضحية من أجله والاعتماد عليه وحده . ويجعلهم يلتقون مع الفكر الأوربي في أوسع قدر ممكن من سبل الحياة .

وقامت بريطانيا بهذا الدافع ، بتطبيق ما أطلقت عليه اسم الإصلاح الاجتماعي والديني ؛ وكان الميدان الأول لهذا (الإصلاح) هو الجامع الأزهر المتمثل في مناهجه الدرسية وطريقته الفكرية . ذلك أن قيادة القطر المصري كله كانت إذ ذاك بيد الأزهر ، وكان إشعاعه يتجاوزه إلى كثير من البقاع الإسلامية الأخرى ، فلم تكن هناك من قضية وطنية أو دينية أو مشكلة فكرية أو اجتماعية إلا والأزهر هو الرأس المدبر والمفكر فيها وهو المحرك لها ، لذلك فلم يكن لينجح أي (إصلاح) ديني أو فكري من وجهة نظر بريطانيا إلا إذا بدأ بالأزهر .

وينبغي أن نذكرك هنا بأننا لا نتبع فيما نرويه من أحداث ووقائع تاريخية ، منهج الاسترداد أو التوسم الذي يتعلق به دون غيره منهجيُّو الغرب خصوصاً بالنسبة لتاريخنا وإسلامنا ، ولكننا نتبع المنهج العلمي السليم الذي أوضحناه والتزمناه . ولعلك تتساءل ، فمن أين علمنا أن بريطانيا وضعت لنفسها هذا المخطط ، وضاقت ذرعاً بالإسلام وبأزهره ؟! فاسمع ما يقوله في ذلك ، اللورد لويد ، المندوب السامي لمصر إذ ذاك ، في مذكراته التي سماها (Egypt Since Cromer : مصر منذ أيام كرومر) .

يقول : (إن التعليم الوطني عندما قدم الإنكليز ، كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني ، (تنبه جيداً إلى معنى هذا الكلام) فلو أمكن تطوير الأزهر لكانت خطوة جلية الخطر . فليس من اليسير

آن نتصور لنا أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه هذه ولكن إذا بدا أن مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في إيجاد التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح) .

أما مجال هذا التطوير و (الإصلاح) فلقد اعتمد على نقطة الضعف التي كانت الأمة العربية والإسلامية تستشعرها إذ ذاك حيال النهضة العلمية في أوربا ، والاكتشافات والاختراعات المختلفة التي قامت في أنحائها بفضل الانطلاقة العلمية التي لم تكن من قبل .

لقد كان المخطط (الإصلاحي) إذاً ، هو تنبيه قادة الفكر العربي والإسلامي إلى أن وجود مثل هذه النهضة في العالم الإسلامي متوقف على تطوير الطريقة التي يتم بها فهم الدين والعقيدة الإسلامية ، بشكل يتفق مع الفكر العلمي المقبول .

وهذا يعني ضرورة تخليص الفكر الديني من كل حقيقة غيبية غير مفهومة أو داخلة في قوالب العلم الحديث .

وسرعان ما استجاب إلى هذه الدعوة ، أولئك المفتونون والمأخوذون بالنهضة العلمية الأوربية الحديثة والحضارة الغربية عامة ، ممن لم يرسخ الإيمان في أفئدتهم ولم تتمكن حقائقه في عقولهم ، وأخذوا يستيقنون ـ بدافع ذلك الافتتان الجديد والضعف الإيماني السابق عليه ـ أن الوسيلة الوحيدة إلى نهضة شبيهة بالنهضة الأوربية ، إنما هي في التحرر من كثير من المبادئ الدينية المتعلقة بالعقيدة .

ولم يكن على بريطانيا ـ وقد امتص إيحاؤها عدداً لا بأس به من المفكرين العرب المسلمين ، أن تتعب نفسها كثيراً بمتابعة المخطط ، فقد اطمأنت إلى أن هؤلاء أنفسهم سيقومون بالعمل المطلوب . وما عليها إلا أن تقربهم وتسلمهم قيادة العمل الفكري في الأزهر ليوطدوا مناهجه ، وليبثوا منه إلى الفكر الإسلامي كله هذا الوباء (الإصلاحي الجديد) .

وفي سبيل هذا (الإصلاح) جيء بالشيخ محمد عبده وأعطيت له مقاليد الأمر ليقوم بإصلاح شامل في ميدان الأزهر متبعاً الأساس الذي أوضحناه .

وكان من نتيجة ذلك تنصيب الشيخ مصطفى المراغي شيخاً للجامع الأزهر . وتنصيب محمد فريد وجدي رئيساً لتحرير مجلة الأزهر (نور الإسلام) الواسعة الانتشار إذ ذاك ، بعد أن كان يرأس تحريرها العلامة المرحوم محمد الخضر حسين .

وما هو إلا أن تسلم هؤلاء وغيرهم مراكزهم الجديدة ، حتى بدأ التبشير بالمنهج الجديد في فهم العقيدة الإسلامية ، وهو المنهج الذي يهدف إلى تجاهل كل المسائل الغيبية التي لا تقع تحت مجهر العلم التجريبي المحسوس ، وفي مقدمتها المعجزات على اختلافها .

فقد رأينا كيف بدأ فريد وجدي ينشر سلسلة مقالاته الجريئة التي خرج بها على الناس بعنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) . والتي يقول فيها ما نصه : « وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في كل ناحية إلى ناحية الإعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف .. »[١] .

ورأينا كيف يكتب الشيخ محمد عبده في مسائل العقيدة ، على طريقة غريبة عجيبة يخرج فيها على إجماع المسلمين وبدهيات العقيدة الإسلامية الصحيحة . وذلك حينما يعرف النبي والرسول في تعليقاته على شرح الجلال الدواني فيقول (أقول : قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق علماً وعملاً ، أي بحيث لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً على مقتضى الحكمة وذلك يكون بالفطرة ، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر . فإن فطر أيضاً على دعوة بني نوعه إلى ما جبل عليه ، فهو رسول أيضاً . وإلا فهو نبي فقط)[٢] .

---

(١) انظر مجلة نور الإسلام جـ ٧ المجلد ١١ وما بعده .

(٢) تعليقات الشيخ محمد عبده على شرح العقيدة لجلال الدين الدواني ص ٣ .

ورأينا كيف ينتهي في تفسير سورة الفيل إلى تأويل صريح الآية بأن المقصود بطير الأبابيل وحجارة السجيل إنما هو وباء الجدري[1] ! ..

ورأينا كيف ظهر في تلك الفترة ذاتها كتاب جديد في تحليل السيرة النبوية باسم (حياة محمد) لحسين هيكل . يقول في مقدمته (إنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة والحديث لأنني فضلت أن أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية ...) .

ورأينا كيف اندفع الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر إذ ذاك إلى تقريظه وتقديمه قائلاً : (لم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية) .

ورأينا كيف أخذت تروُج صفة (العبقرية) و (العظمة) و (القيادة) وما شاكلها للنبي ﷺ تعويضاً عن صفات النبوة والوحي والرسالة ، وتغطية لها وإبعاداً للفكر عنها .

وهكذا تكونت من هذا الاتجاه والنهوض به مدرسة فكرية جديدة أخذت تنشر فلسفتها من فوق منبر الأزهر ، سرعان ما كان لها تأثيرها المتوقع في الأوساط في ظل ذلك الاحتلال المشؤوم ، بعد أن قامت معارك طويلة حول ذلك لا مجال لسردها هنا .

وتسألني الآن : فما الذي جنته بريطانيا من وصولها إلى هذه الغاية ومن تطوير الفكر الديني بهذا الشكل في رؤوس الناس ؟

إن الذي جنته بريطانيا بذلك ، هو إضعاف الوازع الديني في نفوس أولئك

---

(١) تفسير جزء عم لمحمد عبده . ص ١٢٠ وتأمل في ألفاظ سورة الفيل الصريحة الواضحة المعنى ، ثم قل لي كيف يتأتى أن يؤمن بمعيبات القرآن التي هي أعظم غرابة بكثير من قصة الفيل ، من يعمد إلى نص القرآن فيها فيؤول طير الأبابيل والحجارة التي ترمي بها ، بداء الجدري ؟! .

الـذين كان الـدين عنـدهم أعظم محرك ومهيـج ، وكان صـاحب السلطـان في كل شيء ، كما قال اللورد لويد في كلامه الذي نقلناه آنفاً ، ذلك أن العقيدة الإسلامية إذا مـا جردت عنهـا فكرة المعجـزة ، انتهت من حيث لا يشعر أربـابها إلى إنكار العقيدة الإسلامية في مجموعها ؟ إذ إنها في مجموعها ليست قائمة إلا على أسـاس أعظم معجزة وهي معجزة الوحي كما تعلم . فمن أخذ يستبعد الخوارق العقليـة وينكرهـا أو يؤولها ، فإنه يستبعد ولا ريب ظاهرة الوحي أيضـاً لأنهـا تعـد قمـة المعجزات كلها . وهذا ما دفع الشيخ محمد عبده إلى تفسير النبوة تفسيراً يبعـدهـا عن حقيقـة الوحي ، بعداً تاماً . كما قد رأيت في تعريفه للنبي .

ولقد كانت بريطـانيـا لا تتضـايق من عقبـة تقف أمـامهـا في سبيل ترسيخ قدمها في مصر أعظم من عقبة (التعصب الديني) على حـد تعبير اللورد لويـد كما قد رأيت . فكان في تحقيقهـا لهـذه الغـايـة نسف لهـذه العقبـة من سبيلهـا ، فقـد استطاعت بعد ذلك أن تضع العقلية الأوربية المنحلة في مكان العقليـة الإسلاميـة المعتزة بالمنهج الإسلامي وأن تطور مناهج الحياة العملية نفسها طبقاً لما تريد بعد أن زال عنها السلطان السابق أو ضعف إلى أن غدا إسلاماً شكلياً مجرداً .

يوضح لك هذه الحقيقة مـا يقولـه المستشرق الإنكليزي المعروف (جب) في كتابه الذي ألفه باللغـة الإنكليزيـة (Wheither Islam إلى أين يتجـه الإسلام) : « لقد استطـاع النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصريـة والصحـافـة وتعليمـاتنـا الخـاصـة أن يترك في المسلمين ـ ولـو من غير وعي منهم ـ أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين إلى حد بعيد . ولا ريب أن ذلك هو اللب المثمر في كل ما تركت محـاولات الغرب لحمل العـالم الإسلامي على حضـارتـه من آثـار . فالواقع أن الإسلام كعقيدة وإن لم يفتقـد إلا قليلاً من أهميتـه وسلطـانـه ، ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانه » .

ولقد تبين لنا ، كما تبين لكل باحث ، أن تلك المدرسة الإصلاحيـة لم تكسب

أربابها ودعاتها أي نهضة علمية كالتي نهضتها أوربا ؛ كما كانوا يتوهمون ، وكما أوهمتهم بريطانيا التي اختصت بفن المكر والخديعة واللعب بالعقول ، وليتها كانت عقولاً غير عقول المسلمين . كل ما جنته أيدي ذلك (الإصلاح الديني) فقدان الحقيقتين معاً ، فلا هم على حقيقتهم الدينية أبقوا ولا على النهضة العلمية عثروا[1] .

ثانياً ـ المعجزة في ميزان العلم :

بعد هذا نقول : وليكن ما فعلته بريطانيا خداعاً كما أوضحناه ، فهل لنا أن نتأثر من ذلك بدافع من رد الفعل المجرد ، فنؤمن بالمعجزة كيفما كانت وأياً كان حكم العلم أو العقل فيها ؟

لا ، ليس لنا أن نتأثر هذا التأثر ، وكما أنه لا ينبغي للعاقل أن يلحد في ذات الله بدافع من التقليد أو رد الفعل المجرد ، فكذلك لا قيمة لإيمانه بالله أو بالمعجزات بدافع من التقليد أو رد الفعل المجرد .

إنّ الميزان المحكم على كل حال هو العقل السليم الحر . أو قل : إنه العلم اليقيني الذي لا يشوبه الوهم ، فالنتيجة واحدة .

ونحن عندما نتساءل عن حكم العلم في حق المعجزة وإمكانها ، نقصد بالعلم أولاً إطلاقه الخاص الذي يطلقه المختصون بالعلوم الطبيعية المختلفة ، ثم نقصد به بعد ذلك العلم بإطلاقه العام ، وهو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع بدليل .

فما هو حكم العلم ، بمعناه الأول ، في المعجزة ومدى إمكان وقوعها ؟

---

(١) من المؤشرات الكبرى التي تدل على حقيقة هذا « الإصلاح الديني » وما يكمن خلفه ، أنك لا تجد فئة من الفئات التي تخاصم الإسلام وتعاديه ، إلا وتبارك هذا « الإصلاح الديني » وتشيد برحاله !..

يجيب العلم ـ بمعناه الأول طبعاً ـ أن لا شأن له بالخوارق والبحث في إمكانها من الناحية العملية . ذلك أن العلم بإطلاقه الخاص هذا ، ليس إلا ممارسة لتجارب خارجية بعيدة في مرحلتها الأولى عن وحي العقل أو التفكير ، متعلقة بموضوعات مادية معينة ، ثم إنها تفرض نفسها على العقل طبق ما دلت عليه المشاهدة والتجربة ، وليس مهمة العقل بعد ذلك إلا أن يتولى تفسيرها وتحليلها كما هي عليه في الواقع . فإن رحت تسأل هذا العلم ، أي هذه الممارسة المعينة ، عن رأيه في المعجزة قال لك بلسان الحال : ليست المعجزة من موضوعات بحثي ، فلا حكم لي عليها بشيء ، اللهم إلا إذا وقعت خارقة من ذلك أمامي فإنها تصبح في تلك الحال موضوعاً جاهزاً للنظر والتجربة ثم التفسير والشرح ، وبإمكاني أن أحكم عندئذ عليه ، أي أن أتناوله بالتحليل والشرح . أما أن أفرض حالة معينة في الذهن تنفصل فيها النار عن قوة الإحراق مثلاً ، ثم أحكم عليها أي أحللها وأصفها كما هو شأني وعملي ، فذلك متناقض مع طبيعتي واختصاصي وما حصرت عليه نفسي .

وعندئذ تتحول عنه لتسأل العلم (بمعناه الثاني الأعم) عن رأيه في المعجزة وحكمه عليها . فيقول لك : تسألني عن إمكان المعجزة التي هي الأمر الخارق للعادة ، وقد سألتني قبل الآن عن وجود الله عز وجل فأجبتك بأنه واجب الوجود وهو الذي لا شبهة ولا شك في ذاته ؟! .. أتراني (وقد أوضحت لك وجود الله عز وجل بقواطع الأدلة والبراهين الساطعة ، وبينت لك أنه هو الخالق للأشياء وأسبابها وانتظاماتها) أناقض نفسي وأقول : إن المعجزة (التي ليست أكثر من خرق للعادة) قسم من المستحيل الذي لا يمكن وقوعه ! .. وكيف تنتظر من العلم أن يناقض ذاته ، فيثبت مرة أن الله هو المسبب للأسباب والرابط بينها وبين مسبباتها ثم ينفي ذلك أخرى ليقول : إنّ نظام الأسباب والمسببات واجب لا يمكن أن ينخرم ، كيف تنتظر من العلم أن يقول لك : إن نظام الكون من قبيل الممكن ثم يعود ليقول لك : لا إنه من قبيل الواجب ؟! ..

أجل . هذا هو جواب العلم في كلمات مختصرة واضحة . وهو جواب يستطيع أن يسمعه ويعيه كل عاقل أخلص للعلم على وجه الأرض .

يقول الفيلسوف مالبرانش : « إنما نرى نحن توالي الحادثات ولا نرى الرابطة التي تربط أحد الطرفين بالآخر ، فلماذا تبقى هذه الرابطة متخفية عنا ؟ .. لكونها شيئاً إلهياً لا يوجد مثله في المخلوق »[1] .

واسمع ما يقوله العالم الإنكليزي « وليم جونز » :

« القدرة التي خلقت العالم ، لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه ، ومن السهل أن يقال عنه : إنه غير متصور عند العقل ، ولكن الذي يقال عنه إنه غير متصور ، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم »[2] .

أي إنه لو لم يكن جزء من هذا العالم موجوداً ، وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق ولا يتصور وجودها : سيوجد عالم بالشكل الفلاني ، فإنه سيبادر قائلاً : إن هذا غير متصور ، ويأتي نفيه لذلك أشد من نفي المعجزة التي ينكرها ، مع أنها بعد وجودها لا تحرك شيئاً من الاستغراب أو الدهشة في عقله ، وينظر إليها دون أن يقول : إن وجود هذا الشيء أمر غير ممكن أو متصور !! ..

أما إن كنت لا تؤمن بوجود الله عز وجل أصلاً ، فلك الحق كله في أن تنكر المعجزات ولا تتصور وقوعها . ولكن ليس لك حينئذ أن تسأل عن ذلك ، العلم ، أو أن تتكلم باسمه أو تروي شيئاً عنه ، اعتقد ما شئت وعبر عن اعتقادك كما تشاء . ولكن دون أن تلوك كلمة (العلم) في فمك أو تجمّل به شيئاً من حديثك .

إن العلم لا يلبث أن يقول لك عند أول مقابلة معه : إن هذا الذي تراه في

(١) انظر كتاب موقف العقل والعلم : ٤ ـ ٣٤ .

(٢) المرجع السابق : ٢ / ١٢٣

الأشياء مما تسميه نظام السببية ليس أكثر من رابطة مطردة تراها بعينك .. وهيهات أن يكون ذلك مستلزماً لوجوب الاستمرار واستحالة الانفكاك . إن المسبب الأول لا يعجزه شيء عن إبطال هذا التلازم والترابط الصوري الذي تراه . وإن كان طول الإلف واستمرار الاتصال يثير فيك العجب والاستغراب من وقوع ذلك .

بل العلم يقول لك : إنك لو تأملت ، لرأيت أن المألوف وغير المألوف من مظاهر الكون معجزة في الحقيقة إذا ما غفلت عن ملاحظة الخالق العظيم . فالكواكب معجزة ، وحركة الأفلاك معجزة . وقانون الجاذبية معجزة ، والنباتات معجزة ، والعقل البشري معجزة والمجموعة العصبية في الإنسان معجزة والدورة الدموية فيه معجزة ، والإنسان في ذاته معجزة ! .. غير أنك تنسى - لطول الإلف واستمرار الرؤية - وجه المعجزة في هذا كله ، فتحسب جهلاً وغروراً أن المعجزة ليست إلا تلك التي تفاجئ ما اعتدته وألفته بالمعاكسة والتغيير .

ويقول لك العلم : أي قيمة لعقل عاقل يتخذ مما قد اعتاد أن يراه مقياساً لإيمانه بالأشياء وكفره بها ؟.. إنه لجهل عجيب من الإنسان مهما زعم أنه يترقى صعداً في مدارج المدنية والثقافة والفهم .

☆ ☆ ☆

ولك أن تسأل : فكيف أنكر أقطاب (الإصلاح الديني) المعجزات من دون معجزة القرآن مع أنهم يؤمنون بالله عز وجل ؟..

والجواب أن أحداً منهم لم ينته إلى هذا الإنكار بواسطة تفكير عقلي أو علمي تمسك به ، ولكنهم انتهوا إلى هذه النهاية بتأثير نفساني جرفهم إليها ، لقد بهرهم مرأى الحضارة الغربية وعشيت أعينهم من النظر إليها ، وفُتنوا بكلمة (العلم) في

الوقت الذي لا يملكون أي قدر مفيد من معناها ، وصادف أن استغل الإنكليز فيهم هذه الحالة فأفهمهم أن (العلم) لا يُرقى إليه إلا بإنكار المعجزات والمغيبات ، فاتخذوا من كلمة (العلم) صابوناً يغسلون به أدمغتهم وأبحاثهم من كل شيء اسمه معجزة أو خارقة .

وإنّ أي عالم ، ليشفق اليوم على أفكارهم المتهافتة المتناقضة ، عندما يقرؤها في كتبهم المملوءة بكلمات (العلم) والمجردة حتى من ظلاله . تقرأ مقدمة كتاب (حياة محمد) لحسين هيكل ، وتراه وهو يقول مكرراً في اعتزاز وتنويه بنفسه : (إنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة والحديث لأنني فضلت أن أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية ...) بل تراه يطمئنك إلى أنه لم يأخذ حتى بما يثبت في البخاري ومسلم ، حفظاً لكرامة العلم ..!!

فأي إنسان هذا الذي لا يشفق على عقلية باحث يرى فيما يرويه البخاري ضمن قيود رائعة عجيبة من الحيطة العلمية التي هي محل اعتزاز وفخر ، انحرافاً عن جادة العلم : على حين يرى في اتباع طريقة الغربيين في الاستنتاج والحدس ونهج التوسم حفظاً لكرامته والتزاماً بمنهجه وجادته ؟!..

وإذا كانت طريقة الغربيين في دراسة حياة محمد ﷺ هي الطريقة العلمية الموصلة إلى الحق كما يرى حسين هيكل لا الطريقة التي اتبعها أسلافنا المسلمون ، فإن الأمر ينبغي أن ينتهي إلى إحدى نتيجتين : إما أن يؤمن الغربيون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام إن كان يرى حسين هيكل أنها من الحق ، وإما أن ينكر هو نبوته إن كان لا يرى أنها من الحق .

ولقد رأينا كيف وقع اختيار الإذاعة الإسرائيلية في رمضان هذا العام[1] ، على هذا الكتاب دون غيره ، لتذيع منه فقرات من السيرة النبوية ، أفكان ذلك

---

(١) كان ذلك في رمضان عام ١٩٦٨ .

لأن الإذاعة الإسرائيلية تحرص كل الحرص على أن لا تذيع شيئاً من حياة محمد ﷺ وسيرته إلا على أسس علمية مجردة ؟!..

وحسبك يقيناً بالقيمة العلمية الرفيعة في كتاب يحلل حياة رسول الله ﷺ ، أن يكون هو الكتاب الذي يقع عليه اختيار اليهود ليستفاد منه في تغطية برامج دينية للمسلمين في إذاعتها الموجهة !..

إن أي مفكر ، يعلم بأن تلك المدرسة (الإصلاحية) لم تقم إلا على دعامة واحدة ، ألا وهي الافتنان بكلمة (العلم) والافتقار إلى مضمونها .

وها نحن نرى اليوم كيف أن العلم نفسه هو الذي يتولى كنس هذه المدرسة (الإصلاحية) عن طريق العقل والبحث وكيف عادت الرؤية بين العلم والمعجزة أصفى مما كانت عليه من قبل ، فقد انتهت فترة الانبهار وعادت العين تنظر إلى الضوء بكل ما لديها من طاقة .

وأخذنا ننظر ، وإذا الواقع يسخر من نبوءة محمد فريد وجدي حينما قال وهو يعاني من إحدى غيبوباته العاطفية مع كلمة (العلم) :

« إن الشرق الإسلامي لما رأى دينه ماثلاً في عالم الأساطير التي قذفت فيه الأديان جملة بيد العلم الحديث الغربي ، لم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية »[1] .

---

(١) من مقال نشره فريد وجدي في الأهرام في ٣٠ ـ ٨ ـ ١٩٣٧ رداً على مقال كتبه العلامة مصطفى صبري ، وانظر قصة المقالين في كتاب موقف العقل والعلم : ٤ ـ ٤٠٧ ولم يكن قد نصب فريد وجدي يومها رئيساً لتحرير مجلة الأزهر المعروفة باسم (نور الإسلام) . ولكن أفكاره هذه هي التي رشحته لتولي هذا المنصب فيما بعد خلفاً للعلامة العظيم الشيخ محمد الخضر حسين ، كجزء من المنجزات الإصلاحية التي كان قد خطط لها الاحتلال البريطاني بالنسبة للجامعة الأزهرية خاصة والمجتمع المصري عامة (انظر ص٢٢٣ من هذا الكتاب) ، ولاجرم أنه طوى أفكاره هذه بعد أن أصبح رئيساً لتحرير المجلة الإسلامية الكبرى الناطقة باسم الأزهر ، واحتفظ بها تحت لسانه فترة =

فلإن كانت كلمة (العلم) نطقت يومها على لسانه وهو في غيبوبته تلك بهذا الهذيان ، فإن حقيقة العلم لتنادي اليوم بأعلى صوتها ، فوق أرفع قمة من قمم الوجود بأن الله هو حقيقة الحقائق كلها ، وبأن دينه الحق هو سر الوجود كله . ولا يضيرنا أن في الناس ملحدين ألحدوا في ذات الله وذات العلم معاً .

☆ ☆ ☆

ثالثاً ـ المعجزة في ميزان الدين والقرآن :

ثم إنه قد يقول سائل : ولكن في القرآن ما يدل على أن الرسول ليس من شأنه أن يأتي للناس بالخوارق ، كقوله تعالى ﴿ قُل إنَّما الآياتُ عِندَ اللهِ وَإنَّما أنا نَذيرٌ مُّبينٌ ﴾ [العنكبوت : ٥٠] وقوله تعالى ﴿ وَقالوا لَنْ نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأرضِ يَنْبوعاً أو تكونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَّخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهارَ خِلالَها تَفْجيراً ، أو تُسقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَينا كِسَفاً أو تَأتِيَ باللهِ والملائِكَةِ قَبيلاً ، أو يَكُونَ لَكَ بَيتٌ مِّن زُخرُفٍ أو تَرْقى في السَّماءِ وَلَن نُّؤمِنَ لِرُقيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَينا كِتاباً نَّقرَؤهُ قُلْ سُبحانَ رَبِّي هَل كُنتُ إلاَّ بَشَراً رَّسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ ـ ٩٣] أفليس القول بالمعجزات والخوارق مع هذا ، مخالفة لصريح ما في القرآن ؟

والجواب : أن هذه الآيات نزلت قمعاً لسخرية المشركين برسول الله ﷺ لا جواباً على سؤال صادق بدر منهم ، كما ترى من نسق الآيات وأسلوبها . فقد علم الله تعالى أنهم إنما يطالبون بما يقترحونه من الآيات استهزاء بالنبي عليه الصلاة والسلام وإمعاناً في كفرهم وعنادهم ، وتعبيراً عن أنهم لا يقبلون رسالة إليهم من

= من الوقت ، حيث راح يشغل القراء خلالها بمقالات وأبحاث أخرى ، ولكنه مالبث بعد ذلك أن أخذ بنشر مقالات متوالية تحت عنوان (السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة) داعياً فيها الناس إلى أن يفهموا حياة رسول الله ﷺ كما يفهمها الغربيون بعيدة عن كل خارقة ومعجزة مهما كان نوعها .

الله إلا إذا سلّمهم إياهـا ملَـك من السماء لا بشر مثلهم في الأرض . ولـو علم الله منهم صدق الطلب وحسن النيـة وأنهم مقبلون في ذلـك على محـاولـة التـأكـد من صدق النبي ﷺ لحقق لهم ما يقنعهم في ذلـك . ولكنَّ أمرهم مطـابق في ذلـك لما وصفه الله تعالى في آية أخرى إذ قال : ﴿ وَلَو فَتَحْنـا عَلَيْهِمْ بـابـاً مِّنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فيهِ يَعْرُجونَ لَقـالوا إنَّما سُكِّرَتْ أبْصـارُنـا بَل نَحنُ قَومٌ مَّسْحورونَ ﴾[1] [الحجر : ١٤ ـ ١٥]

وكيف تكون الآيات قاضية بعـدم وجود معجزة لـه عليـه الصلاة والسلام ، والقرآن نفسه تحدث عن معجزة الإسراء ، فقـال : ﴿ سُبحـانَ الَّـذي أسْرى بِعبـدِهِ لَيـلاً مِّنَ المَسجِـدِ الحَرامِ إلى المَسْجِـدِ الأَقْصى .. ﴾ [الإسراء : ١] وتحـدث عن معجـزة انشقـاق القمر فقـال : ﴿ اقتَرَبَتِ السَّـاعَـةُ وانشَـقَّ القَمَرُ وَإنْ يَرَوا آيَـةً يُعرِضـوا وَيَقـولـوا سِحرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ـ ٢] وتحـدث عن معجـزة إنـزال الملائكة في غزوة بدر فقال : ﴿ إذ تَسْتَغيثونَ رَبَّكُم فـاسْتَجـابَ لَكُم أَنِّي مُمِـدُّكُم بِألفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفينَ ﴾ [الأنفال : ٩] .

إذا علمت هـذا كلـه نقـول : إننـا ونحن نتحـدث في شؤون العقيـدة التي لا ينبغي أن تقـوم إلا على البراهين اليقينيـة ، لا نلـزم أنفسنـا إلا بتصـديـق المعجزات التي وصل إلينا خبرها بالنقل المتواتر طبق الشروط المعروفة للروايـة . ومجموع المعجزات التي رواها علماء السيرة والحـديث عن النبي ﷺ مما ذكرنـا لـك بعضـاً منـه يتجـاوز حـد التواتر بكثير ، فـالجحود بمجمـوع هـذه المعجـزات كفر وخروج عن الإسلام بالإجماع . أما جحود مـا ثبت منهـا بطريق روايـة الآحـاد فليس مكفراً وإن كان ثـابتـاً في صحـاح السنـة ولكنـه يعتبر شـائبـة من شوائب الفسق بدون ريـب .

وحسبنا هذا القدر من الحديث عن المعجزات ، والله ولي كل توفيق .

☆ ☆ ☆

---

(١) انظر فقه السيرة للمؤلف ١٢٣ الطبعة الثانية أو مابعدها .

خامسًا

النبوة لا تأتي عن طريق الكسب

هذه المسألة الأخيرة ، هي في الحقيقة نتيجة واضحة للمسائل الأربع السابقة . فإذا كان أساس النبوة الوحي الذي عرفت معناه ، وإذا كانت المعجزة من المؤيدات التي يؤيد الله بها الأنبياء بقدرته وإرادته ـ فمعنى ذلك أن الرسالة لا تأتي إلا بمحض اختيار من الله عز وجل ، كما قال في محكم تبيانه : ﴿ اللَّهُ أَعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] وكما قال في آية أخرى ﴿ اللَّهُ يَصطَفي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ﴾ [الحج : ٧٥]

ولكننا مع ذلك آثرنا أن نفرد بحثاً تحت هذا العنوان . وذلك حتى ننبه القارئ إلى الحاجز العلمي الحصين بين معنى (النبوة) في الواقع الذي دل عليه العلم والعقل ، بعد أن دل كل منهما على وجود الله عز وجل ، وبين معناها القائم في أوهام أولئك الذي لا يزالون يتخيلون أن النبوة صنعة قائمة بذاتها في سوق الإشراق أو الكهانة والسحر والتنجيم : فهي من صناعات تلك السوق ، إلا أنها تمتاز عنها بمزيد من الدقة ..

فلا يزال يذهب بعض الناس إلى أن الكهانة كانت في التاريخ الغابر هي الصناعة المقدسة في الحياة ، ثم إنها ترقت مع رقي العقل البشري فتحولت إلى تنجيم ، ثم ازدادت رقياً مع التقدم العلمي والعقلي فانقلبت إلى سحر ، ثم إنها وصلت إلى قمة أدوارها التحسينية عندما ظهرت بمظهر النبوة التي تنسكب على قلوب أصحابها في محاريب الخلوة والإشراق الروحي ! أما كيف توالدت هذه الحلقات بعضها من بعض وما هو النسب الذي يصل كل حلقة منها بالأخرى ،

وما برهان ذلك في التاريخ والبحث العلمي ، فشيء آخر لم يذهب إليه هؤلاء الناس ولم يبحثوه !!..

وطبيعي أن تكون النبوة في تصوير هؤلاء الناس ، غاية يتوصل إليها بالسعي والكسب ، كما توصل السحرَة إلى السحر بالسعي والكسب . وهؤلاء الناس ، إن فهموا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فإنهم لا يفهمونها إلا على هذا الأساس : جهد بذله الرسول وسعي سعاه حتى أصبح بذلك نبياً ، والنبوة في أوهام هؤلاء رديف تام لكلمة « مصلح » التي كثيراً ما تتردد على ألسنتهم ، وهم في هذا إنما يخدعون نفوسهم قبل أن يخدعوا أحداً سواهم .

وهم من أجل ذلك ، لا يحبون أن يصدقوا أن القرآن كلام غير النبي ﷺ . ولا يريدون أن يفهموا أنه قد أوتي معجزة جرت على يده ولا يودون أن يفهموا عن الوحي إلا أنه الفكر والتأمل ... وذلك كي يسلم لهم تصور أن النبوة معنى اكتسابي . وقد لا يكون ذلك مفهوماً لديهم من حيث التحليل القابل للتصور ، ولكن حسبه على كل أن يكون موصوفاً في تصورهم بأنه كسبي .

ونحن بعد أن اجتزنا البحث عن ظاهرة الوحي وما كشف عنها البحث العلمي ، واجتزنا بعد ذلك البحث في المعجزة وما كشف عنها البرهان العلمي ، واجتزنا قبل ذلك الحديث عن واجب الوجود جل جلاله وما كشف عن ذلك البرهان اليقيني ـ لا يسعنا إلا أن نستيقن ما ينتجه الحق الذي ظهر لنا في تلك المسائل كلها ، ألا وهو أن النبوة ليست إلا وحياً من الله لمن شاء من عباده لينذر الناس يوم التلاق وليذكرهم بما ذُكِّر به أسلافهم من قبل مما سيلاقونه من بعد الموت ، وما يترتب عليهم من الحقوق لخالقهم جل جلاله .

فليس لها أي شأن بالكهانة أو السحر أو التنجيم ، وليست مما يسعى إليه الناس بالحيلة والجهد .

واعلم أنه لا يخالف عن هذا الحق إلى ذلك الكلام الـذي لا سنـد لـه من العلم ولا من الظن ، إلا من كان كافراً بـالله عز وجل قبـل ذلـك فهـو يـؤول أحـداث الدهر التي يراها ويسمعها من التـاريخ حسب مـا يتفق مع مـا سبق أن استقر في نفسـه من الجحود بـالخـالق . ولا تـأويل يتفق مع مـا في نفسـه من ذلـك إلا أن يخرق على عقلـه بمثـل هــذه الأوهــام التي تستطيـع أن تجـول في مسرح عريض لا حدود له .



خاتمة

في الفرق بين الإسلام والإيمان

والآن وقد انتهينا من شرح الحقائق المتعلقة بقسم « النبوات » فقد انتهينا بذلك من تحليل الشطر الثاني لشهادة الإسلام وهو : شهادة أن محمداً رسول الله .

وبذلك نكون قد فرغنا من شرح شطري الشهادة التي لا بد من الإقرار بها ليتم إسلام المسلم .

فإذا آمنت بالبحوث والحقائق المتعلقة بالإلهيات ، وآمنت بما ذكرناه بعد ذلك من الحقائق المتعلقة بالنبوات ، واستسلمت لفرائض الصلاة والصوم والحج والزكاة ، موقناً بوجوبها وضرورة القيام بها ، تنفيذاً لأمر الله عز وجل وتحقيقاً لعبوديتك له ـ فقد توفرت لديك مقومات الإسلام الذي بعث به الأنبياء عامة ونبينا محمد ﷺ خاصة .

ولعلك تسأل : فهل من فرق بين حقيقتي الإيمان والإسلام ؟ وهل من تغاير بين شروطهما ؟

فالجواب أن هنالك فرقاً بين ما يصْدُقُ عليه كل من الإسلام والإيمان ، إلا أن بينهما تلازماً في الواقع .

فالإسلام ، كما قد علمت ، هو الاستسلام والانقياد لكل من الشهادتين والفرائض المذكورة ، ولابد فيه من النطق باللسان .

ولا يكتفى في النطق بالشهادتين إلا أن يعبر بكلمة « أشهد » . ولابد من الاستسلام بصريح اللفظ لفرضية الفرائض التي أمر الله عز وجل بها .

فالإسلام إذاً استسلام بالكيان الظاهري للإنسان ، يتوقف عليه جريان أحكام الإسلام في الدنيا من إحراز للدم وحل للمناكحة وشرعية التوارث .

أما الإيمان فهو التصديق القلبي بكل ذلك بحيث لا يبقى أي شك في النفس يتعلق بشيء مما ذكرناه من حقائق الإسلام ، ويتوقف عليه النجاة يوم القيامة بين يدي الله عز وجل .

ويتضح من ذلك أن الإنسان لا تجري عليه أحكام الإسلام في كل من الدنيا والآخرة معاً إلا إذا اتصف بكل من الإسلام والإيمان . وذلك بأن يذعن بقلبه ويعترف بلسانه .

ومهما نطق الإنسان بالشهادتين وغيرهما ، فإن ذلك لا يغنيه في الحقيقة شيئاً مالم يُصَدِّق ويذعن بذلك في قرارة قلبه . وإنما تجري أحكام الدنيا على الظاهر فقط لعدم إمكان الاطلاع على الباطن ، وحملاً للسان على محمل الصدق في الكلام .

إلا أنه قد وقع الخلاف بين الأئمة فيما إذا كان الرجل مؤمناً بقلبه فقط ، هل ينجيه ذلك يوم القيامة ، أم لا يُكتفى منه بذلك حتى يقر ويعترف بلسانه أيضاً .

نقل النووي عن جمع من العلماء أن اليقين القلبي وحده لا يكفي للنجاة يوم القيامة إذا كان بالإمكان الإقرار والتلفظ باللسان .

ورجح ابن حجر في شرحه على الأربعين النووية ما ذهب إليه جمهور الأشاعرة وبعض محققي الحنفية من أن الإقرار باللسان إنما هو شرط لإجراء أحكام الدنيا فقط ، أما يوم القيامة فيكفيه اليقين القلبي .

والله أعلم .



القسم الثالث

الكونيات

تمهيد

ونقصد بالكونيات ، كل ما علم بطريقة القطع واليقين من شأن الموجودات ، مما أمر الله عز وجل بمعرفته والاعتقاد بوجوده .

والموجودات تشمل : الإنسان ، والجان ، والملائكة ، وسائر المخلوقات والمكوّنات الأخرى من سماوات وأفلاك وأرض وبحار ، بما يتضمنه كل ذلك من أسباب ومسببات وحركات كونية مختلفة .

فكل هذه الأشياء يطلق عليها اسم : المكوَّن ، أو الكون .

وبذلك تعلم أننا لا نقصد بكلمة « الكون » المعنى الذي يقصده بها بعض من يتحدثون عن الحضارة عندما يقسمون الموجودات إلى عناصر ثلاثة : الكون ، والإنسان ، والحياة . فيقصدون بالكون ماعدا الإنسان والحياة من بقية المكونات الأخرى ، الحيَّة منها والجامدة .

ولسنا نرى أي مسوغ لغوي لتخصيص « الكون » بهذا القدر من المعنى ، مع ماهو معروف من أنها في الحقيقة مرادفة لكلمة « الوجود » فينبغي أن تشمل كل ما يسمى موجوداً .

وعلى هذا ، فستشمل بحوث هذا القسم دراسة الحقائق المتعلقة بما يلي :

أولاً ـ الإنسان .

ثانياً ـ الجان .

ثالثاً ـ الملائكة .

رابعاً ـ قانون السببية في الكون .

وكما قلت لك ، إنما يهمنا من حقائق هذه الموجودات ، ما كلفنا الله عز وجل بمعرفته ثم الإيمان به والاعتقاد بموجبه .

فلا جرم أن لا شأن لنا بما وراء ذلك من الحقائق الأخرى المتعلقة بطبائع بعض الأشياء وتركيبها واكتشاف المجهول منها . إذ لا يتعلق بها أي حكم ديني أكثر من مشروعية البحث فيها ومحاولة الاكتشاف لها .



أولًا

الإنسان

على المسلم أن يلم بالحقائق التالية عن الإنسان وواقعه ، ثم يستيقنها في نفسه ، ويقيم عليها معنى إيمانه بالله عز وجل :

أ ـ الإنسان أفضل المخلوقات وأشرفها .

ب ـ الإنسان مخلوق ـ من حيث الجنس ـ من عنصر التراب ، ومتكاثر ـ من حيث المصدر ـ من الإنسان الأول آدم عليه الصلاة والسلام .

ج ـ الإنسان مخلوق ، منذ النشأة الأولى ، في أتم مظهر وأحسن تقويم ، لم يتطور خلال شيء من تاريخه تطوراً نوعياً يتدرج به من فصيلة إلى أخرى .

ولنعد بالإيضاح إلى كل حقيقة من هذه الحقائق الثلاث على حدة .

أ ـ الإنسان أفضل المخلوقات وأشرفها :

ثبتت هذه الحقيقة بدليلين : أحدهما دليل الخبر اليقيني الصادق ، ثانيهما برهان العقل .

أما الخبر الصادق ، فقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمنا بَني آدَمَ وَحَمَلناهُم في البَرّ والبَحرِ وَرَزَقْناهم مِنَ الطَّيِّبات وَفَضَّلناهُمْ عَلى كَثيرٍ مِّمَّنْ خَلَقنا تَفْضيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] وقوله عز وجل : ﴿ وَإذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبْليسَ ، أَبى واستَكْبَرَ وَكان مِنَ الكافِرينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] .

والدليل في كل من الآيتين واضح الدلالة على المطلوب . ولا إشكال في معرفة أن الإنسان أفضل مما عدا الملائكة من المخلوقات ، فهاتان الآيتان وكثير

من الآيات الأخرى تصرح بذلك . ولكن وقع النظر والبحث في تعميم هذا الحكم حتى بالنسبة للملائكة أيضاً .

وسبب الاحتمال والغموض في ذلك ، قول الله تعالى في آخر الآية الأولى التي ذكرناها : ﴿ وَفَضَّلناهُمْ على كَثيرٍ مِّمَّنْ خَلَقنا تَفْضيلاً ﴾ إذ هي تدل ـ عند من أخذ بدليل الخطاب ـ على أن هنالك بعضاً من المخلوقات لم يفضّل عليها الإنسان ؛ ولا ريب أن هذا البعض ينبغي أن يكون الملائكة ، لما ثبت في القرآن والسنة الصحيحة من بيان فضلهم وعظيم درجاتهم .

أما من لم يتمسك بدليل الخطاب ، واكتفى بالأخذ بما ينطق به النص ، فقد قال إن استعمال كلمة « كثير » بدلاً من « الكل » لا يدل على أن الحال في القليل بالضّد . وأمضى الآية على عمومها في أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات .

فمِمَّن قال بأفضلية الملائكة على الإنسان مطلقاً ، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وهو اختيار الزجاج على ماروواه الواحدي[1] واحتجوا بما ذكرنا من آخر الآية ، وبقوله جل جلاله عن الملائكة ﴿ بل عِبادٌ مُّكْرَمونَ ، لا يَسبِقونَهُ بالقَولِ وهُم بِأمرِهِ يَعمَلونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٧] وبقوله تعالى ﴿ لا يَعْصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ ﴾ [التحريم : ٦] وبحديث البخاري رضي الله عنه « من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه » قال القرطبي وهو نص في أفضلية الملائكة[2] .

ومذهب جمهور أهل السنة والجماعة أنَّ خواص البشر من الأنبياء والصدِّيقين أفضل من خواص الملائكة ، وهم الذين خصهم الله بالذكر في كتابه الكريم . وعوام البشر وهم الصالحون من المسلمين أفضل من عوام الملائكة . ومن أدلتهم على

---

(١) ر : تفسير الرازي : ٦٢١/٥

(٢) ر : تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) : ١ ـ ٢٨٩

ذلك قول الله تعالى ﴿ إن الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ أولئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّة ﴾ [البينة : ٧] والبريّة تشمل الملائكة ، وبالحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم » كما استدلوا على ذلك بما جهز الله به الإنسان من مقومات التكليف التي بها يستأهل الأجر والمثوبة على القيام بما كلفه الله به من واجبات ، فقد ركب الله فيه مختلف الشهوات والأهواء التي يستأهل بمقارعتها والتغلب عليها أجراً لا يستأهله الملائكة ، لعدم وجود شيء من هذه الشهوات والأهواء في تركيبهم الوجودي[١] .

قال القرطبي : ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله (أي المتواتر من ذلك) أو إجماع الأمة ، وليس هاهنا شيء منه .

وأما برهان العقل : فيتمثل في الأمور التالية :

الأمر الأول : أن النفس الإنسانية تمتاز عن سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة ، ألا وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء وهي بذلك أول مفتاح لتسخير كثير من مظاهر الكون للإنسان ولجعلها تحت سلطانه .

ومن خصائص هذه القوة العاقلة ، أنها القوة التي يتجلّى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق منها ضوء كبريائه ، فتُهيئ صاحبها بذلك لممارسة العبودية لخالقها العظيم جل جلاله . فيصبح الإنسان نتيجة لذلك أول مظهر لألوهية الله عز وجل .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن من لوازمه الواضحة أن تكون النفس الإنسانية

---

(١) ر : شرح العقائد النسفية : ٥٠١

أشرف النفوس الموجودة في العالم (إذا استثنينا الملائكة نظراً للاعتبارات الاستثنائية بالنسبة إليهم) .

الأمر الثاني : مانراه بالتجربة والمشاهدة من دلائل صدق قول الله تعالى : ﴿ وسَخَّرَ لَكُم مافي السَّموات ومَا في الأرضِ جميعاً مِنهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] فأنت ترى أن كلاً من حركة الفلك ونظام الكون ووظائف المكونات المختلفة ـ إنما يجري وفقاً لحاجة الإنسان وخدمته ، فالإنسان يُمثِّل في هذا الوجود الذي من حوله قطب الدائرة ، على حين ينجذب إليه مختلف الموجودات الأخرى في تَطْواف دائب وسعي مستمر لتنسج له مقومات الحياة الفضلى وتهيئ له متطلباته وحاجاته المختلفة .

ومن لوازم ذلك (كما ترى) أن يغْدُوَ هذا الكائن الذي هذا شأنه مع سائر الموجودات ، وشأن سائر الموجودات معه ـ أفضلَها وأشرفَها على الإطلاق .

الأمر الثالث : صفات ركَّبها الله تعالى في الإنسان هي في جملتها فيوضات من صفات الربوبية ، كالعلم ، والقدرة ، والتكبر ، والنزوع إلى السيطرة والملك ؛ وغير ذلك ...

وإذا أمعنت الفكر ، علمت أن الإنسان إنما يؤمن بالله عز وجل ويمتلئ قلبه بتعظيمه وإجلاله ، بواسطة ماركب فيه من هذه الصفات ، فبعلمه الجزئي المحدود يتصور علم الله الواسع الذي لا يحد ، وبقدرته الجزئية المحدودة يستطيع أن يتصور قدرة الله المسيطرة على كل شيء ، وبملكيته الصغيرة يتمكن من تصور ملك الله الواسع الذي يدخل فيه كل ما كان وما يكون . ولولا ما أودع الله فيه من هذه النماذج من الصفات ، لما تهيأ لإدراك عظمة الله تعالى وجليل سلطانه .

فإذا كان الإنسان في حقيقته مستودعاً لظلال أو فيوضات من صفات رب العزة جل جلاله ، فأخْلِقْ به أن يكون أشرف المخلوقات وأكرمها .

☆ ☆ ☆

فخلاصة القول : أن أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات (باستثناء الملائكة) حقيقة ثابتة بالقطع . دلَّ عليها الخبر الصادق المتواتر والبرهان العقلي الصحيح . فوجب على المسلم أن يعتقد ذلك .

وأما أفضليته على الملائكة ، فالأمر في ذلك محتمل ، والأدلة ظنية ولذلك وقع الخلاف ، ولعل الأسلم فيه أن نحيل حقيقة الأمر في ذلك إلى علم الله عز وجل .

☆ ☆ ☆

ب ـ الإنسان مخلوق (من حيث الجنس) من تراب ومتكاثر (من حيث المصدر) من الإنسان الأول آدم عليه الصلاة والسلام .

واعلم أن البرهان على هذه الحقيقة ، محصور في اعتماد الخبر الصادق المتواتر . إذ هي ليست من المسائل المتعلقة بالحسيات حتى تخضع لدليل التجربة والمشاهدة . وإنما هي منبثقة عن خبر يتعلق بتاريخ قديم . فلا مطمع . للتحقق منها . بأكثر من التحقيق في الخبر نفسه .

فأما أن الإنسان مخلوق (من حيث جنسه) من عنصر التراب ، فقد دلت على ذلك آيات صريحة وكثيرة في كتاب الله عز وجل .

فمنها قوله عز وجل ﴿ مِنها خَلَقناكُمْ ، وَفيها نُعيدُكُمْ ، وَمِنها نُخْرِجُكُم تارَةً أُخْرى ﴾ [طه : ٥٥] وقوله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن صَلْصَالٍ مِّن حَمَإٍ مَّسنونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦] وقوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلْصالٍ كالفَخَّار ﴾ [الرحمن : ١٤] .

والصلصال طين يَبِس فهو يتصلصل أي يصوِّت كأنه الفخار أي الطين المشوي . والحمأ طين أسود متغير ، والمسنون أي المصوّر صورة إنسان .

فالصلصال تفسير لجنس التراب ؛ والحمأ المسنون تفسير لجنس الصلصال . كما تقول : أخذت هذا من رجل من العرب من الشام[1] .

وأما أنه متكاثر من آدم عليه الصلاة والسلام ، وأنه الإنسان الأول ، فقد دلت على ذلك أيضاً آيات صريحة وكثيرة في كتاب الله تعالى . تقرأ هذه الآيات في قصة خلق آدم التي تكررت كثيراً في الكتاب المبين .

واعلم أنه لاشأن لنا في هذا المقام بالبحث في كيفية نزول آدم من الجنة ، والتحقيق في البقعة التي هبط إليها من الأرض ، وكيفية تكاثر النسل من آدم وحواء بعد ذلك . إذ كل ذلك مما لامدخل له بأمر العقيدة القائمة على الأحكام الثابتة القطعية .

بل الحديث في ذلك كله من فضول النظر والقول ، ولا يوجد دليل قاطع على شيء من ذلك في كتاب أو سنة ، ولذلك لم يتعبَّدنا الله عز وجل باعتقاد شيء معين فيه .

وإياك أن تلتفت إلى مايقوله بعض المتصوفة ، من زعم أن آدم عليه الصلاة والسلام المذكورَ قصةُ خلقهِ في القرآن ـ كان مسبوقاً بأوادم كثيرين غيره . ثم يذهبون يجرُّون ذيل الخيال في تفصيل الحديث عن ذلك .

فهذا الادعاء مبني على الحدس المجرد ، لايدعمه دليل من الخبر الصادق القطعي ولا برهان يقيني من النظر العلمي . ومن الأدب مع كتاب الله تعالى

---

(١) من العجيب المضحك أن بعض الملاحدة أرادوا أن يزعموا أن في القرآن تناقضاً ، فعكفوا على البحث عن ذلك .. ثم اهتدوا إلى هذا التناقض في هذا الذي يقوله عن أصل الإنسان : مرة يقول إنه مخلوق من تراب ، ومرة من صلصال ، ومرة من حمأ مسنون .
وهو كالتناقض الذي يقع فيه من يقول : إن هذا البيت مبني من تراب من طين من آجر ! .. وإذا فقد الإنسان حريته حتى أصبحت ملك سادته ، فلا عجب أن يفقد عقله أيضاً ، فيفكر برغبة غيره .

وسنة رسوله أن نكل علم مالم يبينه الله عز وجل ولا رسوله إلى علم الله وحده ، اللهم إلا ماكان من ذلك خاضعاً لوسائل البحث والتجربة والمشاهدة ، فقد دعانا كلام الله تعالى إلى البحث عن الحقيقة والتنقيب عن اليقين في ذلك .

ج ـ الإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى في أتم مظهر وأحسن تقويم :

والحديث عن النشأة الأولى للإنسان ، لا يخضع هو الآخر لبراهين التجربة والمشاهدة المحسوسة ، إذ هو في جملته حديث تاريخي لن تستطيع أن تعمل فيه الفكر والنظر بأكثر من دليلي التوسم والاسترداد ، وهما دليلان وهميان كما سبق أن أوضحنا ذلك ، يستحيل إقامة عقيدة قطعية على شيء من نتائجهما .

ولو أن الله عز وجل لم يحدثنا بشيء قطعي في هذا الصدد ، لما التزمنا في شأنه بأي حكم نعتقده ونقطع به .

ولكن الخبر الصادق المتواتر ، وضعنا في ذلك أمام مالا مجال للشك أو الظن فيه . وهو قوله تعالى : ﴿ لَقَد خَلَقنا الإنسانَ في أَحسَنِ تَقْويمٍ ﴾ [التين : ٤] و « أل » الداخلة على الإنسان للاستغراق كما هو معلوم ، فهي عامة للأفراد كلهم ..

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ ياأَيُّها الإنسانُ ماغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَريمِ الَّذي خَلَقَكَ فَسوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ ـ ٧] أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال .

ومن مؤكدات هذه الحقيقة التي قررها القرآن ، ماروي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته .. » أي أنه منذ خُلِقَ إنما كانت صورته هي الصورة ذاتها التي استمر عليها وعرف بها ، أي لم يُنَشَّأ متنقلاً من شكل إلى آخر . فالضمير في صورته راجع إلى آدم .

وهنـاك رأي آخر ، يرى أن الضمير راجع إلى ذات الله تعـالى ، والمقصـود بالصورة الصفة ، أي خلقه عالماً مريداً حكيماً سميعـاً بصيراً .. وتلـك هي صفـات الله تعالى (انظر ص ١٣٨ من هذا الكتاب) .

وسـواء أعَـدْت الضمير على آدم ، كما هـو رأي الجمهـور ويـدل عليـه ظـاهر الحديث ، أو أعدته إلى ذات الله تعالى ، فـالحـديث تـأكيـد للـدلالـة القطعيـة في القرآن ، إذ البحث في معرض بيان تكريم الله لآدم منذ أول خلقه .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن نعلم بأن الإنسان لم يتنقل . خلال تاريخه كله ، في أي تطور نوعي . كأن يقـال إنـه ترقى من فصيلـة إلى أخرى ، أو تـدرج من مظهر نوعي في الهيئة والشكل إلى مظهر آخر .

وهذا الحكم نتيجة قطعية للأمور الثلاثة التي ذكرناها عن الإنسان ، وهي :

أنه أفضل المخلوقات وأشرفها .
أنه مخلوق من التراب ، ومتكاثر من آدم عليه الصلاة والسلام .
أنه خلق (في نشأته الأولى) في أحسن تقويم .



مَصِيرُ نَظَرِيّةِ ٱلنشوءِ وَٱلارتقاءِ أَمَامَ هَذِهِ الحَقِيقَةِ

وكما ترى ، فإن هذه الحقيقة القطعية التي يجب على المسلم الاعتقاد بها ، تتناقض مناقضة كلية مع ما يسمى بنظرية النشوء والارتقاء ، التي تتبنّى فرضية تاريخية أخرى عن الإنسان ، وهي أنه تسلسل ضمن حلقات مختلفة من التطور النوعي ، تدرج فيها من البسيط إلى المعقد ، ومن البدائية إلى الرقي ، في كل من الشكل والفكر معاً . فما موقف المسلم من هذا التناقض والخلاف ؟ ..

والجواب : أن موقفه ينبغي أن يكون الموقف ذاته الذي يتخذه أي عاقل لدى تناقض حقيقة علمية مع مسألة نظرية . إذ لا ريب أن الحقيقة العلمية هي التي ينبغي أن يكتب لها البقاء ، ولا مناص من نسخ النظرية مادامت مناقضة لتلك الحقيقة لايمكن جمعها معها .

وعلينا الآن أن نوضح (مجدداً) كيف أن الحكم الذي ذكرناه عن واقع الإنسان ، حقيقة علمية ثابتة ، بينما الحكم بتطور الإنسان تطوراً نوعياً مجرد نظرية بل فرضية ليس من حولها أي برهان علمي .

وينبغي أن تعلم أولا ، أن هذه المسألة ليست مما يتعلق بالمحسوسات والمشاهدات ، فلا مطمع في أن تبحث لها عن دليل من التجربة المحسوسة المشاهدة . ذلك لأن البحث ليس متعلقاً بالإنسان الحالي ، حتى يكون الموضوع خاضعاً لمجهر التجربة والمشاهدة ، وإنما هو متعلق باكتشاف ناحية تاريخية فيه . مرت وانطوت . وكل مايمكن الاستعانة به في البحث ، من المستحاثات ووجوه الشبه بين الإنسان وحيوانات أخرى وغير ذلك ، إنما هو من وسائل البحث

الاستردادي وسبيل من سبل الفرض والتوسم ، وشتان بين هذه الوسائل وبرهان التجربة والمشاهدة .

ثم إن المسألة ليست أيضاً مما يخضع لقانون التلازم أو القياس الصحيح القائمين على أساس الاستقراء التام ، إذ هي كما قلنا محاولة استكشاف لتاريخ بعيد موغل في القدم ليس بيننا وبينه أي برهان علمي قاطع .

ولو أن المسألة وقفت عند هذا الحد ، لالتزمنا جانب الشك أو الظن المجرد ، دون أن نخضع عقولنا لأي فرضية أو نظرية تحتمل الخطأ والصواب .

ولكنها لم تقف عند هذا الحد ، فقد كشف عنها الخبر اليقيني المتواتر الذي فرغنا من عرضه وبيانه .

وقد علمت أن مصدر الخبر صريح كلام القرآن . وعلمت فيما مضى أن القرآن ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام بل هو كلام الله عز وجل بالبرهان القطعي الذي مر بيانه . وعلمت قبل ذلك البرهان القطعي على وجود الله عز وجل .

فكان لا بد إذاً من اليقين بأن ما تضمنه خبر القرآن هو الحق لأنه كلام الله عز وجل ، يتحدث بنفسه عن كيفية خلقه للإنسان .

فقد ثبت إذاً أن حديث الإسلام عن أصل الإنسان حقيقة علمية قاطعة .

أما حديث داروين ، فهو ليس أكثر من نظرية وفرضية باعترافه هو ، وباتفاق سائر العلماء الآخرين سواء منهم من أيده أم خالفه .

وليست نظريته عن أصل الأنواع ، إلا حلقة في سلسلة نظريات متلاحقة مختلفة ، كلها تفرض أن الحياة تطورت على وجه هذه الأرض تطوراً آلياً ، ثم تتفرق عن بعضها في طرائق مختلفة لتفسير هذا التطور وتحليله .

فلنستعرض أهم هذه النظريات ، ولنتأمل كيفية ولادة كل منها ، ثم كيفية

نموه في حقل الأدلة التي اعتمد عليها ، ثم رجوعه القهقرى إلى حيث الضآلة والضعف ، تحت وطأة النقض والنقد اللذين تسارعا إليه من كل جانب .

اللاماركية :

ولعل من أسبق هذه النظريات وأهمها ما نادى به العالم التصنيفي « لامارك » من أن عدم ثبات الأنواع على حالها إنما يعود إلى الظروف المختلفة التي تتقلب على كل منها ، كالإقليم أو الغذاء أو طراز الحياة أو طبيعة المناخ .. الخ . فاختلاف شيء من هذه الظروف يؤثر في اختلاف العادات ، واختلاف العادات يؤثر - مع الاستمرار - في اختلاف الوظائف والأعمال ، واختلافها يؤثر - مع الزمن - في اختلاف الشكل والأعضاء .

ولقد دعم لامارك نظريته هذه بعدد من الأمثلة الحية التي استرعت انتباهه ، فالفقاريات التي تتغذى بدون مضغ تضمر أسنانها وتصبح خفية في اللثتين . والحوت وآكل النمل مثالان على ذلك . والخلد الذي يعيش في الظلام يتمتع بعينين صغيرتين جداً لاتكادان تنهضان بوظيفة .

وعلى الرغم من أن هذا التحليل الذي تقدم به لامارك ، كتفسير لما فرضه من آلية التطور ، لم ينل في البدء إلا قليلاً من النجاح ، فإنه راح يشع فيما بعد في أذهان الناس ، وراحوا يعتبرونه ، إلى حين من الزمن ، خير تفسير لظاهرة التطور . والتصقت النظرية باسم صاحبها ، فراحوا يطلقون عليها : اللاماركية .

ولكن ماإن وضعت النظرية تحت مجهر البحث والنقد ودلائل التجربة والاستقراء ، حتى انطفأ شعاعها وانكفأت على أعقابها وتقلّص ماكان لها من سلطان على الأذهان .

نقد اللاماركية :

ولنعدد الآن بعض الانتقادات التي وجهت إليها :

أولاً ـ مقتضى مايراه لامـارك ، أن سير التطور يتجـه إلى فـائـدة الحيوان ، وضمان استمراره في عمله الوظيفي ، والحفاظ على أكبر قدر من التنـاسق بينـه وبين أحوال الطبيعـة مهما اختلفت وتطـورت ؛ ولقـد لاحظنـا ذلـك من الأمثلـة التي استند إليها .

غير أن الواقع المشـاهـد لم يثبت استمرار هـذا السير . فـإن أنـواعـاً كثيرة من الحيوانات قد انقرضت وبادت تحت وطأة مايسمى بالعوامل الطبيعية ، وقـد كان من مقتضى افتراضات لامارك أن تتطور تلك الحيوانـات وفقـاً لاختلاف الأحوال الطبيعيـة ، ومـا يتقلب عليهـا من طوارئ الظروف والأجواء والبيئـات ، بحيث تضمن لنفسها استمرار البقاء النوعي على أقل تقدير .

ثانياً ـ إن أكثر ما لاحظه لامارك ، من مظاهر التطور التي اعتمدها أسـاسـاً لبحثه وميزاناً لفرضيته ، إنما يجري ضمن سلسلة الأفراد ، بعـامل الوراثـة ، أي من قبل أن يلتقي الحيوان مع الظروف أوالبيئـة أو الأحوال التي تلجئـه إلى نـوع من التطور أو التشكل للإنسجام معها .

فجلد الطفل يكون ، منذ ولادته ، أشـد غلظـاً على أخمص القـدمين منـه في أي جهة أخرى من أجزاء الجسم .

وللجمال ثفنات تقع في سويات رسغ اليـدين والمرفق بحيث تطـابق السطوح التي تتحمل وطأة الوزن عندما يستنيخ البعير . وتكون هذه الثفنـات موجودة في ولد الناقة منذ ولادته .

وتتجه الامتدادات العظمية في عظام الفخذ في جنين الإنسـان ، كما تتجـه في البالغ المكتمل ، أي وفقاً لاتجاه الضغوط التي تطرأ على العظام عند المشي .

ولا يمكننـا في مثـل هــذه الأحـوال أن نعلـل الأمر بتكييف ســابـق تـأثر

بالظروف والأحوال[1] سيا وقد تبين من علم الوراثة أن الهيكل الأساسي للكائن الحي ليس من العوامل الخارجية وإنما هو أصل ذاتي حسب اقتران الصبغيات والناسلات لكل نوع وحده . ودعوى أن الأمر لم يكن على هذا النحو الوراثي في غابر الأزمان السحيقة ، زعم غيبيّ بحت يتنافى مع الواقع المستمر المشاهد[2] .

ثالثاً ـ وبقطع النظر عن كل نقد يوجه إلى هذه الفرضية ، فإنها تعالج مسألة أخرى أضيق بكثير من موضوع بحثنا الشامل الذي يتناول تحليل فرضية تقول بتطور الحيوان تطوراً نوعياً كاملاً لا يحدّه تبدل أشكال وألوان وأعضاء من الحيوان ، بل يأتي على التكوين الحيواني كله ، بدءاً من الغريزة والفكر ، إلى الشكل والشعر والمخالب والأظفار ، ضمن ظروف لا يتراءى بينها وبين هذا الانقلاب النوعي أي تجاوب وانسجام .

فالتحليل الذي تذهب إليه النظرية اللاماركية بالنسبة لظاهرة الأشكال والأعضاء الجزئية التي تتأثر مع الزمن بحال البيئة والظروف والأجواء ، لاتغطي إلا جزءاً يسيراً جداً من موضوع البحث الأساسي ، الذي لايزال يتطلب تحليلاً وشرحاً يجيبان على أسئلة كثيرة تفرض نفسها في هذا المجال .

الداروينية :

في عام ١٨٧١ أخرج داروين كتابه المشهور المسمى بـ « أصل الأنواع والانتخاب بالنسبة للجنس » حاول فيه أن يردّ التطور إلى تفسير آلي بحت . بحيث يكون مستقلاً قدر الإمكان عن الأسباب الغائية ولكنه مع ذلك اتخذ من مبدأ اختيار الأصلح سبباً للتطور .

وقد استمد داروين نظريته من كتاب « السكان » للاقتصادي المعروف

---

(١) انظر · علم الحياة الحيوانية للدكتور عبد الحليم سويدان ص ١٢٠

(٢) التطور والإنسان للدكتور حسن ريبو ص ١٧

مالتوس ، الذي كان يزعم بأن السكان يزدادون بنسبة هندسية بينما لا تزداد نسبة الغذاء إلا بنسبة حسابية ، مما يؤدي إلى تنافس وتنازع بين الأفراد على الغذاء ليتلاشى غير الأكفاء[1] .

فهو يرى أن ثمة صفات ، قد لا تكون ذات أهمية في الظاهر ، يتفاوت الأفراد في مدى اتصافهم بها ، يكون لها أثر فعال في المحافظة على صاحبها وترشيحه لمستوى أفضل . وعندما يدخل هؤلاء الأفراد في صراع مع الطبيعة من أجل الحياة يجري اصطفاء طبيعي يؤدي إلى بقاء أشد الأفراد كفاءة وصلاحية للبقاء ، بما تمتاز به من تلك الصفات ، أو بما تمتاز به من الحصول على أعلى الرتب منها .

ويستشهد داروين على أحقية هذا الاصطفاء بتلك العوامل الهائلة . التي تبيد نتاج كثير من الكائنات الحية مع الزمن . فهو يلفت نظرنا مثلاً إلى أن أنثى الفيل تضع خلال حياتها ستة صغار ، ولو اتبعنا هذا الأساس فإنه يجب أن يصبح نتاج كل ذكر واحد وأنثى واحدة في نهاية سبعمائة وخمسين عاماً نحو تسعة عشر مليوناً . وواضح جداً أن الواقع الطبيعي بعيد كل البعد عن هذا الحساب[2] .

وهكذا فإن التفوق الذي يتمتع به الحيوان ، من حيث هو نوع بالنسبة للأنواع الأخرى ، أو من حيث هو فرد بالنسبة للأفراد الأخرى يمكنه من اكتساح غيره لا في أصل الوجود فحسب بل في خصائص الوجود أيضاً وما قد ينطوي عليه من تعقيدات مفيدة .

وفي غمرة هذا التسابق الذي تم منذ أقدم العصور في عالم الأحياء ، ونتيجة لتفاوت الصفات الكامنة في كل منها ـ وهي الطاقة الوحيدة لذلك التسابق ـ ظهر سلّم الدرجات التي صنفت هذه الأحياء إلى أنواع مختلفة ومتفاوتة شتى . وليس

---

(١) الإنسان والتطور للدكتور حسن زينو ، وعلم الحياة الحيوانية للدكتور عبد الحليم سويدان .

(٢) أصل الأنواع لداروين ص ١٩٥ .

الإنسان ، في سلّم هذه الدرجات ، إلا واحداً من فريق تلك الحيوانات البسيطة التي بدأت السباق فيما بينها ، ضمن دائرة نوعية واحدة ، فكان من حسن حظه أن كان له من الصفات الكامنة ما تقدم به صعداً في حلبة ذلك السباق ورشحه لتبوء أسمى درجات الحياة ، من حيث تخلف زملاؤه عنه في درجات متفاوتة شتى .

ولكن على أي دليل اعتمد داروين في الذهاب إلى أن الإنسان كبقية الحيوانات الأخرى تطور من نوع واحد ؟

لقد استمد داروين دليله على ما يقول من علوم التشريح المقارن والأجنة ، ومن التراكيب الأثرية التي توجد في الإنسان .

فقد وجد مثلاً أن أجزاء الهيكل العظمي للإنسان ، يمكن مقارنتها بمثيلاتها في بعض الحيوانات الأخرى ، وكذلك الأمر بالنسبة للجهاز العضلي أو العصبي ، حتى تركيب المخ وأجزائه يمكن مقارنتها بين الإنسان والحيوان واستخراج كثير من أوجه الشبه بينهما .

كما رأى بالنسبة للأدلة المستمدة من علم الأجنة أن عملية تكوين الجنين في الإنسان ما هي إلا استعادة لأطوار الحياة في حيوانات أقل مرتبة ، كما أن المراحل الأولى لتطوير الجنين تتشابه تشابهاً كبيراً في الإنسان والحيوان . فقد لاحظ مثلاً أن عَجُز الجنين ينتهي بما يشبه الذيل في جنين كل من الإنسان والكلب ، وبتطور الجنين يختفي الذيل في جنين الإنسان ويبقى في الكلب .

كما استدل داروين بمظاهر من الترابط النفسي بين الإنسان وبعض أنواع الحيوانات ، مثل ظاهرة الوجدان والشعور والانفعالات النفسية[1] .

---

(١) انظر أصل الأنواع لداروين : الفصل الثامن الغريزة : ٤٥٤ ـ ٥٠٠ ، والفصل الحادي عشر التعاقب الجيولوجي للعضويات : ٥٩١ ـ ٦٢٦ ، وانظر قصة التطور للدكتور أنور عبد الحليم : ص ٦٨ .

نقد الداروينية :

يقول الدكتور عبد الحليم سويدان : لقد أثارت النظرية الداروينية كثيراً من النقد . ثم عرض لطائفة منها قال عنها بعد ذلك إنها جزء يسير من انتقادات كثيرة أخرى وجهت إلى الداروينية[1] .

فلنعدد ، على وجه السرعة ، هذه الانتقادات وغيرها ، آخذين بعين الاعتبار ما وجه داروين نفسه إلى نظريته من مشكلات اعترف بالنسبة لكثير منها بأنها مشكلات عويصة واكتفى بذلك عن محاولة حلها أو الإجابة عليها !...

١ ـ إن الواقع الذي نشاهده يتنافى بشكل حاد مع ما أسماه داروين بقانون الاصطفاء والبقاء للأصلح . فإن الكون لا يزال ـ بعد كل ما قطعه من عمره المديد ـ يعجُّ بالأصلح والصالح وغير الصالح من شتى أصناف الحيوانات بدءاً بالهلاميات إلى القردة فالإنسان !...

ولو كان قانونه صحيحاً ؛ لكان من أبسط مقتضياته الواضحة ، أن يتجاوز موكب السباق الحيواني نقطة البدء على أقلّ تقدير مهما فرضنا حركة التطور والاصطفاء بطيئة . ولكن ها هي ذي نقطة البدء لا تزال تفور بحيواناتها الضعيفة المتخلفة ولا تزال تتمتع بحياتها وخصائصها المعاشية كما يتمتع بها السابقون مثلاً بمثل .

٢ ـ لا خلاف في أن كل نوع من الحيوانات تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن بسبب عوادٍ وعوامل طبيعية مختلفة تتغلب عليها . هذه حقيقة مشاهدة لا تنكر . أما أن تكون الكارثة نتيجة تسابق وتنافس ينتهيان باصطفاء الأنسب والأقدر فهذه ـ كما يقول الدكتور عبد الحليم سويدان ـ مسألة أخرى ... إن كلاً من الموت والنجاة من الموت كثيراً ما يكون عائداً إلى المصادفة المجردة لا إلى

---

(١) علم الحياة الحيوانية : ص ١٣٣ .

صفات خاصة في الفرد . فالمستنقع العظيم الذي يجف والموجة الهائلة التي تتدفق على الرمل ، يتركان بعدهما ألوفاً من الجثث ، وتنجو من كارثة الموت طائفة أخرى ، ولكن لا الموت اصطفى لنفسه الضعفاء ولا النجاة اختارت لنفسها الأقوياء ، بل الأمر كله جاء على سبيل المصادفة .

٣ ـ إن الموت يتناقض هو الآخر ، مع ما يراه داروين من أن الطبيعة تسير مع جماعة الأحياء حسب قانون الاصطفاء وإبقاء الأصلح . فأي بقاء يتم للأصلح إذا كان الموت يتربص به . على أن الدراسات الإحصائية التي أثبتها علماء هذا الشأن تبين أن الموت يداهم في أول الأمر الأفراد الذين قد يرتفعون عن النمط العادي حيث يبقى بعد ذلك النمط المتوسط وما دونه . وهي نتيجة تخالف نظرية داروين وتنبؤاته[١] .

٤ ـ إن عملية الاصطفاء ليست حركة آلية ، سواء اعتبرناها اصطفاء صنعياً أو طبيعياً ، بل هي وسيلة تستهدف غاية . والسعي نحو غاية ما يعتبر أعقد عمليات الفهم والإدراك . فكيف يمكن إسناد ذلك إلى « الطبيعة » التي لا مناص من تفسير عملها وآثارها ، مهما تنوعت التعابير عنها ، بالآلية أو العشوائية المجردة .

وانتخاب الأصلح لا بد أن يعتمد على قانون يميز الأصلح عمن دونه ويعلل ذلك ويوجهه ، فعلى أي قانون تستند الطبيعة في انتخابها وما هو التعليل الذي هضمته الطبيعة لذلك ثم انطلقت متأثرة به ؟

٥ ـ إن وقاية الحياة من أن يتسلل إليها ضعيف لا تتوفر فيه مجموعة الصفات الصالحة ، أيسر على الطبيعة ـ لو كان الأمر بيدها ـ من أن تذهل عنه . حتى إذا تسلل إلى الحياة وأخذ قسطه منها وراح يشارك أمثاله في القيام بكافة الوظائف

---

(١) علم الحياة للدكتور سويدان : ١٣٣ .

الحياتية ، انتبهت إليه فجأة ثم راحت تلتقطه وأمثاله من بين سائر الحيوانات لتقضي عليه وتصحح في محوه خطيئتها التي ما كان لها أن ترتكبها .

إن كان هذا الضعيف محكوماً عليه بالتخلف ، فالزوال ، لأنه ليس من صنف الصالح أو الأصلح ، فلماذا أوجدت الطبيعة هذا الذي تريد اليوم أن تقضي عليه أو تؤخره عن الركب ؟.. أما إذا قلنا أن أمر إيجاده لم يكن إليها ، فأحرى أن لا يكون إليها أيضاً أمر تهذيب الكون بإعدامه والقضاء على خطيئة وجوده .

٦ - إذا كان مبدأ الاصطفاء الطبيعي هو مبعث التطور المستمر في الكائنات الحية ، وكان هذا التطور يتجه دوماً شطر ما هو الأصلح - فلماذا لا نجد القوى العاقلة في كثير من الحيوانات أكثر تطوراً وارتقاء من غيرها ما دام هذا الارتقاء ذا فائدة لمجموعها ؟.. ولماذا لم تكتسب القردة العليا من القوى العاقلة بمقدار ما اكتسبه الإنسان مثلاً ؟

لقد عرض داروين لهذه المشكلة التي وجهها إليه ، كما يقول هو في كتابه ، أكثر من كاتب ، ولكنه لم يجب عليها وإنما علّق عليها بقوله :

« إننا لا ينبغي لنا أن نعثر على جواب محدود معين على هذا السؤال ، إذا ما عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة على سؤال أقل من هذا تعقيداً »[1] .

ثم إنه عرض مرة أخرى لهذه المشكلة التي وقفت مع مشكلات كثيرة أخرى في طريق نظريته ، بأسلوب آخر ، ومرة أخرى أقر بعجزه عن الإجابة عليها فقال :

« طالما تساءل بعض الباحثين : كيف أن أثر الانتخاب الطبيعي ، ما دام بالغاً إلى الحدود البعيدة القصية ، لم يستحدث في أنواع معينة ، تراكيب ، إن استحدثت فيها كانت ذات فائدة كبيرة لها ؟.. غير أنه مما يضاد بديهة العقل أن

---

(١) أصل الأنواع : ص ٤١٢ .

نحاول الإجابة على هذا السؤال وأمثاله إجابة بينة ، إذا ما قدرنا مبلغ جهلنا بتاريخ كل نوع من الأنواع »[1] .

٧ ـ لقد ثبت لدى الدراسة أن كثيراً من نباتات مصر وحيواناتها ، لم تتغير عن وضعها خلال قرون كثيرة متطاولة ، يتضح ذلك من الأنسال الداجنة المنحوتة في بعض الآثار المصرية القديمة ، أو التي حفظت بالتحنيط وكيف أنها تشابه كل المشابهة الصور الباقية اليوم ، بل ربما لا تكاد تفترق عنها بفارق ما .

بل إن هنالك تلك الحيوانات العديدة التي لم يطرأ على تركيبها أي تحول منذ بداية العصر الجليدي ، على الرغم من أنها قد وضعت تحت تأثيرات كثيرة في تغيير المناخ بل إنها كثيراً ما هاجرت مسافات شاسعة على سطح الكرة الأرضية وذلك باعتراف داروين نفسه .

فأين هذا الواقع الذي لا ريب فيه من فرضية النشوء والارتقاء ؟؟ ..

٨ ـ وأخيراً نقول : إن كل ما اعتمده داروين لا يعدو أن يكون من نوع المشاهدات الوصفية الثابتة ، أي إنه لاحظ ظاهرة التشابه التصاعدي في الكائنات الحية بدءاً من الخلية الأولى إلى أرقى أنواعها وهو الإنسان .

ولكن ما علاقة هذا التشابه الثابت بين سلسلة الحيوانات بدعوى أنها جميعاً منحدرة من أصل حيواني واحد ؟ .. ألا يمكن أن يكون الفرق بين الإنسان وغيره من الحيوانات مثلاً فرقاً ناشئاً من اختلاف الماهية لا من الاختلاف في الطور وإن تراءى بينهما بعض الشبه ؟ .. أي لماذا لا تكون هذه السلسلة المتدرجة في التشابه من الكائنات الحية ، قائمة على هذا التدرج والتشابه نفسه منذ أن خلقها الله عز وجل ؟..

لو كان ثمة ميزان من دليل التجربة والمشاهدة ، لكان في ميسوره أن يقضي

---

(١) المرجع السابق : ص ٤٤٧ .

على هذا التساؤل من أساسه . وأن يحمل إلينا القول الفصل في المسألة . ولكن لا داروين ، ولا من سبقه أو لحقه من علماء هذا الشأن استطاع أن يمدنا بدليل ما من هذا القبيل .

الداروينية الجديدة :

كان للانتقادات الكثيرة التي توجهت إلى نظرية داروين أثر كبير في أن تتهاوى ويمر عليها عهد من السقوط والتردّي ، ولكن طائفة من الباحثين عادوا فأشادوا من أنقاضها نظرية أخرى جديدة أطلق عليها فيما بعد اسم : الداروينية الجديدة ، اعتبرت بمثابة النسخة المصححة لنظرية داروين .

وقد تزعم هؤلاء الباحثين العالم الهولندي Hugo de Veries .

ثم شايعه ودعمه في ذلك طائفة من علماء الحياة أكثرهم إنكليزيون وأمريكيون .

وأهم ما ينهض عليه هذا المذهب الجديد ويعتبر فارقاً أساسياً يتميز به عن نظرية داروين ما قد ترجح عند هؤلاء الآخرين من أن التطور إنما يقوم على أساس الطفرة التي تحدث فجأة وبالمصادفة ، لا على أساس انتخاب الأصلح كما يقول داروين . ويقولون إن التغيرات بعد أن تتم فجأة وعلى سبيل الطفرة التي لا يستبين فيها سبب غائي تتسجل فوراً في الذخيرة الوراثية ، حيث تنتقل بعد ذلك إلى السلالة بعامل من الوراثة .

وإذاً فإن هذا المذهب لا يقبل فكرة الاصطفاء الذي أطال داروين في افتراضها وتصورها ، بل يجعل للمصادفة الدور الرئيسي في تكوُّن الأنواع وتكاثرها ، مع الاعتراف بما للوسط الذي ينشأ فيه الحيوان من أثر ثابت على كمية التغيير ونوعيته .

نقد الداروينية الجديدة :

غير أن هذه « النسخة المصححة » لمذهب داروين استهدفت هي الأخرى انتقادات كثيرة ووقعت تحت نقائض لم تجد أي مفرّ منها . وإليك بعض هذه الانتقادات :

١ً ـ إن التطور المفروض الذي هو أصل البحث ، تطور تقدمي ولا ريب ، إذ هو التفسير المقترح لتدرج أصناف الحيوانات على ضوئه . فهل من شأن الطفرة أن تنطوي على هذا التطور التقدمي المطرد ؟

المعروف أن الطفرة إنما تنطوي دائماً على صفات الانتقاص والاضطراب ، وهل الموت وما يكون بين يديه من أسباب ومقدمات إلا من أبرز مظاهر الطفرة ؟ .. فكيف يفسر التطور التصاعدي المطرد على أساس من هذا العامل الانتقاصي المضطرب ؟ ..

وبتعبير آخر ، لماذا لا تتجه الطفرة يوماً ما في سيرها بالركب الحيواني ، نحو الانتكاس إلى الخلف بدلاً من الصعود الشاق الدائب إلى الأمام ؟ ..

ولا ريب أن اعتماد أي إجابة موضوعية على هذه الأسئلة ، كفيل بأن يؤدي إلى انهيار هذه النظرية الجديدة من أساسها .

٢ً ـ إذا كانت الطفرة هي التي تتحكم فيما يطرأ على الكائن الحي من تغير وتطور ، فأي موجب يبقى لافتراض نشأة الكائنات الحية من أصل واحد ؟ .. إذ من المعلوم أن هذا الافتراض إنما لاقى القبول عند أصحابه بناء على ما لاحظوه من الشبه التصاعدي بين هذه الكائنات وهي الملاحظة التي جعلتهم يقولون بمبدأ الاصطفاء وانتخاب الأصلح .

فإذا نسف هذا المبدأ بافتراض الطفرة ، فلا بد من تجاهل ظاهرة التشابه

التصاعدي الملموس بين أصناف الأحياء . وعندئذ لا يبقى لافتراض وحدة الأصل الحيواني أي وجه مقبول .

وهكذا فإن القول بالطفرة يحمل في طواياه عوامل التدمير لفكرة التطور من أساسها .

٣ - إن القول باحتضان قانون الوراثة للدفع الطفري الذي يفترض أنه ساق الحيوان في وقت ما من عمره النوعي أو « السلالي » إلى قفزة تطورية ، دون الإشارة إلى ما قد يعتبر شبه دليل على هذه القفزة ، ليس أكثر من ستر لضعف هذا الرأي وراء نظام الوراثة .

إذ من الطبيعي أن يتساءل الباحث عن أي مَعْلمة من المعالم التي بإمكانها أن تشير لنا ، ولو عن بعد ، إلى أي حقبة تاريخية ظهرت فيها طفرة ما لحيوان ما ، أي قبل أن تختفي في مكنون الغيب الوراثي ! ..

وبعد :

وبعد ، فقد كان هذا كله خلاصة للآراء والمذاهب الحديثة التي قامت متصارعة متناسخة ، حول فرضية التطور بالنسبة للكائن الحي عموماً والإنسان خصوصاً ، فما الذي يسجله ميزان الرؤية العلمية للموضوع بعد ذلك كله ؟ إنه يسجل على الفور النقاط التالية :

أولاً - فكرة التطور وما يتبعها من انتخاب الأصلح ونحوه ، لم تتجاوز بعد مرحلة الفرضية التي تتجاذبها الشواهد والاستدلالات المتناقضة . وكل ما قيل أو كتب فيها لا يعدو أن يكون محاولات مبتورة وبحوثاً مجزّأة تثير مزيداً من مشكلاتها أكثر مما تحل شيئاً من معضلاتها .

ثانياً - إن طبيعة هذا الصراع الذي استعرضناه هي طبيعة حيرة

واضطراب ، في موضوع مغلق وليست طبيعة سير منهجي لفهم أمر معلوم الحقيقة محدود النطاق والحجم .

ثالثاً ـ وبناء على ذلك فإنه لا يجوز إقامة أي حكم علمي على شيء من هذه البحوث والآراء ، ولا يجوز أن نعتبرها بحد ذاتها حقيقة علمية تجاوزها العقل بالقناعة والقبول . وإن في استمرار سلسلة النقض والنقد التي تلاحقها لأبلغ شاهد على ذلك .

لماذا ينتقدون سائر النظريات التفصيلية ، ثم يتبنون فكرة التطور في الجملة ؟! ..

غير أنك قد تسأل : فإذا كان الأمر هكذا فما للباحثين والناقدين أنفسهم يعودون فيقبلون فكرة النشوء والارتقاء في الجملة ، أي بقطع النظر عن اتباع مذهب معين من المذاهب التي عرضنا لها ؟

والجواب ، أن هؤلاء الباحثين لم يضعوا في بداية بحثهم جميع الاحتمالات الموضوعية المتعلقة بهذه المسألة تحت مجهر واحد من النظر والفحص ، فقد نبذوا من احتمالات الأمر ما لا رغبة لهم فيه ولم يقفوا عنده بأي تأمل أو نظر ، ألا وهو احتمال أن تكون الحقيقة كما قد فسرها خالق الكون نفسه في كتابه المنزل على خاتم أنبيائه عليهم الصلاة والسلام . ثم حصروا أنفسهم في الحلقة التي انطبقت عليهم أو في نهاية الطريق الذي سدوه على أنفسهم . وضمن هذا النطاق المحصور راحوا يبحثون ويتساءلون عن النشأة الأولى وأصل الخلق وعلاقة الإنسان بالحيوانات الأخرى .

فكان عليهم ـ وقد حكموا على أنفسهم بهذا السجن الفكري ـ أن يتخيروا أقرب الحلول والأجوبة التي يجدونها أمامهم ، فإذا لم يعثروا على الأقرب فإن عليهم ـ على كل حال ـ أن لا يرجعوا من بحوثهم بأفكار فارغة ، إذ إن الرجوع بافتراض

ما ـ مهما كان محاطاً بالريب والشكوك ـ أليق بطموح الفكر والعقل من الرجوع بموقف سلبيّ حائر .

وهكذا فإن قبول أي مذهب يفترض فكرة التطور في حياة الإنسان والحيوانات الأخرى ، مهما كان فيه من النقائض والثغرات ، أقرب إلى الفكر العلمي من القول بأن الأرض أو السماء انشقت فجأة عن كائن معقد الصنع عجيب الطوية ، يهدد الأرض بقوته ويطمح إلى القمر والنجوم بسلطانه . وهو إن لم يقبل ذاك لا بد أن يجد عقله مرغماً على قبول هذا . ومن منا يتردد في اختيار الحل الأول ، على علاته ، عندما نجد أنفسنا محصورين في مضيق ليس فيه إلاّ أحد هذين الحلين .

ولا ريب أن هذا الاختيار يستند إلى منطق ! .. ولكنه منطق نسبي ينسجم مع عقلية ذاك الذي وضع نفسه في حلقة مقفلة أو حصر فكره في طريق مسدود ، ومن ثم فهو يعد منطقياً وصادقاً مع نفسه عندما يقول وهو في محبسه ذاك : هذا كل ما أراه أمامي فهل للعقل من سبيل إلاّ أن يتخير أقرب الحلول .

غير أنه جهل عظيم وانخداع خطير أمام مقياس الاستقراء التام ، والانطلاق في دنيا الحقيقة كلها ، بكل احتمالاتها الواردة ، دون تحكيم للرغبة ولا للبيئة ولا للتقاليد ولا لسلطان المنفعة .

أمّا نحن ، وقد التزمنا في بحوثنا ودراساتنا العلمية ، مبدأ الاستقراء وسبر الاحتمالات والفروض كلها ، ووضعها جميعاً تحت مجهر واحد من النظر والبحث ، فإن علينا أن نضع في اعتبارنا جميع ما يتعلق بهذا الموضوع من احتمالات مبدئية ، بما فيها تقرير الخالق جل جلاله المتضمن تفسير هذا الأمر .

وقد استعرضنا الاحتمالات التي افترضها أصحاب فكرة النشوء والارتقاء ، فرأيناها جميعاً تعاني من وطأة انتقادات هامة وجهت إليها ، ورأينا كلاً منها يصرع الآخر ويبطله ، كما قد رأيت في استعراضنا السريع .

علينا إذاً أن نلتفت فنصغي إلى تقرير الخالق ذاته ، وهو يحدثنا عن تفصيل الأمر وحقيقته . ـ وكنا قد انتهينا في دراساتنا السابقة إلى اليقين التام بوجود الله تعالى يقيناً يستند إلى مختلف الأدلة العلمية القاطعة ، وإلى اليقين ببعثة الأنبياء والرسل بما فيهم خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، وبالكتب المنزلة وحياً من الله عليهم ، كل ذلك بالأدلة المنطقية العلمية التي تم شرحها في أماكنها ـ فرأينا الخالق جل جلاله يقرر بأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأنه تكاثر من نسل أبيه آدم الذي خلقه الله وبث فيه الإدراك وعلَّمه البيان والتعبير عن الأشياء بما ألهمه من أسمائها . ثم رأيناه يتحدث في بيانه هذا عن هؤلاء المتخاصمين حول كيفية نشأتهم والتفسير الذي يجب أن يعتمدوه لما قد تخيلوه من فرضية تطور الإنسان ، وقد أصموا آذانهم عن بيان الخالق نفسه للأمر ـ رأيناه يتحدث عنهم بأسلوب يشع بالرهبة وجلال الربوبية ، قائلاً :

﴿ ما أشهدتُهم خَلْقَ السموات والأرضِ ولا خَلْقَ أنفُسِهم وما كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ [الكهف : ٥١] .

هكذا بحثنا واستقصينا . فبأي الاحتمالات نؤمن ونصدق ؟ أنغمض العين والفكر ونؤمن بواحد من تلك المذاهب السالف ذكرها على ما تعانيه من ثغرات وترزح تحته من انتقادات ونحمل العقل كرهاً على افتراضه ثم التصديق به . أم نؤمن بتقرير الخالق نفسه بعد أن آمنا به وفرغنا من الإيمان برسله وكتبه وقرآنه ؟

لا يتردد العاقل الحر لحظة واحدة في أنَّ علينا ـ بعد إيماننا بالله ورسله وكتبه ـ أن نطرح اضطراب المضطربين وحيرة المحتارين جانباً . ثم نصدق الخبر الصادق الثابت الواصل إلينا بطريق القطع والتواتر .

نقول هذا كله عن قصة خلق الإنسان التي ورد شرحها في كلام الله عز وجل بعبارة صريحة قاطعة لا تحتمل لبساً ولا تأويلاً .

أما الحيوانات الأخرى فإن لكل عاقل ـ وقد ضرب القرآن صفحاً عن قصة نشأتها ـ أن يبحث في الأمر إذا أحب ، على أن لا يطوح فكره بين افتراضات غيبية لا سند لها ولا شاهد عليها ، وأن لا يعطي يقينه إلاّ لما تكاملت عنده أدلة العلم اليقيني ، ملتزماً في ذلك المبدأ الذي ألزمنا الله تعالى به :

﴿ وَلا تقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفؤادَ كُلُّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسؤولاً ﴾ .

☆ ☆ ☆

فكرة التطور شيء .. والتدرج المتراصف بين الأجناس شيء آخر :

ثم اعلم أن كل هذا الذي ذكرناه إنما يتعلق بفرضية تطور الإنسان ، بعد نشأته الأولى ، من فصيلة حيوانية إلى أخرى .

أمّا التدرّج المتراصف والموجود في أصل التكوين بدءاً من الجمادات إلى النباتات ، إلى الحيوانات ، إلى الإنسان . فتلك حقيقة ثابتة منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، لا يسع العين إنكارها ، فضلاً عن العقل والفكر . فسلسلة أصناف الموجودات فيها من التناسق في طريق الصعود إلى الأعلى ما يجعلها شبيهة بحبات عقد متساوقة في التدرج نحو الأكثر جمالاً وندرة .

وقد تحدث العلماء جميعاً عن ظاهرة هذا التراصف المتصاعد الدال بأجلى برهان على وجود الخالق وعظيم إبداعه .

يقول ابن خلدون : « ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ بالمعادن ، ثم النبات ثم الحيوان ، على هيئة بديعة من التدرج ! .. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش وما لا يلد له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان ، مثل الحلزون والصدف . ولم يوجد لهما إلا قوة

اللمس فقط . ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية .. » إلخ[1] .

ويقول ابن مسكويه : « فأما اتصال الموجودات التي نقول إن الحكمة سارية فيها ، حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها ، حتى اتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر ، فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزاً كثيراً على تأليف صحيح ، وحتى جاء من الجميع عقد واحد ، فهو الذي ننبه عليه بالدلالة بمعونة الله ... »[2] ثم بدأ يطيل في تفصيل هذا التدرج وبيانه . على النحو الذي أوضحه ابن خلدون .

فهذه حقيقة وصفية مشاهدة ، قائمة كما هي منذ أقدم العصور التي وعاها الإنسان ، يراها ويتحدث عنها جميع العلماء ، بل يراها ويعجب بها جميع الناظرين العقلاء . ولا شأن لها إطلاقاً بما افترضه الداروينيون ونحوهم من تطور كل نوع من النوع الذي دونه ، سواء بالنسبة للإنسان وغيره . فهي فرضية باطلة لا أصل لها كما قد علمت .

ومن الطرائف أن بعضاً ممن لا تزال تستهويهم بحوث الغربيين وأفكارهم ، يبحثون لكل فكرة يقول بها باحث غربي عن تأكيد لها في بطون القرآن أو السنة أو فيما دوّنه عالم من علماء المسلمين !... ولمّا سمعوا بنظريات التطور ، أسرعوا يبحثون عن مؤيد لها في أيّ مصدر إسلامي ، حتى إذا عثروا على هذا الذي يقوله كثير من علماء المسلمين من أمثال ابن خلدون وابن مسكويه ، وضعوا أيديهم من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧ و ٤٨ طبعة بولاق .

(٢) الفوز الأصغر لابن مسكويه ص ٩٠ .

ذلك على ما يشبه كنزاً ثميناً اكتشفوه . وراحوا يؤكدون ببالغ الزهو والفرح بـأن علماء المسلمين قد سبقوا داروين بمئات السنين !..

ونحن نقول : لو أن عـالمـاً من علمـاء المسلمين سبق داروين إلى نظريتـه التي جاء بها ، لما دلّ ذلك إلاّ على سبق ذلك العالم عليـه في السخف والبـاطل اللـذين نبرأ إلى الله منهما .

ألا إن من أشد أنواع الظلم ، أن يجرّد الكلام السليم من معناه ، ثم يلصق بـه الباطل ، دعماً لوساوس المبطلين ، وإمعاناً في تقليدهم والسير وراءهم أنى ساروا .



ثانيًا

الملائكة

وإنما جعلنا الحديث عن الملائكة والجن ، في قسم الكونيات ، مع ما قد يخطر في البال ، من أنهم إنما يدخلون في الغيبيات التي لا نشاهدها ولا نعلم عنها إلا ما أخبر به الكتاب من شأنها ـ لأنا نقصد بالكونيات جميع ما هو مكون أي موجود ثابت . ونقصد بالغيبيات جميع ما أخبر الله عن وقوعه مما لم يقع بعد ، وقوعاً كلياً . والملائكة يدخلون ، بهذا المعنى ، في الصنف الأول . فهم مخلوقون يتصفون بالكينونة والوجود ، كالجن ، وقد رأى بعضَهم الأنبياءُ عليهم صلوات الله وسلامه ، ولا يُشْكِل في الموضوع أن عامة الناس لا يرونهم . فقد علمت مما ذكرناه آنفاً أن الموجودات أعم من المشاهدات .

والحديث في هذا المقام يتعلق بوجودهم ، وصفاتهم ، ووظائف بعضهم .

فأما وجودهم ، فقد دلَّ عليه الخبر الصادق المتواتر عن الله جل جلاله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام . فأما الوارد من ذلك عن الله جل جلاله فقوله : ﴿ آمَنَ الرَّسولُ بِما أُنْزِلَ إلَيهِ مِن رَبِّهِ والمؤمِنونَ ، كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَملائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] وقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بالرُّوحِ مِن أَمرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَن أَنذِروا أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ أنا فاتَّقونِ ﴾ [النحل : ٢] .

وأما الوارد من ذلك عن رسول الله ﷺ فقوله عليه الصلاة والسلام لجبريل في الحديث المعروف عن عمر بن الخطاب ، عندما سأله جبريل عن الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »[١] .

(١) رواه مسلم وروى البخاري نحوه .

وفي كل من القرآن والسنة الصحيحة نصوص كثيرة أخرى ، تخبر بصريح العبارة عن وجود الملائكة .

وبذلك تعلم أن وجودهم ثابت بدليل القطع الذي لا يمكن أن يلحقه شك أو ريب . ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بإجماع المسلمين بل بنص قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُر بِاللهِ وَملائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليَومِ الآخِرِ فَقَد ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ﴾ [النساء : ١٣٦] على أن الإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ونزول القرآن عليه يستلزم الإيمان بالملائكة ، فإنكار وجودهم إنكار للنبوة وللقرآن معاً .

وأما صفاتهم ، فإن تفصيل القول في ذلك مما لا سبيلَ إليه ، إذ هي مما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الأخبار ، ولم يصل إلينا من الأخبار الصادقة المتواترة ما يكشف لنا عن أحوالهم وصفاتهم المختلفة بتفصيل . ومن ثم فلا يكلف المسلم البحث عن شيء منها للإيمان به ، وإذا عثر عليها في بعض الأخبار أو الآثار فلا يجب الاعتقاد بموجبها . إذ لا يجب الاعتقاد إلا بما ثبت دليله من الدين بالقطع .

وأما معرفة الصفات إجمالاً ، فلنا إلى العلم والاعتقاد بها سبيل لا تنكر . وسبيلنا إلى ذلك الخبر الصادق الوارد في كتاب الله عز وجل . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لن يَستَنكِفَ المَسيحُ أن يَكونَ عَبداً للهِ وَلا المَلائِكَةُ المُقَرَّبونَ .. ﴾ [النساء : ١٧٢] وقوله عز وجل في وصف النار وخزنتها : ﴿ عَلَيها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعصونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفعَلونَ ما يؤمَرونَ ﴾ [التحريم : ٦] وقوله سبحانه : ﴿ وَقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَل عِبادٌ مُكْرَمونَ ، لا يَسبِقونَهُ بِالقَولِ وهُم بِأَمرِهِ يَعمَلونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٧] وقوله عز وجل : ﴿ الحَمدُ للهِ فاطِرِ السَّمواتِ والأرضِ جاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً أولي أجنِحَةٍ مَثنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزيدُ في الخَلقِ ما يَشاءُ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾ [فاطر : ١] .

ومن ذلك ما ورد من الآيات والأحاديث التي تدل على أنهم مُنحوا القدرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة ، من مثل قوله جل جلاله : ﴿ فاتَّخَذَتْ مِنْ دونِهِم حِجاباً فَأَرسَلنا إلَيها روحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم : ١٧] والأحاديث الكثيرة المختلفة التي تثبت أن النبي ﷺ كان يرى جبريل في هيئة رجل من الناس ، وأنه كثيراً ما كان يتمثل في شكل دحية الكلبي .

فهذه الآيات وما يتبعها من أحاديث كثيرة صحيحة تؤيدها ، توجب على المسلم أن يعتقد عقيدة جازمة بأن الملائكة يتصفون بالصفات التالية :

١ ـ العبودية لله عز وجل ، فليسوا أولاداً ولا أنداداً له سبحانه وتعالى .

٢ ـ أنهم متقيدون بأوامر الله لهم ، فلا يعصون في أمر ولا ينحرفون إلى ارتكاب منهي ، وأنهم ملازمون لعبادته ، دأبهم ذكره والتسبيح بحمده .

٣ ـ أن لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، كما نص الخالق جل جلاله على ذلك . وليس لنا أن نعلم شيئاً عن الصفات التفصيلية لهذه الأجنحة وكيفيتها ، إذ إنهم محجوبون عنا بإرادة الله وحكمه ، ولم يفصل القرآن الخبر عن ذلك .

٤ ـ أنهم مع كونهم مخلوقين من نور غير مرئي بالعين ، فإن الله عز وجل قد منحهم القدرة على التشكل والظهور بمظهر الأجسام الكثيفة المختلفة .

ولا يسع المؤمن بالله ورسوله إنكار شيء من هذه الصفات ، فإذا أنكرها أو أنكر شيئاً منها فإنه يكفر بذلك باتفاق .

وأما وظائفهم ، فلا سبيل إلى معرفة هذه الوظائف بالتفصيل بالنسبة لجميع الملائكة . إذ لم يرد بذلك خبر يقيني يثبت به العلم . غير أن القرآن أخبرنا عن بعض هذه الوظائف ، فيجب الإيمان بها طبقاً لبيانه وأخباره ؛ كما نص على أسماء بعضهم ، فيجب الإيمان بهم بأسمائهم هذه .

فمن هذه الوظائف : إبلاغ كلام الله وحكمه إلى عباده المرسلين ثبت ذلك بقوله تعالى عن القرآن : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ عَلى قَلبِكَ لِتكونَ مِنَ المُنذِرينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٤] وقوله تعالى : ﴿ يُلقي الرُّوحَ مِن أمرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِن عِبادِهِ ليُنذِرَ يوم التَّلاقِ ﴾ [غافر : ١٥] . وقد ثبت بالسنة الصحيحة المتواترة أن الموكل بهذه الوظيفة هو جبريل عليه الصلاة والسلام .

ومنها : وَظيفة حمل العرش ، وقد نص القرآن بصريح العبارة أن عدد الذين يحملونه يوم القيامة ثمانية من الملائكة . تقرأ ذلك في قوله تعالى : ﴿ والمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرشَ رَبِّكَ فَوقَهُم يَومئِذٍ ثَمانيةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

ومنها : رعاية الجنة وأهلها . وقد أطلق القرآن على الملائكة الذين يقومون بهذه الوظيفة اسم (الخزنة) تجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَسيقَ الَّذينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إلى الجَنَّةِ زُمَراً حَتّى إذا جاؤها وفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُم خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيكُم طِبْتُم فادْخُلوها خالِدينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] وفي قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلونَها وَمَنْ صَلَحَ مِن آبائِهِمْ وَأَزواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ والملائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ، سَلامٌ عَلَيكُم بِما صَبَرتُم فنِعمَ عُقبى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ ـ ٢٤] .

ومنها : القيام بشؤون النار وأهلها ، وقد أطلق القرآن على الملائكة الذين أقامهم الله على هذا الأمر اسم (الزبانية) ، وقد ذكر الله تعالى أن عدتهم تسعة عشر ملكاً ، تقرأ ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَما أدراكَ ما سَقَرْ ، لا تُبقي وَلا تَذَرُ ، لَوَّاحَةٌ لِلبَشَر ، عَلَيها تِسعَةَ عَشَر ، وَما جَعَلنا أصحاب النَّارِ إلاَّ مَلائِكَةً وَما جَعَلنا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتنَةً لِلَّذينَ كَفَروا .. ﴾ [المدثر : ٢٧ ـ ٣١] .

ومنها : مراقبة أعمال المكلفين وتصرفاتهم ، وإحصاؤها في كتاب مبين ، وقد أطلق الله على المَلَكيْن القائمين بهذا الأمر صفتي : رقيب ، وعتيد ، أحدهما يكون عن يمين الإنسان وهو يحصي ما يحققه من حسنات ، والثاني عن شماله وهو يحصي

ما اكتسبه من آثام ، تجد بيان ذلك في قوله تعالى : ﴿ إذ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيانِ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعيدٌ مَا يَلفِظُ مِنْ قَولٍ إلاَّ لَدَيهِ رَقيبٌ عَتيدٌ ﴾ [ق : ١٧ - ١٨] .

ومنها : المحافظة على الإنسان خلال مراحل حياته في مختلف شؤونه كلها ، وقد سمّى الله تعالى الملائكة الذين وكل إليهم هذا الأمر بالمعقبة والحفظة ، فقال : ﴿ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ يَحفَظونَهُ ، مِن أَمرِ اللهِ ﴾ [الرعد : ١١] وقال : ﴿ وَهوَ القاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ ويُرسِلُ عَلَيكُمْ حَفَظَةً .. ﴾ [الأنعام : ٦١] .

ومنها : وظيفة قبض الأرواح . وهل أنيطت هذه الوظيفة بعدد من الملائكة أم بفرد واحد منهم ؟ لم يوضح القرآن الجواب على هذا ببيان قاطع ، فقد ذكر الله تعالى في آية من كتابه الكريم ما يدل على أنهم طائفة من الملائكة فقال : ﴿ .. حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ المَوتُ تَوَفَّتهُ رُسُلُنا وَهُم لا يُفَرِّطونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] . وذكر في آية أخرى ما يدل على أنه واحد فقط : ﴿ قُل يَتَوفَّاكُم مَلَكُ المَوتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُم ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرجَعونَ ﴾ [السجدة : ١١] .

والجمهور على أن ملك الموت واحد ، ولكن الله عز وجل عززه بطائفة أخرى من الملائكة ، شأنها معه كشأن الجنود مع القائد .

هذا وأنت ترى أن النصوص لم تكشف عن أسماء هؤلاء الملائكة الذين وكل الله إليهم هذه الأمور المختلفة التي ذكرناها ما عدا جبريل . فالذي يجب على المسلم معرفته والاعتقاد بموجبه هو أن الله عز وجل قد أناط هذه الوظائف المختلفة بجماعات من الملائكة ، الله أعلم بأسمائهم وخصائصهم . وتسمية ملك الموت بعزرائيل شيء دلت عليه آثار مختلفة لم تصل من القوة إلى درجة وجوب الاعتقاد .

ولعلك تسأل بعد هذا الذي ذكرناه ، عن معنى توظيف الله الملائكة بتلك المهام التي ذكرناها ، وعن حكمة ذلك ، مع العلم بأن الله عز وجل لا يعجزه القيام بأي أمر حتى يتصور احتياجه إلى من يتولى له بعض المهام .

والجواب بكلمة مختصرة : إن ذلك ليس إلا مظهراً لسلطانه وعظيم ملكه ، وإظهاراً لقدرته المعنوية في مظهر حسي يتلاءم مع تصور الإنسان والمألوف في حياته .

أما الجواب المفصّل ، فمكانه عند البحث في (قانون السببية في الكون) وسنتحدث فيه بعد قليل إن شاء الله .



ثالثاً

الجان

وإنما يتعلق الحديث هنا بشأن وجودهم وأصلهم الذي خلقوا منه ، أما ماوراء ذلك من الحديث عن صفاتهم وأعراضهم ، وخصائصهم التفصيلية ، فلا شأن لنا بذكر شيء من ذلك في هذا المقام ، إذ البحث فيه إنما يستند إلى أخبار الآحاد والأدلة الظنية المحتملة ، ومعظمه مما قد وقع الخلاف فيه .

وقد علمت أن أمور العقيدة لابد في وجوبها أن تقوم على الأدلة اليقينية القاطعة ، أي فلا يكفر الإنسان بجحود مايقوم على الظنون والاستنتاجات .

وجودهم :

لقد ثبت وجودهم بالدليل القطعي الذي لا احتمال فيه . والدليل هو الخبر الصادق الذي جاء به القرآن بنصوص قاطعة لا احتمال فيها .

وقد أخبر القرآن عن الجان في مواضع كثيرة .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلْصَالٍ كالفَخّارِ وَخَلَقَ الجانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ [الرحمن : ١٤ ـ ١٥] .

وقد جاء في السنة أيضاً أحاديث مختلفة تثبت حقيقة الجان وتخبر عنهم .

فمن ذلك مارواه البخاري ومسلم والترمذي وابن إسحاق وعامة علماء السيرة ـ واللفظ للبخاري ـ أنه ﷺ انطلق في طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين ، فقالوا : مالكم قد حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ماحدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ماهذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم ، فقالوا : ياقومنا إننا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً[1] .

وإذ كان وجود هذه الخليقة مستنداً إلى هذه الأخبار اليقينية التي وردت إلينا من الكتاب وفصّلتها السنة ، وكان أمرها معلوماً من الإخبارات الإلهية بالضرورة ـ أجمع المسلمون على أن الإيمان بوجود الجن من المستلزمات الأساسية للإيمان بالله عز وجل وأن إنكارهم أو الشك في وجودهم يستلزم الردة والخروج عن الإسلام .

إن إنكارهم يستلزم نتيجتين اثنتين :

الأولى : إنكار شيء علم ثبوته من الدين بالضرورة .

الثانية : تكذيب الخبر المتواتر اليقيني الوارد إلينا عن الله جل جلاله ، وهو يناقض الإيمان بالله جل جلاله ، كما يناقض الإيمان بكتابه المعجز .

وكلا هاتين النتيجتين تتنافيان مع الإسلام ومقومات الإيمان بالله عز وجل .

---

(١) صحيح البخاري : ٦ / ٨٣ .

أصلهم :

أما أصل الجان . أي العنصر الأول الذي وجد منه هذا المخلوق ، فلا مطمع في معرفته إلا بالخبر اليقيني ، وإنما يكون الخبر يقيناً مورثاً القطع واليقين ، إذا ورد عن الخالق نفسه ، وقد ورد هذا الخبر في قوله تعالى : ﴿ وخَلَقَ الجانَّ مِن مَارِجٍ مِنْ نارٍ ﴾ [الرحمن : ١٥] ، والمارج اللهب الصافي الذي لادخان فيه .

وإذ قد ثبت هذا الخبر الواضح بيقين ، فقد وجب علينا معرفة مضمونه والإيمان بموجبه .

☆ ☆ ☆

إنكار وجود الجن سخف يتقنع بألفاظ العلم :

إذا تبين لك هذا ، فاعلم أنه لاينبغي أن يقع العاقل ـ على الرغم مما ذكرناه ـ في أشد مظاهر الغفلة والجهل ، من حيث يزعم أنه لا يؤمن إلا بما يتفق مع « العلم » فيمضي يتبجح بأنه لايعتقد بوجود الملائكة أو الجن من أجل أنه لم يرهم ولم يحس بهم .

إن من البداهة بمكان أن مثل هذا الجهل المتعالم يستدعي إنكار كثير من الموجودات اليقينية ، لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها ، وما من عاقل يحترم نفسه ثم يذهب هذا المذهب في الخلط والتهوس .

وما من عاقل فهم معنى « العلم » إلا وعلم أن القاعدة العلمية المشهورة تقول : ـ عدم الوجدان لايستلزم عدم الوجود ـ أي عدم رؤيتك للشيء الذي تبحث عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقوداً ، إذ إن الموجودات أعمُّ من المشاهدات أي ليس كل الموجودات خاضعة لحاسة الرؤية أو لمطلق الحواس ، وإلا لوجب على الإنسان أن يؤمن بوجود السيارة مثلاً ما دامت واقفة أمامه ، فإذا ما سار بها

قائدها وابتعدت حتى خرجت عن سلطات المشاهدة والحواس الأخرى ، وجب إنكار وجودها ..!!

ويغيب عن ذهن بعض البسطاء من الناس أنه كما لايجوز الإيمان بوجود الشيء إلا إذا ثبت الدليل العلمي على وجوده فإنه لايجوز أيضاً الإيمان بفقدان الشيء إلا إذا ثبت الدليل العلمي على فقدانه . فإذا لم يثبت الدليل العلمي لا على الوجود ولا على العدم ، فتلك هي الحالة التي يسمى الإنسان فيها جاهلاً . وجهلك بالشيء لا يستلزم فقده ولا وجوده ، إذ هو صفة متلبسة بك ، لا بالشيء المبحوث عنه .

فإذا ظهر لك برهان علمي قاطع يجزم بأحد طرفي وجود ذلك الشيء أو عدمه ، فإن من العبث أن تقارع ذلك البرهان القاطع بجهلك السابق .

وقد ورد الخبر المتصل المتواتر الذي ينص ، كما رأيت ، على وجود الملائكة والجن بإخبار القرآن . فلا بد من الاعتقاد بأن القرآن قد ثبت فيه هذا الخبر كما مر بيان ذلك في حديثنا عن منهج التحقيق في النقول والأخبار .

وقد ثبت قبل ذلك أن القرآن ليس من تأليف محمد عليه الصلاة والسلام وأنه كلام الله عز وجل ، بالأدلة القاطعة التي مرت في مناسبتها . كما ثبت من قبل ذلك البرهان القاطع على وجود الله .

فكان لابد إذاً - بعد ثبوت سلسلة هذه البراهين القاطعة - من الاعتقاد بموجبها ، ولا قيمة للجهل السابق أمامها .

إلا أنك قد علمت من هذا الكلام أن قيمة دلالة الخبر المتصل المتواتر على وجود الملائكة والجن إنما تُستمد من الإيمان بوجود الله قبل كل شيء . فمن لم يكن قد آمن بالله أولاً . فلا مانع لديه من أن يصدق نسبة الخبر إلى مصدره ويكذب في الوقت ذاته المصدر نفسه ، أي يكذب كلام القرآن من حيث إنه كلام الله عز وجل ، بل طبيعي منه أن يفعل ذلك مادام أنه غير مؤمن بينبوع المسألة كلها .

غير أن السخف العجيب إنما يكمن عند من يزعم أنه مسلم يؤمن بالله ورسوله وكتابه ، ثم يمضي يجادلك ، أو يجادل القرآن بتعبير أصح ، في وجود الجن مثلاً . ولا دليل يخاصمك به إلا أنه لم ير الجن ولم يحس بهم ، أي لا دليل له يخاصمك به إلا مجرد جهله كما قلنا .

والمسألة في جذورها ، مجرد تقليد ومحاكاة ، لمحترفي الغزو الفكري ضد الإسلام وأهله . فقد ألقوا الآذان إليهم ، فسمعوهم يقولون : إن الاعتقاد بالجن والشياطين والملائكة ، إنما هو من (الإحيائية) والخرافات التي كانت سائدة عند العرب ، فدعا إليها بعد ذلك محمد عليه الصلاة والسلام باسم الدين والإسلام ..! فأحنوا رؤوسهم لما سمعوا وأغمضوا العين والعقل عن التفكر في دليل هذه الدعوى وبواعثها وبراهينها العلمية ، ثم انطلقوا يرددون هذا الكلام ، دون أن يختلف أي اختلاف عن صوت سادتهم !..

ثم لما عاد أولئك السادة أنفسهم يتحدثون عن الأرواح وقصة تحضيرها وكيفية مناجاتها ، عاد هؤلاء مرة أخرى يستمعون ، وعادوا مرة أخرى ينغضون رؤوسهم مؤمنين معتقدين ، دون أن يكشفوا غطاء العقل لأي تأمل أو برهان علمي . ثم انطلقوا هذه المرة يعتقدون بالأرواح ، ويعلمون الناس السبيل إلى تحضيرها ومكالمتها واستكشاف خفايا الماضي السحيق والمستقبل البعيد بواسطتها[1] .

---

(١) لا بد أنك تتساءل عن موقف العقيدة الإسلامية من قصة تحضير الأرواح ، وماشاع من نبأ ذلك في أوربا ثم في جهات كثيرة من العالم العربي .
والجواب ، أن العالم ممتلئ بالأرواح المختلفة ، بدون شك ، ولكن الإسلام علمنا أن لا نصدق أحداً في تحضير روح أو مكالمتها إلا إذا ثبت ذلك ببرهان التجربة المشاهدة ، إذ التحضير والمكالمة من الأمور الخاضعة للحس ، فلا يمكن أن يكون دليلها أيضاً إلا الحس وقد مضى بيان ذلك في تمهيد هذا الكتاب . فإن ثبت أمامك ببرهان التجربة والمشاهدة على ذلك ، فلا مانع من تصديقه ، بل لا مناص من تصديقه ، ولكن الذي لا يزال مجهولاً بعد ذلك ، هو ماهية هذه الروح !.. ولا يكفي لرفع الجهل أن تنطق الروح أو تكتب أو تزعم بواسطة ما ، أنها روح فلان من الناس ، =

تلك هي السخافة التي لا يمكن أن تتمثل في أحط ولا أشنع من هذا المظهر !..

يتبجح لك أحدهم منكراً ، باسم العلم ودليل العلم ، عندما تضعه أمام البرهان العلمي طبق منهجه الفكري الدقيق . ثم تراه يتضاءل ذلاً ويلوي رأسه في انصياع منكسر وإيمان أعمى ، عندما تضعه أمام دعاوى فارغة لبعض مفكري الغرب أو مستشرقيهم . فأي علم هذا الذي يتقلقل في دماغه ويتبجح لك به ، وهو لم يكسبه بعد حتى الشخصية الاستقلالية التي تجعله قادراً على أن يفكر بعقله ؟ رحم الله ذلك العربي الذي عرف مكمن الداء في هذا وأمثاله ، يوم أن قال : أسْتٌ في الماء ، ورأسٌ في السماء[1] !..



= فهو خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا دليل على صدقه ، وكما أن في الناس أشراراً دأبهم الكذب والتلاعب بعقول الناس ، فإن في الجن أيضاً كذلك . فمن أين لك أن الذي يناجيك أو يكتب لك جواب أسئلتك من قاع السلة ، ليس شيطاناً مريداً جاء ليلبس عليك دينك ويلهو بمخادعتك ويلتذ بالكذب عليك ؟ أولم تقرأ أن أكثر أسباب الحماقة في المنحرفين أو المجانين الذين ادعوا أنهم أنبياء أو عظماء إنما هو هواجس من هؤلاء الشياطين ، إذ هتفوا في أعماق أفئدتهم أو على طبلة آذانهم أنهم أحباء الله وعظماؤه .. وأن الله قد أكرمهم بإسقاط تكاليفه عنهم . فربا الغرور في أوداجهم وثقلت رؤوسهم الفارغة بالخديعة وراحت تهتز منهم الأعطاف .. وأيقنوا أنهم وزراء الله المدللون في الأرض بينه وبينهم نسب الأرواح الطاهرة التي تناجيهم ، مع أنها ليست إلا أرواحاً حقيرة من أرواح مردة الشياطين التي تحط عادة فوق قمامات العقول والأفكار تتلهى بإغوائها واللعب بها .

فالأرواح لاشك في وجودها ، ولكنها لا ينبغي أن تكون صادقة ، إذا قالت لك إحداها أنها روح أحد الأنبياء ، ثم راحت تقدم لك المبادئ والعظات بناء على أنها كذلك . إنها بدون ريب روح شريرة تلهو بمخادعتك !..

(١) هو مثل عربي يضرب لمن يتبجح بما ليس أهلاً له .

هذا ، وقد أطلنا في الحديث عن البرهان العلمي على وجود الملائكة والجن ، وموقف بعض البسطاء وغيرهم من هذا البرهان ، لأنه هو نفسه الموقف الذي يقفه هؤلاء من الغيبيات التي لم نتحدث بعد عنها . فرأينا أن نبسط الموضوع هنا لنطبقه (في سلبه وإيجابه) على الأبحاث التالية الأخرى .



رابعًا

قانون السببيّة في الكون

ولا بد لنا في شرح هذا البحث والوصول إلى مايجب الاعتقاد به من ذلك ، من أن نشرح المسائل التالية :

أ ـ استجلاء قانون السببية في الكون وتحليله .

ب ـ كيف يتفق قانون السببية هذا مع ما علمناه من أن العالم كله إنما هو من قسم الممكنات ؟

ج ـ الحكمة من خضوع الكون لقانون السببية .

د ـ مايجب على المسلم اعتقاده بناء على ذلك .



أ ـ استجلاء قانون السببية في الكون وتحليله :

ولنبدأ بأول مسألة منها ، وهي : استجلاء قانون السببية في الكون وتحليله ، فنقول :

إن من المعلوم لكل أحد ، بالضرورة ، أنه ما من شيء إلا وهو محتاج إلى غيره ، وما من إنسان إلا وهو يتصور احتياجه واحتياج أمثاله إلى بعض الأمور واستغناءه عن أمور أخرى .

فالمحتاج إليه في وجود الشيء يسمى علة أو سبباً ، والشيء المحتاج يسمى معلولاً أو مسبباً[1] .

(١) انظر المواقف وشرحه للإيجي ١ / ٣٧٥ . ولانريد أن نفرق هنا بين العلة والسبب إذ هما فيما نقصد إليه في هذا البحث سواء .

وإذا تبين لك هذا ، علمت أنه ما من شيء من الأشياء إلا وهو مسبب عن شيء مثله من جانب ، وسبب لغيره من جانب آخر . ولك أن تضرب مثلاً على ذلك توالد الناس وتكاثرهم ، واختلاف الأزمنة والفصول ، وسبيل الزراعة والبناء والاستنبات ، بل لك أن تضرب المثل على ذلك بمعايش الناس واختلافاتهم في الميول والمهارات والقوى والاستعدادات .

غير أن عدد الأسباب الظاهرة أمامك ، تتناقص كلما أمعنت التأملَ وسبَرْتَ أغوار الأسباب نفسها ، كما تتناقص فروع الشجرة أمامك كلما دنوت بنظرك نحو جذعها . إلى أن تتجمع الأسباب المختلفة كلها في سبب رئيسي واحد ، وهو السبب الواجب ، أو واجب الوجود ، وهو الله عز وجل ، وقد مرَّ بك بيان هذا الأمر من قبل .

فهذه الظاهرة التي نلمسها في الوجود ، والتي لا يسعنا إنكارها ، نسميها : قانون السببية في الكون .

ب ـ كيف يتفق قانون السببية هذا مع ما علمناه من أن العالم كله إنما هو من قسم الممكنات ؟

ولا بد من تصوير الإشكال أولاً . فنقول : من المعلوم أن الشيء لا يسمى سبباً لغيره إلا إذا أثر فيه إيجاداً أو إعداماً أو تكييفاً . وهذا التأثير لا بد أن يكون حتمياً ما دام المؤثر سبباً كما نقول ، وإلا لامتنع كونه كذلك ، فيقع التناقض مع ما أوضحناه من وجود قانون السببية في الكون بالضرورة التي يُسلِّم بها الحس .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من القول بأن هذا الكون ـ أو معظم مظاهره على أقل تقدير ـ ضروري الوجود ، وأن سيره على هذا الشكل الذي نراه واجب وضروري أيضاً ، من أجل أنه نتيجة أسباب معينة مختلفة ثبت كونها أسباباً بالحس والمشاهدة .

وهذا يناقض ما قد ثبت لك من قبل : أن هذه الموجودات كلها من قسم الممكن ، وأنه لا يترتب على فرض فقدانها أو فقدان بعضٍ منها أي محظور أو محال عقلي .

فالجواب : أن الأمر مشكل حقيقة ، لو قلنا إن الأسباب المبثوثة في الكون ، أسباب حقيقية ، أي ثبت لها التأثير بذاتها دون الاحتياج إلى من يثبت فيها التأثير . إلا أننا لا نقول ذلك ، إذ من المستحيل بداهة أن تكون هذه الأسباب مؤثرة بذاتها مع ما نعلمه فيها من صفة الحدوث بعد العدم ، فكيف يكون التأثير فيها نابعاً من جوهرها الذاتي ، وهذا الجوهر نفسه قد كان مفقوداً قبل حين ثم اكتسب الوجود بتأثير سبب آخر ؟ ويقال الكلام نفسه في حق هذا السبب الآخر وفي حق الأسباب الأخرى الكثيرة المختلفة .

وإذاً فما معنى كون هذه الأمور أسباباً ؟ .. إن معنى ذلك محصور في أن الله عز وجل ربط بينها وبين أمور أخرى بمحض إرادته وقدرته فقط ، فظهر استمرار هذا الارتباط أمامنا بمظهر السببية والتأثير ، فاستعرنا له كلاً من هاتين الكلمتين على سبيل المجاز . وأنت تعلم بأن طول الاقتران بين أمرين في الوجود والعدم قد يخيل إلى الذهن ارتباطاً سببياً بينهما وإن لم تكن ثمة أي رابطة حتمية في واقع الأمر .

ويتضح لك هذا المعنى فيما يسميه علماء النفس برد الفعل الشرطي ، إذ ثبت عندهم بالتجربة أن أي مؤثر من المؤثرات المختلفة في النفس إذا تكرر وجوده بمصاحبة أمر ما ولو بمحض المصادفة ، فإن هذا المصاحب يكتسب هو الآخر في النفس شيئاً من قوة ذلك المؤثر ، فيفعل فعله ويحقق نتيجته أو قريباً منها . ويمثلون لذلك بالتجربة التي قام بها (بافلوف)[1] من تقديم الطعام لطائفة من

(١) هو عالم روسي ، يقول الأجانب من علماء النفس إنه أول من اكتشف نظرية رد الفعل الشرطي ، وينصاع عبيدهم من العرب لما يقولون ، ويؤمنون بذلك إيمان العجائز ، فتراهم يطنبون هم أيضاً =

الكلاب الجائعة عند قرع جرس معين على أسماعها ، وكرر ذلك مدة متصلة من الأيام . فكان يظهر تأثرها لمرأى الطعام في كل مرة بسيلان اللعاب من أفواهها . ثم إنه قرع الجرس وحده بعد ذلك دون أن يقدم لها الطعام ، فظهر فيها الأثر ذاته الذي كان يظهر عند مرأى الطعام .

وتفسير ذلك بالنسبة لما نحن بصدده . أن الكلاب لما رأت مقارنة صوت الجرس لظهور الطعام أمامها ، واستمرت هذه المقارنة أمامها مدة من الزمن - رسخ هذا الارتباط في تصورها وأثر تأثيراً معيناً في نفوسها . ولو قلنا إن الكلاب لها عقل على قدرها تفكر به ، لقلنا إنها ظنت من طول استمرار هذه المقارنة أن الجرس هو السبب المؤثر في ظهور الطعام وحضوره .

وما قصة الإنسان أمام هذا الوجود ، إلا كقصة هذه الكلاب أمام الجرس والطعام . فقد تعلقت إرادة الله تعالى بأن لا يظهر عشب الأرض إلا بعد نزول الأمطار من السحاب . وتعلقت إرادته بأن لا تنزل قطرات المطر إلا بعد أن تتلبد الغيوم وتتكاثف بقدر معين ضمن درجة معينة من الرطوبة ، وتعلقت إرادته بأن لا يتوالد الناس إلا عندما يتزاوجون .. وهكذا . ولو شاء الله عز وجل لفرّق بين هذه الأمور وقطع الصلة مما بينها وترك كل واحد منها يسير في طريق ويظهر مستقلاً عن الآخر .

وإذاً ، فإن ما نسميه نحن بقانون السببية في الكون ، ليس اسمه في الحقيقة إلا قانون المقارنة المجردة . أسميناه كذلك لأنه ظهر لنا في مظهر السببية واستقر كذلك في أخيلتنا .

= في الإشادة ببافلوف وأنه أول مكتشف لهذه النظرية مع أن النظرية نفسها موجودة بأجلى ما يمكن من بيان في كتاب المستصفى وتهافت الفلاسفة للغزالي رحمه الله ، وبأبسط عبارة متواضعة تدل على أن النظرية ليست مما يعجز العالم المتبصر عن معرفته (راجع المستصفى : ١ / ٥٧ ، وتهافت الفلاسفة : ٢٣٥) .

إلا أن هذه التسمية لا تتفق مع حقائق العلم وواقع الأمور، كما قد رأيت. فلذلك أطلق العلماء على هذه الأسباب الكونية اسم: الأسباب الجعلية. أي هي أمور جعلها الله بمحض المقارنة أسباباً، فهي مجعولة جعلاً وليست أسباباً ذاتية مؤثرة، وما قد تلمحه فيها من مظاهر التأثير والعلّية ليس كذلك في الحقيقة بل هي المقارنة ليس إلاّ.

غير أن الإمام الغزالي رحمه الله لا يرى تنافياً بين أن تكون الأسباب الكونية جعلية كما قلنا، وبين أن يكون فيها تأثير أودعه الله عز وجل فيها يسلبه عنها عندما يشاء. وهو يرى أن هذا هو الحق. أي فالمسألة ليست مسألة مقارنة مجردة، كمقارنة الجرس للطعام، بل هنالك تأثير كامن في السبب المقارن، ولكنه ليس تأثيراً منبثقاً من ذاته بل مودع فيه من قبل الله عز وجل. فإذا أراد تعطيل السبب عن سببيته أزال عنه هذه القوة المودعة فيه[1].

وتحليل الغزالي هذا، أقرب إلى الانسجام مع التعليلات العلمية لظواهر الأشياء وتكويناتها، إلا أنه أبعد عن مسلك الجمهور وما اتفق عليه.

ونحن نرى أن الخلاف ينتهي بعد مراحل يسيرة من النظر، إلى الوفاق. فهو خلاف لفظي إذاً. إذ المقصود أن تأثير الأسباب الكونية ليس تأثيراً حتمياً، وإنما هو بإرادة الله عز وجل فهي أمور لا علاقة لها في الأصل بغيرها. ولكن الله جعلها أسباباً لها سواء قلنا إنه أودع فيها قوة مؤثرة. أو لم يودع فيها هذه القوة.

جـ ـ الحكمة من خضوع الكون لقانون السببية:

والسؤال الذي لا بد من إيراده هنا هو: فإذا كانت هذه الأسباب جعلية كما قلت، ففيم جعلها الله كذلك، وهلا فرق بين هذه الأمور المجتمعة وأبعدها عن

---

(١) المستصفى: ٢ ـ ٩٣. ولكنه جنح في كتابه «تهافت الفلاسفة» إلى أن الصلة بينهما لا تعدو أن تكون مقارنة فقط، وإنما تخيل الناس من طول هذا الافتراق والفهم له وجود تأثير ما.

بعضها ، حتى لا ينخدع بها الناس فيتوهموها أسباباً مؤثرة ، وهي ليست كذلك .

والجواب : إن أبرز مظاهر دلالة هذا الكون على وجود الخالق عز وجل ، إنما هو مظهر التناسق والانسجام فيه ، كما أوضحنا ذلك من قبل . وليس معنى التناسق والانسجام فيه شيئاً غير ظاهرة السببية والعلّية الشائعة والسارية في كل صوره وأجزائه :

إذن فلكي يدلَّ الكون دلالة باهرة على وجود الله عز وجل ينبغي أن يكون متناسقاً .

ولكي يتم فيه التناسق ، ينبغي أن يكون مرتباً بعضه على بعض بأن يكون هذا محتاجاً وذاك محتاجاً إليه فيتلاقيان طبقاً للحاجة التي بينهما . فإذا تجلى لك من الكون هذا التناسق ، تنبهْتَ لما قلناه من ضرورة تناقص العلل في المسائل المتناسقة كلما أمعنت النظر أكثر ، وكلما سبرت مزيداً من أغوار هذه العلل والمعلولات ؛ فتسير متأملاً في هذا السبيل ، إلى أن تنتهي بك هذه العلل الكثيرة المختلفة إلى العلة الوحيدة الكبرى الكامنة خلف كلِّ ما قد رأيت ، أي إلى واجب الوجود وهو الله عز وجل .

إنَّ الذي يتأمل أجهزة وآلات معينة ومنتشرة ، لا يمكن أن يصدق أنها جميعاً من صنع شخص واحد هو الموجد لها ، إلا إذا تأمل فرآها متممة بعضها لبعض ، متعاونة لدى التركيب في إيجاد عمل نوعي معين ، وكلما ازداد لمساً لهذا الانسجام وسبر مزيداً من دقائقه ، ازداد يقيناً بوحدة الصانع وذلك كأن يعمد فيركبها إلى بعضها تركيبها الصحيح المتصور وإذا هي قد انقلبت في يده ساعة تضبط الزمن ، وإذا هي من صنع معمل معين معروف .

وهكذا اقتضت رحمة الله بعباده أن يجعل من كونه أفصح بيان ناطق بألوهية الله وحده وبأنه الخالق والمبدع للكون كله ، فجعلك في حاجة مستمرة إلى

كثير من الأمور المعينة ، ثم جعل بينك وبين هذه الأمور حلقاتٍ من الوسائط والأسباب ، كلما تجاوزْت واحدة منها إلى الأخرى تبدّى لك جديد من معنى الانسجام بين أجزاء الكون وجزئياته ووقفت على ما بينها من تعاون ومشاركة في سبيل تحقيق أغراضك وحاجاتك ، حتى تستيقن أخيراً بأن من وراء هذا الكون كله من يدبره هذا التدبير ويؤلف بينه هذا التأليف .

ولو أن الله خلقك غير محتاج إلى شيء وخلق المكونات الأخرى كذلك - وهو قادر أن يفعل ذلك - ، لما وُجِدَتْ أمامك أي فرصة لاكتشاف معنى التناسق والتلاؤم فيها ، ولفقدت بذلك أبرز مظهر من مظاهر الدلالة على وجود الله تعالى في الكون .

ثم إن الله عز وجل لما اقتضت حكمته ورحمته بعباده ذلك ، وعاش الإنسان حياة أَلِفَ فيها نظام الوسائط والأسباب ، وأصبح خياله لا يتصور الأمور إلا منوطة بمقدماتها ووسائطها - اقتضت حكمته جل جلاله أن يقيم الأحداث الغيبية أيضاً على نظام الأسباب ، ليتصورها الإنسان حسب مألوفه وكما اعتاد فكره وخياله . فأخبره عن مراقبة الله لكل أعماله وتصرفاته في الدنيا وأوضح له أن ذلك يتم بواسطة ملكين يراقبان ذلك منه ويحصيان كل حركاته وسكناته ، وأخبره أن من رجحت حسناته على سيآته كان من المفلحين يوم القيامة ، وأوضح له أن الكشف عن ذلك يتم بميزان توزن فيه الأعمال . وأخبره عن النار وأن لها زبانية يقومون بشأنها وبتعذيب الكافرين فيها ، وأن ملائكة تحمل العرش ، وملائكة تحافظ على الإنسان ، وملَكاً يقبض الأرواح .

ومعلوم بالبداهة أن الله عز وجل - وهو الذي خلق هؤلاء الملائكة وأولاهم هذه الطاقة - غير محتاج إلى وساطتهم وسببيتهم في شيء ، ولكن شاء الله عز وجل أن يظهر سلطانه وقوته لعباده بالشكل الذي ألفوه في حياتهم وتعودته أخيلتهم وأفكارهم . ولعل أقرب مثال لذلك ما جاء في صريح تبيانه جل جلاله

من أنه سبحانه وتعالى يختم يوم القيامة على أفواه الكافرين ويأمر أيديهم وأرجلهم فتشهد بما اقترفوا ، وذلك في قوله جل جلاله : ﴿ اليَومَ نَخْتِمُ على أفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ وَتَشهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانوا يَكسِبونَ ﴾ [يس : ٦٥] فما قيمة شهادة الأيدي والأرجل لصاحبها أو عليه مع ما هو ثابت من أن الله عز وجل مطلع على كل خافية منه ؟ إن قيمة ذلك محصورة في أن هذه الشهادة توضح للإنسان أن لا سبيل له في ذلك الموقف إلى استعمال شيء مما كان اعتاده في الدنيا من مختلف مظاهر التوسط أو التحايل أو التخفي . إن من اليسير على الله جل جلاله أن يبطل ذلك كله بمثله . فإن زورت في النطق بين يديه جل جلاله أنطق طرفاً من أطرافك بما يكشف عن تزوير لسانك . وفي هذا من تجلّي ألوهية الله وعظيم سلطانه ما لا تجده في قوله مثلاً : اليوم لا يخفى علينا شيء من سابق شؤونهم وسوف نحاسبهم على كل ذلك .

د ـ ما يجب على المسلم اعتقاده بناء على ذلك .

وهذه المسألة الأخيرة ، هي ثمرة كل ما قد ذكرناه من المسائل الثلاث السابقة .

إن على المسلم أن يعتقد عقيدة جازمة أن لا تأثير في الكون لأي شيء إلا لله عز وجل ، وأن كل ما يتراءى لنا من مظاهر الأسباب والعلل إنما هو أسباب وعلل جعلية ، جعلها الله عز وجل كذلك ، وأن ما قد يجده الباحث فيها مما يسميه العلم بالعوامل والمؤثرات وما إلى ذلك ، إنما هو كذلك من حيث الظاهر فقط . والعلم لا شأن له بالأشياء إلا أنه يصفها على ما هي عليه في أدق مظاهرها ، ثم يمارس هذا الوصف بالتجربة في مجالات متكررة . وإذا كان العلم إنما يصف واقعاً لا يزيد عليه ، فإن هذا الواقع لا يزيد على المقارنة المستمرة ، أما إمكان الانفصال فشيء آخر . وهيهات أن يتوصل العلم إلى أن مقارنة الأسباب بمسبباتها أمر حتمي لا مناص من تلازمهما ولا حيلة لانفكاكهما .

وإذ قد ثبت الدليل القطعي على ما قلناه ، فقد كان جحود ذلك كفراً بإجماع المسلمين . ولا معنى لإثبات ألوهية الله بعد هذا الجحود كما هو معلوم ، كما لا معنى بعد ذلك للإيمان بشيء من المعجزات والخوارق التي أكرم الله بها الأنبياء والمرسلين ، كتحول نار إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى برد وسلام ، وكولادة عيسى عليه الصلاة والسلام بدون وساطة أب ، وكإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى . وكل ذلك مما نص القرآن عليه بصريح العبارة وجليّ البيان .

وجماع كل هذا الذي ذكرناه ، قوله تعالى : ﴿ إنَّما أَمرُهُ إذا أرادَ شَيئاً : أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ ﴾ .

لا ضير في استعمال ألفاظ تدلّ على سببية الأشياء لبعضها إذا سلمت العقيدة :

ولعلك تسأل بعد هذا عن حكم استعمال المسلم ألفاظاً تعبر عن سببية بعض الأشياء وتأثيرها ، وذلك بسبب طول الإلف وظهور هذه الأشياء بمظهر الأسباب الذاتية المؤثرة ، كقول القائل : لقد نفعني هذا الدواء ، وشفاني هذا الطبيب ، وأينع الزرع بكثرة الأمطار . وكتوسل المسلم بالأنبياء وتبركه بشيء من آثارهم وفضلاتهم .

فالجواب ، أن ذلك إذا صاحب اعتقاداً بتأثير واحد من هؤلاء ، فهو كفر بالاتفاق كما أوضحنا ذلك آنفاً . أما إن صاحبه الاعتقاد بأن المؤثر في ذلك إنما هو الله جل جلاله ، فلا ضير فيه ، لأن تعبيره هذا جاء موافقاً لظاهر ما أقيم الكون عليه من قانون السببية الجعلية .

ولا ضير في التوسل بالرسل والأنبياء من باب أولى :

وإذا كان ذلك بالنسبة للدواء والطبيب والأمطار ، لا ضير فيه ولا حرج ، فلأن لا يكون أي ضير في ذلك بالنسبة للأنبياء كالتوسل والتبرك بهم أولى

وأجدر .. إذ إن الله عز وجل قد جعل نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين وأوضح ذلك بصريح كتابه عندما قال : ﴿ وَما أَرْسَلْناك إلاَّ رَحْمَةً للعالَمينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] فقد جعله الله سبباً لرحمة العباد ، وأي ضير في أن يتوسل المسلم بهذا الذي شرفه الله هذا التشريف فجعله رحمة للخلائق ؟

وقد امتلأ الصحابة كلهم شعوراً بهذا المعنى ، فلم يألوا جهداً في التوسل والتبرك بآثاره وفضلاته في مناسبات كثيرة مختلفة ، وقد ثبت ذلك بأحاديث ثابتة صحيحة لا يرقى إليها الظن أو الوهم .

والعجب من أناس يظلون ينسبون الأمور إلى أسبابها الشكلية بل كثيراً ما يعبرون بالألفاظ الدالة على أنها هي المؤثرة ، كنسبة الشفاء إلى الدواء أو طلبه من الطبيب ، ثم تراهم يُصغون بآذانهم إلى الناس حتى إذا ما سمعوا كلمة توسل أو تبرك بالنبي عليه الصلاة والسلام من أحدهم ، انقضُّوا عليه بحكم الشرك والكفر ، مع أنه لم ينسب إليه تأثيراً ولم يقل في حق رسوله أكثر مما يقولون هم في حق أطبائهم وعقاقيرهم . أفتكون سببية الدواء للشفاء أكثر من سببية سيدنا محمد ﷺ للبركة والرحمة ؟!. أما نحن فنقول : لا سببية حقيقية هنا ولا هناك . ولكن هيهات أن ترقى هذه السببية الجَعلية في الدواء والطب إلى معشار الدرجة التي ترقى إليها السببية الجعلية في محمد ﷺ للرحمة والمغفرة والبركة .

ومن العجب الذي يحار له العقل أن تراهم يقولون : إنَ الصحابة إنما توسلوا به لأنه كان حياً بعد .. أما وقد توفي بعد ذلك فقد بطل التوسل به ولغا حكمه وعاد شركاً وكفراً !!..

فهل يقول هذا إلا من يحسب أن النبي ﷺ كان يتخذ من حياته وقوته الجسدية وسيلة تأثير في المتوسلين والمتبركين به . فلما توفي ذهبت وسيلة التأثير فأصبح التوسل به توسلاً بما لا يملك أي تأثير ؟!. وهل هذا إلا كفر محض ، ووقوع في أسوأ مما يصطنعون الفرار منه .

إن رسول الله ﷺ لا تأثير له في شيء ما ، لا في حياته ولا بعد موته . ومن اعتقد خلاف ذلك ، فهو كافر بالله ورسوله . أما مناط التوسل والتبرك به فهو مجرد تكريم من الله عز وجل له وجعله وسيلة رحمة للعباد ، وهذا التكريم والتشريف لا ينفك شيء منه عن النبي ﷺ بوفاته ، بل إنه ليزداد ـ كما نعلم ـ علواً وشرفاً .

☆ ☆ ☆

وخلاصة القول أن على المسلم أن يعلم بأن مسبب الأسباب كلها إنما هو الله عز وجل ، فهي جميعها أسباب صورية لا قيمة ذاتية لها . فإن استعمل بعد ذلك في شيء من تعبيراته ما يتفق مع هذا النظام الشكلي للكون من قيامه على أسباب العلية والسببية ، مع يقينه بأن الله هو وحده المسبب ، فلا ضير في ذلك .

ويدخل التوسل بالنبي ﷺ في هذا العموم ، ولكنه يمتاز عن التسبب بالمظاهر الكونية الأخرى ، بأنه قربة من الله أيضاً ، إذ هو تأسٍ بعمل الصحابة من جانب ، وهو تعظيم لرسول الله ﷺ من جانب آخر .

☆ ☆ ☆

فهذا مجملُ ما يجب اعتقاده بالنسبة لشؤون الكون ومظاهره . وقد أوضحنا براهينه العلمية المتعلقة به .

ولعلك قد علمت خلال ما ذكرناه ، أن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يكون الإنسان هو سيد هذا الكون[1] ، وأن تكون مظاهر الكون المختلفة من حوله مسخَّرة لخدمته مسيَّرة لتحقيق مصالحه ، وأن يكون له من عقله ـ وهو حقيقة قدسية لم تمنح لغيره ـ ما يمكِّنه من بسط سلطانه على كثير من شؤون

---

(١) نقصد بالإنسان حقيقته وماهيته ، بقطع النظر عن استقصاء الأفراد ، ولو قصدنا به الجنس وعامة الأفراد لما صدق هذا الكلام كما هو ظاهر .

الكون والتصرف بها طبق إرادته . ولقد أوضح كلام الخالق جل جلاله هذه الحقيقة بشكل لا يدع فيها لبساً ولا خفاء : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

فإذا أدركت هذه الحقيقة ، فاعلم أنه لا يوجد أي خطر ديني كما قد يتوهم بعض الجهال من أن يرتقي الإنسان بالتأمل والفكر إلى معرفة الكثير من حقائق الكون المختلفة من حوله قريباً كان أو بعيداً . كما لا يوجد أي مانع ديني من أن يتوصل بعد ذلك إلى اكتشاف هذه الحقائق بالحس والمشاهدة ، كاجتياز طبقات الجو واكتشاف الكواكب القريبة أو البعيدة عن كثب ، بل والصعود إليها والإقامة فيها إن أمكن ذلك . كما لا يوجد أي مانع من أن يصدّق المسلم نبأ حدوث شيء من هذه الأمور .

إذ إن هذا كله إنما يدخل ضمن معنى (التسخير) الذي عبّر به القرآن . بل إن هذه الكلمة لتنطق ببيّن القول ، بأن الإنسان يستطيع إن هو أعمل كامل عقله وتفكيره ـ أن يسبر أغوار كثير من الحقائق الكونية وأن يهتدي إليها بالفكر والمشاهدة واللمس ، وإلا لم تكن كلمة التسخير جارية على حقيقتها ولا متضمنة كامل معناها .

وإن تعجب ، فعجب لعبيد الشرق والغرب إذ تراهم يتشدقون ـ وقد اثاقلوا إلى أرض من الكسل واللهو والخمول ـ بأن عصر الفضاء قد نسخ الدين ، وأن الرقي العلمي قد كشف الأساطير .. يقولون هذا في نشوة تهزّ أعطافهم ، وكأنهم هم الذين يغزون الفضاء ويسبحون حول الكواكب ؛ أو كأنّ هذه الجعجعة ستخلق في جنبي كل منهم جناحين يقتلعان جذوره من تربة الدعة والخمول إلى عنان السماء ، أو إلى حيث تسبح النجوم والأفلاك !. أو كأنهم بذلك قد اكتشفوا ملكوت الله كله فأيقنوا أن لا خالق ولا إله !!.

ولعمري ليس أحقر من الإنسان الجاهل بكل شيء ، إلا من يسكره علمه اليسير عن جهله الغزير ؛ وليس أحقر من هذا وذاك إلا جاهل يتباهى بعلم غيره ، وكسول يفخر بجهد سواه ...

ولْتعلم يا أخي العاقل : أن هذا الكون في دقائقه المختلفة ليس محجوباً عنا إلا بلثام الجهل ، فكل من استنهض عقله للتأمل والعلم وصبر على اجتياز سبيله ، أمكنه أن يميط عنه اللثام ، يستوي في ذلك المؤمن والكافر والصالح والفاجر ، ما دام أن الله عز وجل قد قسم مقومات الإنسانية عليهم بالسواء وأولاهم جميعاً العقل والفكر .

وإن كان ثمة من فرق ، فهو أن المؤمن مدعو بدافع إيماني خاص به ـ إلى جانب دافع حب الاستطلاع الذي يشترك فيه العقلاء كلهم ـ إلى درك حقائق الكون وكشف لثامه ، فهو لا يزال يدفع إلى ذلك دفعاً كلما تلا قوله عز وجل : ﴿ قُلِ انْظُروا ماذا في السَّمواتِ والأرضِ ﴾ [يونس : ١٠١] ومثل هذه الآية في القرآن كثير ، لا من أجل منافسة غير شريفة في ميدان الدعاية الفارغة والمسابقة إلى بسط النفوذ وإقامة أسباب الطغيان ، ولكن من أجل تسخير ما يمكن تسخيره من ذلك في سبيل تحقيق مزيد من مقومات السعادة الإنسانية العامة في ظل ظليل من العبودية التامة للخالق عز وجل .



ٱلْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ

الغيبيّات

مُقَدِّمَة

ما المقصود من الغيبيات ؟

بكلمة مختصرة جامعة ، نقول : المقصود بالغيبيات هنا كل ما لا سبيل إلى الإيمان به إلا عن طريق الخبر اليقيني[1] .

وبناء على ذلك ، فإن شيئاً من الحقائق التي عرضناها لدى البحث في الأقسام الثلاثة الأولى ، لا يدخل في (الغيبيات) . لأن معرفة وجود الله عز وجل ميسورة عن طريق النظر والعقل أكثر من أن تكون ميسورة عن طريق الخبر اليقيني ، والإيمان بنبوة الأنبياء وما أرسلوا به ميسور عن طريق النظر والعقل أيضاً ، والحقائق التي عرضناها في الحديث عن الكونيات تابعة في حكم العقل لما سبق أن حكم به في باب الإلهيات والنبوات ، وهي متعلقة بأشياء مخلوقة موجودة ، لا بأمور اعتيادية مجردة .

غير أن ثمة أموراً أخرى لم تصلنا إلا عن طريق الخبر اليقيني ، ولم يتحقق مضمونها بعد ، بحيث يصبح ذلك دليلاً على صدق الخبر المتعلق بها ؛ وإنما هي لا تزال محجوبة عنا ، لا وجود لها إلا في علم الله جل جلاله . وذلك كالأخبار اليقينية الواردة في أشراط الساعة ، وفيما يمر به الإنسان من أحداث ما بعد الموت ، وكالأخبار اليقينية التي تتحدث عن قيام الساعة وحشر الأجساد مع أرواحها والحساب والميزان والصراط والجنة والنار . فهذه أمور لو لم يأت الخبر

---

(١) أما المقصود بالغيب في القرآن ، فكل ما كان غائباً عن الحواس ، وعلى ذلك يدخل في (الغيب) هناك الإيمان بوجود الله تعالى والإيمان بالملائكة والجن .

اليقيني مخبراً عن وقوعها ، لما كان للعقل أي سبيل إلى تصورها والإيمان بها . ومع ذلك فإن الخبر عندما ورد بشأنها لم يجعل العقل قادراً على تحسسها أو تخيل صورة شيء منها ، لأنها لم توجد بعد ، ولم يمر الإنسان بأي نموذج أو مثال لها حتى يتصور الأمر عن طريق القياس . فمن أجل ذلك أطلق على هذه الأمور اسم : الغيبيات أو المغيبات .

كيف يطبق المنهج العلمي في فهم الغيبيات واعتقادها ؟

وعلينا الآن قبل الخوض في عرض هذه الأمور الغيبية ، وبيان ضرورة اعتقادها أن نتساءل : فإذا كانت الغيبيات هذا شأنها . وهذه هي طبيعتها ، فكيف يمكن أن نضع بيننا وبينها سبيلاً من المنهج العلمي الذي يقبله العلم والعقل للوصول من خلاله إلى اعتقاد هذه المغيبات ؟

إليك أولاً ، هذه الأمثلة المتشابهة ، وستجد الجواب على هذا التساؤل ماثلاً خلالها .

١ ـ قال لك الطبيب ـ وقد تأمل في كأس الماء التي في يدك لتشربها ـ : إن هذا الماء ملوث وإنَّ شربه يعرض حياتك لخطر مؤكد ؛ قال لك هذا الكلام وأنت لا تعلم شيئاً عن الطب وعناصر الأشياء وطبائعها ، كل ما تعلمه أن الذي يقول لك هذا الكلام طبيب حاذق صادق .

٢ ـ بلغك أن علماء الأرصاد والفلك في العالم ، أخبروا عن خسوف يظهر على سطح القمر ، في ليلة معينة بعد أيام معدودة ، وبحثت فأيقنت أن الخبر ليس شائعة مجردة ، بل هو خبر رسمي منقول بطريق يقيني عن المصادر المختصة .

٣ ـ سمعت من مصادر رسمية موثوق بها أن المسؤولين في مؤسسة الكهرباء سيقطعون التيار الكهربائي ، في ساعة معينة من ليلة معينة .

لا شك أنك تستيقن في المثال الأول خطورة شرب ذلك الماء وتمتنع عن أن

تطعم شيئاً منه وتستيقن في المثال الثاني حدوث الخسوف في الوقت الذي عينه أرباب الاختصاص ، كما تستيقن أن تيّار الإضاءة الكهربائية سينقطع في الوقت المعين المذكور ، وتأخذ الأهبة لذلك .

فلماذا تستيقن هذه الأمور ، وما هو البرهان العلمي الذي أخضع عقلك لتصديقه ؟

والجواب : أن عقلك اضطر إلى تصديق ذلك بدافع من برهانين اثنين :

أولهما ـ يقينك بأن الطبيب حاذق وصادق وبأن الطب حقيقة علمية ثابتة ، ويقينك بأن علماء الأرصاد والفلك لا يفوتهم معرفة ما قد يحدث من تقلبات الجو وأمر الخسوف والكسوف إن هم دققوا النظر واطلعوا على ما هو مطرد من سنن الكون ونظامه الذي أقامه الله عز وجل ، ويقينك بأن تنظيم الإضاءة في البلدة منوط بمؤسسة معينة وُكل إليها كل شؤونها .

ثانيهما : يقينك بأن ما بلغك من كلام الطبيب وعلماء الأرصاد وبلاغ المؤسسة الكهربائية ، خبر يقيني تولت نقله إليك جهة رسمية على نحو لا يحتمل التأويل ولا الكذب .

فثبوت البرهان الأول ، ثم ابتناء البرهان الثاني عليه ، ينتجان لا محالة تيقن تلك الأخبار الثلاثة وإن لم يكن مضمونها قد تحقق بعد ، وإن كنا نسميها بسبب ذلك : أموراً غيبية .

إن أحداً لا يشك بأن قانون الجنايات في الدولة ، حقيقة علمية ثابتة يخضع لها الواقع .

ولولا أنه يعتمد على هذين البرهانين . لما أمكن أن يكون كذلك . ولما صح لأحد من الناس أن يحسب له أي حساب غيبي ، فيتصور ما يلاحقه من أوجه العقوبات إن هو ارتكب شيئاً من أسبابها ، فضلاً عن أن يصدق ذلك ويستيقنه ! ..

ولكن الناس لما استيقنوا ، بادئ ذي بدء ، قوة الدولة ، ونفاذ سلطانها وأمرها ، ثم بلغهم بطريق يقيني لا يقبل الشك ما أخذته هذه الدولة على نفسها ، تجاه من يرتكبون شيئاً من الجرائم أو الجنايات ـ كان ضرورياً أن يستيقنوا تطبيق هذه العقوبات عند التأكد من وقوع أسبابها . أما من يقف ليقول لك : ولكني لا أصدق إلا ما ثبت بالتجربة والمشاهدة وأحسست به ماثلاً أمامي ـ فليس له عندك إلا الإشفاق على طريقة تفكيره ، أو أن تدلّه على السبيل التي يصل منها إلى برهان التجربة المحسوسة إذ يرى تجربة التفاف حبل المشنقة حول عنقه ، ثم لا تفلته التجربة إذ ذاك إلا جثة لا حراك فيها .

☆ ☆ ☆

نقول بعد عرض هذه الحقائق الواضحة التي لا يتمارى فيها عاقل :

لا شك أن من العبث المضحك ، أن نخاطب بشيء من الحقائق الغيبية ، من لم يكن قد آمن بعدُ بوجود الله عز وجل ، أو لم يصدق بعدُ بعثة الرسل والأنبياء وأن القرآن هو كلام الله . إذ هو كما لو خاطبت بشيء من بنود القانون الجنائي إنساناً لم يفهم بعدُ معنى الدولة ولم يؤمن بوجود أي مسؤول عن هذا الكلام ، أو كما لو خاطبت بشأن الخسوف إنساناً لم يؤمن بعد بوجود شيء اسمه الأرصاد الجوية ولا بوجود علم اسمه الفلك ، بل إن من العبث أن تكلمه بهذا الذي لا قابلية عنده لفهمه وتيقنه .

وإنما نحيل مثل هذا المنكر إلى الكلام الذي ذكرناه في قسم الإلهيات ونحاكمه إلى تلك الحقائق البدهية التي عرضناها إذ ذاك ، ثم ننتقل به إلى ما أوضحناه في قسم النبوات ونحاكمه إلى البراهين التي عرضناها في ذلك الصدد ، حتى إذا آمن بالله عز وجل ، ثم آمن بالرسل والأنبياء وبأن القرآن كلام الله ـ انتهى بطبيعة الحال وبضرورة النظر العقلي إلى الإيمان بكل الحقائق الغيبية ،

لا يحمله على التريث في قبولها وتصديقها إلا التأكد من قطعية الخبر واستيفائه لكل الشروط العلمية المعروفة للخبر اليقيني .

أما أن تعثر على إنسان آمن بالله عز وجل ، وآمن برسله وكتبه ، ثم أنكر مع ذلك شيئاً من اليقينيات الغيبية الثابتة في كتاب الله عز وجل ـ فهذا ما لا يمكن وقوعه . وإنما ينكر من ينكر شيئاً من ذلك ، من أجل أنه لم يؤمن بعد بالحقائق العظيمة الأولى ، وإن أوهم الناس أو أوهم نفسه أنه مؤمن بها .

إذا تبين لك هذا ، فلنبدأ بعرض الحقائق الغيبية التي لا بد للعقل من أن يصدقها ويستيقنها بعد أن استيقن الحقائق التي فرغنا من بيانها ، وسوف لا نطيل الكلام بذكر أدلة كل منها ، على نحو ما فعلنا فيما مضى لأن أدلتها مجرد ورود الخبر الصادق اليقيني من الله عز وجل بشأنها . فإذا نظرنا ، فوجدنا أن الخبر الوارد خبر متصل السند لا شذوذ فيه ولا علة ، وله مع ذلك طرق كثيرة ترتقي به إلى درجة التواتر ـ لم يكن بد للعقل من تصديقه ووضعه موضع الاعتقاد واليقين . وتنحصر هذه الحقائق في الأمور الثلاثة التالية :

أولاً ـ حقائق تتعلق بالموت .

ثانياً ـ أشراط الساعة .

ثالثاً ـ يوم القيامة وأحداثه .

☆ ☆ ☆

أولاً

حقائق تتعلق بالموت

أما الموت فقد علم الناس كلهم أنه حقيقة مشاهدة محسوسة ، وليس من الغيبيات في شيء .

وهو قصة الحقيقة الكبرى في هذا الوجود !.. الحقيقة التي يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين ، وطغيان البغاة والمتألهين !.. إنها الحقيقة التي تمد صفحة هذا الوجود المائج ، بغاشية الانتهاء والفناء ، وتصبغ الحياة البشرية كلها بصبغة العبودية والذل لقهار السموات والأرض ، حقيقة تسربل بها ، طوعاً أو كرهاً ، العصاة والطائعون ، والرؤساء والمتألهون ، والرسل والأنبياء ، والمقربون والأصفياء ، والأغنياء والفقراء ، وأرباب العلم والاختراع .

إنها الحقيقة التي تعلن على مدى الزمان والمكان ، وفي أذن كل سامع وعقل كل مفكر : أن لا ألوهية إلا لذاك الذي تفرد بالبقاء ، فهو الذي لا مرد لقضائه ولا حدود لسلطانه ، ولا مخرج عن حكمه ، ولا غالب على أمره[1]

فهذه الحقيقة ، أمر مشاهد محسوس ، كما قلنا ، ولا علاقة له بالمغيبات .

غير أن ثمة أموراً أخرى تحيط به من بين يديه ومن خلفه . لا مجال للعلم بها إلا عن طريق الخبر اليقيني الوارد في شأنها : إذ لا تكشف ، على سبيل الحس والمعاينة ، إلا لمن وقع في سياق الموت وأخذ يعاني من سكراته ، ولمن تجاوزه إلى الحياة البرزخية القائمة من وراء الموت . ولذلك كانت هذه الأمور مغيبات

---

(١) من كتاب فقه السيرة للمؤلف : ص٥٣٨ الطبعة الثانية .

بالنسبة إلينا ، مادمنا لا نزال نسير في معْبر هذه الدنيا . ولم نصل بعد إلى هذه النهاية التي إليها مصير كل حيّ من المخلوقات .

وهذه الأمور الغيبية هي :

أ ـ ملك الموت وقبضه الأرواح .
ب ـ سؤال القبر .
ج ـ عذاب القبر ونعيمه .

ولنبدأ في بيان كل منها على حدة .

☆ ☆ ☆

أ ـ ملك الموت وقبضه الأرواح :

لا ريب أن المحيي والمميت هو الله عز وجل ، فهو الذي يتوفى الأنفس ويميتها عندما يشاء ، وفي بيان ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حينَ مَوتِها ﴾ [الزمر : ٤٢] .

ولكن اقتضت حكمة الله عز وجل ، أن يكل قبض الأرواح إلى واحد من ملائكته المقربين ، كما اقتضت حكمته أن يكل وجود مخلوقاته المختلفة إلى أسباب جعلية جمع بينها برابط من محض مشيئته . وقد دل على ذلك الخبر اليقيني الذي لا يقبل الاحتمال ، وهو قول الله تعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوتِ الَّذي وُكِّل بِكُم ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرجَعونَ ﴾ [السجدة : ١١]

وهو ملك عظيم سماه الله . كما رأيت ملك الموت . وقد ورد في بعض الآثار أن اسمه عزرائيل ، أي عبد الجبار . وقد اشتهر بهذا الاسم . قال مجاهد في

وصفه : طويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء ، قال ابن كثير : ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ مرسلاً ، وقاله ابن عباس أيضاً[1] .

ولكن ، هل له أعوان من الملائكة يعالجون نزع الأرواح من أجسادها ، أم الأمر كله موكول إليه وحده ؟..

والجواب ، أن هذه المسألة داخلة في حيز الاجتهاد والنظر ، والذي ذهب إليه الجمهور أن لملك الموت أعواناً كثيرين من الملائكة أقامهم الله عز وجل معه في هذا الأمر . ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظالِمي أنفُسهِمْ ، قالوا فيمَ كُنتُم .. ﴾ [النساء : ٩٧] الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ المَوتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُم لا يُفَرِّطونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] . والمعنى : أن الله تعالى خلق ملك الموت وجعل على يديه قبض الأرواح وانتزاعها من الأجسام وإخراجها منها ، وخلق الله تعالى جنداً يكونون معه يعملون عمله بأمره . فملك الموت يقبض ، والأعوان يعالجون ، والله تعالى يزهق الروح[2] .

ثم إن متفرقات الأحاديث والآثار دلت على أن الإنسان كلما كان أصلح حالاً أثناء حياته ، كان ملك الموت به أرفق وكان الموت عليه أهون . وكلما كان الإنسان أوغل في السوء والعصيان أثناء حياته كان الملك في معالجته أغلظ وكان الموت عليه أشد على أن هذا ليس قانوناً دائماً .

فهذه أولى الحقائق الغيبية المتعلقة بالموت ، وعلى المسلم أن يعتقد بها اعتقاداً جازماً لورود الخبر اليقيني بها .

ب ـ سؤال القبر :

فإذا مات الإنسان ، أرسل الله إليه ملكين بشكل مفزع مخيف ، فسألاه عن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٣ ـ ٤٥٨

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن : ١٤ ـ ٩٤ .

الدين الذي عاش عليه وعن علمه بهذا الرجل الذي سمع عنه ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فمن كان قد ثبته الله عز وجل بالقول الثابت ، ومات على الحق وختم له بالحسنى ، ألهمه الله الجواب على سؤال الملكين ، دون أن يعْرُوه شيء من مظهرهما المخيف ، ومن لم يكن معتصماً بحبل الإيمان في حياته الدنيا ، ومات على ماعاش عليه من لهو وعصيان وإدبار عن الحق ، ملأ الله قلبه فزعاً منهما ، فغاب عن فكره الجواب المطلوب ولم يحر جواباً على ما يقولان .

وهذه من الحقائق الغيبية التي لا يلمسها إلا من انتهى إلى ذلك المصير ، ويوشك كل منا أن ينتهي إليه . وقد دلت عليها أحاديث صحيحة كثيرة تجاوزت في مجموعها حد التواتر . ولذلك تم إجماع المسلمين كلهم على الإيمان بذلك طبقاً لما دل عليه الخبر اليقيني .

فمن الأحاديث الواردة في ذلك مارواه البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول ﷺ صلى بالناس صلاة الكسوف مرة ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : مامن شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا ، حتى الجنة والنار ، وقد أوحي إلي أنكم تُفتنون في القبور مثل أو قريباً من فتنة الدجال ، يؤتى أحدكم فيقال له : ماعلمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن - ترديد من أسماء التي تروي الحديث - فيقول : هو محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا وآمنَّا واتبعنا . فيقال له : نم صالحاً ، قد علمنا إن كنت مؤمناً . وأما المنافق أو المرتاب (شك من أسماء أيضاً) فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .

ومن ذلك ما رواه الشيخان بسنده أن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ماكنت تقول في هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال : فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك به مقعداً

من الجنة . قال النبي ﷺ : فيراهما جميعاً ؛ وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » .

ومن ذلك مارواه البخاري ومسلم وغيرهما بسنده عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل في القبر ، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله جل جلاله : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذينَ آمَنوا بِالقَولِ الثَّابِتِ في الحَياةِ الدُّنيا وَفي الآخِرَةِ ﴾ .

وهنالك أحاديث كثيرة رويت بطرق مختلفة عن علي ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، والبراء بن عازب ، وأبي أيوب ، وأنس ، وجابر ، وعائشة ، وأبي سعيد ، كلها في سؤال القبر وفتنته .

فهذا هو دليل التواتر الذي لا يقبل الريب أو الاحتمال .

ثم إن إسناد السؤال إلى القبر جار على وجه التغليب إذ غالب من يموتون يدفنون في القبور ، فيكون سؤال الملكين بالنسبة إليهم في القبر بعد أن يتولى عنهم أصحابهم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام . فأسند السؤال إلى القبر تغليباً . وإلا فلا جرم أنه شيء ثابت بالنسبة لكل من مات سواء دفن في القبر أم غرق في البحر أم أكلته السباع أم التهمته النيران .

فإن قلت : ولكن كيف يتم السؤال والجواب رغم موته في هذه الأحوال كلها ؟

والجواب أن الأمر داخل في حيز المكنات ، وليس من قبيل المستحيلات . غاية الأمر أن من الممكنات أموراً لم نشاهدها ولم نتعود على تصورها وهضم كيفيتها ، ومنها ما ذللته المشاهدة والرؤية المستمرة ، فيتخيل الإنسان لأول وهلة أن الأول مستحيل والثاني وحده الممكن .

فليس عسيراً على الله جل جلاله أن يعكس الحياة مرة أخرى على ذرات الجسم سواء كانت مجتمعة في قبر ، أم موزعة في فلاة أم متفرقة في بطن سبع ، فيعي بذلك السؤال والجواب ، ويرى الملك الذي يسأله ويكلمه . وليس ثمة مطمع في أن تعلم كيفية ذلك تحليلاً ، إذ إن حقائق ما بعد الموت متعلقة بنظام آخر مختلف كل الاختلاف عن نظام هذا العالم المرئي للأحياء ، ولننقل لك في بيان هذه المسألة ما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله :

(.. إن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده . فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك ، وإن كنت آمنت به وجوزت أنه يشاهد النبي مالا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت ؟)[1] .

ج ـ عذاب القبر ونعيمه :

وهما من الحقائق الغيبية التي ثبت الدليل عليها أيضاً بالخبر اليقيني المتواتر ..

ولنذكر لك طائفة من هذه الأخبار ، إذ هي العمدة في موقفنا من المغيبات التي لا مجال للمشاهدة والعقل في الخوض فيها .

١ ـ يقول الله تعالى : ﴿ وَلَو تَرى إِذِ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ المَوتِ والمَلائِكَةُ باسِطوا أَيْديهِمْ أَخْرِجوا أَنفُسَكُمْ ، اليَومَ تُجزَونَ عَذابَ الهُونِ ﴾ [الأنعام : ٩٣] . ومثله قوله تعالى : ﴿ فَكَيفَ إذا تَوَفَّتهُمُ المَلائِكَةُ يَضرِبونَ وجوهَهُم وَأَدْبارَهُم ﴾ [محمد : ٢٧] . ولا يخدش في دلالة الآيتين على ما نقول ، أن العذاب كائن ـ في

(١) إحياء علوم الدين : ٤ ـ ٥٠٠

دلالتهما ـ من قبل الدفن ، إذ هو على كلٍ من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة ، ونحن إنما نضيف العذاب إلى القبر لأنه معظمه يقع فيه ، كما أوضحنا آنفاً[1] .

٢ ـ يقول الله تعالى : ﴿ وَحاقَ بِآلِ فِرعَونَ سوءُ العَذابِ ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَومَ تَقومُ السَّاعَةُ أَدْخِلوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العذابِ ﴾ [غافر : ٤٥ ـ ٤٦] . ووجه دلالة الآية أنه لما عُطف فيها قوله : ويوم تقوم الساعة ، على : غدواً وعشياً ، علمنا يقيناً أن النار التي يعرضون عليها غدواً وعشياً غير التي يعرضون عليها يوم القيامة ، ولا شك أنه واقع ما بين الموت والنشور[2] .

٣ ـ روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير » ثم قال : « بلى أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر[3] من بوله » . ثم أخذ عوداً رطباً فكسره باثنتين ، ثم غرز كل واحد منهما على قبر ، ثم قال : « لعله يخفف عنهما مالم ييبسا » .

٤ ـ روى البخاري ومسلم وغيرهما عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . ولاشك أن في هذا تنعيماً لمن هو من أهل الجنة وتعذيباً لمن هو من أهل النار .

---

(١) انظر فتح الباري : ٣ ـ ١٥١

(٢) انظر المواقف وشرحه للايجي : ٤٢ ـ ٥٢

(٣) هكذا في أكثر الروايات بلفظ « يستتر » أي لا يجعل بينه وبين بوله سترة ، فهو لا يتحفظ منه ، ورواية مسلم وأبي داود « يستنزه » . وفي رواية لابن عساكر « يستبرئ » والمعنى في كلها واحد أو متقارب .

فهذه بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنة عن عذاب القبر ونعيمه ، وهي في مجموعها تتجاوز حد التواتر المطلوب لقطعية الدلالة على المضمون . ولذلك تم إجماع المسلمين على أن الميت يتعرض قبل النشور للعذاب أو للنعيم حسب حاله كما تم إجماعهم على قبض ملك الموت للروح وعلى سؤال الملكين من بعد الموت .

إذا علمت هذا فإننا نقول :

أما إنكار عذاب القبر ، من أصله ، فهو مزلق إلى الكفر ، لما ثبت من الدليل القاطع فيه كما علمت .

وإما إقراره من حيث الأصل ، مع الارتياب في أنه يكون للروح فقط ، أو للروح مع الجسم أو بعض أجزاء الجسم ، فذلك أمر ليس من شأنه أن ينتهي بالباحث - إلى أي الاتجاهين ذهب - إلى الكفر لأن التحقيق في أن العذاب يكون للروح فقط أو للروح والجسد معاً ، خاضع للنظر ، وليست فيه أدلة قاطعة واضحة كأدلة أصل التعذيب والتنعيم .

غير أن أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين ، قالوا بأن ذلك يكون للروح والجسد معاً ، إذ هو من قبيل الممكن ، كما أوضحنا آنفاً ، ولأن ظاهر النصوص الواردة تقتضي ذلك ولا حاجة إلى التأويل . فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ وقف على القليب الذي ألقيت فيه جثث المشركين يوم بدر ، وأخذ يكلمهم قائلاً : « إنَّا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » .

ولولا علمه أن الأجداث بنفسها هي التي تسمع كلامه ، لما اتجه في خطابه إليها ، ولما قال لعمر لمَّا تعجب من مخاطبته لتلك الأجساد : « والذي نفس محمد بيده ماأنتم بأسمع لما أقول منهم »[1] .

---

(١) انظر ماذكرناه عن الحياة البرزخية للأموات عند شرح هذا الحديث في كتاب (فقه السيرة) ص ٢٤٧ .

وذهبت طائفة قليلة أخرى إلى أن ذلك كله إنما يكون للروح فقط ، قال الجمهور : وليس لهم من دليل على التخصيص والتأويل . والذي يؤمن بأصل العذاب والنعيم في القبر للروح ، يستطيع أن يؤمن بهما للروح مع الجسد ، وإذا لم يرد دليل على التأويل والتخصيص فإن القول بهما قول بما لادليل عليه[١]

بطلان التناسخ

وقبل أن ننتقل إلى البحث في القسم الثاني من المغيبات ، ننبهك إلى مايستلزمه كل من هاتين الحقيقتين اللتين فرغنا من بيانها وهما : سؤال الملكين ، وعذاب القبر ، فقد دل كل منهما بوضوح على بطلان مايتوهمه أناس من أن الأرواح تظل متنقلة بين الأجساد ، كلما انتسخ وجود واحدة منها في جسدها التي هي فيه انتقلت منه إلى جسد آخر ، وهكذا دواليك .

وتصورُ تناسخ الأرواح بهذا الشكل ، من الأوهام التي كانت قد سرت إلى بعض قدماء اليونانيين ، مع ماسرى إليهم من الأفكار الأسطورية المختلفة التي عرفوا بها والتي عُرفت بها الحضارة اليونانية ، كما عُرف كثير من الفراعنة أيضاً بأوهام قريبة من هذا .

غير أن من طبيعة مثل هذه التخيلات والأوهام أن لاتعدم في كل عصر أفكاراً ضعيفة تسيطر عليها أو تظل حائمة حولها . وليس من علاج يقي هذه الأفكار عن سلطان هذه الوساوس إلا علاج العلم والدين الحق ، والتحرر من أسر التقاليد والموروثات التي لايتبين لها ـ بعد البحث ـ أي جذور من الحقيقة العلمية أو العقلية المجردة .

لقد قلنا آنفاً إن الله يرسل ملكين إلى الإنسان عقب وفاته ، يسألانه عن

(١) انظر شرح المواقف : ٢ ـ ٤٠١

دينه الذي عاش عليه وعما علمه من أمر محمد عليه الصلاة والسلام . وقلنا إن الميت يتعرض بعد ذلك إما للون من العذاب أو للون من النعيم . وأوضحنا أن البرهان العلمي في هذا ، هو عين البرهان العلمي المتعلق بوجود الله عز وجل وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبأن القرآن المعجز كلام الله عز وجل ، وأن العقل لايحتاج - بعد أن يستيقن كل ذلك - إلا إلى الوقوف على خبر موصول السند إلى القرآن أو السنة يرتقي في تعداد طرقه إلى التواتر ليكتسب درجة اليقين والقطع في حكم العقل .

ولقد رأيت الخبر المتواتر عن الكتاب والسنة ، قاضياً بثبوت كل من سؤال القبر وعذابه ، فلا يسعك ، وقد آمنت بكل مامرَّ ذكره في قسم الإلهيات والنبوات ، إلا أن تؤمن بمضمون هذه الأخبار المتواترة .

ثم إنك قد علمت بأن السؤال والعذاب واردان على روح الميت بيقين ، إذ لايتصور بدون ذلك خطاب أو نعيم أو عذاب ، وإذاً فالروح مشغولة بصاحبها محبوسة له أو عليه كما قال الله عز وجل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] ولا يمكن أن تنصرف مولية عنه لتسكن جسداً آخر تستقبل فيه سلوكاً جديداً ووجوداً آخر بديعاً .

ولا يمكن لأي عاقل أن يجمع على فكره كلاً من الإيمان بالتناسخ ، والإيمان بما يكون بعد الموت من السؤال والعذاب ، إذ هما متناقضان تناقضاً واضحاً : فلا جرم أن الإيمان بأحدهما مظهر لإنكار الآخر .

فهذا هو الدليل الخبري من الكتاب والسنة على بطلان التناسخ .

وأما الدليل العقلي والعلمي ، فهو أن تصور التناسخ إنما هو شيء يتعلق بالمغيبات ، كما هو معلوم . والأمور الغيبية لاسلطان للعقل عليها مادام بينه وبينها حجاب لا ينفذ منه أي برهان من البراهين التجريبية والمشاهدة أو اللزوم

البيِّن أو القياس الأولى القائمين على الاستقراء التام ، فالخيال قد يذهب في تصور هذه المغيبات كل مذهب ، ولكن العقل لايصدق أي مذهب منها مالم يقم عليه البرهان السليم . ولولا أن أخباراً يقينية متواترة قد وردت عن الله عز وجل أو عن رسوله ببعض المغيبات ، لكان موقف العقل منها نفس الموقف ، أي الإنكار والجحود مادام أنه لابرهان عليها . ولكن لما ورد الخبر اليقيني عمن قام البرهان العلمي على وجوده وصدقه ، كان ذلك موجباً للتصديق والإذعان ، إذ هذا الخبر نفسه ، في مثل هذه الحال ، برهان علمي قاطع .

فهذه هي الحقائق الغيبية المتعلقة بالموت ، عرضناها مع إيضاح براهينها . ولننتقل بعد ذلك إلى البحث الذي يليه .

☆ ☆ ☆

ثانيًا

أشراط الساعة

موعد قيام الساعة مجهول لايعرفه من دون الله أحد :

والساعة من أسماء يوم القيامة ، ويوم القيامة هو الحادثة الكونية العظمى التي تطوى عندها السماوات والأرض وينتثر فيها هذا النظام الكوني أجمع .

فأما عن موعد هذا الحدث وزمنه والوقت الذي يكون فيه ، فذلك ماأخفى الله تعالى علمه عن الناس كلهم بما فيهم الرسل والأنبياء ، فليس لأحد ـ كائناً من كان ـ من سبيل إلى معرفة مابقي من عمر الدنيا .

ولقد صرح القرآن بهذا مكرراً ومؤكداً ، فقال مرة : ﴿ يَسألونَك عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرساها ، قُل إنَّما عِلمُها عِندَ رَبِّي لايُجَلِّيها لِوَقتها إلاَّ هوَ ، ثَقُلَت في السَّمواتِ والأرضِ ، لاتَأتيكُمْ إلاَّ بَغتَةً ، يَسألونَكَ كَأَنَّكَ حَفيٌّ عَنها ، قُل إنَّما عِلمُها عِندَ اللهِ ولَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لايَعلَمون ﴾ [الأعراف : ١٨٧] .

وقال مرة أخرى : ﴿ وَيقولونَ مَتى هذا الوَعْدُ إنْ كُنتُم صادِقينَ ، قُل إنَّما العِلْمُ عِندَ اللهِ وإنَّما أنا نَذير مُّبينٌ ﴾ [الملك ٢٥ ـ ٢٦]

وأوضح النبي عليه الصلاة والسلام هذا في الحديث الصحيح المتفق عليه ، عندما سأله جبريل : « متى الساعة ؟ » حيث أجابه : « ماالمسؤول عنها بأعلم من السائل » .

فإن سمعت من يحدد للدهر عمراً معيناً أو يضع ليوم القيامة ميقاتاً محدوداً ، فاعلم أنه إما مغمور في جهل عميق بالدين ، أو هو كاذب دساس وضع بين عينيه سبيلاً معينة لحرب الإسلام والكيد له .

علاماتها الكبرى :

وأما عن علامات الساعة وأشراطها التي تكون بين يديها ، فقد حدثنا كل من الكتاب والسنة عن أشراط لها ، ولا شك أن جملة هذه الأشراط مما هو معروف من الدين بالضرورة فلا يجوز للمسلم أن ينكرها أو يمتري بها وإن كانت داخلة في المغيبات التي لم تقع بعد .

وأما النظر التفصيلي في كل منها فإن ذلك يقتضينا أن نقسم هذه الأشراط إلى قسمين :

فأما القسم الأول منها ، فثابت بالخبر المتواتر الذي يورث القطع واليقين . وأما القسم الثاني فمنقول إلينا عن طريق الآحاد .

ونحن لم نعرِّج في حديثنا هذا على القسم الثاني من الأشراط ، وإن كان الكثير منها وارداً بطريق صحيحة متفق على صحتها ، إذ هي لا تتجاوز على كل حال حدود الظنيات ، وإنما يشترط لضرورة الاعتقاد قيام الدليل القطعي كما قد علمت .

وإنما نحدثك عن القسم الأول منها فقط وهو الذي ورد به الخبر القطعي ، فكان الإيمان به ، بسبب ذلك واجباً .

١ ـ ظهور الدجال :

والدجال لقب له ، لُقِّب به لشدة تدجيله وكذبه ، ولقدرته الخارقة على تغطية الحق بالباطل ، وهو رجل يهودي الأصل ، من جهة المشرق ، فيدعي بين الناس الصلاح والاستقامة ، ثم إنه يدعي الألوهية ويتبعه فيما يدعو الناس إليه خلق كثير معظمهم من اليهود . ولقد فاضت بالأحاديث المتعلقة به جميع كتب السنة ، تحذيراً وإخباراً ووصفاً . ولننقل لك بعضاً يسيراً من هذه الأحاديث .

١ ـ روى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال ، فقال : « إني لأنْذرُكُموه وما من نبي إلا وقد أنذر قومه ، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه . إنه أعور ، وإن الله ليس بأعور » .

٢ ـ روى الشيخان وغيرهما عن حذيفة (واللفظ لمسلم) أن عقبة قال له : حدثني ماسمعت من رسول الله ﷺ في الدجال فقال : إن الدجال يخرج وإن معه ماء وناراً ، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب : فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً ، فإنه عذب طيب . فقال عقبة : وأنا قد سمعته ، تصديقاً لحذيفة .

٣ ـ روى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم ، حديثاً طويلاً في شأن الدجال وما يكون في وقته نسوقه لك باختصار : عن النواس بن سمعان رضي الله عنه ، قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل[1] فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال : « غيرُ الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤ حجيج نفسه . والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قَطط عينه طافئة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خَلّةً بين الشام والعراق[2] فعاث يميناً وعاث شمالاً ، ياعباد الله فاثبتوا » . قلنا يارسول الله وما لبثه في الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا : يارسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لا ، أقدروا له قدره » . قلنا : يارسول الله وما إسراعه في الأرض ؟

---

(١) أي حتى توهمناه أصبح على مقربة منا عند نخيل المدينة .

(٢) أي في طريق بينهما .

قال : « كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت . ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جَزِلتين رمْيةَ الغرض ، ثم يدعوه فيُقبل ويتهلل وجهه يضحك ؛ فبينما هو كذلك ! إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مُهرودتين[1] واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفع تحدر منه مثل الجمان .. فيطلبه (أي يطلب الدجال) حتى يدركه بباب لدّ[2] فيقتله .. »[3] .

٤ ـ وروى مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري قال : قال لي ابن صائد واسمه صاف ، يهودي الأصل يمارس الكهانة ، كان يشاع في المدينة أنه ربما كان هو الدجال : مالي ومالكم ياأصحاب محمد ، ألم يقل نبي الله ﷺ إنه يهودي وقد أسلمت ، وقال لايولد له وقد ولد لي ، وقال إن الله حرم عليه مكة وقد حججتُ ، قال فما زال حتى كاد أن يأخذ فيّ قوله ..

☆ ☆ ☆

هذا وإن مجموع الأحاديث المختلفة الواردة في حقه ، تبين أنه ذو علامات فارقة كثيرة .

فهو يهودي الأصل ، ويكون ظهوره من جهة المشرق ، على خلاف في البقعة المعينة التي يكون خروجه منها ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة وطافية بشكل منكر ، ولا يولد له ولد ، ولا يُمكَّن من دخول مكة والمدينة ، مكتوب على جبهته (كافر) يتبينها كل مسلم ، ويقتله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) أي بين ثوبين أو حلتين تضربان إلى الصفرة .
(٢) اللد بلدة معروفة بفلسطين قريبة من بيت المقدس .
(٣) انظر نص الحديث بطوله في مسلم : ٨ / ١٩٧ .

قال الحافظ ابن حجر : فإن قلت كيف يُجري الله الآيات الباهرة على يده من مثل إحياء الموتى ، وهو من الآيات العظام التي لا تكون إلا للأنبياء ؟!..

فالجواب : إنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعواه ، وهو أنه أعور مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مسلم ، فدعواه داحضة ، مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان إلهاً لأزال ذلك عن وجهه ، وآيات الأنبياء سالمة عن المعارضة فلا يشتبهان .. ثم قال : وفي الدجال مع ذلك دلالة بينة ، لمن عقل ، على كذبه ، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر مع ظهور الآفة به من عور عينه ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم ، فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوّي خلق غيره ويعدله ويحسنه ، ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماوات والأرض ، صور نفسك وعدّلها ، وأزل عنها العاهة . فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئاً ، فأزل ما هو مكتوب بين عينيك[1] .

قلت : وقد علمت أن الله عز وجل جعل ظهور الدجال ، فتنة خطيرة كبرى للناس ، كما بين الرسول ﷺ وكما أنذر : ولو لم يكن قد مكنه الله من إحداث بعض الخوارق وجعل إليه مقاليد كثير من الخيرات والأرزاق ، لما كان فتنة .

إذا علمت هذا ، فاعلم أنه ليس للبحث العقلي أي سبيل إلى تحليل شخصية هذا الإنسان ودراسته ، من وراء هذا الذي أخبرت به النصوص الصحيحة . إذ إن المنفذ العقلي الوحيد إلى فهم أي شيء عنه إنما هو الخبر اليقيني ، ولولا ورود هذا الخبر لما تصورنا وجوده أصلاً فضلاً عن اعتقاده والإيمان بظهوره[2]

---

(١) فتح الباري : ١٣ / ٨٤ .

(٢) قد يتساءل البعضُ : لماذا لم يكن لقصة الدجال وخبره نصيب في القرآن ، وما السر في أن كل ما جاءنا من أخباره أحاديث عن الرسول فقط .
=

أما عندما يحين وقت ظهوره ، وعلم ذلك عند الله عز وجل ، ويظهر للناس ، فعندئذ يتحول أمره من مسألة غيبية مجردة إلى واقع حسي ملموس ، وعندئذ يخضع أمره للنظر والتحليل شأن كل المشاهدات المحسوسة الأخرى .

☆ ☆ ☆

٢ ـ نزول عيسى ابن مريم :

وهو من أهم أشراط الساعة ، ومن أخطر الأحداث التي تكون بين يديها .

ومعنى نزوله ، أنه يهبط إلى الأرض ، بعد احتجابه عنها كل هذه الحقبة الطويلة من الدهر ، في مكان ما من ملكوت الله عز وجل ، وهو لا يزال يتمتع بحياته الأولى التي أحياه الله بها إذ كان في الأرض رسولاً نبياً . فيمكث في الأرض مدة من الزمن يقيم عليها دعائم العقيدة الإسلامية التي بعث هو والأنبياء كلهم لإقامتها ، وينفذ الشريعة الإسلامية الناسخة لجميع الشرائع السابقة والتي بعث بها

= والجواب : إنه لا يبعد أن تكون الحكمة من ذلك هي أن الدجال أهون على الله من أن يسجل اسمه في كتابه وكلامه القديم ، يتلى على ألسنة الناس في كل زمان ومكان . وقد درج القرآن في أسلوبه وإخباراته على عدم ذكر الأسماء ـ اللهم إلا أسماء الرسل والأنبياء ـ وبعض الطغاة الذين أرسلوا إليهم . أفيخص الدجال وحده بالذكر والتعيين ؟! ..

ومهما يكن فإن الخبر الصادق الذي يتحتم الاعتقاد بوجبه ليس محصوراً في القرآن فقط ، بل هو كما يكون في القرآن يكون في السنة أيضاً ، إذا وصل إلينا بطرق صحيحة متواترة .

وقد شاعت أخيراً (تقليعة) بين بعض المتفيقهين المنافقين الذين يظهرون ما لا يبطنون وهي أن أحدهم يمسك بحكم من أحكام الشريعة المجمع عليها ، ثم يطالبك أن تأتيه بنص عليه في القرآن ، والقرآن فقط ، وإلا فهو لا يعتد به ! ..

ومن أجل هذا فإنك تجد الواحد منهم يسأل مثل هذه الأسئلة وهو لا يؤدي صلاة ولا صوماً ولا يلتزم شعيرة من شعائر الإسلام . إذ كان عذره أن القرآن لم يشرح له كيفية الصلاة والصيام وبقية الأحكام ! ..

ومقتضى منطق هؤلاء أن يتركوا القرآن الذي تنزل على محمد ﷺ ، ولا يعتمدوا إلا على قرآن ينزل على كل منهم مباشرة ، فذلك أقطع للشك وأنفى للريبة ...

محمد عليه الصلاة والسلام ، دون أن يؤيد خلال ذلك بوحي جديد من الله عز وجل[1] .

وبذلك تعلم أن نزوله ، لا يناقض كون محمد عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء وآخرهم ، كما لا يناقض أن شريعته ناسخة لجميع الشرائع وباقية إلى يوم القيامة .

ثم إن الدليل على ذلك ثابت بيقين في كل من الكتاب والسنة : أما دليل الكتاب فإليك منه هاتين الآيتين :

---

(١) كتب أحد الوهابيين من خصوم السلف ، في تعليق له ، بمناسبة هذا البحث ما نصه : « هذا صريح في أن عيسى عليه السلام يحكم بشرعنا وبمقتضى الكتاب والسنة ، لا بغيرها من الإنجيل أو الفقه الحنفي ونحوه » ! ..
إنك لترى أنه يقرر ، بصريح العبارة ، من خلال سخريته بالفقه الحنفي أنه غير الشريعة الإسلامية ، وإنما هو شيء آخر كالذي يسمى اليوم بالتوراة أو الإنجيل ! .. فأبو حنيفة رحمه الله ، إنما دعا الناس ، بزعمه ، إلى نبذ الشريعة الإسلامية والأخذ بفقهه بدلاً منها !! ..
فهل من مسلم يتمتع بشيء من تقوى الله تعالى يتفوه بهذا الكلام الظالم الوقح ، في حق سلف هذه الأمة وإمام من أئمة علماء المسلمين ؟!
وإنا لنعلم أن هذا الرجل ، أو ناشر الكتاب الذي ورد فيه الافتراء العجيب ، وقد تلقى مذكرات كثيرة من علماء المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي ، تنبه إلى ضرورة شطب هذا اللغو ، فما أصاخ واحد منهما إلى التذكير بهذا الحق وأبى كل منهما إلا أن يجعل من نفسه مطية ذلولاً للعصبية الشنعاء .
فالله المستعان أن ينتصر لعباده الذين ما آلوا جهداً في استخراج أحكام الشريعة الإسلامية من الكتاب والسنة ، فكانت اجتهاداتهم هي حكم الله تعالى في حقهم ، وحق كل من استرشدوا بعلمهم ممن لم يسعهم إلا تقليد الأئمة وأتباعهم ، يستوي في ذلك ما أصابوا فيه من تلك الاجتهادات وما أخطأوا .
والله المستعان أن يعافينا من الضغائن والأحقاد تجاه سائر إخواننا المسلمين ، فضلاً عن السلف الصالح وأئمة المسلمين ، وأن يجعلنا من المتحققين بصفات أولئك الذين قال عنهم : « والَّذينَ جاؤوا مِنْ بَعدِهِمْ يَقولونَ رَبَّنا اغفِر لَنا وَلإخْوانِنا الَّذينَ سَبَقونا بالإيمانِ ، وَلا تَجْعَلْ في قُلوبِنا غِلاًّ لِلَّذينَ آمَنوا رَبَّنا إنَّكَ رَؤوفٌ رَحيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

الآيـة الأولى : قولـه تعـالى في سورة النسـاء : ١٥٧ ـ ١٥٩ . ﴿ وَقَوْلِهِم إنّـا قَتَلنـا المَسيحَ عيسى ابنَ مَريَمَ رَسولَ اللهِ وَمـا قَتَلوهُ ومـا صَلَبوهُ وَلكِنْ شُبِّـهَ لَهُم ، وإنَّ الَّذينَ اختَلَفوا فيهِ لَفي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاّ اتّباعَ الظَّنِّ ومَا قَتَلوهُ يَقينـاً ، بل رَفَعَـهُ اللهُ إلَيـهِ وَكانَ اللهُ عَزيـزاً حَكيمـاً . وإنْ مِن أَهْـلِ الكِتـابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيومَ القِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ﴾ .

ومحل الشـاهـد قولـه تعـالى : ﴿ وإنْ مِنْ أهلِ الكِتـابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بـه قَبلَ مَوْتِهِ ﴾ والمعنى : لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليـه السلام . فـالضمير في « قبل موتـه » عـائـد ، كما هو واضح من سيـاق الآيـات ، إلى عيسى بن مريم ، وهو نص على أنـه عليـه الصلاة والسلام لم يمت بعد .

قال ابن كثير بعد أن شرح الآية على هـذا الوجـه : « ولا شـك أن هـذا هو الصحيح ، لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك . فأخبر الله أنـه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفعـه إليـه وإنه باق حيّ وإنه سينزل قبل يوم القيـامـة ، كما دلت عليـه الأحـاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريبـاً ، فيقتل مسيح الضلالـة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنـه يؤمن بـه جميع أهل الكتـاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم »[١] .

الآية الثـانيـة قولـه تعـالى في سورة الزخرف : ٥٧ ـ ٦١ : ﴿ ولمـا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَومُكَ مِنهُ يَصِدُّونَ وَقـالوا أآلهتنـا خَيْرٌ أم هوَ ، مـا ضَرَبُوهُ لَـكَ إلاَّ

(١) تفسير ابن كثير : ١ ـ ٥٧٧ .

جَـدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، إنْ هـو إلاَّ عبـدٌ أنْعَمنـا عَلَيْـهِ وَجَعَلْنـاهُ مَثَـلاً لِبَنِي إسْرائيلَ . وَلَو نَشاءُ لَجَعَلْنا منكُمْ مَلائِكَـةً في الأرضِ يَخْلُفونَ وإنَّـه لَعِلْمٌ للسَّاعـةِ فلا تَمتَرُنَّ بِها واتَّبعونِ هذا صِراطٌ مُستقيمٌ ﴾ .

ومحل الشاهد في الآيات قوله تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بها ﴾ فالضميرَ كما ترى عائد إلى ابن مريم الذي تتحدث الآيات عنـه ، والمعنى : إن عيسى ابن مريم لدليل على قيام الساعـة ، وإنمـا يكون كـذلـك بنزولـه من السماء حَكَماً مقسطاً عادلاً ، وتدل له القراءة السبعية الأخرى : ﴿ وإنَّهُ لَعَلَمٌ للسّاعـةِ ﴾ ، أي إشارة ورمز لها . ولا ينبغي أن يكون للآية أي معنى غير هذا ، وهو المعنى الـذي اتفقت عليه كلمة المفسرين عامة .

وأما الأحاديث فكثيرة جداً ، وإليك بعضاً منها[1] .

١ ـ ما رواه الشيخان وغيرهمـا بطرق مختلفـة كثيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والـذي نفسي بيـده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكَماً عادلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ، ويفيض المـال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الـدنيـا ومـا فيهـا ، ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم قـولـه تعـالى : ﴿ وإنْ مِنْ أَهـلِ الكِتـاب إلاَّ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَومَ القِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ﴾ .

٢ ـ مـا رواه مسلم وأبـو داود والترمـذي وابن مـاجـه عن حـذيفـة بن أسيـد الغفـاري رضي الله عنـه قـال : طلـع النبي ﷺ علينـا ونحن نتـذاكر ، فقـال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنهـا لن تقوم حتى تروا عشر آيـات :

---

(١) إذا أردت الوقوف على الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه الصلاة والسلام ، فارجع إلى كتـاب « التصريح بمـا تواتر من نزول المسيح » تـأليف العلامـة المحدث الشيخ محمـد أنور شاه الهنـدي ، بتحقيق العلامة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة .

الدخان[1] ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها[2] ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

٣ ـ ما رويناه آنفاً عن مسلم وأبي داود والترمذي وأحمد وابن ماجه من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، بشأن الدجال ، وفيه : فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتَين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لدٍ فيقتله ، ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ... الحديث .

٤ ـ ما رواه أحمد وأبو داود وابن جرير بطرق مختلفة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الأنبياء إخوة لعلات[3] ، أمهاتهم شتىً ودينهم واحد ،

---

(١) قال جمهور المفسرين إنه الدخان الذي تحدث عنه القرآن في قوله تعالى : ﴿ فارتَقِبْ يَوْمَ تَأتي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ ، يَغْشى النَّاس هذا عَذابٌ أليمٌ ﴾ [الدخان : ١٠ ـ ١١] وهو دخان يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ أي المشوي على النار ، من شدة الفيح والحرارة اللتين تنتابها ، وانظر تفسير ابن كثير : ٤ ـ ١٤٠ .

(٢) روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها : فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين ﴿ لا يَنفَعُ نَفْساً إيْمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيْمانِها خَيْراً ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ـ أي ناقته ـ فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه ـ أي يصلحه ـ فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها .

(٣) قال ابن الأثير في النهاية : أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة .

وإني أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصّران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل : فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون » .

فهذه أربعة أحاديث تنص على نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وهنالك أحاديث كثيرة أخرى لا مجال لسردها هنا ، والخلاصة أنها أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ ، من رواية أبي هريرة ، وابن مسعود ، وعثمان بن أبي العاص ، وأبي أمامة ، والنواس بن سمعان ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومجمع بن حارثة ، وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم .

وقد وقفتَ قبل ذلك على نصوص الآيات المحكمة من كتاب الله تعالى الناطقة بمثل ما دلت عليه هذه الأحاديث ؛ فمن أجل ذلك تم إجماع المسلمين على الاعتقاد بنزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر الزمن ، على النحو وبالصفة التي ذكرها لنا رسول الله ﷺ ، وأنه إنما رفع ببدنه حياً إلى السماء كما بين الله عز وجل صريحاً في محكم بيانه .

☆ ☆ ☆

إذا تبين لك هذا ، فلا بد أن نعرض لمسألتين تتعلقان بهذا الصدد ، نكشف فيهما عن وجهة الحقيقة العلمية التي لا ينبغي أن يصار إلى غيرها .

المسألة الأولى : أن بعض الكاتبين من تلامذة مدرسة الشيخ محمد عبده أنكروا أن يكون عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قد رفع بجسمه إلى السماء ، قالوا : وإنما هو ارتفاع الروح أو الدرجة ، ومن ثم فإنهم أنكروا نزوله إلى الأرض

أيضاً قرب قيام الساعة . وقد كتب في ذلك الشيخ محمود شلتوت مقالاً في مجلة « الرسالة » عدد ٤٦٢ أعقبه بكتابة مقالات أخرى في نفس المبحث ؛ وكان الذي انتهى إليه في مقالاته تلك ، هو تأويل الآيات الواردة ، والإعراض عن الأحاديث الكثيرة الثابتة ، زاعماً أنها أحاديث آحاد لا يصلح أن يقام عليها الاعتِقاد !! .

ولعلك قد قرأت ما كتبناه عن موقف العلم والعقل من المعجزة في بحث النبوات ، ووقفت إذ ذاك على قصة المدرسة التي قامت تنكر المعجزة دون أن تنكر الدين صراحة ، كما وقفت على سر انبعاث تلك المدرسة والظروف المكونة لها .

فإذا ذكرت ما قد قلناه إذ ذاك ، فاعلم أن إنكار نزول عيسى عليه الصلاة والسلام على الرغم مما ثبت في ذلك من الأدلة القاطعة ، ليس إلا صدى طبيعياً من أصداء تلك المدرسة وثمرة تتفق كل الاتفاق مع مبادئها .

بيد أن كلاً من الاضطراب والتخبط الأعمى اللذين لايبالي أن يقع فيهما دعاة تلك المدرسة وأتباعها ، يتمثل في محاولة التوفيق والجمع بين التمسك بالإسلام والتمسك بإنكار الخوارق والمعجزات !! ونحن لانشك في أنها محاولة من حيث الظاهر فحسب ، اتقاء لغضب المسلمين وتدرجاً في التسلل إلى موضع العقيدة من قلوبهم .

فهذا التخبط في محاولة التوفيق ، هو الذي جعل واحداً مثل الشيخ شلتوت لايبالي أن يكذِّب سبعين حديثاً مع رواتها ، وأن يخطئ عامة المفسرين لكتاب الله منذ عصر الصحابة إلى بزوغ مدرسة أستاذه ـ في سبيل أن تسلم له عقيدة إنكار الخوارق والمعجزات !!

والأعجب من ذلك أن يكذب الأحاديث بدون شاهد ، أو صورة شاهد ،

على الكذب !.. وأن يخطئ المفسرين بدون شاهد ، أو صورة شاهد على الخطأ !. نعم ثمة شاهد واحد ، هو شذوذ تلك الشرذمة التي قامت لأسباب ودوافع معروفة ، تنكر الخوارق والمعجزات . فهذا هو الشاهد الذي يسوغ امتلاخ نصوص السنة ودلالات الكتاب من جذورها والإعراض عنها جملة وتفصيلاً !!

أما السنة فقد نقلنا لك بعضاً يسيراً منها ، وقد وقفت على دلالتها الصريحة التي لا تقبل أي قال وقيل حولها .

وأما الكتاب فقد نقلنا لك من آياته آيتين كل منها ذو دلالة واضحة على المعنى الذي أخذ به عامة المفسرين ، والصحابة الكرام .

غير أن هذه الشرذمة تركز كل اهتمامها على تأويل آية الرفع وجرّها إلى معنى الرفع بالروح أو رفع الدرجة ، تصوراً منها بأن طلاء التأويل إذا تماسك على نصوص الرفع ، فإنه يتماسك بعد ذلك بكل سهولة على نصوص النزول . وهيهات أن يتم لهم ذلك .

وأكثر مايتعلقون به ، في هذا الصدد ، كلمة « متوفيك » من قوله تعالى : ﴿ إذ قال اللهُ يَاعيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إلَيَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران : ٥٥] ظناً منهم بأن متوفيك مرادفة لُميتك !

ولم يقل أحد من علماء اللغة ذلك ، بل التوفي معناه أخذ الشيء وقبضه تماماً ، ومرادفه الاستيفاء . نقول : استوفيت حقي وتوفيته أي قبضته كاملاً . أما الإماتة التي هي أخذ الروح ، فهي نوع من أنواع التوفي الذي يشملها وغيرها . وإنما سرى الوهم إلى هؤلاء من كثرة استعمال عامة الناس هذه الكلمة بمعنى الموت فقط وغفلةً عن معناها الأصلي في اللغة .

ولو رجع هؤلاء إلى اللغة لرأوا أن التعبير بالتوفي عن الموت يأتي في الدرجة الثانية من الدلالة اللغوية ، كما يقول العلامة مصطفى صبري . ولذلك نص الزمخشري في كتابه أساس البلاغة على أن التعبير بالوفاة عن الموت من المجاز .

والذي ينفي احتمال المجاز في (متوفيك) في هذه الآية ، دلالة الآية القاطعة الأخرى التي لا مجال للتأويل فيها :

يقول الله عز وجل في سورة النساء : ١٥٧ و ١٥٨ : ﴿ وَقَولِهِمْ إِنَّا قَتَلنا المَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكن شُبِّهَ لَهُم وإِنَّ الَّذينَ اختَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إليه وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ .

فأما عقل العاقل الذي يفهم الكلام العربي عن طريق قواعد اللغة العربية ودلالاتها اللغوية ، فهو يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ ﴾ أن الله عز وجل أخفى نبيه عنهم بأن رفعه إلى سمائه فلم يقعوا منه على شيء يقتلونه أو يصلبونه . يدلك على هذا المعنى ألفاظ الآية ودلالاتها اللغوية ، وضرورة التقابل الذي ينبغي أن يكون بين ماقبل بل ومابعدها . فليس لك أن تقول ، وأنت عربي : لست جائعاً بل أنا مضطجع ، وإنما تقول : لست جائعاً بل أنا شبعان . وليس لك أن تقول : ما مات خالد بل هو رجل صالح ، وإنما تقول : بل هو حي . وليس لك أن تقول : ما قتل الأمير بل هو ذو درجة عالية عند الله ، لأن كونه ذو درجة عالية عند الله لاينافي أن يقتل ، وإنما تأتي بل لإبطال ما قبلها بدليل مما بعدها .

لا جرم إذاً أن معنى الآية : ما قتله اليهود كما زعموا بل إن الله استلبه من بينهم ورفعه إلى السماء ، ولكن الشيخ شلتوت يأبى إلا أن يكون المعنى : ماقتلوه ، بل رفع الله درجته إليه ، وذلك على الرغم من أنف القواعد العربية ودلالاتها وعلى الرغم من أنف العرب والمفسرين كلهم .

ولك أن تسأل أمثال الشيخ شلتوت ، وهم يذهبون في تفسير الآية هذا المذهب : فما معنى « إليه » في الآية مادام أن الرفع هو رفع الدرجة ؟ هل المعنى أن الله جعله إلهاً مثله ؟!

إذ لا معنى لقولـك : إن الله رفـع مقـام فـلان إليـه ، إلا أنـه قـد جعلـه في مرتبته ؟!

ثم مـا معنى تقييـد رفع الـدرجـة بحـال قصـد الصلب أو القتـل ؟ أو لم يكن مرفوع الدرجة قبل ذلك ؟!

أسئلـة لا جواب عليهـا ، إلا استجرار الكـلام والتـأويـل التي لا معنى لهـا ، خدمة لما استقر في نفوسهم من مرض إنكار الخوارق والمعجزات ورحم الله من أبدع المثل القائل : بأن رجلاً نظر إلى حمار يافع فاشتهى لحمه ، فالتفت إلى من حولـه قائلاً : ما أشبه أذنيه بأذني الأرنب[1] !

المسألة الثانية : ذلك الخوض السخيف الذي خـاضتـه فئة طـاب لهـا أن تبيع عقلها لمخطط وكيد إنكليزي مكشوف ، فقد قام قائمها يزعم أن الذي وعـد الله بظهوره في الأرض هو مثيل عيسى وليس بعيسى نفسه ، وأنه إنما يظهر في الأرض دون أن ينزل من السماء ، وأنه هو ذلك المثيل الذي وعد الله بظهوره ، فهو المسيح الموعود . ثم راح يزعم أنه نبي ورسول مستقل مؤيد بتشريع ، ثم صاغ لنفسه وحياً كالقرآن ، ومضى يختلق لنفسـه معجزات يـزعم أنهـا مـؤيـدات لـه ، وابتنى لنفسـه مسجداً في بلدة (قـاديـان) وسماه المسجـد الأقصى ، وسمى بلـدتـه : مكـة المسيح

---

(١) يروي بعض علماء الأزهر ممن كانوا يلازمون الشيخ محمود شلتوت في أخريات أيامه ، إذ كان يعاني في بيته من شلل في جسمه . يروون بأنه أحرق جميع مـاكان يحتفـظ بـه من الكتب والأوراق التي سجل فيها بعض الآراء الشاذة وفي مقدمتها مسألـة عيسى ابن مريم عليـه الصلاة والسلام وأشهدهم بأنه تاب إلى الله من الاعتقاد بها وأنه قد رجع إلى عقيدة جمهور المسلمين أهل السنة والجماعة .

وما أعجب قصة الإنسان ..! يتلبسه الغرور ، ويذهب في عناده كل مذهب ، ويتعامى عن الحق مادام سليماً قوياً . تـأتيـه النعمـة من كل مكان ، فـإذا داهمـه مرض مطبق أو أطبق عليـه كرب خانق ، ذل وتاب وآب !.. أفليس أكرم للإنسان أن يقـدّر وصولـه إلى هـذه الحـال قبل أن يصل بالفعل إليها ، فلا يتسبب في خداع الناس والتشويش عليهم . وكم من أنـاس تـابوا وهم في سيـاق الموت ، ولكن وساوسهم المسجلة ظلت تفعل فعلها في عقول الناس من بعدهم .

وجعل مقبرة سماها مقبرة الجنة ، من دفن بها فهو من أهل الجنة وسمى أزواجه أمهات المؤمنين ، وراح يجمع من حوله الشيعة والأتباع بكل حيلة ووسيلة ، والاستعمار البريطاني من ورائه يدفعه ويغذيه ، ثم أعلن أن ظواهر الكتاب والسنة مصروفة إلى الاستعارات والكنايات والمجاز ، فأخذ يحرِّف كما يشاء في شرع الكتاب والسنة وأحكامها . وكان من جملة هديه في ذلك ، أن الجهاد موضوع ومنسوخ خاصة بالنسبة للإنكليز وذلك لموقفهم النبيل من المسلمين وحسن رعايتهم لهم !!

ولم يزل على حاله تلك ، يدعي النبوة ويكذب على الله وأنبيائه ، ويضع نفسه للناس موضع المسيح عيسى ابن مريم ، إلى أن رماه قضاء الله تعالى بالهيضة (داء الكوليرا) ومات في بيت الخلاء ساقطاً على وجهه في أتعس حالة وأقبح منظر ، وكانت موتته هذه عبرة لأولي الأبصار .

ذلك هو غلام أحمد القادياني الذي ولد عام ١٢٥٢ ومات عام ١٣٢٦[1] ولقد أخذ خلفاء هذا الدجال المضل يحاولون نشر ضلالات نبيهم هذا في مختلف البلاد ، ولابد أنك قد سمعت عن شراذم منهم هنا وهناك ، وعما توليهم بريطانيا في بلادها من الرعاية والتكريم . فإن لهم هناك معابد خاصة بهم ، ولهم ما لا يملكه غيرهم من أوجه النشاط لتغذية إفكهم وضلالاتهم !!

وليس غرضنا من إطلاعك على هذه الضلالة مناقشتها وعَرضُ الدلائل على بطلانها ، فسخفها واضح بيِّن لا يحتاج إلى بحث أو نظر ؛ ولكني قصدت أن تعلم كيف يقف عدو للإسلام من وراء كل نحلة أو دعوة باطلة ، ولقد برعت بريطانيا في الكيد للإسلام من وراء هذا الطريق كما لم يبرع في ذلك أي عدو آخر

(١) انظر كتاب التصريح بما تواتر من نزول المسيح ، وما كتبه في هذا الصدد محققه الأستاذ الجليل عبد الفتاح أبو غدة نقلاً عن الإمام الكشميري في مقدمة كتاب (الإسلام في حياة عيسى عليه السلام) ص ٣٨ ـ ٤٣ .

للإسلام والمسلمين . ولو وقفت على تاريخ هذه الدولة وماضيها مع المسلمين عامة ومستعمراتها الإسلامية خاصة ، لوقفت من ذلك على أمر يثير الدهشة في الرؤوس ويبعث العبرة في العقول .

٣ ـ ظهور يأجوج ومأجوج :

يأجوج ومأجوج : هاتان الكلمتان عبَّر بهما القرآن عن أمة كبيرة من الناس يفاجأ بها العالم تنسل إليه من كل حدب ، تنشر الفساد والدمار في الأرض ، على نحو مذهل وبطريقة مرعبة .

غير أن القرآن أخفى عن الناس ميعاد ظهورهم . فلا يعلم أجل ذلك أحد إلا الله عز وجل . ولكنه نص على أن ظهورهم علامة من العلامات الكبرى لاقتراب الساعة .

وهذا هو إخبار القرآن عنهم :

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ واقتَرَبَ الوَعدُ الحقُّ فَإذا هِيَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الَّذِينَ كَفَروا ، ياوَيْلَنا قَدْ كُنّا في غَفلَةٍ مِن هذا بَل كُنَّا ظالِمِين ﴾ [الأنبياء : ٩٦ ـ ٩٧] .

﴿ .. قالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ، فَهَل نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أن تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُم سَدّاً قال ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ، فَأَعينُونِي بِقوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ردماً . آتُونِي زُبَرَ الحَديدِ حَتَّى إذا ساوى بينَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انفُخُوا حَتّى إذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً . فما اسطاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَما استطاعُوا لَهُ نَقْباً قالَ هَذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جاءَ وَعدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاءَ وَكانَ وَعدُ رَبِّي حَقّاً ، وتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ... ﴾ [الكهف : ٩٤ ـ ٩٩] .

أما أخبار السنة عنهم ، فتأكيد للذي أخبر عنهم القرآن .

روى الشيخان وغيرهما عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ ، استيقظ من نومه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه . وعقد الراوي بيده عشرة . قلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث » .

وروى مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن النواس بن سمعان الحديث الطويل الذي ذكرناه آنفاً والذي فيه خبر الدجال وعيسى بن مريم ، وفيه : « ويبعث يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ... » .

وروى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه ، قال : طلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاث خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من أرض اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

فتلك الآيات وهذه الأحاديث ، ذات دلالة قاطعة على أن من أشراط الساعة ظهور هذه الأمة التي تعثو فساداً في الأرض . فكان الإيمان بذلك من الضروريات التي لابد منها للإيمان بالكتاب والسنة .

أما علم ما وراء ذلك من التفصيلات المتعلقة بصفاتهم وكيفياتهم ، وتفصيل أخبارهم ، فلا مطمع ، في باب العقيدة ، في الوصول إلى شيء من ذلك ، بل إن معظم ما ورد من تفاصيل أخبارهم وصفاتهم وأشكال جسومهم ، إنما تناقله الناس عن طريق أحاديث واهية أو منكرة أو باطلة .

وخير من الخوض في ذلك أن نقف عند حدود الدلالة القطعية التي ثبتت بصريح القرآن وصحاح الأحاديث الواردة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم تنتظر في معرفة الكنه والتفاصيل ، الواقع الزمني نفسه ، فهو الذي سيتكفل وحده بشرح كل شيء عنهم . وذلك لأن يأجوج ومأجوج غيب من الغيوب التي أخبرنا الله عن ظهورهم بين يدي الساعة ، وهو أمر لم يظهر بعد ، فهو لا يزال في تلافيف الغيب لم يتبدَّ لنا منه إلا الإخبار عنه بشكل إجمالي . إذ لا عبرة بالتفصيلات التي وصلتنا بالطرق الباطلة أو الواهية . وإذاً فلا معنى للخوض في شيء لا سبيل إلى العلم بتفصيلاته اللهم إلا سبيل الرجم بالغيب .

ومن هنا تعلم ، أن ماقد يقوله بعضهم استنتاجاً واجتهاداً ، من أن يأجوج ومأجوج هم التتر والمغول الذين جاؤوا وانتهوا ـ كلام لا معتمد له ولا داعي إليه ، بل هو فيما يبدو مخالف لنصوص الأحاديث الصحيحة الدالة على أنهم إنما يظهرون في وقت نزول عيسى بن مريم وبعد ظهور الدجال . وحسبنا أن نعلم بأن هذه الأمة إذا ظهرت فإن ظهورها سيتكفل بالتعريف بها للناس كلهم تعريفاً لا يشوبه شك أو احتمال ولا يحوج إلى استنتاج أو اجتهاد .

٤ ـ ظهور دابة الأرض :

ودابة الأرض تعبير قرآني عن حيوان نكل علم نوعه وشكله وهيئته إلى الله عز وجل ، يظهر للناس قبيل الساعة يكلمهم ويصف كلاً منهم بصفته من الإيمان ، أو الكفر ، فيَسِمُ الكافر بوَسْمِ الكفر ، ويطبع المؤمن بطابع الإيمان . وحينئذ لا تنفع نفساً إيمانها إن لم تكن قد آمنت من قبل .

يقول الله عز وجل في ذلك : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دابّةً مِنَ الأرضِ تُكَلِّمُهُم أنَّ النّاسَ كانوا بِآيَاتِنا لا يُوقِنُون ﴾ [النمل : ٨٢] .

وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو ، قال : حفظت من رسول الله

ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً » .

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : بادروا بالأعمال ستة : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال ، والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة .

وروينا آنفاً عن مسلم وغيره حديث : ماتذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات وعدَّ منها دابة الأرض .

٥ ـ طلوع الشمس من مغربها :

وهو من الآيات التي تفردت السنة بذكرها صراحة ، روى البخاري عن النبي ﷺ حديثاً طويلاً عن أشراط الساعة ، وفيه ، لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً .

ومثل ذلك ما رويناه من الأحاديث السابقة في معرض الحديث عن دابة الأرض .

ومعنى طلوع الشمس من مغربها أنها تظهر للناس طالعة من جهة المغرب في وقت الصباح بدلاً من ظهورها لهم من ناحية المشرق كما كان دأبها كل يوم . وذلك كأن يجعل الله دوران الأرض عندها في اتجاه آخر يتراءى معه للناس انعكاس سير الشمس بالنسبة إليهم[1] .

☆ ☆ ☆

(١) ليس هذا تقريراً لبيان الوسيلة التي بها تخرج الشمس من مغربها ، فعلم ذلك عند الله . ولكنه =

فهذه الأمور ، من أهم أشراط الساعة التي وصل إلينا علمها عن طريق الخبر الصادق ، وأجمع المسلمون على ضرورة الاعتقاد بها .

وللساعة أشراط وعلامات أخرى تحدث عنها النبي ﷺ في كثير من أحاديثه ، وكثير منها ظهر وتحقق كما أخبر ولا مجال لذكرها والتوسع في الحديث عنها في هذا المقام .

والله تعالى أعلم

= تقريب لوسيلة الإيمان به ، وتذكير للقارئ بأن ذلك لا يخرج عن كونه تغييراً لبعض مادرج عليه الكون - بمشيئة الله تعالى - من نظام وترتيب .

أما البحث في دوران الأرض أو سكونها فليس شيء من ذلك داخلاً تحت مايجب الاعتقاد به ديناً ، فمن ارتاب في كونها ساكنة أو متحركة لا يلحقه بسبب ذلك أي إثم ، وإنما هو من جملة الأمور الدنيوية الكثيرة التي وكل الله سبيل الكشف عنها إلى ما أوتيه الإنسان من طاقة البحث والنظر . وأياً ما كشف عنه الدليل العلمي القطعي في مثل هذه الأمور الخاضعة للتجربة والحس ، فلا مناص من اعتاده والإيمان به . أما من لم تنكشف له حقيقتها بالدليل العلمي المباشر فخير له أن يكل علم ذلك إلى الله عز وجل .

ثالثاً

يوم القيامة وأحداثه

تمهيد

إذا تكاملت أشرط الساعة التي تحدثنا عنها ، وجاء ميقات اللحظة المحددة المعلومة عند رب العالمين ، والخفيَّة عن عباده أجمعين ، ذلك الميقات الذي ينتهي عنده أجل الدنيا بما فيها ـ حينئذ تنتهي الحياة من على هذه الأرض وسائر بقاع الكون الأخرى ، وينتثر هذا النظام الكوني بأجمعه .. بعد أن ظل دهراً مديداً سائراً في خدمة مولاه ، ملتزماً ما وضعه فيه من منهج لا ينحرف عنه . إنَّ خدمته الرتيبة هذه تنتهي في تلك اللحظة التي لا يعلم ميقاتها إلا الله عز وجل ، ليبدأ من ورائها طور جديد من الخلق والتكوين والتنظيم .

فهذه النهاية التي تنعدم عندها الحياة من الكون وينهار عندها نظامه وتتبدل معالمه وتنتثر أجزاؤه ، هو بدء ما يسميه القرآن ، بالساعة وبيوم القيامة . ثم تمتد هذه البداية إلى حشر الأجساد وإعادة أرواحها إليها ، ثم إلى ما يتبع ذلك من طول حساب وميزان واجتياز صراط ، إلى أن يستقر أصحاب الجنة في جنان خلدهم ويستقر أصحاب العذاب في سعيرهم .

كيف تقوم الساعة وتنعدم الحياة :

حسبك لمعرفة ما يجب أن تعلمه من ذلك ، أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فصَعِقَ مَن في السَّموات وَمَن في الأرضِ إلاّ مَن شاءَ اللهُ ، ثم نُفِخ فيه أُخرى فإذا هُم قِيامٌ يَنظُرونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] وأن تقرأ قوله تعالى : ﴿ ما يَنظُرونَ إلاَّ صَيحَةً واحِدَةً تَأخُذُهُمْ وَهُم يَخصِّمونَ ، فَلا يَستَطيعونَ تَوصِيَةً

وَلا إلى أَهْلِهِمْ يَرجِعونَ ﴾ [يس : ٤٩ ـ ٥٠] ثم أن تؤمن بالأمر كما أخبر الله عز وجل .

فهنالك صُور (والصور هو البوق) وهنالك نفخ يكون في الصور ، تصعق له الأرواح ، إلا من شاء الله أن لا يُصعَق بذلك . ويحتمل أن يكون المراد بهم أرواح الأنبياء والشهداء كما يحتمل أن يكونوا بعض الملائكة كإسرافيل وميكائيل وجبريل وملك الموت ، وقد وردت أحاديث وأخبار بذلك ، والله أعلم بمراده . وأين هذا الصور وكيف شكله وهيئته وما الذي يحدثه النفخ فيه حتى يترك هذا الأثر الغريب ؟ علم ذلك كله عند الله عز وجل ، ولو كشف لنا عن حقيقة شيء من ذلك لعلمنا ، ولكن لا مجال للعقل أن يستيقن أي شيء عنه ، إذ قد طوى الله علم ذلك عن عباده .

والمهم أن تعلم أن لا مدخل لتهارج الناس وحروب الأمم مع بعضها ، وما يعقب ذلك من استعمال أسلحة فتاكة مدمرة ـ لا مدخل لشيء من ذلك في إقامة الساعة وإنهاء الحياة كما أخبر الله . ولعل بعض من يحبون أن يستبقوا الأشياء في الحديث عنها حسب تخيلاتهم ، يطيب لهم أن يتخذوا من الأسلحة الذرية الحديثة تفسيراً لكيفية قيام الساعة ، ويظنون أن فيما يقدمون عليه من هذا التفسير ، تسهيلاً للإيمان بيوم القيامة على الشاكّين والملحدين . ولكن هذا خوض في مجْهلَةٍ لا ينبغي الخوض فيها بحال ، واجتهاد في أمر لا مجال فيه للاجتهاد والنظر ، عدا أنه يخالف نصوص القرآن ، على ما قد رأيت ، كل المخالفة . ويغيب عن هؤلاء الذين يتجرؤون على هذا الخوض بطيب نية وحسن طوية ، أن نفخ الصور الذي أخبر الله عنه ، تصعق له الأرواح كلها بما في ذلك أرواح الأحياء والأموات وأرواح الناس والملائكة والجان . وأين هذا مما تفعله القنابل الذرية والهيدروجينية بالغة من الخطورة والفتك مهما بلغت ؟ وأي أثر أو سلطان لها على الملائكة وأرواح الموتى ؟

الأدلة على قيام الساعة :

اعلم يا أخي المسلم أن قيام الساعة أخطر الأخبار الغيبية التي أخبر عنها الخالق جل جلاله ، على الإطلاق .

هو أخطرها وأعظمها ، من حيث شدة الغرابة والبعد عن مألوف الإنسان وتصوراته ، ومن حيث ما ينتظر الإنسان إذ ذاك من العذاب المذهل الذي لا يكاد يتصوره الخيال ، أو النعيم الخالد الذي ينطوي على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهو أخطرها وأعظمها ، من حيث إنه اليوم الذي يقف فيه هذا الإنسان ذليلاً مهيناً ضعيفاً بين يدي خالقه يكلمه ويحاسبه ويسأله عن النقير والقطمير وعن كل صغير وكبير ، بعد أن مرَّ في مفازة هذه الدنيا يسمع عنه ولا يراه ولعله أيضاً لا يؤمن به .

وهو أخطرها وأعظمها ، لأن عليه مدار وجود هذا الإنسان كله . فحياته اليوم مع ما فيها من كدح ورزق وسعي وعقل وشهوات وأهواء كل ذلك تمهيد وتهيىء لملاقاة خالقه في هذا اليوم .

فمن أجل خطورة هذا الحدث العظيم من هذه النواحي كلها ، يظل القرآن يخبر الإنسان عنه وينذره إياه في تأكيد متوالٍ لا ينقطع ، ولا تكاد تمر على صحيفة في هذا الكتاب العظيم إلا وتجد فيها حديثاً عن يوم القيامة وتنبيهاً للإنسان إليه .

ولن تجد خبراً حفل به كتاب الله تعالى في تأكيد شديد له بشتى الأساليب العربية المختلفة ، كخبر يوم القيامة ، ولن تجد فيه تنبيهاً إلى عظيم وتحذيراً من خطير ، وبتفنن عجيب في النظم والأسلوب ، كتنبيهه الناس إلى يوم القيامة وتحذيرهم مما سيلاقونه فيه .

كل ذلك من أجل أنه شيء بعيد كل البعد ومختلف كل الاختلاف عن واقع ما هم فيه وما يرونه ويحسّونه به . فهو من أعظم الغيوب المحجوبة عن الإنسان في حياته هذه ؛ بل هو الغيب نفسه ، إنه الغيب الذي إذا انجاب وانكشف ، ظهر لعين الإنسان كل ما قد كاد يجحده ويكفر به ، وأصبح نظره إليه حديداً يوقن به ولا ينكر منه شيئاً ، وإنه للغطاءُ الذي قال عنه القرآن : ﴿ لَقَدْ كُنتَ في غَفلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَومَ حَديدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

فلا جرم أن هذه الإخبارات المنذرة والمنبهة والمحذرة في كتاب الله تعالى ، هو أعظم دليل وبرهان ، على قيام الساعة ويوم القيامة وكل ما يتبع ذلك من أحداث .

ولنتأمل طائفة من هذه الآيات بقلب متيقظ وعقل متدبر ، ولنتنبه إلى ما فيها من فنون التأكيد المختلفة بشتى الوجوه والأساليب التي تخاطب في الإنسان وجدانه وعقله ومشاعره ، حتى يتغلب بذلك على الواقع الذي حصر كل خياله فيه وحتى يتحرر من سجن دنياه التي يعيش فيها ويستيقظ من الأحلام التي يتقلب فيها ، عسى أن يحسب لهذا الذي سيفجؤه عما قليل حسابه ويُعِدَّ له عدته .

انظر إلى هذه الآية وتأمل في المؤكدات الشديدة التي كأنما غُمِسَت الآية فيها غمساً :

﴿ اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ ليَجْمَعَنَّكُم إلى يَومِ القِيامةِ لا رَيْبَ فيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَديثاً ﴾ [النساء : ٨٧] .

وانظر إلى هذه الآيات الأخرى التي سيقت مساق الحجاج والنقاش ، لتبديد ما يطوف بذهن الإنسان من عوامل الريب والشكوك حول إمكان وقوع هذا الأمر العظيم ، بأسلوب معجز يتجلى فيه سلطان الربوبية ، وبنفس التأكيد الذي رأيته في الآية السابقة :

﴿ وَيقولُ الإِنْسانُ أإذا ما مِتُّ لَسَوفَ أُخرَجُ حَيّاً . أَوَلا يَـذكُرُ الإنسـانُ أَنَّـا خَلَقناهُ مِنْ قَبلُ وَلَم يَكُ شَيئـاً فَوَرَبِّـكَ لَنَحشُرَنَّهُم والشَّيـاطينَ ثُمَّ لَنُحضِرَنَّهُم حَولَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ [مريم : ٦٦ ـ ٦٨] .

وتأمل في هذه الآيات الأخرى التي صاغها الخالق بأسلوب تتجلى فيه الحسرة والأسىَ على النـاس الـذين أسكرهم واقـع مـا هم فيـه عن حقيقـة مـا سيرونـه عمـا قليل ، فما تنفعهم عظة ولا تؤثر فيهم ذكرى :

﴿ اقتَرَبَ للنَّاسِ حِسابُهُم وَهُم في غَفلَةٍ مُعرِضونَ ، ما يـأتيهِمْ مِنْ ذِكرٍ مِن رَبِّهِمْ مُحدَثٍ إلاَّ استَمَعوهُ وَهُم يَلعَبونَ . لاهِيَةً قُلوبُهُم .. ﴾ [الأنبياء : ١ ـ ٣] .

وانظر إلى هذه الآية الأخرى كيف ينبه الخالق جل جلالـه فيهـا العقل إلى أن ما يراه من عظمة هذا الكون بكل ما فيه ، إنما هو بـالنسبـة لقـدرة الإنسـان فقط ، فما ينبغي له أن يتخذ من العظمة التي ليست عظمةً في الواقع إلا بالنسبـة لضعف الإنسان ، دليلاً على إنكاره ليوم القيامة :

﴿ يَومَ نَطْوي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِـلِّ لِلكُتُب ، كَما بَـدَأنـا أَوَّلَ خَلـقٍ نُعيـدُهُ ، وَعداً عَلَينا إنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

وأحياناً أخرى ، يظهر في مكان هذه الأساليب كلها أسلوب آخر هادئ . إنه أسلوب النظر العلمي ولفت العقل إلى ما ينبغي أن يتنبه إليه من مذاهب التأمل والفكر ، في قـالب تعليمي كأنـه درس من أستـاذ لتلاميـذه وليس إخبـاراً من إلـه عظيم لعباده :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ إن كُنتُم في رَيبٍ مِنَ البَعثِ فإنَّا خَلَقناكُم مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبيِّنَ لَكُم ، وَنُقِرُّ في الأَرحـامِ مـا نَشـاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً ثم نُخْرِجُكُم طِفلاً ثُمَّ لِتَبلُغوا أَشُـدَّكُم وَمِنكُم مَن يُتَـوفَّى وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لكي لا يَعلَمَ مِن بَعـدِ عِلمٍ شَيئـاً . وَتَرى الأرضَ

هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عَلَيها الماءَ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ وأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ ، ذلِكَ بأَنَّ اللهَ هوَ الحَقُّ وأَنَّهُ يُحيي المَوتى وأَنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ وأَنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ لا رَيبَ فيها وأَنَّ اللهَ يَبعَثُ مَن في القُبورِ ﴾ [الحج : ٤ ـ ٧] .

أما في حالات كثيرة أخرى ، فإن الحديث عن يوم القيامة وأحداثه يأتي بأسلوب تصويري من شأنه أن يبدد ما بينه وبين الناس من حجب الغيب ومسافات الزمن ، وينقلهم إلى جو هذه الأحداث حتى لكأنهم يشاهدونها بأعينهم ، وقد خلَّفوا أيامهم التي عاشوها في الدنيا من ورائهم وأخذ الندم يفري قلوب الجاحدين والمنكرين دون أي جدوى :

﴿ وَلا تَحسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعمَلُ الظَّالِمونَ إنَّما يُؤَخِّرُهُم لِيَومٍ تَشخَصُ فيهِ الأَبصارُ مُهطِعينَ مُقنِعي رؤوسِهِم لا يَرتَدُّ إليهِم طَرْفُهُم وأَفئِدَتُهُم هَواءٌ ، وأَنذِرِ النَّاسَ يَومَ يَأتيهِمُ العَذابُ فَيقولُ الَّذين ظَلَموا رَبَّنا أَخِّرنا إلى أَجَلٍ قَريبٍ نُجِبْ دَعوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، أَوَلَم تَكونوا أَقسَمْتُم مِن قَبلُ ما لَكُم مِن زَوالٍ .. ﴾ [إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٤] .

﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُم مِنَ الأَجْداثِ إلى رَبِّهِم يَنسِلونَ ، قالوا يا وَيلَنا مَن بَعَثَنا مِن مَرقَدِنا ؟.. هذا ما وَعَدَ الرَّحمنُ وَصَدَقَ المُرسَلونَ ، إن كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذا هُم جَميعٌ لَدينا مُحضَرونَ ﴾ [يس : ٥١ ـ ٥٣] .

وربما عاد النظم القرآني ، بعد كل هذه الأساليب المختلفة في التأكيد والبيان والتصوير ، يلمس هذا الأمر على عجل لمسة المنذر الذي لم يعد يبالي أأيقن الجاحدون أم بعدُ ، فقد جاءهم النذير واتضح المبهم وإن في ذلك لبلاغاً ، انظر بعين قلبك إلى قوله :

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُستَقَرٌّ ، وَسوفَ تَعْلَمونَ ﴾ [الأنعام : ٦٧] .

﴿ يَسأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرساها ، فيمَ أَنتَ مِنْ ذِكْراها . إلى رَبِّكَ

مُنْتَهاها . إنَّما أَنتَ مُنـذِرُ مَن يَخشـاهـا . كأَنَّهُم يَومَ يَرَونَهـا لَمْ يَلبَثوا إلاَّ عَشِيَّـةً أو ضُحاها ﴾ [النازعات : ٤٢ ـ ٤٦] .

وإنَّ استقصاء الآيات التي تلح على الإنسان أن يتنبـه بكل جوارحـه وعقلـه ووجدانه لخطر هذا اليوم المقبل عليه وأن يعدَّ لذلـك عـدتـه ـ نقول إن استقصـاء ذلـك أمر يطول . فما عليـك إلا أن تُقبل على كتـاب الله جل جـلالـه وتتـأمـل ما يفيض به من حديث الساعة وشؤونها والأسـاليب المعجزة المختلفـة في تـأكيـد أمرها وتحذير الإنسان من أن يخدعه أي خادع عنها .

فهذا دليل ما بعده دليل على قيام الناس بعد موتهم لرب العالمين .

ويتبع هذا الدليل مـا كنـا قـد أوضحنـاه من قبل ، وهو أن ممـا لا يتصوره العقل أن تكون قصة الإنسان تبـدأ من غلاف الولادة وتنتهي بغلاف الموت إلا إذا تصورنا أن الذي خلقه ، وأطلق يده في الحياة إنما فعل ذلك عبثاً . وقد علمت أن العبث من أجلى صور المحالات بالنسبة لذات الله جل جلاله .

إن قصـة الإنسـان في حيـاتـه هــذه ليست إلا مقــدمــات مبتـورة تتطلب نتائجها ، كالفصل الصغير من الرواية المتكاملة . فالذي عاش حياتـه كلهـا فـاجراً طاغياً يفسد في الأرض ولا يخلف عليها إلا آثار ظلمـه وطغيـانـه ، والـذي عـاش مستضعفاً مهيض الجناح تقبل عليه الرزايا من كل جـانـب ويتلقى لطمات النـاس وظلمهم من كل صوب ، والذي عاش مبتلى مصاباً في جسمـه طوال حيـاتـه ورأى النـاس كيف ينعمون دون أن يـذوق شيئـاً من نعيمهم . كل هؤلاء إنمـا عـاشوا مع جزء يسير من قصـة وجـودهم في الكـون ثم أسـدل عليهم ستـار المـوت فـاصـلاً بين جزئي القصة ، لا منهياً لها ومتمماً لأحداثها .

أجل ، إن من سبق أن أراد لعقله أن لا يؤمن بوجود الخالق جل جلالـه فهو أحرى أن لا يؤمن بالجزء الثاني من قصة الإنسـان . وليس كثيراً عليـه أن يتصور

العبث في قصة هذا الإنسان على ظهر هذه الأرض بعد أن تصور العبث في وجود الكون كله .

وقد علمت أننا إنما نخاطب من سبق أن كان معنا عند الحديث عن وجود الله وأدلة ذلك وعن بعثة الأنبياء وأدلة ذلك . وليس يغني القارئ شيئاً أن يتسمع إلى شيء مما نقول هنا ، وقد فاته الكثير ، مما قد ذكرناه في أصل هذا البحث .

كيفية حشر الأجساد وعودة أرواحها إليها :

لا يستطيع العلم أن يصف كيفية حشر الأجساد أو أن يحللها ويعللها بالطريقة العلمية التي يمارسها الإنسان في هذه الحياة ، وذلك لما كنا قد ذكرناه من أن شأن العلم محصور في أنه يبدأ البحث بموضوعات توجد في التجربة الخارجية البعيدة عن وحي العقل أو التفكير المحض ، ثم تفرض نفسها عليه طبق ما دلت عليه المشاهدة والتجربة ، وعلى العقل بعد ذلك أن يفسرها ويحللها فقط .

والمعاد الجسمي لم يتحقق بعد ، ومعنى ذلك أنه لم يوجد بعدُ الموضوع الذي يستطيع العلم أن ينظر ويبحث فيه . فمن العبث إذاً أن تسائل المجهر عن تحليل مالم يوضع تحته بعد من صنوف المركبات .

كل مانملكه من نظر وبحث في هذا الموضوع ، هو أن نبدأ فنتساءل :

هل المعاد يكون بعد انعدام الأجساد من الوجود أصلاً ، أم بعد تفتت أجزائها وأجزاء أجزائها في طوايا الأرض أو بطون الحيتان أو أعماق البحار ؟

لم يرد بهذا أي خبر قطعي عن الله جل جلاله ، فليس علينا أن نجزم إذاً بأن عدماً مطلقاً سيعتري الأشياء كلها قبل يوم القيامة ، أو أن نجزم بعكس ذلك . ولكن الذي يجب الجزم به هو أن كل شيء ماعدا ذاته سبحانه وتعالى قابل في حقيقته للهلاك والعدم ، إذ إن الوجود وارد عليه من الخارج وليس نابعاً من حقيقته وجوهره ، سواء اعتراه بعد ذلك العدم فعلاً أو اعتراه التمزق والشتات والفساد .

ولكن جمهور العلماء رجحوا القول الثاني وهو شتات الأجزاء وتفرقها . إذ هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ماتَنقُصُ الأرضُ مِنهُم وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : ٤] .

فهلاك الشيء يطلق على فساده وخروجه عن أن يبقى منتفعاً به كما كان ، تقول هلك فلان ، أي مات ، وهلكت الدار إذا تقوضت ولم تعد صالحة للسكنى فيها ، ولا يشترط لإطلاق الهلاك الانعدام الكلي . والفناء كذلك ، تقول فنِيَ الثوب والعظم إذا أصبح كل منهما أنكاثاً وأجزاء متفرقة لا يستفاد منها لشيء ، ومما يؤكد أن المقصود بالفناء هو هذا الذي نقول ، بل خصوص الموت فقط ، قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ ﴾ ، أي كل من على الأرض فان ، فحكم بالفناء على الأحياء التي تكون على وجه الأرض واستثنى ذاته جل جلاله فتبين أن الفناء المعني إنما هو الموت ، أما الأرض ذاتها وماهو في حكمها فهي فانية بهذا المعنى من قبل[1] .

أما دلالة الآية الثانية ، فهي من حيث إنها رد على الذين استعظموا الحشر بعد الموت بقولهم : أإذا متنا وكنا تراباً ؟.. ذلك رجع بعيد ، إذ أجاب على إنكارهم واستعظامهم ذلك ، ببيان أن الله عز وجل يعلم مصير جسومهم التي ذابت في طوايا الأرض أو غيرها ، وعنده سجل يحوي عدد ذرات هذه الجسوم التي تفرقت في هذه الأمكنة ، ويضبط كل ذرة لصاحبها . فما العجب من تجميعها مرة أخرى كما تجمع برادة حديد امتزجت بين حفنة من التراب بواسطة قطعة من المغناطيس الجاذب ؟!

---

(١) استعمال من التي هي للعاقل ليس تخصيصاً للفناء به ، وإنما هو من أجل أن المنتفع بالتخويف من ذلك إنما هو العاقل فقط فخصه تعالى بالذكر .

فالآية دالة على أن الحشر يكون عن طريق تجميع الذرات من التفرق والشتات لا عن طريق إيجادها من العدم المطلق ، ويدل على هذا المعنى أيضاً قوله جل جلاله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ، بَلَى ، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّي بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٣ ـ ٤] .

وبهذا تعلم أن الذي يعود من الإنسان إلى التجمع والحياة إنما هو عين أجزائه التي عاش بها في الدنيا ، والمقصود بعين أجزائه ، عين أجزائه الأصلية التي بها استقبل الحياة ، أما مازيد عليها بعد ذلك فلا يشترط أن يعاد بذاته ، وقد أطال في بحث ذلك علماء العقيدة والكلام[1] ، وعلم ذلك في الحقيقة عند الله عز وجل ، ولا سبيل لنا ، كما قلت لك ، إلى تحليل أو بيان شيء من الغيوب التي لم يكشف عنها الخالق جل جلاله سجاف غيبه بعدُ .



الحساب

وهو إطْلاع الله عباده قبل انصرافهم من المحشر على كل ماقد جنوه في حياتهم الدنيا من تصرفات فعلية وقولية واعتقادية خيراً كانت أو شراً ، وذلك بالشكل أو الواسطة التي لايعلمها أحد غيره .

والحكمة من هذا الحساب أن يظهر الله فضائل المتقين ومناقبهم ، وفضائح العصاة ومثالبهم ، وذلك على رؤوس الأشهاد وسائر أهل العَرَصات .

وهو مما أنذر الله به عباده في الدنيا ، فلا بد أن يتحقق في الآخرة .

---

(١) انظر ما كتبه في ذلك صاحب المواقف : ٢ / ٤٤٢ وسعد الدين التفتنازاني على العقائد النسفية : ٤٠٠ .

وقد دلَّ الخبر الإلهي أن هذا الحساب هو أهم وأعظم ما يراه الإنسان من أحداث يوم القيامة ، حتى إنه سبحانه وتعالى أطلق على يوم القيامة اسم : يوم الحساب ، فقال في محكم كتابه :

﴿ هذا ماتوعَدُونَ لِيَومِ الحِسابِ ﴾ [ص : ٥٣] .

﴿ إنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسوا يَومَ الحِسابِ ﴾ [ص : ٢٦] .

﴿ وقال مُوسَى إنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسابِ ﴾ [غافر : ٢٧] .

ومن أجلى الآيات الدالة بشكل قطعي على محاسبة الله عباده يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ وَإنْ تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن أوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً وَيَنْقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ، وأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدعو ثُبُوراً ويَصْلَى سَعِيراً ﴾ [الانشقاق : ٧ ـ ١٢] . وهناك آيات كثيرة أخرى لاداعي إلى سردها إذ هي مما لاتكاد تخفى على أحد . ودلالتها على ثبوت الحساب يوم القيامة دلالة قطعية بإجماع المسلمين كلهم .

أما عن طول الحساب على الإنسان وقصره ، وصعوبته ويسره ، فهو يختلف باختلاف الناس وتفاوت درجاتهم . فمنهم من لايستغرق الحساب بالنسبة إليه أكثر من فواق ناقة ـ أي حلبها ـ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ، ومنهم من يتطاول عليهم أمد ذلك ويشتد عليهم الكرب ، ويتفاوت هؤلاء أيضاً في ذلك حسب أحوالهم التي كانوا قد أدبروا عنها في الدنيا .

واعلم أن الإيمان بالحساب يستلزم الإيمان بالكتب ، وهي صحائف بأسماء

أصحابها تعطى إلى يمين كل منهم أو يساره ، قد سجل فيها كل ما كان قد اجترحه أو اكتسبه ، والله أعلم بكيفية هذه الصحائف ونوعها وكيفية الكتابة المسجلة عليها . وكل ما أعلمنا الله إياه بإخباره القطعي هو أن من أوتي كتابه بيمينه كان من السعداء وكل من أوتي كتابه بشماله كان من أهل الشقوة والضلال .

وحسبك أن تنصت في بيان هذا الأمر إلى هذه الآيات الباهرة ، ثم تخضع لها وتوقن بمضمونها :

﴿ ولله مُلْكُ السَّموات والأَرْضِ ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يومئذٍ يَخْسَرُ المُبْطِلُونَ ، وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتَابِها اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تعمَلُونَ . هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بالحَقِّ إنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنتُمْ تَعمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٧ ـ ٢٩] .

هول الموقف وعظائمه

واعلم أنه لن يجدي في تصوير حقيقة هذا الهول وبيانه ، أي وصف يُكتَب أو حديث يُتلى . وإنما هو شيء خبأه الله وأخفاه إلى حينه ، وحسبك أن تعلم أنه أهول من كل هول وأعظم من كل عظيم ، وأن تستحضر في تصور عظمة ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَومَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى وَما هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذابَ اللهِ شَديدٌ ﴾ [الحج : ١ ـ ٢] . أو قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ يومَ يَفِرُّ المَرءُ مِنْ أَخيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبيه ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه ، لِكُلِّ امرئٍ مِنْهُم يَوْمَئذٍ شأنٌ يُغنيه ﴾ [عبس : ٣٣ ـ ٣٧] .

وقد وصف رسول الله ﷺ طرفاً من هول الموقف فقال فيما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر الناس يوم

القيامة حفاة عراة غرلاً[1] ، قلت : يارسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض .

كما أوضح ﷺ أن الشمس تدنو إذ ذاك من رؤوس الخلائق ، حتى تكون منهم بمقدار ميل ، ويذهب العرق يسيح في الأرض سبعين باعاً ، فمنهم من يبلغ العرق كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ، وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه .

وحسبك من هول هذا اليوم أن يتمنى الناس الانصراف عنه ولو إلى النار ، وأن يطلق الله عليه اسم الفزع الأكبر .

إلا أن شيئاً من هذا الهول لا يمس ـ كما ورد بذلك الخبر الصادق ـ الأنبياء ، ومن قبلهم الله عز وجل عنده من عباده وأوليائه الصالحين . دلَّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أولَئِكَ عَنها مُبعَدُونَ ، لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُم فِيما اشْتَهَتْ أنْفُسُهُمْ خالِدُونَ ، لايَحْزُنُهُم الفَزَعُ الأكْبَرُ وتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ . هذا يَوْمُكُمُ الَّذي كُنْتُم تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

وقد دلَّ الحديث الصحيح أن من هؤلاء الذين لايحزنهم الفزع الأكبر ويكونون في مأمن من هذا العذاب الأليم ، أولئك الأصناف السبعة الذين أخبر الرسول ﷺ أنهم يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه .... الحديث .

فاجهد يا أيها الإنسان العاقل ـ وإنَّ فرصة العمر لا تزال في يدك ـ أن تكون واحداً من هؤلاء الذين قال عنهم : لا يحزنهم الفزع الأكبر . اجهد أن تكون واحداً منهم بسلوكك وخلقك ودينك وقيامك بحق ربك ، ولا يخدعنك عن ذلك طول الأمل وسلطان الشهوات والأهواء ، فيوشك والله أن ترى هذا

---

(١) أي غير مختونين .

الموقف بعينك وإذا البعيد قريب ، وإذا المشكوك متحقق وإذا الفرصة فائتة والندم لا يفيد .

ولا يجديك أن تسمع هذا الكلام وأنت منصرف عنه غير حافل به تحسبه وهماً من الأوهام ، فلو أن أحداً حدثك عن أعاجيب هذه الدنيا قبل أن تراها ، لكنت لها أشد إنكاراً ولكنت تحسبها أيضاً وهماً من الأوهام . ثم إنَّ مطية الليل والنهار سائرة بك من معبر هذه الدنيا التي دخلتها البارحة وستفارقها غداً ، إلى هذا الهول الذي لا تحفل به ، ولن تستطيع أن توقف حركة هذه المطية عن المسير ، فخير لك أن تحذر وتتأمل بفكر نقي خالص عن شوائب الأغراض والأهواء ، ولا يملك عقل عاقل أن يبصّر صاحبه بأكثر من هذا الذي أقول .

الميزان والوزن

وكلاهما مما أخبر الله عنه في محكم كتابه ، بعبارات واضحة صريحة لا تحتمل التأويل . فهو حق يجب الإيمان به كما أخبر .

قال الله عز وجل : ﴿ والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ ﴾ [الأعراف : ٨] وقال : ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسطَ لِيومِ القِيامَةِ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وقال : ﴿ فَمَن ثَقُلَت مَوازِينُهُ فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم في جَهَنَّمَ خالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٢ ـ ١٠٣] .

وعلينا أن نمسك ، كما قال العلماء ، عن تعيين نوع هذا الميزان وجوهره وكيفيته ، وهل هو ميزان واحد للخلائق كلهم أم موازين كثيرة ، فكل ذلك مما لا سبيل إلى القطع به . ولكننا نؤمن بما أخبر الله عنه ، ونقول إنه كما أخبر جل جلاله ، دون أن نؤول أو نقحم عقولنا وأخيلتنا في حمل هذه الآيات على مجاز أو استعارة أو نحو ذلك .

أما كيفية وزن الأعمال ، وهي أمور اعتبارية ، فقد ورد ما دل على أنها تخلق بشكل أجسام لها ثقل وأبعاد . من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ ، حَتَّى إذا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغتةً قالوا يا حَسرَتَنا على ما فَرَّطْنا فِيها وَهُم يَحْمِلُونَ أوزارَهُم على ظُهُورِهِم ، ألا ساءَ ما يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣١] ولكنا نكل كيفية الوزن وعلم ذلك تفصيلاً إلى الله عز وجل .

وبذلك نَسْلَم من حاجة الخوض في هذا البحث ، على نحو ما بحث المعتزلة ، ونسلم من الحاجة إلى التأويل والتحوير .

أمّا : لماذا يكون الوزن وما الحاجة إليه والله أعلم بالأعمال وكميتها وأهميتها ـ فليس إلى شيء من ذلك حاجة إلهية كما لا يخفى ، ولكن لما جرت سنة الله في تنظيم هذه الحياة الدنيا وفي إدارة شؤون الإنسان على تحكيم نظام الأسباب والمسببات وتعويد العقل والخيال على ربط كل أثر بمؤثره وكل موجود بعلته ـ اقتضت الحكمة أن ينسحب هذا النظام نفسه على وقائع ما بعد النشأة الثانية والحياة الأخرى ، وأن يتلقى الإنسان الخبر عنها بعين تلك الطريقة التي ألِفها عقله وتشرَّبها خياله .

هذا شيء ، والشيء الثاني ، أن في تجسيد هذه الأمور الاعتبارية واستحضار الميزان والوزن لها ، بياناً للإنسان أن مضمون الحياة الثانية ليس إلا انعكاساً دقيقاً لمضمون الحياة الأولى ، تماماً كما يكون موسم الحصاد انعكاساً دقيقاً لموسم البذر والزرع . ولا يتضح هذا المعنى للإنسان اتضاحاً تاماً . لو قيل له إن الخالق جل جلاله يثيب كلاً أو يعاقبه حسب ما استقر في علمه جل جلاله من سابق كسبه وأعماله ، دون أن يطلعه على تلك الأعمال ويذكره بها ويضعها ماثلة بين عينيه ليقارن بينها وبين نتيجتها الماثلة أيضاً أمامه في ذلك اليوم . فلذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يقام للأعمال ميزان حسّي وأن تتجسد الأعمال بذاتها أو بواسطة صحائفها ، بل وأن تنطق الجوارح والأعضاء نفسها بما كانت قد اجترحته من

الآثام ، حتى تنطق هذه الأعمال نفسها بحقيقة العدل والجزاء وربط مقدمات الحياة الدنيا بنتائج يوم القيامة .

الصراط والاجتياز عليه

والصراط يطلق على معنيين : أحدهما في الدنيا ، وهو المنهج الذي شرعه الله لعباده وأمرهم باتباعه والتزامه ، وهو المعنيُّ بقوله تعالى : ﴿ وأنَّ هـذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] وقوله تعالى : ﴿ اهْدِنـا الصِّراطَ المُسْتَقِيم ﴾ [الفاتحة : ٦] .

ثانيهما في الآخرة ، وهو الجسر الذي ينصب على نار جهنم يوم القيامة ، فيجتاز عليه الناس على اختلاف مذاهبهم وأضرابهم وتفاوت درجاتهم ، فمنهم من يدق تحت قدميه حتى يبدو له أنه أدق من السيف ، فيترنح من فوقه ثم يهوي في النار ، ومنهم من ينبسط عريضاً تحت قدميه فيمر من فوقه إلى ما أعده الله له من النعيم المقيم .

وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ وَإنْ مِنْكُمْ إلا وارِدُها كانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ونَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً ﴾ [مريم : ٧١ ـ ٧٢] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أعْيُنِهِمْ فاستَبَقُوا الصِّراطَ فَأنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٦٦] . وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ ... إلى أن قال : ويضرب الله جسر جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز . ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم . وبه كلاليب مثل شوك السعدان . أما رأيتم شوك السعدان[1] ؟ قالوا : بلى

(١) السعدان : نبت ذو شوك عظيم .

يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنها لا يعلم قـدر عظمها إلا الله جل جلاله ، فتخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو .

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يميناً وشمالاً ، وعلى جنبيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم ، فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعياً ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون ، وأما أناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحماً ثم يؤذن في الشفاعة » .

واعلم أن هذا الصراط إنما هو تجسيد لمعنى الصراط الذي ألزم الله به عباده في الدنيا ، فمن ضيَّق على نفسه سبل العيش والحياة حتى لا يخرج عن صراط الله ومنهجه الذي أمر باتباعه ، اتسع أمامه الصراط الممتد على متن جهنم ، ومن وسع على نفسه سبل العيش والحياة في الدنيا فتجاوز حدود الله وأحكامه ، ضاق عليه ذلك الصراط غداً . وإليك ما يقوله في بيان هذه الحقيقة الإمام الغزالي رضي الله عنه :

« فمن استقام على الصراط المستقيم ، خف على صراط الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ، تعثر في أول قدم من الصراط وتردى ، فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدة الصراط ! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون في النار

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : يارب سلم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلَّت قدمك ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت : هذا ما كنت أخافه فياليتني قدَّمت لحياتي ، ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، ياليتني كنت تراباً ، ياليتني كنت نسياً منسياً ، ياليت أمي لم تلدني ! فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً فما أعظم خسرانك وطغيانك ، وما ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضى الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ؟ »[1] .

اللهم ارزقنا حسن الإنابة إلى دينك في حياتنا الدنيا ، وأحسن منقلبنا إليك في ذلك اليوم العظيم ، وأجرنا من عذابك بمحض منك وفضلك يارب العالمين .

الشفاعة والحوض

فأما الشفاعة فهي في الحقيقة مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل بمن شاء من عباده في ذلك الموقف . ويتجلى هذا المظهر بأشكال مختلفة ، فمنها أن يغفر الله لمن شاء من عباده العصاة ما لم يكن من أهل الكفر أو الشرك ، وفي إيضاح هذه الحقيقة يقول الله عز وجل : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ .

ومنها تكريم الله رسوله ﷺ بالشفاعة في أمته ، وهي ما يطلق عليه العلماء اسم الشفاعة العظمى .

---

(١) إحياء علوم الدين : ٤ / ٥٢٤ .

وهي تتمثل في شفاعات كثيرة ، أعظمها شفاعته ﷺ لأهل المحشر عامة لإراحتهم من طول الموقف وأهواله ، ومنها إدخاله طائفة من أمته الجنة من غير حساب ، ومنها شفاعته فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها ، ومنها شفاعته في إخراج المؤمنين والموحدين منها بعد دخولهم فيها . ويشاركه في هذه الشفاعة والتي قبلها ، على الأصح ، الأنبياء والملائكة والمقربون من المؤمنين .

والمقام المحمود الذي وعد الله رسوله به ، إنما هو المنزلة التي تخوله هذه الشفاعات المختلفة في أهل المحشر عامة وفي أمته خاصة . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة في الناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم[1] .

وعلى هذا فالمقام المحمود الذي سيقيم الله تعالى نبيه فيه يوم القيامة ليس اسماً لشفاعة معينة من الشفاعات المذكورة . وإنما هو اسم لجميعها حيث يغبطه الخلائق كلهم عليها . وإنما شفاعته ﷺ لأهل المحشر بإراحتهم من طول الموقف هو أول هذا المقام المحمود كما قال اللقاني في شرحه لجوهرة التوحيد[2] .

والآيات والأحاديث التي تتحدث عن الشفاعة كثيرة جداً ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لاَ يَملِكُونَ الشَّفاعَةَ إلاّ مَن اتَّخَذَ عِنـدَ الرَّحمنِ عَهداً ﴾ [مريم : ٨٧] وقوله : ﴿ يَومَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفاعَةُ إلاَّ مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِيَ لَه قَولاً ﴾ [طه : ١٠٩] ومن ذلك الحديث الطويل الذي رواه الشيخان ، وفيه أن الناس ينصرفون إلى الأنبياء واحداً إثر آخر يرجون عندهم الشفاعة ثم ينصرفون إلى رسول الله ﷺ فيشفع في طائفة كبيرة من المؤمنين .

غير أن هذه الشفاعة ، إنما هي ، كما قلت لك ، مظهر من مظاهر رحمة الله

(١) انظر تفسير قوله تعالى : ﴿ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً محموداً ﴾ من سورة الإسراء في ابن جرير الطبري وابن كثير .

(٢) انظر عبد السلام اللقاني على الجوهرة ص ٢٤٢ .

بعباده الذين شاء لهم المغفرة ولكنها اتخذت هذا الشكل تكريماً لرسله وأنبيائه وبعض الصالحين من عباده .

وأما **الحوض** فهو مكرمة عظيمة خص الله بها محمداً ﷺ ، وقد نص عليه البيان القرآني في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً ، قلنا : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أُنزلت عليَّ آنفاً سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ، إِنَّ شَانِئَكَ هوَ الأبتر . ثم قال أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم ، فأقول ربِّ إنه من أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدث بعدك .

وروى مسلم في صحيحه ومالك في موطئه وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت إخواننا ، فقلنا : يا رسول الله ألسنا بإخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض ، فقالوا : يا رسول الله ، كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرأيت لو كان لرجل خيل غرٌّ محجلة في خيل دُهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء ، وأنا فَرَطهم على الحوض . فلا يُذَادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم : ألا هلُمَّ ، ألا هلُمَّ ، فيقال : إنهم قد بدَّلوا بعدك . فأقول : فسحقاً ، فسحقاً ، فسحقاً .

ويتبين لك مما ذكرناه أن ماء الحوض والكوثر شيء واحد ، كما نص على

ذلك حديث مسلم السابق ذكره ، وأن أصله في الجنة . فما كان جارياً منه في داخلها فهو ماء الكوثر ، وما انصب منه في خارجها فهو ماء الحوض وهو الذي يرده المؤمنون الذين لم يبدلوا من دين الله شيئاً . قبل دخولهم الجنة ويكون رسول الله ﷺ فرطاً لهم عنده .

والأحاديث الواردة في شأن الحوض ووصفه كثيرة جداً ، وقد زادت عن حد التواتر .

وهو أيضاً من مظاهر إكرام الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ورحمته بعباده .

الجنة والنار ، والخلود في كل منهما

وهما العاقبة التي لا بد أن تنتهي إلى إحداهما حياة الإنسان . وهي عاقبة أخيرة ودائمة لا عاقبة من بعدها .

ولا مجال لوصف أهوال النار وعذابها ، ولا لوصف نعيم الجنة وأسباب السعادة فيها ، فحديث ذلك يطول ، وهو على كل لا يكاد يصور شيئاً من الواقع الذي هو اليوم غيب عن الناس كلهم إلى أن يأتي ميقات ذلك اليوم المعلوم والمحدد في علم الله جل جلاله .

وإنما يتعلق الحديث هنا ببيان حقيقتين اثنتين لا بد أن يعيهما المسلم ويعتقدهما اعتقاداً جازماً .

الحقيقة الأولى : الجنة والنار شيئان ماديّان

نعم إن الجنة والنار حقيقتان ماديتان من متعلقات كل من النفس والجسم معاً ، وليستا مجرد وهمٍ يطوف بالنفس أو الروح وحدها .

إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة أي معنى للمعاد الجسمي الذي فرغنا من

بيانه والذي حفل كتاب الله تعالى بذكره وتأكيده والتحذير من عواقبه في كثير من نصوصه وآياته القاطعة . وبدهي أنه لا ينكر مادية كل من الجنة والنار إلا من أنكر قبل ذلك الحشر والمعاد الجسمي وعودة الأرواح إلى أجسادها .

ومن أوضح الأدلة وأجلاها على هذه الحقيقة ، الطريقة التي يصف بها القرآن كلاً من الجنة والنار ، وهي طريقة قد تثير استفساراً لدى بعض الناس عن حكمة اتباع القرآن لها والتزامه إياها . فالحكمة منها أنها تعبير عن أن نعيم الجنة حسي مادي يلقاه الجسد والروح معاً وعذاب جهنم حسي مادي أيضاً يلقاه الجسد والروح معاً ، وأنها تأكيد لهذه الحقيقة بأقوى الأساليب العربية المؤكدة .

تأمل هذه الآيات في وصف الجنة وأهلها : ﴿ وجوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ ، لِسَعيِها راضِيَةٌ ، في جَنَّةٍ عالِيَةٍ ، لا تَسمَعُ فيها لاغيَةً ، فيها عَيْنٌ جارِيَةٌ ، فيها سُرُرٌ مَرْفوعَةٌ ، وأكوابٌ مَوضوعَةٌ ، وَنَمارِق مصفوفَةٌ ، وزَرابِيُّ مَبثوثَةٌ ﴾ [الغاشية : ٨ ـ ١٦] وهذه الآيات أيضاً : ﴿ وأصحابُ اليَمينِ ما أصحابُ اليَمين ، في سِدْرٍ مَخْضودٍ ، وَطَلحٍ مَنضودٍ ، وظِلٍّ مَمدودٍ ، وماءٍ مَسْكوبٍ ، وفاكِهَةٍ كَثيرَةٍ ، لا مَقْطوعَةٍ ولا مَمنوعَةٍ ، وفُرُشٍ مَرفوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٢٧ ـ ٣٤] .

فما الحكمة من وصف هذه الجزئيات كلها من الجنة ونعيمها ، ومعلوم أن أحدنا إذا أراد أن يصف مظهراً من مظاهر النعيم قد لا يجد نفسه بحاجة إلى أن يتناول في وصفه له هذه الدقائق الجزئية كلها ؟

الجواب ، أنه منتهى ما يمكن أن يتمثل به الأسلوب العربي في تأكيد أن نعيم الجنة شيء حسي ملموس يعيش فيه الإنسان بكل حواسه ومشاعره ، وليس معنى روحياً مجرداً كما يتخيل اليوم بعض من يريدون أن يقفوا في اعتقادهم أمام حدٍ وسط بين الإيمان والإلحاد . وهو في الحقيقة الإلحاد ذاته جاء ملوناً بهذا اللون السخيف .

ثم تأمل في هذه الآيات وهي تصف النار وأهلها : ﴿ وجوهٌ يَومَئِذٍ خاشِعَةٌ ، عامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، تَصْلى ناراً حامِيَةً ، تُسقى مِن عَينٍ آنِيَةٍ ، لَيسَ لَهُم طَعامٌ إلاَّ مِنْ ضَريعٍ ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوعٍ ﴾ [الغاشية : ٢ ـ ٧] وفي هذه الآيات الأخرى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أيُّها الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ ، لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ، فَمالِئون مِنها البُطونَ ، فَشارِبونَ عَلَيهِ مِنَ الحَميمِ ، فَشارِبونَ شُربَ الهيمِ ، هذا نُزُلُهُم يَوْمَ الدِّين ﴾ [الواقعة : ٥١ ـ ٥٦] وفي قوله : ﴿ إنَّ المُجرِمينَ في ضَلالٍ وسُعُر ، يَوْمَ يُسْحَبونَ في النّارِ على وُجوهِهِمْ ذوقوا مَسَّ سَقَر ﴾ [القمر : ٤٧ ـ ٤٨] وفي قوله : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَروا بآياتِنا سَوفَ نُصْليهِم ناراً ، كُلَّما نَضِجَتْ جُلودُهُم بَدَّلناهُم جُلوداً غَيرَها لِيَذوقوا العَذابَ إنَّ اللهَ كانَ عَزيزاً حَكيماً ﴾ [النساء : ٥٦] .

فما الحكمة من هذا الوصف التفصيلي بهذا الشكل ؟ .. إنه أيضاً بيان وإيضاح للناس كلهم أنه عذاب مادي محسوس ملموس تنغمس فيه حواس الكافرين وجسومهم ومشاعرهم ، وليس كرباً روحانياً مجرداً على نحو ما يتوهم ويتخيل الذين يحلو لهم ، في غرور عجيب ، أن يصعدوا على منبر من الغرور أقاموه من سنوات عمرهم القصير وتفكيرهم المحدود ، ليبعثوا منه بقرارهم عن قصة هذا الكون كله وعن حقيقة الحياة والموت وما بعدهما ، وحقيقة ما جاء من أمر الجنة والنار والحساب والعذاب . وكأنهم شركاء لله في تدبير كونه ، وليسوا خلقاً مهيناً من ملايين مخلوقاته عاشوا لمحة واحدة من عمر الدهر وكانوا قبل ذلك عدماً في طوايا الكون ، ثم استحالوا جيفاً في باطن الأرض في انتظار الأجل المحتوم واليوم الموعود ! ..

فهذه هي الحقيقة الأولى

الحقيقة الثانية : كل من الجنة والنار خالد لا نهاية له

إن نعيم الجنة باقٍ خالد لا نهاية له ، وعذاب جهنم باقٍ لا نهاية له . والآيات التي توضح هذه الحقيقة في كتاب الله تعالى كثيرة جداً .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُم جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً ، خالِدينَ فيها لا يَبْغونَ عَنها حِوَلاً ﴾ [الكهف : ١٠٧ - ١٠٨] وقوله تعالى : ﴿ إنَّ المُجْرِمينَ في عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدون ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُم وَهُمْ فيه مُبْلِسونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ - ٧٥] وقوله تعالى : ﴿ وَنادَوا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَينا رَبُّكَ قالَ إنَّكُم ماكِثونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

وقد جاءت السنة بمزيد من التأكيد لهذه الحقيقة ، وذلك في أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يُذبح ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم » .

وسواء أكان تجسيد الموت وذبحه بهذا الشكل حقيقة ، أم كان ذلك كناية عن القضاء على معنى الموت وإزالته من الوجود - فإن الحديث على كل حال ينطوي على أبلغ الأساليب المؤكدة لمعنى الخلود في كل من الجنة والنار . على أنّا لا نرى داعياً إلى إدخال أي تأويل على ظاهر الحديث .

غير أن الذين يستقرون خالدين في عذاب الله تعالى إنما هم الكافرون بمختلف فئاتهم وأضرابهم ، من مشركين وملاحدة وأهل كتاب ممن لم يؤمنوا بنبوة الأنبياء كلهم ، أما العصاة من المؤمنين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر فمصيرهم ، مهما طال عليهم العذاب ، إلى مغفرة الله وجنته[1] .

---

(١) حاذر أن تطوف بذهنك تلك اللوثة التي يعاني منها بعض الجهال والمنافقين ، ممن يزعمون أن أهل =

وربما استشكلْت بهذا الصدد قوله تعالى : ﴿ فأمّا الَّـذينَ شَقُوا ففي النّـارِ لَهُم فيها زَفيرٌ وشَهيقٌ ، خالِدينَ فيها ، ما دامَتِ السَّماواتُ والأرضُ إلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِمَا يُريدُ ، وأمَّا الذَّين سُعِدوا ففي الجَنَّةِ خالِـدينَ فيهـا مـا دامَتِ السَّموات والأرضُ إلا ما شـاءَ رَبُّـكَ عَطـاءً غَيْرَ مَجْـذوذٍ ﴾ [هود : ١٠٦ ـ ١٠٨] ذلك أن ظاهر قولـه : إلا مـا شـاء ربـك ، استثنـاء من الخلـود ، وهـو ينـافي ما تقرره الآيات الأخرى والأحاديث الثابتة وما اتفق عليه المسلمون .

والجواب أنه استثناء من قوله : شقوا ، في الآية الأولى ، ومن قوله : سعـدوا في الآية الثانية . أي إن جميع الأشقياء خالدون في النار إلا من شـاء الله منهم أن لا يخلدوا فيها ، وهم العصاة من أهل الإيمان والتوحيد ، كما دلت على ذلك الأدلـة الكثيرة الأخرى . وجميع أهل السعادة خالدون في الجنـة إلا من شـاء الله منهم أن يتعذب في النار إلى أمدٍ قبل ذلك ، وهم أولئـك الـذين غمرت حيـاتهم بـالمعـاصي والأوزار من المؤمنين ولم تكتب لهم الشفاعة أولاً .

وإنما لم يأت الاستثنـاء بصيغـة : إلا من شـاء ربـك . كما كان يقتضي ظـاهر الاستثنـاء ، لأن المراد من المستثنى منـه العـدد المجرد لا الأشخـاص بـأعيـانهم حتى يراعى فيهم العقل ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فانكِحوا مـا طـاب لَكُم مِنَ النِّسـاءِ مَثْنى وثُلاثَ وَرُبـاعَ ﴾ [النسـاء : ٣] . فقـد عبر عن النسـاء بمـا ، عنـدمـا كان الملاحظ فيهن العدد لا الشخص .

فهـذه هي جملـة الحقـائق الغيبيـة التي يجب أن يعيهـا الإنسـان ويعتقـدهـا اعتقاداً جازماً ، بعد أن اجتاز مرحلـة الإيمـان بـالله ورسولـه وكتبـه . ولا يمكن عقلاً أن ينفك الإيمان بالله عن الإيمان بهـذه المغيبـات ، إذ همـا متلازمـان تلازمـاً واضحاً لكل ذي عقل .

= الكتـاب مؤمنـون ، وأنهم فئـة أخرى غير الكفـار ، فـلا يعـاقبـون عقـابهم ولا يخلـدون في النـار خلودهم . فـإن هـذا الزعم تحـد صـارخ لقـول الله تعـالى : ﴿ إنَّ الَّـذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكِتابِ والْمُشْرِكين في نارِ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيهـا أولئـكَ هُم شَرُّ البَرِيَّـةِ ﴾ [البينـة : ٦] فقـد قسمت الآيـة الكفار إلى أهل كتاب ومشركين ، ثم شملتهم جميعاً بهذا الوعيد العظيم .

وَأخيراً

الرّدة وأسبابها

تمهيد

لقد علمت من خلال دراسة الأقسام الأربعة السالفة في هذا الكتاب ، أن للإسلام أركاناً ومستلزمات أساسية ، لايتم وجوده إلا بها . ونقصد بالأساسية تلك التي تعدّ معروفة من الدين بالضرورة . ولعلك لاحظت أن هذه الأركان والمستلزمات موزعة في الأقسام الأربعة التي تم بيان مسائلها بشكل مفصل .

ومن الواضح أن الإسلام إذا كان لايتحقق إلا بأركانه ، وبالمستلزمات الأساسية لتلك الأركان ، فإنه يفقد بفقد شيء من تلك الأركان أو المستلزمات .

ثم إننا ننظر ، فإن كان فقد شيء من ذلك أساسياً ، أي غير مسبوق بما يناقضه من اليقين به ، فهو كفر أصلي . وله وللمتلبس به أحكام خاصة ، تعرف في أماكنها من كتب الفقه الإسلامي ، أما إن كان فقده طارئاً ، أي بعد يقين تام به ، فهي الردّة التي هي محط بحثنا الآن .

ولسنا الآن بصدد البحث في أحكام المرتد ، فإن مجال البحث في ذلك كتب الفقه ، ولكنا نحصر حديثنا هنا في بيان أسباب الردة وموجباتها .

مدار هذه الأسباب :

واعلم أن هذه الأسباب مهما كثرت وتفرعت ، فإنّ مردّها ، سلباً وإيجاباً ، إلى ميزانين اثنين :

أولهما : قول الله عز وجل ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

ثانيهما : ماتظاهرت عليه دلائل القرآن الكريم والسنة المطهرة ، من أن الأحكام القضائية في الدنيا لايجوز أن تنهض إلاّ على البينات الظاهرة ، وأن الله لم يجعل للناس وراء ذلك من الأمر شيئاً ، فليس لأحد منهم أن يتعاطى حكماً على غيب أحد ، حتى تتظاهر عليه الحجج المعتمدة في الكتاب أو السنة ، للعمل بها في دار الدنيا .

فالميزان الأول :

يكشف لنا أن المكفرات ـ وهي مااستوجب الخلود في عذاب الله يوم القيامة ـ كل ماكان تعبيراً عن الإشراك بالله تعالى في ذاته أو شيء من صفات ربوبيته ، ويدخل في حكمه ، عن طريق القياس اليقيني الأولى ، إنكار وجود الله عز وجل ، وما هو في حكمه من إلحاق أيّ نقيصة به تتنافى منافاة واضحة مع صفة الألوهية لله عز وجل .

بل إن جحود الخالق عز وجل ، وما هو في حكمه من سلب صفة الكمال عنه ، داخل في دلالة هذه الآية ذاتها . ومكان الدلالة فيها على ذلك ، قوله عز وجل : ﴿ وَيَغفِرُ مادونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

فإنه سبحانه وتعالى فتح باب المغفرة لكل من كانت معصيته دون مستوى الإشراك بالله عز وجل ، أي أقل خطورة منه . فبقيت الآثام التي هي أبلغ سوءاً من الإشراك به عز وجل ، ملحقة بحكمه ، وهي محصورة في إنكار وجود الخالق أصلاً ، وفي إلحاق شيء من صفات النقص به ، كالكذب والعجز والظلم والموت .. الخ .

فأما المعاصي الأخرى التي هي دون الإشراك بالله عز وجل ، فكلها داخلٌ تحت إمكان عفو الله عنها ، مهما اختلفت وتنوعت ، صغيرة كانت أو كبيرة . ومن ثم لايوصف المتلبس بها أو بشيء منها بالكفر أو الردة .

وإذن ، فعلى ميزان هذه الآية الجامعة تنزل عمومات الآيات التي تدلّ بظاهرها على خلود أصحاب بعض الكبائر في النار يوم القيامة ، من مثل قوله تعالى : ﴿ ومن يَقْتُل مؤمِناً مُتعمِّداً فَجَزاؤهُ جَهَنَّمُ خالِداً فيها وغَضِبَ اللهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظيماً ﴾ [النساء : ٩٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّم يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأولَئِكَ هُمُ الكافِرونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] وقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ خَفَّت مَوازِينُهُ فأولئِكَ الَّذين خَسِروا أنفُسَهُم في جَهَنَّم خالِدونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٣] .

أي فالآية الأولى يراد بها القاتل المستحل للقتل المصرّ على عقيدته هذه دون توبة . والآية الثانية تتحدث عن المعرضين عن حكم الله تعالى إنكاراً له وجحوداً . والآية الثالثة تعني أولئك الذين ماتوا على معنى من معاني الشرك بالله عز وجل ، أو على ما هو شر منه كالجحود به عز وجل .

أما الميزان الثاني :

فهو تبصير بحدود صلاحيات الإنسان حاكماً كان أو قاضياً أو مفتياً في تطبيق الميزان الأول على سائر الناس .

ترى ماهي الدلائل والبينات التي يجوز أن يبني عليها الحاكم أو القاضي مثلاً الحكم بكفر إنسان أو ردّته ؟

يوضح لنا هذا الميزان بأن الدلائل التي يجوز الاعتماد عليها في البت بهذا الحكم الخطير وما يستتبعه من أحكام خطيرة أخرى إنما هي الدلائل الصريحة القاطعة .

فلا قيمة ، في هذا الباب ، لدلائل الفراسة والتوسم ، ولا لشيء من الدلائل اللزومية إلا إذا كان اللزوم فيها قطعياً لا مجال لتخلف اللازم فيه عن الملزوم .

فلا يستدل بشيء من المعاصي ، مهما عظمت ، ومهما استمر العاصي في عكوفه

عليها ، على أنه كافر أو مرتد . لأن الدليل أعم في هذه الحال من المدّعى . إذ رب رجل يتقلب في ألوان المعاصي استهتاراً واستجابة لرعوناته وجموح نفسه ، ويكون اعتقاده بالله عز وجل سليماً والمقومات الأساسية لإسلامه متوافرة .

ولا يستدل بشيء من دلائل المراوغة ومظاهر النفاق ، مهما تنوعت واستمرت ، على كفر يستوجب حكماً قضائياً في دار الدنيا ، بل لايجوز حتى الجزم الاعتقادي بكونه كافراً ، ولو بدون ترتيب أحكام قضائية عليه ، إلا أن يتلبس هذا المراوغ أو المنافق بما سماه النبي ﷺ : كفراً بواحاً ؛ أي ظاهراً مكشوفاً . فيقضى عندئذ بكفره أو ردته .

ومن أبرز الأدلة على هذه القاعدة ما رواه مسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود عن أسامة بن زيد ، قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، فصبحنا الحرقات من جهينة ، فأدركت رجلاً ، فقال : لاإله إلا الله ، فطعنته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : أقال لاإله إلا الله وقتلته ؟ قال قلت يارسول الله : إنما قالها خوفاً من السلاح . قال : أفلا شققت على قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها ، حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ .

ومثله مارواه مالك في الموطأ عن عطاء بن يزيد الليثي عن عبيد الله بن عدّي بن الخيار : أن رجلاً سارّ النبي ﷺ ، فلم ندر ماسارّه حتى جهر رسول الله ﷺ ، فإذا به يشاوره في قتل رجل من المنافقين ، فقال رسول الله ﷺ : أليس يشهد أن لاإله إلا الله ؟ قال : بلى ولا شهادة له . فقال : أليس يصلي ؟ قال : بلى ولاصلاة له . فقال رسول الله ﷺ : أولئك الذين نهاني الله تعالى عنهم .

ومنه قوله ﷺ فيما رواه الشيخان ، واللفظ للبخاري : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألْحنَ بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار » .

ومن تطبيقات هذه القاعدة في هديه ﷺ ، معاملته للمنافقين بناء على ظاهر مايتلبسون به من دلائل الإسلام ، ووقوفه عند هذا الحد ، دون أن يقتحم شيئاً من سرائرهم ، مهما تجلّى لتلك السرائر ذيول وآثار .

تطبيق هذين الميزانين :

إن التصرفات التي تستوجب الردّة ، بناء على هذين الميزانين ، لاتخرج عن أن تكون : أقوالا ، أو أفعالاً ، أو ما يمكن أن يدخل في نطاق السخرية والتحقير .

فأما الأقوال ، فهي كل ماكان تعبيراً صريحاً عن أنكار ركن من أركان الإسلام أو الإيمان ، أو عن إنكار حكم من الأحكام الإسلامية المعروفة من الدين بالبداهة والضرورة . كأن يبيح الفاحشة ، أو قتل النفس بغير حق ، أو الربا عموماً ، بعبارة صريحة قاطعة في الدلالة على ذلك .

فهذه الأقوال إما أن تكون داخلة في معنى الإشراك بالله عز وجل ، كالذي ينكر وحدانية الله عز وجل ، وإما أن تكون أبلغ سوءاً من الإشراك به ، كالذي ينكر وجود الخالق ، وإما أن تكون في مستوى الإشراك به ، كالذي ينكر قواطع الأحكام الصريحة والمشهورة في كتاب الله عز وجل ، إذ لايتأتى إنكار شيء من ذلك إلا عن طريق إنكار شيء من القرآن ذاته .

وأما الأفعال : فهي كل ماكان يحمل دلالة قاطعة على شيء يتناقض مع ركن من أركان الإيمان أو الإسلام ، كالسجود لصنم ، وكالتزيي بالأزياء التي تخص رجال الأديان الأخرى ، مما له دلالة دينية معروفة ، وكفعل شيء من العبادات التي يمارسها أهل دين من الأديان الباطلة . فإن لهذه الأفعال دلالة واضحة لا تقلّ عن دلالة النطق ، ولها مدلولات تناقض الإذعان لأركان الإيمان والإسلام ، والإذعان لكل ماهو ثابت ومعروف من الدين بالضرورة .

وأمّا ما يدخل في نطاق السخرية والتحقير ، فهو داخل في الحقيقة في

زمرة الأقوال أو الأفعال ، ولكنهم أفردوه بنوع ثالث ، لعدم توفّر الجدّ الذي من شأنه أن يتوافر في النوعين السابقين . فاقتضى أن يفرد ببيان حكمه وآثاره .

وضابط السخرية أو التحقير المستوجبين للردة ، أن يسخر من شيء من أركان الإسلام أو الإيمان أو من أي حكم من الأحكام الإسلامية الثابتة والمعروفة للجميع بالبداهة والضرورة ، أو أن يحتقره بوسيلة واضحة من وسائل التحقير .

إذن ، فكل ماكان التعبير عنه بالقول الواضح الجادّ موجباً للردة ، فإن تناوله بالسخرية أو التحقير يكون موجباً للنتيجة ذاتها . كأن يسخر من الصلاة أو الحج أو الزكاة ، أو من الجنة أو النار ، أو أن يحتقر القرآن تحقيراً واضحاً بقول أو فعل ، أو يزدري بالفقه الإسلامي عموماً ، أو يحتقر شيئاً من الشعائر الإسلامية البارزة كالأذان والمساجد والأذكار .. الخ .

ومن المهم أن تعلم بأن كل مايدخل في نطاق الأفعال المكفرة ، أو السخرية أو التحقير المكفرين ، يكفي لثبوت الردة به ، مجرد تلبس الإنسان بشيء منه ، بمحض إرادته واختياره ، سواءً أكانت مدلولاتها قائمة في ذهنه أم لا . وذلك عملاً بالميزان الثاني الذي أوضحناه . فإن كلاً من الأفعال المكفرة ومظاهر السخرية بشيء من أركان الدين ، ذو دلالة صريحة واضحة على ما يناقض العقيدة الإسلامية . فإن كان القلب منطوياً على ما يخالف تلك الأفعال أو ماتدلّ عليه مظاهر السخرية بالدين ، فإنه من الأمور الباطنية التي لاسلطان للأحكام القضائية عليها . لذا فإنا نحكم بردّة كل من سخر بشيء من أركان الإسلام أو شعائره البارزة ، ونكل باطنه إلى الله عز وجل . إلاّ إذا صرح بما يكنه باطنه من الإيمان والإسلام والعقيدة المنافية لظاهر مادلت عليه سخريته أو عبر عنه فعله . فيكون تعبيره هذا بمثابة التوبة عن الردّة التي تلبس بها ، وتقبل منه علانية هذه ويترك باطن حاله إلى الله عز وجل .

☆ ☆ ☆

فإذا عرفت هذه القاعدة ، ومنطلقها الذي سبق بيانه ، فإنك لن تتيه في جزئيات الأمثلة الكثيرة ، إذ بوسعك أن تصفها طبقاً لما أوضحناه ، فيتبين لك ماكان منها موجباً للردة وما لم يكن موجباً لها .

ولنعرض لواحدة من هذه الجزئيات الكثيرة ، يكثر الخوض فيها والتساؤل عن حكمها بين كثير من الناس اليوم ، وهي : الحكم بغير شرع الله عز وجل .

فما هو حكم من حَكَم بغير شرع الله عز وجل في حق نفسه ، أو في حق فرد من أفراد أسرته ، أو في حق من يمتد سلطانه عليهم ، كالزعيم في عشيرته ، والحاكم في رعيته ؟

ينظر ، فإن صاحب هذا الحكم دليل قاطع على أنه إنما استبدل بحكم الله تعالى غيره جحوداً بالله عز وجل ، أو انطلاقاً من زعم أن أحكام الإسلام غير صالحة للحياة ، أو ازدراءً واحتقاراً له ـ وكان ذلك الحكم الذي قضى بغيره معروفاً من الدين بالبداهة لكل الناس ـ فذلك موجب من موجبات الردة عن الإسلام ، وإن صاحب ذلك تكريرٌ لشهادة الإسلام ، وأداء العبادات كالصلاة وغيرها .. إلا أن يتوب بالإقلاع عن ذلك السبب نفسه ، بأن يعلن ، خلافاً لما بدر منه ، بأن الشريعة الإسلامية كلها صالحة للحياة ، وأنه إنما قضى فيما قضى به بباطل من الحكم ، وأن الحق الثابت إنما هو ماجاء به الإسلام .

أما إن لم يصاحب حكمه هذا دليل قاطع على الجحود والازدراء والاحتقار ، بأن احتمل أن يكون الصارف له عن الحكم بما أمر الله به ، مجرد استهتار ، أو استجابة لرعونات النفس وأهوائها ، أو فراراً من التقيد بقيود الشريعة الإسلامية ، فلا يجوز تكفيره بذلك ، كما لا يجوز تطبيق شيء من أحكام الردة عليه ، مهما كانت أدلة هذا الاحتمال ضعيفة .

ذلك لأن مدار الأمر في أصل كل من الكفر والإسلام ، إنما هو الاعتقاد ،

فإذا ترتب على القول أو الفعل حكم بالتكفير ، فذلك لأن القول أو الفعل ذو دلالة قاطعة على عقيدة مكفرة . فأما إذا لم تكن له على ذلك دلالة قاطعة ، لم يجز ترتيب حكم الارتداد أو الكفر عليه ، وانحصرت دلالته على الفسق والعصيان ، مع إحالة باطن الأمر إلى الله عز وجل .

وقد أوضح الإمام أحمد هذه الحقيقة بقوله : « من قال الخمر حلال فهو كافر ، يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وهذا محمول على من لايخفى على مثله تحريمه لما ذكرنا ، فأما إن أكل لحم خنزير أو ميتة أو شرب خمراً ، لم يحكم بردّته بمجرد ذلك ، سواء فعله في دار الحرب أو دار الإسلام ، لأنه يجوز على أن يكون فَعَلَهُ معتقداً تحريمه ، كما يفعل غير ذلك من المحرمات »[1] .

هذه خلاصة ماتفق عليه أهل السنة والجماعة ، وهم جمهور علماء المسلمين ، في أمر الردة وموجباتها . وإنما شذ عنهم الخوارج والوعيدية . فكفرت الفرقة الأولى بارتكاب الكبائر . وقضت الفرقة الثانية بخلود الفاسقين في النار اعتماداً على ظاهر بعض الآيات التي مرّ بيان التوفيق بينها وبين قوله تعالى : ﴿ إنّ اللهَ لا يَغفِرُ أنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ مادونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾[2] [النساء : ٤٨] .



---

(١) المغني لابن قدامة : ٨ / ٥٤٩ .

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي وابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لايَغفِرُ أن يُشرَكَ بِهِ .. ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَم يحكُمْ بِما أَنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُمُ الكافِرونَ ﴾ وانظر الأم للشافعي : ٧ / ١٦٧ و١٦٩ ، والفروق للقرافي : ٤ / ١١٤ وحاشية ابن عابدين : ٣ / ٢٩١ والمغني لابن قدامة : ٨ / ٥٤٩ ، والأعلام في قواطع الإسلام لابن حجر الهيثمي .

خاتمة ونتيجة

لا حاكمية إلا لله

ووظيفة الإنسان تنفيذ حكم الله في الأرض

الآن ، وقد استيقنَتْ نفسُك كل هذه الحقائق التي فرغنا من عرضها وبيانها موزونةً بميزان المنهج العلمي ، معززة بأدلتها وبراهينها التي يتطلبها العقل ، فأيقنت وجود الخالق العظيم جل جلاله ، ثم أيقنت تبعاً لذلك أنه لم يخلق هذا الكون عبثاً وما ينبغي له العبث بحال ، وأن الإنسان - وهو سيد المخلوقات في الكون - لابد أن يكون مكلفاً بوظيفة معينة شأنه في ذلك شأن سائر المخلوقات الأخرى ، ولا بد أنه مسؤول عنها تجاه خالقه جل جلاله . ثم تأملت في تاريخ الزمن وأحداثه فاستيقنت نبوّة الأنبياء الذين بُعثوا خلاله ، وكان من مقتضى ذلك أن تستيقن هذا الذي بعثوا إلى الناس به ، من الحقائق الاعتقادية عن الكون والحياة والأحكام التشريعية المطلوب إقامتها في الدنيا ؛ والتحذير من الإعراض عن شيء من ذلك ، تحت طائلة العقاب العظيم المتوعد به في يوم الميعاد ...

الآن ، وقد استيقنت كل هذا ، هل يخالجك أدنى شك في أن الحاكم إنما هو الله وحده وأنه صاحب السلطة التشريعية في الكون ؟ وهل يمكنك أن تنكر ذلك فتزعم أن الحاكمية في هذه الدنيا إنما هي للإنسان وأنه هو المشرع لنفسه ، ثم تجمع بين هذا الإنكار وبين الإيمان بكل هذه الحقائق التي سلف ذكرها ؟!..

لا أظنك قادراً على أن تكابر لتزعم أن بإمكانك أن تجمع بين ذلك الإنكار وهذا الإيمان ، ولا أظن أن أحداً من العقلاء الذين يصدّقون مع أنفسهم يفعل ذلك .

إذاً ، فالحاكمية إنما هي لله وحده ، هو المشرع لعباده في شتى شؤونهم المتعلقة

بدنياهم وآخرتهم وهو المرجع في حل كل مشكلة من مشكلاتهم وإقامة كل تنظيم ودستور لحياتهم . ومن جحد ذلك فهو كافر بالله ورسوله وإن ادعى بلسانه الإيمان بالله ورسوله وصلى وحج وصام . قامت على ذلك أدلة العقل والنقل من الكتاب والسنة وتم على ذلك إجماع المسلمين كلهم .

وحسبنا أن ننصت معاً في تقرير هذا الحق ، إلى هذه الآيات من كتاب الله تعالى :

﴿ أَلَم تَرَ إلى الَّذينَ يَزعُمونَ أنَّهُم آمَنوا بِما أُنزِلَ إليك وَما أُنزِلَ مِن قَبلِكَ يُريدونَ أَنْ يَتَحاكَموا إلى الطَّاغوتِ وَقَد أُمِروا أَنْ يَكفُروا بِهِ وَيريدُ الشَّيطانُ أَنْ يُضِلَّهم ضَلالاً بَعيداً . وَإذا قيلَ لَهُم تَعَالوا إلى ما أَنزَلَ اللهُ وإلى الرَّسولِ رَأَيتَ المُنافِقينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدوداً فَكَيفَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ بِما قَدَّمَت أيديهِمْ ثُمَّ جاؤوكَ يَحلِفونَ بِاللهِ إنْ أَرَدْنا إلاَّ إحساناً وَتَوفيقاً . أولئِكَ الَّذينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في قُلوبِهِم فأعْرِضْ عَنْهُم وَعِظْهُم وَقُل لَّهُم في أنفُسِهِم قَولاً بَليغاً . وَما أَرْسَلنا مِن رَّسولٍ إلاَّ لِيُطاعَ بِإذنِ اللهِ وَلَو أَنَّهُم إذ ظَّلَموا أنفُسَهُم جاؤوكَ فاستَغْفَروا اللهَ واستَغفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ لَوَجَدوا اللهَ تَوَّاباً رَّحيماً . فلا وَرَبِّكَ لا يؤمِنونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَينَهُم ثُمَّ لا يَجِدوا في أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيتَ وَيُسَلِّموا تَسليماً ﴾ [النساء : ٦٠ ـ ٦٥] .

ذلك أن الله عز وجل ، قضت مشيئته أن يجعل من كونه هذا مظهراً لألوهيته وصفاته . فقضى أن يكون بعض هذا الكون مظهراً لذلك بمجرد الخلق والإيجاد ، كالذي نراه من خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان وما أودع فيه من فكر وعقل . وقضى أن يكون بعضه الآخر مظهراً لذلك بواسطة الأمر والتكليف يخاطب بهما العقل والإرادة ، وهو ما تراه من تشريع الله تعالى ونظامه اللذين ألزم بهما عباده ليقيموا دولته في الأرض على أساسهما . وجميع ذلك ، بقسميه ، مظهر لألوهية الله وعدالته وعلمه ورحمته وشديد عقابه ، والكثير من

صفاته . وكل ما يقع في الكون من التهارج والظلم والشقاء ونذر الفتك والدمار ليس إلا نتيجة لإعراض الإنسان عن حكم الله تعالى ونظامه التشريعي اللذين استودعهما لدى الإنسان واستأمنه عليهما ليقيم دولة الأرض على أساسهما ويسوس الكون بمقتضاهما .

وظيفة الإنسان :

وإذاً فما هي وظيفة الإنسان في الدنيا تجاه هذه الحقيقة الثابتة ؟ إن وظيفته التنفيذ فقط !.. إنه مسؤول عن تنفيذ كل حرف من القانون الذي أنزله إليه وألزمه به ، لا يجتهد في ذلك إلا حيث أمره بالاجتهاد ، ولا يلجأ إلى شورى في الرأي أو الحكم إلا حيث لا نص صريحاً في كتاب ولا سنة وحيث لا إجماع .

وهذه الوظيفة هي المعنيُّ بممارسة العبودية لله عز وجل . والخروج عنها أو التمرد عليها هو التأله والطغيان بعينه . إذ الإنسان عندما يُعرِض عن وظيفته التنفيذية هذه ليعكف على وضع تشريع آخر لنفسه إنما يخرج بذلك عن سلطان ربه ويحاول التحرر عن عبوديته له ، ثم يُشرك نفسه معه في التشريع والحكم !..

وللمنافقين في هذا الصدد مخرج عجيب وطريف !.

إن أحدهم ليقول : إنما كلف الله عباده بإقامة شريعة الحب والعدل والابتعاد عن مطارح الظلم والجور .

فعلينا أن نخط السبيل إلى هاتين الغايتين كما نرى وكما يقتضيه الظرف والمصلحة . أي إنه يقول : إن الله كلفنا بالغاية فقط ، أما الوسيلة إليها فنحن الذين نختارها ونضعها .

ولعمري إن جميع أمم الأرض من شرق وغرب منفذون لأمر الله قائمون بحكمه على هذا الأساس من الفهم : فما من أمة مؤمنة كانت أم كافرة وملحدة إلا وهي تزعم أنها تتوخى في مذهبها وتشريعها تحقيق العدالة كأحسن ما تكون العدالة ،

وإقامة دعائم السلم كأفضل ما يكون السلم ، وما تفرقوا عن بعضهم إلا في اختيار الوسائل والمناهج ، وإنما ذلك شيء تركه الله لاختيار عباده على حد زعم المنافقين !!..

ولكن المسلم الصادق لا يقول هذا ، بل لا يتصور كيف يفهم هذا .

إن الله عز وجل لم يلزم عباده بالغايات إلا من حيث ألزمهم بوسائلها ولم يكلفهم بالأهداف إلا من حيث كلفهم بالسير في مناهجها ، والعدالة ليست ما يخترعه الإنسان بما يتخذ إليه من وسائل ، ولكنها الغاية التي يصل إليها من وراء السير في شريعة الله تعالى وحكمه .

واعلم أنه لا ينجي الإنسان عن مسؤوليته تجاه تحقيق هذه الوظيفة أن يكون متعبداً كثير الصلوات والنوافل والأذكار . فإن ذلك كله هباء لا قيمة له إذا كان يعتقد أن للإنسان أن يشرع لحياته ما يشاء ، أو إذا كان يعتقد أن في أحكام الله وأوامره ما لا يصلح عليه حال الناس اليوم . لقد اجتمعت كلمة المسلمين كلهم ، بناء على قواطع الأدلة ، أن مثل هذا المعتقد مرتد خارج عن دائرة الإسلام .

معذرة كاذبة :

ويعتذر آخرون عن إعراضهم عن تشريع الله ، بأنه تشريع غير صالح للتطبيق ، وبأن التاريخ برهن على أنه غير صالح ، ويشرحون برهانهم التاريخي هذا بقولهم : إن المجتمع الإسلامي لم يتحقق كما يريده الإسلام خلال التاريخ الإسلامي كله إلا حقبة يسيرة من الأزمنة المتفرقة ، هي بضع سنوات من آخر حياة النبي ﷺ إلى نهاية خلافة عمر بن الخطاب ، ثم سنوات يسيرة من عهد عمر بن عبد العزيز . أما ما بين ذلك وما بعده فقد كان الإسلام عاجزاً عن عرض نفسه وبسط سلطانه !..

وهذه معذرة كاذبة ليس لها أي ظل من الحقيقة والواقع .

وإنما غاب عن المعتذرين بها أنها كذلك ، من أجل أنهم لا يحبون أن يروا الإسلام ذات يوم قابلاً للتطبيق أي إنهم يبغضون المنهج الإسلامي قبل أي بحث أو اعتذار ، بحيث لو قيل - وهم يعتذرون بمعذرتهم هذه - إن نظام الإسلام سيطبق ويعمل به عما قريب دون أي مشكلة أو حرج ، لنادوا بالويل والثبور ، لأن نظامه سيصبح إذاً ممكن التطبيق لا نظرياً مجرداً كما يؤكدون ...

ولكن كذب هذا الاعتذار واضح رغم أنهم يغمضون العين عن ذلك لما ذكرنا .

إن المجتمع الإسلامي ظل قائماً منذ أن أقامه رسول الله ﷺ خلال معظم عمر التاريخ الإسلامي : ظل الحكم والمجتمع الإسلامي قائمين في عصر الصحابة والتابعين وفي عهد الأمويين ثم عصر العباسيين ، وبقي ممتداً إلى صدر من عهد الخلافة العثمانية ، وذلك في سير متصل غير مقطوع ولا متجزء ولكن قيام المجتمع الإسلامي شيء ، والعصمة من الذنوب والآثام شيء آخر .

أما قيام المجتمع الإسلامي ، فهو أن يكون القضاء العام فيه قائماً على أساس حكم الإسلام وشريعته ، وأن تكون الصبغة الإسلامية ممتدة على مختلف مرافق المجتمع وأسواقه ومظاهره ، فلا يُتعامل فيه بالربا ولا تظهر فيه الخمور ، ولا يجاهر فيه بشيء من الفواحش ، ثم أن تكون شعائره الدينية كاملة منطلقة دون أي قيد . وهذا كله كان مطبقاً خلال التاريخ الذي ذكرناه ، يعلم ذلك من كان له أدنى بصيرة ثقافية بتاريخنا الإسلامي ووقائعه .

وأما العصمة من الآثام والذنوب فهي شيء لم يتحقق في عصر صحابة ولا تابعين ولا في أي عصر من قبل ذلك أو من بعده وهو شيء لم يشرطه الله عز وجل لإقامة الحكم الإسلامي وتنفيذ شريعته ، بل اقتضت حكمة الله عز وجل أن يظل الإنسان خطّاءً غير معصوم - حاشا الرسل والأنبياء - ينحرف مرة فيتوب

ويستره الله ، وينحرف أخرى فيفتضح أمره ويقام عليه الحد أو ينفذ فيه القصاص .

وقد زل أناس من الصحابة أنفسهم فأقيمت عليهم الحدود ، وكان في الناس ، على امتداد عصر التابعين والأمويين والعباسيين من انحرفوا إلى ارتكاب بعض المعاصي ، ووجد فيهم من مال إلى بعض الشهوات والأهواء ، وكان تحت جنح الظلام وفي ضمير الخفاء بعض الذنوب والآثام ولكن سبب ذلك كله ، أن الناس جميعاً ، ملوكاً كانوا أم رعايا ، غير معصومين ولا منزهين ؛ وليس سببه أن الحكم الإسلامي لم يكن قائماً وأن شريعة الإسلام لم تكن منفذة .

حجة من التاريخ المفترى :

على أن أكثر ما يعتمد عليه هؤلاء (المعتذرون) من معلومات في تراجم كثير من الخلفاء أو العصور ، أقاويل مختلقة كاذبة ، دسَّها عن قصد وعمد أعداء ديننا وتاريخنا الإسلامي ، تحقيقاً لما وظفوا أنفسهم فيه من دراسة تاريخنا الإسلامي وكتابته طبقاً للخط الذي رسموه .

وأي عربي ـ مسلماً كان أو غير مسلم ـ يكون كريماً على نفسه ، حراً عن العبودية لغيره ، ثم يرضى أن يعرض عن الطبري وابن الأثير والمسعودي وابن خلدون فيما يتحدثون به عن تاريخنا وتراجم خلفائنا طبقاً لمنهج الرواية والسند ، ثم يصيخ السمع في استكانة وخضوع إلى ما يقرره في ذلك فيليب حتي ، وفان فلوتن ، وغولد زيهر ، وفون كريمر ؟!.

أكثر ما في ذهن الناس اليوم من تراجم خلفائنا وصور تاريخنا ، مما يتمسك به هؤلاء المبطلون ، ليس إلا من نسيج هؤلاء الأعداء وافتراءاتهم ، ومهما بحثت لها عن جذور أو شواهد في المصادر العربية الأصلية فلن تعثر على شيء .

اقرأ أخبار الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وما يتعلق بمقتل عثمان

رضي الله عنه في كتب التاريخ العربية الأصيلة ، ثم عد فاقرأ هذه الأخبار كما صاغها وكتبها المستشرقون والأوربيون لترى التناقض المذهل ، والافتراء العجيب .

واقرأ ترجمة هارون الرشيد في الطبري والمسعودي وابن الأثير ، تجد نفسك أمام عابد متنسك آلى على نفسه أن يهب حياته كلها للجهاد في سبيل الله وإقامة دولة الله في الأرض ، يغزو عاماً ويحج عاماً ، يصلي في اليوم والليلة مائة ركعة مالم يعتلّ بعلّة أو يكن مشغولاً بغزو لا يقطع بأمر في مسألة إلا بعد أن يلقى بها العلماء ويطمئن إلى حكم الله فيها ، وتجده مع كل هذا غير معصوم قد يجتهد فيخطئ ويغضب فيأثم ويعصي ثم يتوب .

ثم اقرأ ترجمته في كتب هؤلاء الموظفين تجده رجلاً آخر : لا يستفيق من المجون واللهو ، يعيش بين دنان الخمر ، يظل متقلباً في حياة الترف والنعيم !...[1] .

فأيها نصدق ، صاحب الدار ومالكها ، أم السارق المتلصص إليها ؟

---

(١) لن تجد شيئاً من هذا كله في أي مصدر من المصادر التاريخية العربية الأصيلة . وإنما نجد عكس ذلك تماماً .

ومعذور كل العذر هؤلاء الأوربيون الذين يصورون حياة هارون الرشيد بهذه الصورة ، فهم ليسوا إلا أحفاداً لأولئك الرومان الذين جند الرشيد حياته كلها في سبيل سحق كيدهم وإخضاعهم لحكم الدولة الإسلامية ، وهم ليسوا إلا أحفاد مليكهم (نقفور) الذي أراد أن يتمرد على نفوذ الدولة الإسلامية وحكمها في عهده وأرسل إلى الرشيد يهدده ويتوعده ، فكتب إليه الرشيد : من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما ترى لا ما تسمع ، ثم انطلق إليه في جيش جرار على طريق مفروشة بالثلوج مملوءة بالصقيع والأعاصير حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم وقاتل حتى خضع له نقفور وطلب منه الموادعة على خراج يؤديه كل عام . فلما رجع الرشيد ووصل إلى الرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق يائساً من رجعة الرشيد إليه ! إذ كان البرد شديداً والثلوج تهمى على طول الطريق ، ووصل الخبر إلى الجند فكتموه عن الرشيد إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم ولكنه ما لبث أن علم الخبر =

أما العقل والعلم والكرامة والشرف ، فيقول كل ذلك : إن الـذي يصـدق هو مالك الدار .

وأما الجهل والضعة والهوان ، فيقول كل ذلـك : بل الـذي يصـدق هو اللص المحتل لساحة الدار ! .

☆ ☆ ☆

هذا شيء ، وشيء آخر نقوله : هو أنّا نفرض أننا نملك تـاريخـاً آخر غير هـذا التاريخ العظيم الذي نملكـه . ونفرض أن رجـال هـذا التـاريخ المتوهَّم ، لم يقيموا المجتمع الإسلامي ولم يطبقوا شريعة الله وحكمه ، فأي شبهـة في ذلـك تخـدش الحق الذي قام به دليل العقل وبرهانه القاطع ، على وجود الله ووحدانيته وعلى إرسـال الرسل والأنبياء وتكليف الناس عن طريقهم ، باتباع حكم الله والتزام شرعه ؟

ولنفرض أنك اكتشفت حقيقة من الحقائق ببرهانها القاطع الذي لا يرد ، ثم رأيت الناس كلهم من حولك غير شـاعرين بهـا ولا مستيقنين لهـا ، أفيكون واقع هؤلاء الناس من حولك إبطالاً ونسخاً للعلم الذي استقر في رأسك ؟! .

وإذا كنا نرى اليوم أمماً كثيرة من حولنا لا ترضى أن تؤمن بالإسلام بل تأبى إلا أن تسيء إليه وتتربص به ، أفيعتبر ذلك عيباً في الإسلام نفسه ودليلاً على عدم صلاحية تطبيقه أم يعتبر عيباً فيمن كفر وأهمل وأساء ؟

= بعد ذلك ، فقال . أو قد فعل نقفور ذلك ؟ وكر راجعـاً في أشـد محنـة وأعظم كلفـة ، ثم لم يبرح يغزو ويقاتل حتى بلغ ما أراد . فهذا هو الترف والتنعم اللذين يعرفهما التـاريخ العربي في ترجمـة الرشيد !..

ولكن ماذا عسى أن تكون ترجمة هذا الخليفة على ألسنة أحفاد نقفور اليوم ؟ وأي عـاقل يرجو أن يكونوا أقل افتراء عليه مما يقولون ؟

إلا أن العجب كل العجب ، في مظهر هؤلاء الذين يصطنعون المبـاهـاة بمـا يشـاؤون من القوميـه والوطنية أو العروبة ، ثم يلوون الرأس والعقل في خضوع منكسر لحكم الحقد الـذي ينفثـه أحفـاد نقفور اليوم على التاريخ العربي وعلى أعظم وأعدل خليفة من خلفاء العصر العباسي !..

أما العقل فيقول في أبسط ما يحكم به : إن العيب فيمن كفر وأهمل وأساء ، بعد أن تبين بالدليل القاطع صدق العقيدة الإسلامية ، وعلى العاقل أن يكره تلك الإساءة وينتقدها ويحذر الناس من الوقوع في أحابيلها وأذاها .

وأما واقع هؤلاء (المعتذرين) فشأنه كشأن صاحب العين الحولاء تراه ينظر إلى الظالم ثم ينحط في هجومه على المظلوم ، ويحملق في وجه المسيء ولكنه سرعان ما يمسك بتلابيب المُساء إليه .

وإنه للحول بذاته ، في العين والعقل معاً ، أو هو (تحاول) مصطنع ابتغاء التشفي وطلباً لستر الحقد والنفاق المستحكمين في القلب .

ولكن ما فائدة كل ذلك ؟ ما ثمرة ذلك والمسألة خطيرة كل الخطورة ، والأمر متعلق بالمصير ، المصير الواحد الذي يجثم خلف سجاف الموت لكل فرد من أفراد البشر ؟! ..

إنه عبث .. ولا عبث الصبيان والمجانين ! ..

وإنه لغفلة .. ولا غفلة السكارى والسادرين ! ..

ألا إن الطريق واحدة ، والمصير واحد ، والنهاية محتومة وقريبة ، وليس من أمل في الإيقاظ لخطورة الأمر إلا عند صوت العقل وحده .

فاجهد ما وسعك الجهد في أن تتسمع إلى هذا الصوت وحده ، متميزاً عما في نفسك من ضجيج الشهوات والأهواء ، ونداء البيئة والتقاليد وتشويش العقد النفسية ، وصراخ الكبر والعصبية . فإنك إن تبينت صوت العقل وحده في زحمة هذا الضجيج ، انتهى الإشكال وزالت عنك الغاشية واكتشفت الحقيقة الكبرى وشعرت بأهميتها وخطورتها . وعندئذ تغذُّ السير في الطريق الحق لا تلوي على أحد

أما إن أبيت إلا استسلاماً لزحمة الأصوات التي تعج خلف أذنك وتتفاعل

أصداؤها داخل نفسك ، ما بين شهوة تعتلج بين جوانحك ، وردود فعل تعيش آثارها في كيانك ، ووحي بيئة وتقاليد تطوف حول نفسك ، وعصبية مستحكمة تصيح داخل فكرك ـ فستُمضي بضعة أيام أخرى وأنت غافل مستمتع بهذا المزيج من الحداء الخادع ، ثم سرعان ما تصحو في لحظة مفاجئة إلى حديث العقل وحده حيث تنقطع عنك الأصوات الأخرى كلها ويهدأ الضجيج من حولك . ولكنك ستنظر ، وإذا الأوان قد فات ! ..

☆ ☆ ☆

أخي الإنسان : حاول جاهداً أن تتأمل كلامي بمحض عقلك حاول أن تبعد عن نفسك قليلاً ـ وأنت تتسمع إلى ما أقول ـ آثار العقد التي في نفسك ، ووحي البيئة والتقاليد التي عاشت من حولك ، ودوافع الرغبة النفسية التي تحاول أن تغشّي على تفكيرك .

إذا فعلت هذا ، فستوقن أن كل هذا الذي عرضته عليك في هذا الكتاب حق لا مريّة فيه ولا غبار عليه ؛ وستوقن أن عليك أن تستعد وأن تطوي حياة وتبدأ غيرها . ولكن قد تعتذر هنا بأنك لا تستطيع .. نفسك متغلبة عليك ، لا تملك السيطرة عليها .

والحل عند هذا يسير ...

إن الأمر لا يستلزم أكثر من أن تقبل إلى هذا الخالق الذي آمنت بوجوده وعظمته ، فتعرض عليه عجزك هذا ، ولا تبالْ أنك تقدم عليه ملوثاً برواسب كثيرة من الأدران فإنه لكريم غفور معطاء . قل له في مناجاة خاشعة صادقة ، في خلوة ليس بينك وبينه فيها أحد :

إلهي وخالقي : ها أنذا اهتديت إلى عظيم سلطانك بعد طول ابتعاد وشرود ، آمل بالتوبة وأشكو من العجز ، أطمع بالمغفرة وأعاني من الانحراف ،

أحن إلى الطهر وأنا ملوث كما ترى بالأدران . ولكن إيماني بك ساقني إلى رحابك ، ورجائي في عفوك أطمعني بقرع بابك ، ومصيري إليك أبعدني عمن سواك .

إلهي وخالقي : اجعل من عبوديتي الضارعة بين يديك شافعاً لعظيم ما فرطت في حقك ، واجعل من آلام قلبي اللاهف إليك كفارة لسوء ما أعرضت عن هديك ، وانظر بعظيم لطفك وجودك إلى ذل انصياعي إليك وإلى ارتجاف يديّ الشاكيتين لك .

إلهي : لقد صحوتُ إلى عبوديتي وذلّي بعد أن اهتديتُ إلى ألوهيتك وعظيم سلطانك . فوالهفي من قيود تثقلني عن اللحاق بركب الطائعين وتشدني إلى البقاء في وادي التائهين ، وما أشد خوفي من أن يحيق بي عقابك فأرتد إلى ضلال النسيان بعد أن أوليتني هداية التنبه والذكرى ، ثم لا أصحو بعد ذلك إلا على سوء المصير الذي لا مرد له .

إلهي : جئت إليك ألوذ بك منك ، وأعوذ من أليم عقابك الذي أنا له أهل ، بعظيم رحمتك التي أنت لها أهل ؛ فررت مذعوراً من سوء نفسي إلى جوار لطفك ، فلا تطردني من جوارك يا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويغفر الذنوب جميعاً . يا أرحم الراحمين .

وأختم كلامي باسطاً يديَّ إلى الخالق جل جلاله متضرعاً عند بابه الكريم أن يستجيب هذا النداء لي ولك ولكل عبدٍ آيب تائب إلى الله . وأسأله وهو الرب الكريم أن يثبتني وإياك على هذه العقيدة فيما بقي لنا من أيام الحياة ، وأن يثبتني وإياك عليها عندما تحيق بنا سكرة الموت ، وأن يجعلها الوارث منا بعد الموت .

اللهم إني أستودعك هذه الحقائق التي أعتقد وأدين بها في حياتي وعند موتي وبعد موتي فاحفظها عليَّ وعلى كل مؤمن ومؤمنة إنك على كل شيء قدير .

☆ ☆ ☆

المسرد التحليلي لأبحاث الكتاب

القسم الأول : الإلهيات

القسم الثاني : النبوات

القسم الثالث : الكونيات

القسم الرابع : الغيبيات

خاتمة ونتيجة

دار الفكر دمشق سورية

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾

العقيدة أساس الإسلام، وهي تقوم على (الإيمان) بوجود الله تعالى ووحدانيته فلا مطمع في تحقيق أحكام الشريعة إلا بعد أن يكون الإيمان بالله تعالى قد وقر في القلب وصدقه (العمل).

لقد اختار الله (الإنسان) لخلافته في الأرض، وسخر له (الكون) وسلحه بالعقل ووسائل المعرفة كي يتمكن من إدارته وعمارته، وائتمنه على هذه الوسائل فحمل (الأمانة) واضطلع بمسؤوليتها دون سائر المخلوقات، واقتضت حكمته تعالى أن يجعل من هذه الوسائل سلاحاً ذا حدين؛ يحسن استخدامه فيفلح أو يسيئه فيبوء بالخيبة والخسران، وأن يجعل الموت و(الحياة) امتحاناً يخوضه الإنسان ويكون (جزاؤه) بعده من جنس عمله إما إلى جنة وإما إلى نار.

ومن المعلوم أن عمل الإنسان فرع من (تصوره)، فعمل الإنسان إنما يكون تابعاً للصورة التي يكونها في ذهنه عن الكون والحياة.

وفي هذا الكتاب يبادر المؤلف بإيضاح منهجه للبحث لتكوين هذا التصور، كي لايختلط العلم بالوهم ولايلتبس اليقين بالظن، ولايُحجب الحق بالباطل. ثم يمضي في بحثه في العقيدة من الإلهيات إلى النبوات إلى الكونيات إلى الغيبيات، مبتعداً عن التوغل في الخلافيات، وفيما فات أوانه وتجاوزه الزمن من التصورات، مفنداً مايصادم العقيدة من الآراء والنظريات، بأسلوبه العلمي الرصين.